

إبراهيم أحمد

# فيثارة

# أجاثا كريستي



رواية



# قِيَّادَةُ أَجَاثَةِ كَرِيسْتِي



# قِيَّادَةُ أَجْاثَا كَرِيسْتِي

إِبْرَاهِيمُ أَحْمَد

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحى أحمد



الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l.



دار عَربٍ للنشر والتوزيع  
AL-ARAB PUBLISHING LLC

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: 2016 م - 1437 هـ

---

ردمك 978-614-01-1943-7

---

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار العرب للنشر والتوزيع  
AL-ARAB PUBLISHING



عمان، تلاع العلي، شارع رافع عثمان  
بنية نصار أبو ركبة  
هاتف: (+961-2) 65548621 – 790343552

## توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل  
Arab Scientific Publishers, Inc. LLC



عين التينة، شارع المفتى توفيق خالد، بنية الريم  
هاتف: 785107 – 786233 (+961-1-785108)  
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050 - لبنان  
فاكس: 786230 (+961-1-786230) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb  
الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

صورة الغلاف لبنت المعيدي لرسام مجهول  
تصميم الغلاف: علي القهوجي

## اختفت أجاثا كريستي في بغداد، وما زال اللقلق في برج القشلة!

استيقظ عالم الآثار الإنجليزي ماكس مالوان صباحاً؛ لم يجد زوجته أجاثا كريستي بجانبه، ولا أمام آلتها الكاتبة في زاوية من حجرتها في الفندق، هرع متلهفاً إلى الشرفة؛ فلم يجدها. قدر إنها سبقته إلى المطعم؛ فقد طال نومه. هي على الأغلب لا تهبط إلى المطعم دون أن يرافقها؛ فيجلسان إلى مائدة الطعام غير متقابلين، بل متجاورين ليتبادلان لقمة أو لقمتين باليد على طريقة العراقيين، فهما قد عاشا بينهم طويلاً، وأخذوا بعض ما وجداه جميلاً من عاداتهم.

لكنها حين تقدر أنه سيستيقظ متأخراً، تهرع وحدها لتجول على شاطئ النهر، ثم تأتي نشيطة تجلس مسرعة إلى الآلة الكاتبة؛ لتدون ما خطر لها من أفكار وحوارات، هي تعتقد أن أهم وأخطر الأفكار، بوليسيّة كانت، أو فلسفية؛ تهل مع الخيوط الأولى للشمس، وحين يكون الرأس خفيفاً لا تثقله معدة ممتلئة. تخشى أن توقظ ماكس تكاثر حروفها المسرعة؛ فتضرب عليها بهدوء ورقة، مستعملة كعادتها أصابع ثلاثة فقط، أو تحملها إلى منضدة صغيرة في الشرفة، وقد تنزل بها لتجلس في زاوية من المطعم قريباً من شباك كبير تتدفق منه شلالات نور عبر النهر، فتستغرق في الكتابة، لا تتوقف حتى ينقطع سيل أفكارها. عند الكتابة تنسى كل شيء حتى ماكس، لا تكرر ث له أن يكون قد نزل وجلس على مائذتها المفضلة، محاذراً الاقتراب منها! كثيراً ما يفتح عينيه في فراشه من حلم جميل ليدخل معها حلماً آخر حين يجد وجهها وهي ترمي بعينين حانيتين تلمع فيهما عاطفة الأمومة والمشاعر

الزوجي. كانت تكبره بثلاث عشرة عاماً تقريباً، كان يفكر وبكلمات مختلفة في كل مرة: هي لا تهبط إليه درجات عمرها بل تأخذه، إلى قمة المرتقى العالي من عمرها كأم حل لها المحرم، فتحتضنه كطفل يحتاج دفتها الجسدي والروحي معاً، وتجعله يطل على الزمن الفسيح من برج عمرها المتقدم، وهو عليه أن يرتقي درجات الزمن من شبابه الفج المتعثر بحجاره السفح وحشائشه؛ إلى ذروة عمرها الغني بالتجارب، كشجرة ثرية بالزهر والثمر.

ويقول لها بصوت خطابي، بعيداً عن همس العشاق:

- هكذا أنت يا حبيبتي أجاجاً، قمة الروح في تألق الجسد، ذروة التجربة في خضم النهر المتدفع، جمر متوجه دائماً حين يحاصرنا الزمن بالرماد! وترد عليه ضاحكة:

- أخشى أن تكون قد أخذت كلماتك هذه من ألواح الموتى!

- إنها من قلبي! وحتى لو اقتبستها من ألواح الموتى؛ فإنها معك ستدخل أوراق العشاق الأحياء المراهقين والمسنين!

وتكتب في يومياتها: "أجمل ما ينبغي أن يتحقق بين الزوجين، هي الرقة الحميمة، أن يضع أحدهما يده بيد الآخر، ويسيران في الحقول الخضراء على أرصفة شوارع المدن حتى لو كانت مهجورة، فيها يتلقى قلباًهما في عناق ساحر أبيدي يتلاشى أمامه الموت، والنسيان".

لم تكن تغادر الحجرة لوحدها إلا حين تتأكد إنه لا يستطيع مشاركتها جولتها الصباحية المبكرة المعتادة على شاطئ دجلة، أو شوارع المدينة قبل أن تزدحم بالمارة والبضائع، ولم تبدد منها رائحة خbiz الأفران المشتعلة مع الفجر. وما تزال بائعتات القيمر والباقلاء المسلوقة جالسات قريباً من أبواب المخابز. لكنها أرادته أن يستمتع بنومة طويلة؛ مقدرة إنه متعب لما بذله من جهد طويل، في التنقيب وفي جرد المستخرج الكبير وتحليل سماته، ووضع فهارسه، وتحديد قيمته التاريخية. بدا صباح بغداد متألقاً يغرى بالتجوال، حاول تهدئة قلقه، ومع ذلك لم يستغرق طويلاً في استحمامه،

فها جس غيابها يلح عليه، ويقلقه رغم عنده. زاد شكوكه إنه وجد غطاء آلتها الكاتبة محكم الإغلاق. حين تستعملها صباحاً تبقيها غير مغطاة بإحكام؛ فهي ستعود للكتابة عليها بعد قليل. جفف شعره الطويل الأشقر، وبسرعة ارتدى ثيابه الريبيعة الأنثقة، بنطلون وقميص وبلوزة خفيفة. وسارع إلى الدرج! هما في الفندق لأنهما ملا السكن في بيت الآثار. أحبا هذا الفندق كثيراً، وصار لهما عشا لأيام عسل متتجدة، اختطا فيه عادات وطقوساً سعيدة. لم يجدها في صالة الطعام، سأله جبرائيل عامل المطعم عنها فأبدى دهشته، قال إنه كان يتضرر هبوطهما فقد أعدوا لهما فطوراً شهياً خاصاً؛ أوصت عليه ليلة أمس. جبرائيل شاب كلداني يحب أجاثاً ويتلهف لتقديم أية خدمة لها فهو مغمض برواياتها المترجمة؛ يعيد قراءتها. ماكس يلمح في نظراته هياماً بوجهها وقامتها المشوقة ويضحك في سره، سأله:

- هل رأيتها تخرج من الفندق؟

هز رأسه باستغراب:

- لا، لم أرها هذا اليوم!

راح يتحقق به، أين تكون أجاثاً الآن؟ هل طارت من الشرفة وراء أحد أبطال روایتها المجنونة المستغرقة بوضع تفاصيلها في رأسها، وترفض أن تحدثني عن تفاصيلها مكتفية بالقول ستكون مفاجأة لك، ستهزك كما لو خاتمة أثرية قديمة مملوءة بجلي ومجوهرات وأخبار ملوك سومر وأشور؛ شعر بشيء من الغضب منها أنها تركت الفندق، دون أن تعلمه. عرض عليه جبرائيل أن يعد له الفطور:

- لا تقلق ربما هي خرجت تسوق بعض الأشياء

كان من عادة أجاثاً، كلما جاءت ببغداد، أن تدخل مكتبة مكنزي، القرية من الفندق، كل يوم، تتصفح الكتب الجديدة، تشتري كتاباً أو كتابين، تسأل عن مدى الإقبال على روایاتها بالإنجليزية، وتتنسم أخبار الكتب وروایاتها في لندن وأوروبا، ثم تذهب إلى الشورجة تشتري أعشاباً وتوابل، تتحدث

أن بعضها تنشط الذهن، تثير الأخيلة الروائية، البوليسية! كيف تبعث الزهور الجافة رؤى الجريمة؟ تقول: ثمة أعشاب وزهور غامضة تدغدغ مناطق سرية في النفس فتوقظ نوازعها الشريرة! لكنها عادة تعلمها أنها ستخرج، وتتركه يتصفح كتبه التاريخية أو سجلاته التي لا يكف عن التمعن بها. طرق يفتش في كل مكان قريب يعتقد أنها ذهبت إليه. ربما هي في جولتها الصباحية على النهر أو الشارع الطويل تتقدّم أزقتها وحواريه في دنيا آمنة لم يسمع حتى الآن عن تعد على الأجانب فيها. أكثر من ثلاثة ساعات وهو بين انتظار وتطلع، وعودة للبحث، مع عمال الفندق الذين قلقوا وجدوا في البحث معه دون مشدوها. وجد نفسه في يأس، وإعياء شديد. داخله هاجس رهيب أن زوجته قد اختفت تماماً، وربما اختطفت! وعليه أن يسارع لإعلام السلطات العراقية، والسفارة البريطانية بذلك، ودون إبطاء آخر، ولكن فجأة أزاح هذا الخاطر الرهيب عن ذهنه، لا! هي بخير، وثمة التباس ما قد حصل لها جعلها تتأخر، وستعود، ما عليه سوى أن يتظر!

حل ماكس مالوان وزوجته في فندق تايكر بالاس، منذ ليلتين، كانا قد نزلَا فيه مراراً على مدى سنوات، كلما جاءا إلى بغداد يقصدانه كأنه بيتهما الآخر. يعد الفندق من أرقى فنادق العاصمة، فهو جميل وأمن وخدماته حيّدة وممتازة، يقع في شارع الرشيد، قلب بغداد، والذي يضج نهاراً وليلاً بخطى وأصوات المتراغمين على غایاتهم الكثيرة المتلاحقة!

فتح الوالي العثماني خليل باشا، هذا الشارع لينطلق جيشه منه ويواجه الجيش الإنجليزي القادم من الجنوب، بعد فترة قصيرة كان الإنجليز يدخلون منه إلى بغداد، شيدوا فيه سفارتهم وشجعوا على ملئه بالفنادق ومقرات شركاتهم! وبسرعة صار يتعجّل الإنجليز وأصدقائهم من الدول الأخرى الذين وجدوا في البلد الكثير مما يغرّ للاستثمار، ومقاييسه مصنوعاتهم من السيارات والنسيج والأدوات الكهربائية والمشروبات الكحولية، بالكثير من

الحبوب والجلود والتمر. وبعد بداء الشركات الإنجليزية استثمارها لنفط البلاد الغزير صارت أضواء هذا الشارع لا تنطفئ إلا حين يسطع ضوء الشمس. كان فندق تايكير ضخماً، يأخذ الجانب المحاذي للنهر من الشارع، بنته دائرة السكك الحديدية، على النمط الإنجليزي، حجراته واسعة بسقوف عالية، وشرفات واسعة تطل على دجلة. طابقه السفلي يشغله البهو، ومطعم كبير، وببار يصاهي بارات فنادق أوروبا برفوفه المكتظة بزجاجات الخمور الفاخرة، والسيجار المتنوعة، مما يوحي إنه قد أفلح في انتزاع نفسه من جاذبية هذه الأرض المزданة بالقباب والمآذن! تولاه مستمر عراقي، لكنه ظل يحمل نقش التاج الملكي الذهبي على أطباقه وكؤوسه وملاءقه!

وأن تختفي امرأة إنجليزية فجأة من هذا الفندق المحاط بعساكر الإنجليز ودبليوماسيهم ورجال مخابراتهم، فهو تحدي سافر لهيبة بريطانيا وضربة موجعة لنشاطها الاقتصادي وطموحاتها في هذا البلد! آخر مرة رأى ماكس فيها أجاثا حين كانت واقفة في شرفة حجرتها في الطابق الثاني والمطلة على النهر، بثوب النوم الوردي الرقيق؛ تستمتع بفجر ربيعي يصعد سماء بغداد محظيناً قرص الشمس؛ متوهجاً ببطء، وثمة ضباب خفيف يتتصاعد من الماء، وصفوف النخيل تمتد كذراع طويلة تبتهل بخشوع للسماء، ففرح أنها تحلق كما في كل فجر مع سعادتها الشرقية الغامرة. هي كما تقول تقرأ في سماء بغداد تاريخ الشرق، وتستلهم منه أطياف وأشباح روایاتها، تلك متعتها العميقية. كانت تقول له دائمًا: "أعظم متعة يجنيها الكاتب؛ هي ابتداع حبكات روایاته ومسرحياته، وأحلامه الليلية" عندما رأها ماكس في الشرفة؛ كان خارجاً من الحمام شاعراً أنه لا يزال مرهاً ناعساً؛ فعاود النوم مسرعاً. يتذكر إن ذلك كان في الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف، كانت مولية ظهرها المتبين الطويل لباب الحجرة المفضي إلى الشرفة، لم تشعر بحركته، أو أنها قدرت أنها عادية، وتعلق بحاجته إلى الحمام، وسيعاود النوم، فبقيت على وقفتها ساهمة، مستغرقة في تطلعها السماوي. كانت تعرف أنه في الليلة

الفائتة قد آوى إلى فراشه متأخراً، بعد يوم عمل طويل جداً، هو يريد تسليم كل شيء وتبئنة ذمته من تراب الآثار، ورائحة الموتى القدامى، فكرا بسفرة إلى أعلى الفرات قبل سفرهما إلى حلب. حيث سيبدأ حملة تنقيب طويلة في أرضها الغنية بالكنوز الهامة. قرر ماكس أن يذهب إلى بيت الآثار على تكون هناك، نسيت بعضاً من أوراقها أو كتبها، أو لج بها شوق إليه رغم أنها لما يغادرها سوى قبل يومين، فأحمد العارس ما زال هناك ولم تبدأ إجازته بعد. قال لجرائيل:

– سأذهب إلى بيتنا في الكرادة، إذا عادت أجاثا لا تدعها تخرج، قل لها أن تنتظرني!

ماكس يسمى بيت ومخزن الآثار "بيتنا". هو بيت قديم مكون من طابقين على الضفة الثانية من النهر، يطل على دجلة في الكرادة، خصص لإقامة الآثاريين الأجانب، وهو وأجاثا وزملاؤهما يستعملونه للاستراحة أيضاً، كلما قدما من الموصل، كما إن إدارة المتحف الوطني جعلت جانبها منه مخزناً لما يأتي من لقى وألواح أثرية تستخرجها فرق التنقيب في وادي نينوى، أو بابل وأور. يقيم فيه ماكس وأجاثا أحياناً حفلات شاي لزملائهم. ورغم إن البيت واسع ومريع ولا يكلفهم شيئاً، إلا إنهم أحياناً ينتقلان إلى فندق تايكرو أو "ريجينت"، أو "زيا" ليقيما بعيداً عن رائحة الآثار، ويعيشان أجواء سياحية يختلطان فيها بمسافرين رائجين غادين من بلدان العالم. أرادا قضاء استراحة قصيرة في الفندق ينقطعان فيها عن أجواء العمل، ريشما يتوجهان إلى حلب بدء حملة تنقيب أخرى، في وادي الرافدين! الفندق يجعلهما يشعران أنهم في إجازة، لكنه عاد يتمتم: "أوراق الكشوفات التي حملتها معى لم تجعلنى أشعر بالإجازة، وجعلتني أغفل عن أجاثا، ولا أدرى ماذا حصل لها!" كان ماكس الدقيق في شئونه متاكداً أنهم حملوا من البيت كل مقتنياتهم الشخصية. ومع ذلك قال ربما لأجاثا حاجات صغيرة نسيتها هناك، خرج مسرعاً. سار في شارع الرشيد متلتفتاً، متطلعاً في الوجوه. كان الشارع قد بدأ يزدحم، أغلب

المحلات فتحت أبوابها، عرج على مكتبة مكتزي، وجد الشاب فريد، وهو كردي فيلي، آلت المكتبة إليه بعد موت صاحبها الأسكتلندي، ويود ماكس وأجاثا. قال انه لم ير أجاثا هذا اليوم، مضيفا:

- وصلتني روایات جديدة لها، مساء أمس!
- هي ستر كثيرا بذلك.

قالها ماكس كأنه يهدى نفسه. جال في الشورجة. لم يجدها، قرر عبور الجسر مشيا عليه يصادفها في الطريق، فهي مولعة بالتجوال في نواحي بغداد القديمة تتأمل الجدران المقرنصة، قباب المساجد، الأسواق المكتظة، تتنسم رائحة الخضر والفاكهه. تجد بدخان الشواء المتتصاعد من أسياخ لحم الضأن على الجمر كما تقول "رائحة الطعام الأول الذي أعده الإنسان دون تزويق ولا تعقيد". رأى ماكس أن ملامح الفاقة والحزن في وجوه الناس توحي بطمأنينة، لم ير فيها سمات وحشية قد تكون آذت أجاثا. نزل إلى الشاطئ، طالعه المجرى ممتلئاً عكرا، كان دعبول وقاربه الرشيق أمامه، ملاح ماهر يعبران معه دجلة عادة، يسليهما بحكاياته وغنائه الشجي، رغم فقده لولده قبل عام، هو أيضاً مغرم بأجاثا، (ومن يرى أجاثا؛ ولا يغرم بها؟)، هي رغم بلوغها التاسعة والخمسين هذا العام، لكنها تبدو في الأربعين، امرأة ناضجة جذابة، يقول ماكس لها:

- كلما رأيت رسومات وأيقونات إلهات وملكات وادي الراافدين أتخيلك واحدة منهم، جئت لعصرنا لتكوني إلهة الرواية، فيكتمل مجلس الآلهة!  
- حتى في غزلك تبقى رجل آثارا!

ويضحكان، ويمرحان! هل سيضيع كل ذلك؟ هل اختفت أجاثا نهائيا؟  
كان دعبول يعني مثبتاً عينيه على وجهها، يعني لها وحدها، وأنا أضحك في سري من هذا الرجل الخمسيني، الأسمر الطويل النحيف. كأنه اليوم في انتظاري:

- هل عبرت أجاثا معك اليوم؟

- لم أرها هذا اليوم، أنت تدربي، رؤيتي لها تعني صيدا وفيرا، وزبائن أكثر، رغم إنهم لا يعطونني شيئاً، السمك يعطيوني نقوداً أكثر من الناس! انطلق تارة يلقي نكات، وتارة يعني، يريد أن يؤنسه. لم يكن لخياله مهما اشتبط أن يتوقع ما يعانيه ماكس الآن. ماكس درس العربية، ويتكلمها بلهجة عراقية، لكنه لم يكن في مزاج يستطيع به مجاراة دعوبول في ثرثرته اللطيفة، لا يوجد يوم يحتاج فيه هذه اللغة مثل هذا اليوم، حتى لتبدو له أجائنا مختبئة داخل هذه اللغة التي مهما تعلمتها فهو لا يجيدها تماماً ولا يعرف كيف تصير طلاسم على أفواه أهلها، وجداراً سميكاً بينه وبينهم! أيمكن للغة أن تختطف امرأة غريبة وتغييها داخلها؟ وأية امرأة؟ أجائنا كريستي؟ التي طالما اختطفت هي نفسها أناساً كثيرين وطاحتهم وعجّتهم برواياتها داخل مصائب شتى، ثم تكشف الحقيقة بعد طول معاناة وترقب! ارتقى جانب النهر مسرعاً. وتلقفته الصدمة من باب البيت الكبير! كان موصدًا من الخارج بصفحة حديدي طويلة على شكل سيف، وبمقابض متينة ما يؤكد أنه أُقفل من قبل الحراس، ولا أحد في داخله. الباب الخشبي الكبير المرصع برؤوس مسامير ثقيلة يقف أمامه كأول أمل يتهاوى ويوجي أن اختفاء أجائنا أصعب مما تصور. خرج عليه رجل أشيب من البيت المجاور

كان يعرفه، قال:

- الحراس سافر إلى أهله في الشرقاً!

- متى؟

- ظهر أمس، أعلمك إنه سي SAFER صباح هذا اليوم لقضاء إجازته مع عائلته! مضيفاً وهو يتلمس معه صفحة الحديد الطويلة التي تزنر الباب من الخارج:

- هو الذي قفله، ولا أحد في البيت طبعاً!

- ألم تر أجائنا؟

هز الرجل رأسه نافياً، متطلعاً في وجهه مستغرباً. عاد ماكس إلى الشاطئ،

شاحبا، ظل دعبول في انتظاره:

- أجايا اختفت يا دعبول!

ضحك دعبول مطمئناً:

- لا تخف بلدنا آمن، أنظر هناك إلى اللقلق فوق برج القشلة، ما دام هو هناك يطل فوق بغداد فإن أجايا بمأمن وبخير!

بنية القشلة على ضفة الرصافة، قلعة عسكرية تركية قديمة، أصبحت اليوم تضم دواوين وزارات، ابتنى على برجها وفوق ساعتها الكبيرة لقلق عشا يرى من بعيد: كان اللقلق واقفا في عشه كالأمير، حاول ماكس أن يطمئن. ركض باتجاه الفندق عل أجايا تكون قد عادت. وجد أمامه نظرات جبرائيل الفارغة المتسائلة! هرع إلى تلفون الاستعلامات، اتصل بمسكن صديقتها عائشة السلام، متوقعاً أن تكون عندها، دهشت حين عرفت:

- لا أدرى أنكم في بغداد، كيف تأتيان ولا تخبرانني!

لم يمض ماكس معها في عتها، وجده ثقيراً، بينما أجايا قد اختفت، عائشة تصوره مجرد غياب قصير وتفاوت بينهما حين أكد لها جدية اختفائها، قالت:

- سأقلب الدنيا؛ حتى أجدها، أجايا ليست للإنجليز فقط، هي لنا نحن العراقيين وللإنسانية كلها!

كلما أراد أن يطمئن أحس بشيء ثقيل غامض يطعنه. أدار رقم تلفون المغنية الحسناء عفيفة اسكندر، كانا قد ترددَا على صالونها، التقا فيها بأدباء وشعراء يتحدثون الإنجليزية. كانت عفيفة يونانية الأصل؛ محبوبة من العراقيين، مقربة من رجال كبار في الدولة، تحب أجايا ومعجبة برواياتها وناقشها حولها، استمعا في صالونها لغنائهما، ولمغنيين وملحنين ببغداديين، طال رنين الجرس لكنه ظل ممسكاً السمعة لا يدرى لماذا خيل إليه أن أجايا عندها، ربما لأن بيته لا يبعد كثيراً عن الفندق، أو لأن أجايا أحببت آلة يعزف عليها الشاب ناظم نعيم في صالونها يقول أنها مستوحاة من القيثارة السومرية،

وبجانبه شعوبي يعزف على "الجوزة"، وقد ذهبت لترتب هناك أمسية موسيقية  
نودع بها بغداد، هل ستسمع من جديد الموسيقى التي أحبتها؟ أم إنها غابت  
دون رجعة؟ جاءه صوت عفيفة تعتذر أنها كانت في الحديقة تسقي زهورها  
وتطعم قطتها، تغير صوتها وشهقت حين سمعت ما قاله ماكس، لكن صوتها  
عاد ببحثه الدافئه:

- أين تكون ذهبت؟ إنها في بغداد، دار السلام، اطمئن، سأتصل بمعارفي  
من المسؤولين وسنجد لها حتماً، لا تقلق!

جلس على أريكة في البهو، تذكر إنهم ليلة أمس تحدثاً عن رغبتهما  
في سفرة إلى أيس في أعلى الفرات، يستعيدان ذكرياتهما فيها، قالت  
أجاثا: الآن أحس رذاذ نواعيرها الناعم البارد يغسل وجهي، أود أن نعود  
نسلم نفسينا للصبيان المتضااحكين يقودوننا كما قبل سنوات وسنوات بين  
بساتينها، ونواعيرها، يشعلون لنا عيون القار، أمد ساقي في مائتها الكبريتي  
الدافئ، نأكل "الذ كباب في العالم" في مطعم حمد، وليتنا نجد الوقت لسفرة  
أخرى إلى الأهوار مع ولفريد ثيسجر المدلل بغرام عجيب لفتاة جميلة تدعى  
بنت المعيدي، لم يلقها ولم يرها، شاهد صورتها فقط. رجل ظريف مثقف،  
لا يمكن معرفة الأهوار دون الاستماع لأحاديثه عنها! كيف نست كل ذلك  
واختفت اليوم؟ لابد أنها تعرضت لحادث خطير!

هناك في بغداد أوراق الحكايات كلها، هل سأجدها يوماً؟ هل سأجد  
بغداد؟ هل سأجد نفسي؟ أم سيكون كل شيء هباء؟

عدت إلى بغداد في شباط عام 2007، بعد إقامة موحشة باردة في السويد  
امتدت ثمانية وعشرين عاماً تقريباً! كان معنى هذا الفصل من الرواية، لم  
أمض في كتابتها هناك؛ توقفت؛ قلت "يجب أن أحصل على تلك المعلومات  
والوثائق المتعلقة باختفاء أجاثا كريستي". كنت قد تركت أوراقي وديعة في  
بغداد لدى أحد أصدقائي عندما نزحت بجلدي من العراق عام 1979. هجرت

عملني في الرواية سنين طوال، حتى كدت أنساها، تذكرتها حين أخذت أحضر نفسي للعودة. واليوم وأنا في بغداد علىي أن أجد أوراقني، وأرى إن كنت أستطيع مواصلة كتابتها.

صديقي حميد الذي أودعته لديه الأوراق عثروا على جثته قبل سنتين في الشارع بين عشرات الجثث، حيث كانوا يجدون كل يوم ما يزيد على مئة جثة ملقاة في شتى الأماكن من بغداد، قتلواه وقد بلغ القتل الطائفي ذروته. حتى الآن ما يزال القتل والاغتيالات والتفجيرات في الشوارع والأماكن العامة متواصلاً، أشخاص يتحوّلون فجأة إلى جث وآرقاء باردة متعفنة مخيفة، يتبعهم المدينة بصمت، دون غصة أو سوء هضم. لكن ليس هذا ما يجعلني أتردد وأؤجل الذهاب إلى بيت حميد، السبب الأقوى هو إبني لا أحتمل أن أجده بيته قد خلا منه، ماذا سأقول لزوجته وابنه الوحيد زيد؟ "جث لأسلم عليكم، وأخذ أوراقني" كم هي كلمات بائسّة أنانية ثقيلة بعد موت صديقي الطيب. كنت بشكل ما، أحس بالذنب أنني من المسؤولين عن قتله، ألم أكن قد شاركت في العمل السياسي الذي قاد في نهاية المطاف إلى هذا الحال المريع؟ لماذا التهرب من الحقائق؟ هل بقيت أوراقني كما تركتها لديه؟ ما تزال كلمات حميد بصوته الواثق الحزين تتردد في سمعي "راح أضمنها لك بقلبي، فقط لا تتأخر علينا؟" هل أنا الذي تأخرت أكثر من ربع قرن؟ أم الدنيا والسماء وقد نسيانا طويلاً؟ عدت إلى البيت الذي كنت أسكنه قبل خروجي من العراق، وأنا في الخارج حرست أن أرسل لوالدي إيجاره، توفيت الوالدة بعد سنتين من رحيله، والآن شقيقتي ليلى أصبحت عجوزاً، وقبل أن أسألها عن أوراقي الأخرى وكتبي حدثني:

- أيام حملات التفتيش، واقتحام البيوت فجراً، أحرق الناس صور وأوراق أبنائهم المهاجرين والمختفين، أو الموتى، ومع ذلك كان من يسمونهم رجال الأمن؛ لا يصدقونهم ويتهمنونهم بالتستر على متآمرين مجرمين، ويؤذنونهم كثيراً

لم يكف رجال الأمن عن التردد على البيت يبحثون عنني، فتولت أختي حرق صوري وأوراقي، لم تطق أمي أن ترى صوري تحترق! منذ سنوات المنفى الأولى كنت أسمع من كثيرين يتحدثون عن صورهم وأوراقهم وقد التهمتها النار بأيدي أحبتهم! كيف أريد لأوراقي لدى حميد أن تبقى؟ وهل ألومه لو عرفت إنه كان قد أحرقها؟ ولماذا أنا مهتم هكذا بكتابة رواية عن اختفاء أجاثا؟ لا يبدو موضوعها لكتيرين بعيداً عن هموم الناس في هذه الأيام الدامية الحالكة؟ لماذا لا أكتب عن حميد الذي وجدوا جثته في كومة جثث في حديقة عامة؟ كثيرون كتبوا عن هذا الموت، وعن الزهور المتعفنة تحت الجثث، حسناً فعلوا، ولكن من قال أن ثمة طريقاً واحداً إلى الجثة البريئة المتهكمة، والأزهار التي لن تنبت بذورها أبداً، بعد أن اختنقت بالدم البشري؟ في روايات أجاثا، شخص واحد يقتل، ويستنفر المحققون والمفتشون للبحث عن الجاني، وهنا آلاف يقتلون وتسجل ضد مجهول، هنا حدثوني بما هزّ بدني: لا القاتل يعرف لماذا يقتل، ولا الضحية تعرف لماذا قُتلت، ولا الناس تريد أن تعرف! هل ثمة زمن تعيس كهذا في أي مكان آخر من العالم؟ روأיתי عن أجاثا كريستي قد تحدث صدمة مفارقة تدعوا لصحوة ما. أو نزهة مستحيلة ومستراحـاً في ذلك الزمن الذي صرنا نراها جميلاً بعد زوالـه؟ أو نفحة من القلب لصديقـي وللقتلى الآخرين الذين رقدوا على العشب ليال دون عابر سـبيل يأخذ بأيديـهم، ربما ستكون في صـلب هموم هذه الأيام إذ ليس الحاضـر سـوى طفل شـرعـي أو غير شـرعـي للماضـي! الكتابـة الحـقيقـية تـنشـد الإـنصـافـ، والـعـدـلـ، حتـى لو كانت عن الفـراـشـاتـ الـهـائـمـةـ اـنتـفـاضـةـ رـوحـ ولا تـدرـيـ كـيفـ تكونـ خـلـجـاتـهاـ ولاـ عـلـيـ أيـ شـاطـئـ تـسـكـينـ. لكنـ كـيفـ سـاجـدـ أـورـاقـيـ تـحـتـ هـذـاـ الرـكـامـ وـالـأـنـقـاضـ وـالـرـمـادـ الـهـائـلـ الـذـيـ آـلـتـ إـلـيـهـ بـغـدـادـ، بـعـدـ الـحـرـوبـ وـالـصـرـاعـاتـ الـدـمـوـيـةـ بـيـنـ الطـوـافـيـنـ وـالـأـعـرـاقـ؟ يـبـدوـ ذـلـكـ مـسـتـحـيلاـ! مـنـ بـيـنـ أـوـاـلـ الـأـمـاـكـنـ الـتـيـ أـرـدـتـ الـوقـوفـ عـنـدـهـاـ كـانـ بـيـتـ الـأـثـارـيـنـ، لـيـ فـيـهـ ذـكـرـيـاتـ غـالـيـةـ يـقـعـ فـيـ الـكـرـادـةـ، كـانـ فـخـماـ وـجـمـيـلاـ مـطـلاـ عـلـىـ النـهـرـ. اـسـتـأـجـرـوـهـ

من ثري يهودي في الثلاثينات! كان نزلاً للمنقبين وعلماء الآثار الأجانب، ومخزناً لآثار ووثائق وأضابير قديمة للمتحف الوطني! سنوات السبعينات، لم يعد ينزل فيه خبراء أجانب. صاروا يفضلون عليه طبعاً الفنادق الفخمة التي نهضت بطوابق عالية حول النهر. فصار مخزناً لبعض الآثار. أردت التجوال في شارع الرشيد، ومحاولة الدخول إلى فندق تايكر بالاس مسرح الرواية. دخلت بيت الآثاريين أول مرة عام 1970 حين تعرفت على حارسه أحمد ناصر الذي صار مدير البيت، وحارس محتوياته التي لا تقدر بثمن. تعرفت عليه مصادفة في مقهى شعبي يقع خلف البيت، نشأت بيننا بسرعة صدقة ومودة، كان أحمد يكبرني بأكثر من عشرين سنة، اقتربت منه حين قال لي أنه في حبة الأربعينيات اشتغل مع أجاثا كريستي وزوجها عالم الآثار ماكس مالوان في نينوى، خلال عمليات التنقيب عن آثارها الشهيرة! وكان يرافقهما في زيارتهما إلى بغداد، ويعيش معهما في هذا البيت، يسهر على خدمتهما، وكانت أجاثا تفرح حين يناديها (ماما)!

كنت مهتماً بروايات أجاثا كريستي، أعيد قراءتها وأتمعن أسرارها، وأراها قصص حياة عميقة آسرة، وبفوبي فلسفية أكثر مما هي قصص بوليسية مثيرة. فلم أصدق أنني التقى برجل كان قد عمل معها، وعرف الكثير من تفاصيل حياتها! حصل بيننا شيء من تبادل المصالح الصغيرة، فأحمد قد انشد لي حين عرف أنني صحفي أعمل في جريدة كان يرسل لها قصائد الشعيبة فلا تنشر، استطعت أن أنشر له بعضها بعد بعض التعديلات، حققت له حلماً ظل يراوده لسنوات طويلة. أن يرى قصيدة له منشورة مع صورته في صحيفة، بالمقابل حصلت منه على نافذة أو بوابة أطل منها على أجاثا كريستي وزوجها عالم الآثار، وهما يجوسان ماض جميل كانت تتكتشف فيه شواهد وأثار من حضارتنا القديمة! لسنوات بقينا نلتقي في حجرة أحمد في البيت الكبير كل أسبوعين أو كل شهر، نقضي أمسيات هادئة نحتسي فيها الشاي، أو العرق أحياناً، يقرأ أحمد قصائد البدوية المتداولة بين عشائر الموصل، ونتحدث

حولها، كنت أجد لها تحمل خبرة المبدعين الفطريين المفعمة بالشجن. كان يسمعني قصائده بصوت مغن بدوى مغمور يغنىها بحرقة. طاف بي كثيرا في أرجاء البيت، يريني محتوياته ويحدثني بحنين: هنا على هذه الأريكة كانت تجلس أجاثا كريستي تحوك جوارب لزوجها ماكس، هنا كانت تجلس لتكتب، وهذه الآلة الكاتبة التي خرجت منها روايات معروفة، ويمضي بي إلى حجرة متربة يعلو سريرها العريض فراش تراكم عليه الغبار، وهنا كانا ينامان. ينزل بي إلى المطبخ؛ بهذه القدور طبخنا الأكلات العراقية لأجاثا وزوجها وضيوفهما، خاصة ولفريد ثيسجر الذي كان يأتي أحيانا ومعه السمك وطيور الخضيري من الهور، بهذه الصحون أكلوا، هذا طبق أجاثا كريستي مع السكين والشوكة. ويشير بصمت إلى آثار متربة موزعة على الزوايا والأركان، وقد أهملت أو نسيت، أو لم يحن الوقت لدراستها لكثرة ما يكتشف من آثار كل يوم! كان هناك ألواح كثيرة مثلها مركونة مهملة في حديقة المتحف الحديث في الصالحة أخذت تتهشم وتتفسخ تحت المطر والشمس، وينظر إلى أحمد ليسألني من الضروري أن تكتب في الجريدة مطالبا بحفظها جيدا، وأقول لقد كتبت ولم أجد أية استجابة، فيهز رأسه بضيق وحزن، كانت الدولة تدير ظهرها للتاريخ البلاد القديم مهووسة بشعارات قومية براقة عن أمم عائمة فوق الشعارات! أرى نفسي في هذا البيت كأبني في معبد سومري قريبا من جذور شجرة الذاكرة! فأحس بسعادة وقلق معا! في كل لقاء كنت أدفع الحديث إلى ذكريات أحمد عن ماضيه البعيد مع أجاثا كريستي والمنقبين الأجانب، لأعرف المزيد مما عاشه معهم ورأه من حياتهم وتجاربهم في نينوى وبغداد، وما سمع منهم أو عنهم. كنا مساء جالسين في حديقة البيت وأمامنا زجاجات بيرة مثلجة، فالصيف في ذروته فوجئت به يسألني:

- أسمعت بحادثة اختفاء أجاثا كريستي من فندق تايكر بالاص في بغداد؟
- لا، أبداً، متى كان ذلك؟ أعرف أنها اختفت في لندن أيام شبابها!
- كان ذلك ربيع عام 1949، كيف لم تعرف، لقد هزت حادثة اختفائتها في

حينها بغداد كلها!

ضحكـت، كنت طفلاً، أبحث عن أعشاش العصافير، لا أخبار الجرائم، مضـبت أصـغـى لـه وـهـو يـحـدـثـني عنـ تـلـكـ الـوـاقـعـةـ التيـ تحـولـتـ فيـ حينـهاـ إـلـىـ لـغـزـ، وـقـضـيـةـ هـزـتـ الـبـلـادـ، وأـحـمـدـ يـجـيـبـنـيـ مـقـتـصـداـ وـيـتـحـولـ إـلـىـ شـهـرـزـادـ، وجـاءـ الصـبـاحـ فـسـكـتـ عـنـ الـكـلـامـ الـمـبـاحـ، فـيـ كـلـ أـمـسـيـةـ، صـرـتـ أـسـأـلـهـ: كـيـفـ اـخـتـفـتـ؟ هـلـ خـطـفـهـ؟ مـاـذـاـ حـدـثـ لـهـاـ تـامـاـ؟ لـمـاـذـاـ طـالـ الأـحزـابـ وـالـسـيـاسـيـنـ؟ وـيـجـيـبـ أـحـمـدـ، يـوـمـاـ:

ـ جـنـونـ الـكـتـابـ يـاـ عـزـيزـيـ!  
ماـزـحـاـ ضـاحـكاـ:

ـ نـزـوةـ عـاطـفـيـةـ، غـرـامـيـةـ يـاـ أـخـيـ!  
حـزـينـاـ مـتـأـسـيـاـ فـيـ يـوـمـ آـخـرـ:

ـ أـيـامـ رـاحـتـ! وـلـنـ تـعـودـ، كـنـاـ خـالـطـ الـأـجـانـبـ دـوـنـ خـوـفـ أـنـ نـعـدـ بـتـهـمـةـ  
الـتـجـسـسـ أـوـ الـعـمـالـةـ!

منـ كـلـ كـلـامـهـ الطـوـيلـ الشـيقـ، لمـ أـضـعـ يـدـيـ عـلـىـ التـفـاصـيلـ الـجوـهـرـيـةـ  
لـمـ حـدـثـ لـأـجـانـاـ! كـنـاـ فـيـ حـجـرـتـهـ عـدـتـ أـبـنـيـ وـأـسـتـحـثـهـ عـلـىـ الـكـلـامـ فـيـجـيـبـنـيـ  
كـعـادـتـهـ مـنـشـيـاـ بـحـكـاـيـاتـ الـكـثـيـرـةـ الـمـتـنـوـعـةـ، سـكـتـ لـيـقـولـ ضـاحـكاـ، "وـالـلـهـ نـشـفـتـ  
رـيـقـيـ"، بـدـاـ أـنـهـ الـآنـ فـقـطـ تـذـكـرـ شـيـئـاـ مـهـمـاـ:

ـ وـلـمـاـ أـتـبـعـكـ وـتـعـبـنـيـ؟ ثـمـةـ أـورـاقـ، تـرـكـتـهـاـ أـجـانـاـ وـزـوـجـهـاـ، فـيـ الـبـيـتـ عـنـدـمـاـ  
سـافـرـاـ، اـحـتـفـظـتـ بـهـاـ لـلـذـكـرـىـ!..

وضـعـ كـأسـ الـعـرـقـ، وـنـهـضـ، رـفـعـ سـرـيرـهـ قـلـيلاـ، وـسـحـبـ مـنـ تـحـتـهـ صـنـدـوقـاـ  
خـشـبـيـاـ، فـتـحـهـ وـأـخـرـجـ رـزـمةـ أـورـاقـ وـصـورـاـ، سـلـمـهـاـ لـيـ قـائـلاـ:

ـ أـنـاـ لـأـقـرـأـ الإـنـجـلـيـزـيـةـ، تـحـدـثـتـ بـهـاـ مـعـ أـجـانـاـ وـزـوـجـهـاـ بـالـقـدـرـ الـذـيـ كـنـتـ  
نـحـتـاجـهـ أـوـ أـسـتـطـيـعـهـ فـيـ الـعـلـمـ وـالـمـسـائـلـ الـيـوـمـيـةـ. أـتـمـنـيـ أـنـ تـجـدـ فـيـ هـذـهـ  
الـأـورـاقـ مـاـ تـنـشـدـهـ عـنـ اـخـتـفـاءـ أـجـانـاـ وـمـاـ حـدـثـ لـهـاـ وـزـوـجـهـاـ فـتـرـةـ وـجـودـهـمـاـ  
فـيـ نـيـنـوـيـ وـبـغـادـ، وـهـاهـيـ، لـتـكـنـ مـنـ نـصـيـبـكـ!

شعرت إنه وضع في يدي ثروة عظيمة، شكرته كثيراً، ورحت أقبلها، لكن أحمد طلب مني أن أكف عن ذلك الآن، وأن أستمع منه لقصيدة جديدة. يتغزل فيها بامرأة غريبة أحبتها.

- هل أحببت يوماً أجنبية من الجميلات اللواتي كن يعملن في التنقيب، أو يأتين إليكم سائحات عندما كان العراق قبلة السياح!

- لا، لم تأت للتنقيب فتاة جميلة، حتى الجميلة منهن تصير فوراً حفارة قبور، ويعلو وجهها وشعرها غبار الموتى! كانت لي علاقات عابرة مع سائحات بين الأطلال! الأجنبية ما أن تنتهي منها حتى تدبر وجهها مشيخة عنك كذلك قد صرت إناءً فارغاً من طعام شهي التهمته بشراهة وأصيبيت بالسأم! وأحياناً لا ترد عليك السلام في اليوم التالي! كانت لي مغامرات لطيفة وسعيدة مع فتيات عربيات وكرديات وآشوريات. كن ساخنات وحنونات!

حاولت استفزازه ليعود للحديث عن أجاثا:  
ولكن أجاثا كانت جميلة!

- نعم، ومهيبة أيضاً، مهما تبسطت معك تبقي بينك وبينها مسافة محددة،  
وكنت أناديها: ماما!

ونمضي في الحديث عن الحب وذكرياته وما لدينا من ذكرياته، فأنا غير متزوج، وكنت غارقاً بحب فتاة جميلة جداً من أسرة غنية، بينما أنا من أسرة فقيرة معدمة، وأكاد أكون بلا أمل في الزواج منها، لكن بنفس الوقت لا أستطيع تصور حياتي بدونها، واثقاً من حبها لي، كنت أغرق نفسي بالقراءة والكتابة والكحول والتدخين والثرثرة بالسياسة. وأحمد فارق زوجته في الشرقاط، وأبناؤه كبروا، وصارت له في بغداد نزوات وأشواق وذكريات!

لم أجده صعوبة بقراءة الأوراق، فأنا خريج الآداب فرع الإنجليزية، ثمة صفحات كتبتها أجاثا على الآلة الكاتبة. وأخرى كتبت باليد، بحروف ناعمة ممزوجة، مترادفة تقتضي قراءتها بتأنٍ، وبيط، كانت موقعة باسم لفريد

ثيسجر، رحلته في الربع الخالي. وإنماطه الطويلة في الأهوار! أعادتني إلى رحلة لي إلى الأهوار قبل سنوات! وكيف أنها؟ تذكرتها آنذاك، وأنذكرها اليوم كأنها حدثت البارحة! حملني قارب بخاري من ناحية السلام إلى وسط هور الصخين. كان رذاذ الموج يغسل وجهي وينعشني، اقترب مني شاب نحيف بوجه شاحب مصفر، وصار يحدثنـي بمسكتـه، قال إنه عاطل رغم أنه لديه شهادة دراسية، عائلته لا تجد ما تأكله، والده مريض ولا يستطيع عرضه على طبيب، تألمت لحالـه واستغرقت معه في الحديث، وعدـته بمساعـته لو جاء إلى بغداد باحثـا عن عمل، أعطيـته رقم تلفـوني. ما أن هبطـنا من القارب وصرـنا على رصيف طينـي حتى فوجـئت به يـشهر مسدـسا بوجهـي ويـأمرـني بالـسيرـ أمامـه إلىـ مركزـ الشرطةـ، لمـ أـعـرفـ ماـذاـ أـقـولـ، اـرـتكـبتـ خطـايـ، اـسـتـسـلـمـتـ وـالـأـلـمـ يـعـتـصـرـنيـ، ثـمـ ضـحـكـتـ معـ نـفـسيـ، أـنـ منـ بـكـيـتـ لـحـالـهـ هوـ شـرـطـيـ أـمـنـ! أـجـرـواـ مـعـيـ تـحـقـيقـاـ طـوـيـلاـ كـادـ يـنـتـهـيـ بـيـارـسـالـيـ مـخـفـورـاـ المـرـكـزـ مـحـافـظـةـ الـعـمـارـةـ حـيـثـ كـانـ يـمـكـنـ أـنـ تـعـقـدـ الـقـضـيـةـ كـثـيرـاـ. فـهـذـهـ الـمـسـتـقـعـاتـ الشـاسـعـةـ الـمـكـتـظـةـ بـأـدـغـالـ الـقـصـبـ وـالـحـلـفاءـ كـانـتـ قدـ شـهـدـتـ قـبـلـ سـنـوـاتـ نـشـاطـاـ لـبـؤـرـ ثـورـيـةـ يـسـارـيـةـ مـتـنـطـرـفـةـ، قـادـهـاـ مـثـقـفـونـ وـفـدـواـ إـلـيـهاـ منـ بـغـدـادـ وـمـدنـ أـخـرـىـ، وـأـحـدـ قـادـهـمـ وـيـقـالـ إـنـهـ كـانـ سـكـرـتـيرـاـ الـبـرـاتـرـانـدـ رـسـلـ جـاءـ منـ لـندـنـ لـيـقـفـ رـعـاهـ الـجـامـوسـ بـالـمـارـكـسـيـةـ، وـالـتـرـوـسـكـيـةـ، وـالـمـاوـيـةـ وـيـجـعـلـهـمـ ثـوـارـاـ مـشـلـ كـاسـتـرـوـ وـجـيـفـارـاـ. وـالـآنـ أـنـاـ مـشـكـوـكـ بـيـ كـأـحـدـ هـؤـلـاءـ وـقـدـ جـئـتـ لـأـعـيدـ تـنظـيمـ صـفـوـفـ الـشـوـارـ عـلـهـمـ هـذـهـ المـرـةـ يـنـتـصـرـونـ، بـعـدـ أـنـ فـشـلـواـ وـقـتـلـواـ فـيـ المـرـةـ السـابـقـةـ! سـمـحـ مـفـوضـ الشـرـطـةـ لـيـ بـإـجـرـاءـ اـتـصـالـ تـلـفـونـيـ معـ مـسـئـولـ بـعـشـيـ كـبـيرـ فـيـ اـتـحـادـ الـأـدـبـاءـ، وـكـنـتـ عـضـوـاـ فـيـهـ، كـانـ مـفـتـحـاـ فـكـرـيـاـ وـبـيـنـاـ مـوـدةـ، فـأـجـرـىـ اـتـصـالـاتـهـ بـوزـارـةـ الدـاخـلـيـةـ وـأـطـلـقـوـاـ سـرـاحـيـ بـعـدـ سـاعـاتـ طـوـيـلـةـ مـنـ التـوقـيـفـ وـالـترـقـبـ المـرـيـرـاـ نـزـلتـ بـضـيـافـةـ عـائـلـةـ فـقـيرـةـ طـيـبةـ، لـمـ يـكـنـ لـدـيـهـمـ مـاـ يـقـدـمـونـهـ لـمـنـامـيـ أـكـثـرـ مـنـ حـشـيـةـ قـدـيمـةـ مـهـرـئـةـ مـتـعـفـنـةـ، دـامـتـ جـوـلـتـيـ يـومـيـنـ. اـعـتـقـدـتـ إـنـيـ عـدـتـ إـلـىـ بـغـدـادـ سـالـماـ، بـعـدـ يـوـمـيـنـ ظـهـرـتـ عـلـىـ جـلـديـ وـتـحـتـ

كل شرة على جسمي حبيبات حمر شخصها الطبيب أنها قراد الهرور، التقطته من الفراش المتسرخ. خضعت لعلاج طويل، واغتسال يومي بمطهرات، حتى تخلصت منها، سألت نفسي آنذاك هل التحقيق الصحفي الذي عدت به مطالبا بتحويل الأهوار إلى منطقة سياحية تبني فيها فنادق ومنتجعات عالمية، ولم يلتفت إليه أحد، يستحق كل هذا العناء؟ ذكريات بعيدة أصبحت كما الغبار في الريح، أتذكر أن أوراق أجاثا وماكس ويسجر غنية بالخبرات والأفكار، رغم أن بينها قصاصات تتعلق بأعمال تنقيب، وتعكس مسار تنقلاتهم! صفحات من روايات لأجاثا كنت قد قرأتها مترجمة إلى العربية، أخرى لم أقرأها من قبل، رسائل وملحوظات حولها أو حول قضايا أخرى! وصفحات لم أعرف شيئاً عم تتحدث. والأهم هي أوراق كثيرة تتحدث عن حادثة اختفاء أجاثا! رسائل ولغز يسجر زادت اختفاء أجاثا غموضاً وإثارة!

كثيراً ما نتحدث عن آلام الحب لدى آخرين؛  
بينما نحن نقصد آمنا في حب غائر في الأعمق!

وكيف أنسى ما حدث لي مع حبيتي عواطف في بيت الآثار؟ ذلك الجرح الذي ظل ينزف في قلبي طيلة سنوات المنفى! كان أحمد يعاملني كابن له، يحنوا عليّ حقاً، يحرص أن يقدم لي شيئاً، كان قد عرف بحب عواطف، ورغبت في الزواج منها لكنني ما كنت أستطيع ذلك لأسباب كثيرة، وتقتصر علاقتنا على مكالمات تلفونية ورسائل متباudeة ولا نجد مكاناً نختلي فيه كحبين يريدان تدبر أمرهما عن قرب، لا للمرة العابرة! عرض عليّ أن أتّي بها إلى حجرته ونقضي فيها لوحدها وقتاً مناسباً، كانت قريبة من الباب الخارجي، ومطلة على الحديقة قال:

- هنا الجيران محترمون ولا ينظرون إلى ما يفعل جيرانهم، وأنت لا تفعل أمراً شائناً.

مضيفاً وهو يضحك كعادته:

- الحجرة كما ترى صغيرة وأثاثها قدِيم!

أتذكر إنني تلعثمت وأنا أعرض ذلك على عواطف، قالت إنها تثق بي ومن المفيد، أن نعرف ببعضنا أكثر، ونتحدث عن قرب حول مستقبلنا، رحب أحمد بها عند الباب الخارجي، كان الوقت صباحاً، سألني إن كان الوقت من الآن وحتى العصر أو الغروب يكفياناً، ليعود، فوافقته شاكراً، ومع ذلك ترك عندي المفاتيح، سأله:

- هل أستطيع أن أريها جوانب البيت وما فيه من آثار؟

- ثقتي بك كبيرة، هنا لا توجد أسرار، ولكن أشياء حساسة، لا تقبل اللمس! أتذكر الآن، بعد كل هذه السنين التي ربما أحالت جبلاً إلى سهول، ما جرى بدقة، جلست "عواطف" بجانبي تتطلع إلي بلهفة، عطرها ملأ قلبي، كان ريقاً منعشًا، عيناهَا تحومان كفراشتين ظامتين، تحلقان دون مستقر، تحدثت همساً، كانت حزينة معدبة هي أيضاً تشعر باليأس من وضعنا الصعب وقصتنا المستعصية دون أفق، كانت تريد أن ترمي بأحضاني، ربما فقط لتبكى، وتستريح، كيف لم أفهم ذلك؟ فجأة ولا أدرى ماذا حدث لي قطعت كل شيء قائلًا:

- هيا لأريك ما في هذا البيت الغريب!

انكمشت فجأة، صارت أصغر من حجمها، وكانت قد كبرت بجانبي، أنا حبيها، أحنت رأسها صامتة ذاهلة، نهضت منكسرة، هل أحسست بأنها أخطأت في شيء؟ هل فكرت أنني ترتفعت عن لفتها وشووها لي؟ هل صارت تشكي بنفسها وجمالها؟ كانت باهرة الجمال، سمراء فارعة ممتنعة دون ترهل، وجه ناعم باسم، يلشه النسم، عينان واسعتان مكحلتان دون كحل، شعر فاحم منسدل على كتفين مكتنزين عليهما نمش خفيف يزيدها فتنة، اعتنت بزيتها وثابها الراقية الأنثوية. تعرّت عند باب الحجرة ولم أكن بجانبها لأُسندها، استندت على ذراع مكتنزة طويلة مركونة عند الباب، وأنا كالأهليل أركض أمامها لأريها ما كنت أسميه: تراث الأسلاف! تبعتنـي شاردة الذهن، ببطء،

بدأت تشاركتني رغبتي أن أريها شيئاً مهماً أو جميلاً، ننتهي منه بسرعة ونعود للحجرة لنخلو لنفسينا، وماذا لو أخذتها بأحضاني بعد طول حرمان، أو عانقتها أو قبلتها؟ لكنني مضيت أحدها كدليل سياحي، أشرت لها إلى أريكة جميلة قديمة نصل طلاوها وتهراً حضنها القديفة:

- هنا كانت تجلس أجاثا كريستي كاتبة القصص البوليسية، تحوك لزوجها ماكس مالوان جوارب صوفية، من هذه الآلة الكاتبة أخرجت روايات هزت العالم، ألم تقرئي لها؟ لا يجوز الجهل بأجاثا، هي كاتبة عالمية عظيمة! طرحت عليها سؤالاً أكثر غباء:

- هل ستحيكون لي يوماً جوارب صوفية مثلها؟  
ظلت صامتة، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مرتبكة صعدت درجاً رخامية، ملتوية، تبعيني إلى حجرة واسعة تطل على النهر، أشرت إلى سرير عريض، عليه فراش وثير قديم، بشرشف مورد:  
- وهنا كانا ينامان!

رمقتنى بنظره سريعة غاضبة، ومدت يدها بحركة لا شعورية تمسح الغبار عن الفراش، نظرت إليها مستفهمًا، أعادت النظر إلى الآن وبعد ما يقرب من ثلاثين عاماً، أدرك أنها كانت توشك أن تجذبني إلى الفراش لا لتعانقني؛ بل لتضربني على مؤخرتي كطفل لا يكف عن بعثرة الأشياء! لكن أصواتاً صاخبة جاءت من الطابق الأرضي، وضجيج أشياء تسقط بقوة جعلتنا نجفل، ونخرج مسرعين، نظرنا تحت مسند الدرج متحفزين، نزلنا مسرعين. وجدنا قطة سوداء كبيرة أسقطت قدوراً من على طاولة المطبخ، قلت مواصلاً حديثي:

- هنا كانت أجاثا كريستي وزوجها وصديقتنا أحمد يطبخون الطعام!  
هزت رأسها، وضحكـت! وتوقفـت. إلى أين أريد بها؟ اختلت عواطف أسباباً شـتـى؛ لـتـخـرـجـ منـ الـبـيـتـ وـتـلـقـانـيـ، وـأـنـاـ أـجـوـلـ فيـ هـنـاـ أـرـيـهـاـ مـقـاعـدـ وـسـرـيرـ نـومـ تـعلـوـ العـنـاكـبـ، وـقـطـةـ تـبـعـتـ بـقـدـورـ الـمـطـبـخـ، اـتـجـهـتـ إـلـىـ الـبـابـ تـرـيدـ الـعـودـ إـلـىـ حـجـرـةـ الـحـارـسـ الـتـيـ صـارـتـ عـشـ حـبـنـاـ خـائـبـ بـأـيـدـيـنـاـ وـلـوـ لـسـاعـةـ، لـكـنـيـ

قلت لها:

- لم ننته بعد، تعالى انظري، هنا ألواح مهمة جدا، عثروا عليها في المقبرة الملكية في أورا!

كتمت ضحكة حتن قائلة:

- لديك قبور أيضا؟

للم أجدها كأني لم أسمع شيئا، لكنها عادت إلي ت يريد أن تعرف نهاية هذه الحكاية، أتذكر جيدا إبني أشرت إلى ألواح مركونة على الجدار مهملة ورحت أشكو لها:

- هم مهملون! منذ سنوات، وهذه الألواح الهامة هنا، لا يكترون لهذا الطين صارت قيمته أثمن من الذهب، لا يريدون قراءة ما عليها من قوانين، وأخبار، وقصائد حب!

انبعث صوتها ساخرا:

- وماذا فعلنا بقصائد الحب في زماننا؟

نظرت إليها دون أن أدرك معنى ما قالت، أردت موافصلة الطواف بها بين ألواح وشواهد الآثار، فجأة انتفضت، استدارت راجعة، ذهبت إلى الحجرة، حملت حقيقتها ووقفت عند الباب:

- أريد أن أعود إلى البيت، تأخرت، وعدت أمي أن أعود بعد ساعة، وها قد مررت ساعات!

لم أستطع أقناعها لتبقي، رافقتها إلى الشارع الرئيسي، أخذت تكسي لوحت لها مودعا ولم تردد علي، عدت إلى الحجرة لأنظر أكثر من خمس ساعات حتى عاد أحمد متأخرا. أراد أن يمنحنا أطول وقت للسعادة، لم يدر إنه صار وقتا للآلام والقلق! كان يتطلع بوجهي لا شك إنه كان منطفئا، لكنه لم يسألني عن شيء، ولو سألني، لما تجرأت أن أقول له إنه كان لقاءً فاشلا! لم أكن أعلم أنها آخر مرة أرى فيها وجهها الحزين المقارب للبكاء وهي تصعد التاكسي. بعد أسبوعين طلبت منها أن نلتقي، رفضت، قالت كلاما كم

يبدو الآن صائباً:

لو أردت أن أرى آثاراً، سأذهب إلى المتحف، هناك أجد آثاراً أكثر وأجمل!  
وانتهت علاقتنا، بالأحرى انقطع حديثنا المتباعد في التلفون وساد بيننا  
صمت غامض. ثمة شعور في قلبي أنها ظلت تكن لي شيئاً من الحب الكبير  
الذي أكنه لها ولم استطع أن أعبر عنه بوضوح ربما لشعورني أن أي لحظة حب  
سريعة لا تجدي ما دمنا سنفترق على أي حال! ازدادت أيام البلاد اللاحقة  
توتراً وحلكة ورعباً. تفجر صراع دموي في رأس السلطة، أزاح النائب رئيسه  
في حملة تصفيات دموية! تفاقمت أجواء الخوف السياسي كثيراً، صرت أرقاً،  
مشتت الذهن لا أستطيع التركيز، أتذكر عواطف كل يوم ولا أجد جدوى  
في محاولة الاتصال بها. صرت عاجزاً عن كتابة مقال، فكيف برواية؟ لم  
أكن متمنياً لأي حزب، أعد نفسي يسارياً ديمقراطياً حراً، لكن البعشين كانوا  
يحسّبونني على الشيوعيين رغم إن لدى اعترافات كثيرة على الشيوعيين،  
وكنت أقول أنهم لا يختلفون عن البعشين، يلتقطون على ضيق الأفق والنهج  
الاستبدادي، كنت أردد أمام أصدقائي المؤوثقين "الشيوعيون يدينون بالولاء  
للسوفيت، والبعشين يدينون بالولاء للروليت!" فأولئك تابعون خانعون،  
وهؤلاء مقامرون، شملني البعشين بنقمتهم وملحقتهم الضاربة  
للسّيوف العين التي ألقت آلاف منهم في المعقلات وزنزارات الإعدام. ودفعت  
الآلاف منهم إلى المنافي. جاءني صديق، صحفي بعثي، بيتنا مودة وثقة،  
أخبرني أنهم سيلقون القبض على قريباً فاسمي موضع تداول بينهم! كنت  
أعيش مع والدتي وشقيقتي ليلي التي تقدمت في السن، ولم يعد لها أمل في  
الزواج، وأوقفت حياتها على رعايتنا أنا وأمي! فرافقني لهما كان الأكثر إيلاماً لي  
في حياتي. أحسست كأنني أتنزع منضدة الكتابة من أحشائي وأنا أفارقها في  
حجرتي المليئة بالكتب واللوحات. ذلك كاد يحطم جذوة الكتابة في نفسي  
نهائياً. ويجعلني أكفر بالإبداع والثقافة كلها! اختفت أياماً في بيت صديقي  
حميد، أقرب أصدقائي إلى قلبي، وأكثرهم إخلاصاً واستعداداً للتضحية من

أجلـي . كان يـشبهـني بالـكـثـيرـ منـ المـلامـحـ حتىـ إنـ منـ يـرـانـاـ يـظـنـنـاـ شـقـيقـينـ،ـ تـشـابـهـناـ فيـ عـيـونـنـاـ وـبـشـرـتـنـاـ السـمـرـاءـ وـتـجـاـزوـزـنـاـ مـعـاـ الـثـلـاثـينـ،ـ لـكـنـنـاـ اـخـتـلـفـنـاـ فيـ طـبـاعـنـاـ،ـ فـأـنـاـ يـقـالـ عـنـيـ أـنـنـيـ بـطـعـ بـتـرـدـدـ بـيـنـ الـغـفـلـةـ وـالـسـذـاجـةـ،ـ وـالـنـبـاهـةـ وـالـمـرـاسـ،ـ بـيـنـنـاـ حـمـيدـ هـادـئـ رـصـينـ يـمـيلـ لـلـصـمـتـ وـالـتـكـتمـ!ـ اـكـتـشـفـتـ أـنـنـيـ مـمـنـوـعـ مـنـ السـفـرـ،ـ وـجـدـ حـمـيدـ ضـابـطـاـ فـيـ دـائـرـةـ الـجـواـزـاتـ رـفـعـ الـمنعـ عـنـيـ لـقـاءـ خـمـسـمـائـةـ دـولـارـاـ.ـ لـكـنـنـيـ بـقـيـتـ فـيـ شـكـ وـحـذـرـ،ـ وـاحـتـمـالـ أـنـ يـكـونـ الضـابـطـ قـدـ خـدـعـنـيـ وـلـحظـةـ الـحـسـابـ سـتـكـونـ فـيـ الـمـطـارـ،ـ إـذـاـ وـجـدـوـاـ مـعـيـ أـورـاقـ أـجـاثـاـ قـدـ يـعـدـونـهـاـ رـسـائـلـ تـجـسـسـ وـتـخـابـرـ مـعـ أـجـانـبـ،ـ هـكـذـاـ يـتـرـجـمـونـ أـورـاقـ خـصـومـهـمـ.ـ وـسـتـكـونـ أـدـلـةـ تـكـفيـ لـإـعـدـامـيـ.ـ تـرـكـتـ صـورـاـ وـرـسـائـلـ وـمـخـطـوـطـاتـ قـلـيلـةـ مـعـ أـورـاقـ أـجـاثـاـ لـدـىـ حـمـيدـ.ـ وـكـنـتـ أـبـقـيـتـ صـورـاـ وـأـورـاقـاـ وـمـسـودـاتـ فـيـ الـبـيـتـ لـدـىـ شـقـيقـتـيـ.ـ عـنـدـمـاـ اـسـتـقـرـيـتـ فـيـ السـوـيدـ وـبـدـأـتـ أـسـتـعـيـدـ قـدـرـتـيـ عـلـىـ الـكـتـابـةـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ،ـ عـاـوـدـنـيـ حـلـمـ كـتـابـةـ روـاـيـةـ أـجـاثـاـ،ـ قـلـتـ أـنـهـاـ سـتـكـونـ أـشـبـهـ بـصـلـاةـ طـوـيـلـةـ أـسـتـعـيـدـ بـهـاـ أـيـامـيـ الـقـدـيمـةـ،ـ وـجـهـ عـوـاطـفـ لـمـ يـغـبـ عـنـيـ يـوـمـاـ،ـ وـعـطـرـهـاـ يـمـلـأـ أـعـماـقـيـ!ـ كـتـبـتـ الـفـصـلـ الـأـوـلـ مـسـتـعـيـنـاـ بـذـاكـرـةـ مـكـدـوـدـةـ مـجـرـحةـ،ـ طـعـمـ الـذـكـرـيـاتـ الـمـحـرـقةـ فـيـ رـوـحـيـ يـجـعـلـ رـيـقـيـ مـرـاـ وـعـيـنـيـ تـغـشـيـانـ!ـ تـوقـفـتـ عـنـ كـتـابـةـ الـرـوـاـيـةـ،ـ وـرـحـتـ أـشـغـلـ نـفـسـيـ بـنـصـوصـ مـاـ أـقـارـبـ نـهاـيـةـهـاـ حـتـىـ أـقـيـهـاـ جـانـبـاـ.ـ ظـلـ حـلـمـ سـقـوطـ النـظـامـ وـعـودـتـيـ إـلـىـ بـغـدـادـ يـعـنـيـ فـيـ جـانـبـ مـنـهـ حـصـولـيـ عـلـىـ أـورـاقـيـ وـصـورـيـ الـقـدـيمـةـ،ـ وـمـنـهـاـ أـورـاقـ أـجـاثـاـ وـثـيـسـجـرـ.ـ وـزـيـارـةـ بـيـتـ الـآـثـارـ،ـ وـاسـتـعـادـةـ ذـكـرـيـ ذـلـكـ الـلـقـاءـ الـأـخـيـرـ مـعـ عـوـاطـفـ،ـ كـلـمـاـ باـعـدـتـ بـيـنـنـاـ السـنـينـ اـقـرـبـتـ مـنـهـاـ أـكـثـرـ!ـ مـاـذـاـ لـوـ لـمـ أـجـدـ بـيـتـ حـمـيدـ؟ـ بـيـوـتـ كـثـيـرـةـ هـدـمـتـ بـقـصـفـ عـشـوـائـيـ أـوـ مـقـصـودـ،ـ حـيـنـ تـحـصـنـ بـهـاـ إـرـهـابـيـوـنـ،ـ أـوـ مـسـلـحـوـ مـيلـيشـيـاتـ.ـ أـرـقـامـ الـتـلـفـونـاتـ الـتـيـ عـنـديـ لـاـ أـحـدـ يـرـدـ عـلـيـهـاـ،ـ يـقـولـونـ أـنـ بـدـالـاتـ الـمـدـيـنـةـ مـدـمـرـةـ،ـ قـدـ أـجـدـ بـيـتـهـ،ـ وـلـاـ أـجـدـ عـائـلـتـهـ،ـ تـهـجـيـرـ الـعـائـلـاتـ خـفـ قـلـيلـاـ،ـ لـكـنـهـ لـمـ يـتـتـهـ،ـ وـالـمـهـجـرـوـنـ مـاـ زـالـوـ لـاـ يـسـتـطـيـعـونـ الـعـودـةـ إـلـىـ بـيـوـتـهـمـ،ـ وـمـنـطـقـتـهـ يـسـكـنـهـاـ شـيـعـةـ وـسـنـةـ،ـ هـذـاـ يـهـجـرـ ذـاكـ،ـ وـالـمـحـركـ قـوـةـ مـجـهـولـةـ أـخـذـتـ تـمـتـلـكـ وـجـهـ الـقـدـرـ

أو إرادة الله! لا بد من زيارة عائلة حميد، ليس من أجل وديعتي. بل من أجل رؤيتهم، أعرض عليهم مساعدتي لهم، إذا كان ذلك لا يزعجهم. هذا أقل ما ينبغي أن أفعله من أجلهم، لا مكافأة لحميد فما قدمه لي كبير جداً ويصعب إيجاد مقابل له، يكفي إنه آوانى أيام الملاحقة، ولو عثروا علي عنده لا يمكن التكهن بما سي فعلونه معه! أعرف منطقته لكنني لا أعرف موقع بيته بالضبط. التنقل مجازفة، في هذا الجنون المنفلت، الغابات والبراري جميعاً أطلقت ذئابها وثعابينها في هذه المدينة! أم زيد زوجة حميد تتذكر الأوراق، تناولتها مني وذهبت مسرعة إلى أحدى الغرف، لإخفائها وكأنها مناشير حزبية. هي محققة، تخشى على طفلها، لحظتها فكرت أن كل أوراق المطارد السياسي، حتى لو كان رسائل حب قديمة أو وصولات كهرباء وتلفون تتحول إلى بيانات سياسية، هذا هو القانون هنا، ماذا لو لم أجد الأوراق، هل سأعدل عن كتابة الرواية؟ هل سأكتبها من مخيالي؟ وهل سأستطيع التعويض عن الأحداث والأقوال كما دونت؟ مزيج من الخيال والواقع هل سيكون أصلب من أوراقها؟ لماذا وقعت بحبائل هذه الذكرى، لأنها ارتبطت بذكرياتي مع عواطف؟ استعادة الذكرى يعني الحرية. الوجود مرة أخرى. يجب أن أكتبها، إذا كان الزمن قد هرأ ذاكرتي، وأتلف أوراقي، هل أعود إلى أحمد، صديقي العزيز، حارس بيت الآثار القديم، أعتصر ذاكرته من جديد، لكن أين أجده؟ أيمكن أن يكون قد بقى حياً إلى اليوم؟ فارقته وقد قارب الخمسين وقد مضى زمن طويل على فراقنا، حتى إذا كان مقدراً له أن يكون من المعمرين؛ كيف يستطيع البقاء سالماً تحت ما عاشه البلد من حروب وحصار وغزو. يكفي أن يقتل أحد أبنائه ليموت كمداً، فهو كما عهده حساس، ضاحك الوجه، لا يطيق حزناً أو أذى! سألت عنه أشخاصاً من منطقته التقى بهم في السويد؛ مما كانوا يعرفونه! وحتى لو كان ما يزال حياً، واستطاعت بعد بحث طويل أن ألقاه؛ بماذا سيفيدني في موضوع حدثني عنه، وطواه الزمن منذ عهد بعيد؟ سأجد أن ذاكرته قد خربت وجفت، منشيخوخة وفجاجع! قد لا يستطيع

التعرف على، وإذا عرفني ألا يمكن أن يسألني:

- بعد كل هذه السنين، لم تجئ تسألني عما جرى لنا، بل لتسألني عن أحاجا  
كريستي واحتفائها، ماذا فعلت أوربا بعقولكم؟

## عدت من المنفى، وجدت المنفى ينتظري في وطني!

كنت قد تجولت في شارع الرشيد، لي فيه ذكريات كثيرة. كانت مقاهيه وباراته مسرحاً لحكايات ومجادلات خضتها، وشغلت بها في حينها، وصارت الجمر الذي أتدفأ به في ليالي المنافي الثلوجية الطويلة، شهد الشارع أحداث الرواية فهي تدور في أحد فنادقه. وجدت الأبنية على جانبيه ذات الشرفات الجميلة وأعمدته الشهيره قد تحولت إلى خرائب وأنقاض، اختفت أرصفته تحت أكوام النفايات والزباله تقطعتها الأسلامك الشائكة ومقارز الشرطة والجنود المدججين بالأسلحة. وحيثما تلفت تطل علي صور ملونة كبيرة لرجال بلحى وعمايم سود وخضر وعيون تنظر بصرامة، تلوح من بعضها سيف، أو خناجر طويلة، يتحرك تحتها شبان بشباب سود، ونظرات قاسية، متوعدة، في مواضع أخرى بسطات الباعة المتتجولين، وبصائع أصحاب الدكاكيين التي ما تزال مفتوحة. بحثت عن فندق تايكرس بالأصل الذي كانت قد نزلت فيه أحاجا وماكس وثيسجر ودارت فيه تلك الأحداث فلم أجده، عرفت إنه هدم عندما بني جسر قريباً منه! ضاعت علي معالم الشارع، اختلط خرابه وتشوهاته وأوساخه ببنيات حديثة قليلة. هربت منه مسرعاً، متوجهة إلى الجسر، متحاشياً النظر إلى النهر وقد استحال إلى ساقية آسنة، شحنت بقوة غضب وحنين مربركة. وأخيراً وصلت بيت الآثاريين! تلكأت خطواتي، وقفـت أمامه صافـنا، كان مهجوراً متـصدعاً رثـا، تمـسـك أبوابـه وشـبابـيكـه بـجـدرـانـه بـقوـةـ غـامـضـةـ لـكـيـ لاـ يـغـدوـ مـأـوىـ لـلـقـطـطـ وـالـكـلـابـ وـمـكـبـاـ لـلـنـفـاـيـاتـ! لمـ أـجـدـ أـحـداـ لـأـسـأـلـهـ عـماـ جـرـىـ لـهـ،ـ الـبـيـوـتـ الـمـجاـوـرـةـ صـامـتـةـ سـاـكـنـةـ،ـ لـأـحـدـ يـقـفـ عـنـدـ أـبـوـابـهاـ أـوـ يـسـيرـ فـيـ الشـارـعـ الـمـحـاذـيـ لـلـنـهـرـ أـمـاـهـاـ كـمـاـ عـهـدـتـ سـابـقاـ،ـ يـبـدوـ أـنـ سـاكـنـيـهاـ

قد غادروها، أو هم رحلوا عن دنيانا، كما هو الأمر دائماً، ثم إن الحال كان واضحاً، والوضع المتواتر والمتفجر لا يسمح بأسئلة، واستفسارات عن مصائر الناس أو بيوتهم وأشيائهم! بقيت واقفاً أمامه مولياً ظهري للنهر، يخيل إلي إبني أسمع أصوات صياديدين ومحبين سكارى أو عاشقين، لا أدرى هل تأتيني من الماضي الغابر، أم من الحاضر الذي تمزقه أحياناً أصوات انفجارات، واطلاقات. لا أستطيع أن أرى من البيت سوى واجهته المطلة على النهر فهو بين بيوت متراصة، ليتنى لم أعد ولم أر هذه الأمكانة، كانت قد ظلت في ذاكرتي كما فارقتها، ما كنت أحتاج أن أراها لأكتب عنها، فأنا سأصفها كما كانت آنذاك، لا كما هي الآن، ولكن لا.. لا يجب أن أراها كما هي الآن؛ لأكتب عنها في وضعها آنذاك، بشكل دقيق وصحيح، كل شيء يحمل ما سيؤول إليه منذ بدايته، وإن نرى الشيء في بدايته، فقط؛ لن نراه على حقيقته، النهاية هي التي تربينا البداية كما هي حقاً، فلسفت الأمر لنفسي، اقتربت من البيت أكثر، غرفت في لجة الحنين مرة أخرى، تذكرت أحمد وجلساتنا معاً، عواطف التي اختفت معتقدة أنني لا أصلح للحب، ولم أنسها أبداً! احتويت البيت بجواري، تركت قليٍ يحاول النفاذ من شروخ وشقوق الجدران إلى داخله! همست لنفسي "ثمة طير جاء متعباً من بعيد ويريد أن يحط على غصن شجرة، على تمثال قديم فيه، يتثبت باللواح ورسومات مهجورة" أجدادنا أحسنا الوقوف على الأطلال، كهذه الدار، بغداد التي كانت تزهو بحاضرها وماضيها، أصبحت أطلالاً، أين قصيتك؟ وأزادت تصميماً على كتابة الرواية! فجأة وجدت ما يكفي من الشجاعة لأنعطاف إلى الشارع العام، فأوقف سيارة أجرة، أعطيت للسائق العجوز عنوان بيت حميد في المنصور! كان أ ملي ضعيفاً بالوصول للبيت، وأن تكون عائلته فيه إذا وجدته. قطعت السيارة نصف الشارع تقريباً وتوقفت، قال السائق، "اختناق مروري". سارت قليلاً وتوقفت "موكب مسئول"، قاربت بناية المتحف الوطني، توقفت، " حاجز تفتيش" مصطلحات أسمعها هنا لأول مرة، نهاية شارع جمال عبد الناصر،

رحت أتأمل قباب وأعمدة وواجهات المتحف، السيارة تنتظر أن تمر أمام جهاز يحمله جندي، مشكوك بقدرته على كشف المتفجرات، داهمني على الفور مشاهد اقتحام المتحف من لصوص مسلحين سرقوا محتوياته الهائلة التي لا تقدر بثمن، الضياء والجنود الأميركيكان كانوا يتفرجون عليهم وهم يخرجون بحمولاتهم ضاحكين مستمتعين بفيلم مثير. هل حقاً أنهم ما كانوا يستطيعون حماية المتحف؟ أحمد بمسدس صغير صدى كان يحمي بيت الآثاريين الأشبة بمتحف صغير، مليء بالتحف، تحركت السيارة وشعرت بالراحة فقد جثمت الدبابات والأحذية الثقيلة على قلبي، مضت السيارة صاعدة إلى شارع الزيتون! وظلت تدور في المنصور دون أن نهتم إلى البيت، كانت ثمة بيوت قد هدمت وأعيد بناؤها، أجزاء من الشوارع ما تزال خرائط، أسس بنايات لم يكن عليها، بيوت فخمة بأعمدة عالية ضخمة لا عهد لي بها في بغداد، تتدخل مع بعضها وتضيع على معالم المكان القديم، وقفـت السيارة مرات وسألـت مع السائق هنا وهناك، مهما تخيلـت من تغيير في المـكان وفي صعوبة الوصول إلى البيت لكنـني لم أكن أتوقع أن ذلك سيـكون عصـيا إلى هذا الحـد. كنت على وشك أن أقر بـيأسـي من العـثور علىـ البيت، عندما أعلـمنـا صـاحـبـ كـشكـ علىـ الطـرـيقـ إـنـهـ يـعـرـفـ زـيدـ اـبـنـ حـمـيدـ، "صـلـيناـ العـصـرـ مـعاـ قـبـلـ قـلـيلـ" وأـشـارـ إلىـ المسـجـدـ الذـيـ قـبـالـهـ! وـطـلـبـ منـ صـبـيـ بـجـانـبـهـ مـرـاقـقـتـناـ إـلـيـهـ! ذـهـلـتـ أـمـ زـيدـ حـينـ رـأـتـيـ، وـذـهـلـتـ أـنـاـ أـيـضاـ، كـانـتـ مـحـجـبـةـ، تـرـكـتـهاـ حـاسـرـةـ الرـأـسـ، طـلـيقـةـ الـوـجـهـ، تـرـتـديـ أـحـدـ الـمـلـابـسـ، رـحـبـتـ بـيـ وـسـلـمـتـ عـلـيـ وـيـدـهاـ عـلـىـ صـدـرـهاـ، وـلـمـ تـصـافـحـنـيـ، فـهـمـتـ مـاـ طـرـأـ عـلـىـ عـائـلـةـ صـدـيقـيـ، زـيدـ، هوـ زـوـجـتـهـ وـأـطـفـالـهـ فـيـ الـبـيـتـ، كـانـ مـلـتـحـيـاـ، سـلـمـ عـلـيـ بـهـدوـءـ، تـرـكـتـهـ صـبـيـاـ، زـوـجـتـهـ كـمـاـ تـوـقـعـتـ كـانـتـ مـحـجـبـةـ أـيـضاـ، لـمـ تـأـتـ وـلـمـ تـسـلـمـ عـلـيـ لـكـنـيـ لـمـحـتـهـاـ تـدـخـلـ الـمـطـبـخـ، لـمـ تـمـضـ سـوـىـ دـقـائـقـ حـتـىـ وـضـعـ زـيدـ أـمـامـيـ صـيـنـيـةـ الشـايـ! لـمـ يـشـجـعـنـيـ الـجـوـ الصـامـتـ الـوـاجـمـ عـلـىـ الـمـزـيدـ مـنـ الـحـدـيثـ بـغـيـرـ التـحـيـةـ وـالـسـؤـالـ الـمـكـرـرـ عـنـ الـأـحـوالـ، لـمـ يـكـنـ حـمـيدـ مـتـدـيـنـاـ، كـانـ مـتـحـرـراـ

دون تطرف أو ابتدال، يحتسي العرق أحياناً، يعشق الأغاني والأفلام، وحين تدب الخمرة في عروقه يرفع عقيرته مقلداً فريداً أو عبد الحليم . كان أقرب لتفكيري، قليل الكلام، لا يجاهر بآرائه. فنجا من ملاحقة السلطة. شعرت بحرقة في صدري، أدركت اللحظة فقط أن حميد قد مات ورثت أغالب دموعي ولذت بالصمت أيضاً، نصف ساعة تقريباً ونهضت مودعاً، دون أن أسأل عن الأوراق، "جئت فقط لأسلم، وأطمئن عليكم، أنا في الخدمة إذا تأمروني بشيء" شكرتني أم زيد "مستورة والحمد لله!" طلبت وابنها، مني البقاء لأتعرّى معهم، اعتذررت، كررت "جئت لأسلم عليكم فقط؟" فوجئت أنها تتحدث عن الأوراق، فأصغيت بقلب متوجس، طلبت مني أن أجلس قليلاً، راحت تتحدث، ما أن بدأت باللazمة المعروفة:

- بعد سفرك شاعت ما سماه الناس هنا حمى حرق الأوراق والصور والكتب، انتشرت بالعدوى بينهم، في تلك الأيام حرق حميد الكثير من كتبه وأوراقه...

هبط قلبي، عرفت أن أورافي قد اختفت تماماً، لكن صوتها الهدائ تواصل:

- حميد حافظ على أوراقك، وضعها في صفيحة معدنية، ودفنتها في الحديقة، انتظر لنخرجها!

ووجدت نفسي على الشاطئ، هذا عهدي بحميد، شهم عند كلمته، تجرأت وطلبت من زيد:

- كأس ماء من فضلك!

تبعد الكثير من حزني، وأنا أتبعها وزيد إلى الحديقة، لا أدرى، هل لأنني أحسست بالطمأنينة بعد قلق على هذه العائلة الطيبة التي لم تستطعمواصلة وضعها كعائلة متحركة غير متزمنة دينياً، كما أراد لها حميد. ما لحية زيد الطويلة؟ ما امتناع الأم عن مصافحة أخ وصديق قديم؟ سرني كثيراً أنهم ما زالوا بأخلاق عالية. وجدت الدموع ملأة عيني. أخذ زيد يحفر في المكان

الذى أشارت إليه أمه تحت النخلة الوحيدة، هممـت بمساعـدته لكن زـيد قال "الأمر سهل يا عـمى أرجـو أن تـرثـاح فقط!" رـحت اـرقـبـهـما، زـيد يـحـفـرـ بهـدوـءـ وـحـذـرـ، والأـمـ تـوجهـهـ، لـحظـاتـ وـوـجـدـتـ رـزـمـةـ أـورـاقـيـ تـخـرـجـ منـ الصـفـيـحةـ المـعـدـنـيـةـ مـلـفـوـفـةـ بـأـكـيـاسـ النـايـلـوـنـ، لمـ أـصـدقـ، ضـمـمـتـهاـ إـلـىـ صـدـرـيـ كـتـلـمـيـدـ يـذـهـبـ بـدـفـاتـرـهـ إـلـىـ الـمـدـرـسـةـ لأـولـ مـرـةـ، تـبـادـلـتـ مـعـ زـيدـ العـنـاوـيـنـ وـأـرـقـامـ الـهـوـاـتـ الـنـقـالـةـ وـطـلـبـتـ مـنـهـ أـنـ نـبـقـىـ عـلـىـ تـوـاـصـلـ قـدـرـ الـإـمـكـانـ! اـسـتـقـبـلـتـنـيـ لـيلـىـ عـنـدـ بـابـ الـبـيـتـ شـاحـبـةـ الـوـجـهـ: "أـقـلـقـتـنـيـ عـلـيـكـ، كـيـفـ تـأـخـرـ وـأـجـوـاءـ هـنـاـ كـمـاـ تـعـرـفـ" نـظـرـتـ إـلـىـ سـاعـتـيـ كـيـفـ صـارـتـ السـاعـةـ الثـامـنـةـ مـسـاءـ فـيـ بـغـدـادـ، سـاعـةـ مـتـأـخـرـةـ مـنـ الـلـيـلـ؟ـ سـنـوـاتـ شـبـابـيـ؛ـ كـنـتـ أـخـرـجـ مـنـ هـذـاـ الـبـيـتـ بـمـثـلـ هـذـهـ السـاعـةـ إـلـىـ السـيـنـمـاـ أوـ لـلـسـهـرـ فـيـ أـحـدـ الـبـارـاتـ، أـوـ لـزـيـارـةـ صـدـيقـ،ـ وـالـعـودـةـ بـتـكـسـيـ معـ إـطـلـالـةـ الـفـجرـ.ـ مـاـذـاـ جـرـىـ لـبـغـدـادـ؟ـ أـجـبـتـهـ بـمـاـ لـأـدـرـيـ مـنـ الـكـلـمـاتـ،ـ وـلـذـتـ بـحـجـرـتـيـ!ـ بـعـدـ ثـمـانـيـةـ وـعـشـرـيـنـ عـامـاـ تـعـودـ الـأـورـاقـ وـالـصـورـ الـحـمـيمـةـ إـلـىـ يـدـيـ وـفـيـ الـحـجـرـةـ التـيـ كـانـتـ فـيـهـاـ،ـ كـمـ هـيـ دـوـرـةـ الـدـنـيـاـ سـرـيعـةـ،ـ وـهـائـلـةـ الـاتـسـاعـ أـيـضـاـ؟ـ وـالـآنـ هـلـ اـسـتـطـيـعـ الـمـضـيـ فـيـ كـتـابـةـ الـرـوـاـيـةـ؟ـ نـعـمـ قـلـتـهـاـ عـلـىـ الـفـورـ،ـ رـحـتـ أـفـرـدـهـاـ أـصـنـفـهـاـ حـسـبـ مـحـتـويـاتـهـاـ،ـ وـجـدـتـ بـعـضـهـاـ قـدـ تـسـلـلـ إـلـيـهـاـ رـطـوبـةـ وـتـأـكـلـ وـلـكـنـ فـيـهـاـ رـائـحـةـ أـعـمـاـقـ الـأـرـضـ،ـ وـعـلـىـ الـعـمـومـ يـمـكـنـ قـراءـتـهـاـ،ـ رـائـحـتـهـاـ الـمـعـتـقـةـ الـأـوـلـىـ؛ـ بـعـثـتـ فـيـ نـفـسـيـ الذـكـرـيـ الـجـارـحةـ،ـ وـأـنـاـ فـيـ السـوـيـدـ عـرـفـتـ أـنـ عـوـاطـفـ تـزـوـجـتـ مـنـ ضـابـطـ فـيـ الـجـيـشـ يـسـكـنـ قـرـيـباـ مـنـ بـيـتـهـمـ،ـ لـأـدـرـيـ الـآنـ مـاـذـاـ حـلـ بـهـاـ،ـ أـحـيـاـنـاـ أـتـوـقـعـ أـنـهـاـ الـآنـ أـضـحـتـ أـرـمـلـةـ بـعـدـ الـحـرـوبـ،ـ وـرـبـمـاـ تـذـكـرـنـيـ،ـ وـقـدـ نـلتـقـيـ بـصـمـتـ،ـ هـذـاـ مـجـرـدـ أـحـلـامـ وـأـوـهـامـ!ـ أـحـيـاـنـاـ،ـ حـينـ أـتـذـكـرـ ذـلـكـ الـلـقـاءـ وـالـأـخـيرـ،ـ أـتـمـنـىـ لـوـ إـنـ كـلـ مـاـ عـشـتـهـ فـيـ أـورـبـاـ وـمـاـ مـنـحـنـيـ مـنـ أـفـكـارـ وـخـبـرـاتـ كـانـتـ لـدـيـ آنـذاـكـ،ـ هـذـاـ مـسـتـحـيـلـ طـبـعاـ،ـ لـسـبـبـ بـسـيـطـ وـسـاذـجـ:ـ الـمـسـتـقـبـلـ لـاـ يـأـتـيـ قـبـلـ الـمـاضـيـ،ـ وـلـكـنـ مـاـ لـيـسـ مـسـتـحـيـلاـ،ـ هـوـ أـنـ أـنـاسـاـ مـنـ جـيـلـيـ لـاـ يـعـرـفـونـ أـيـ شـيـءـ مـنـ أـفـكـارـ الـعـالـمـ تـصـرـفـواـ مـعـ حـبـيـاتـهـمـ بـمـاـ يـنـبـغـيـ،ـ حـتـىـ لـوـ تـقـوـاـ بـهـنـ فـيـ مـاـ هـوـ أـتـعـسـ مـنـ حـجـرـةـ حـارـسـ بـيـتـ الـأـثـارـ!

ربما كانت عواطف محققة في هجري، وربما كنت محققاً في تصرفي معها آنذاك حيث كنت موتنا أننا سنفترق، ولا نحقق الزواج المنشود لأسباب أخرى قوية وحاسمة. خارجة عن إرادتنا، فلم نزيد عذابنا بمشاعر وأحساس ملتهبة؟ لقد أحببها حقاً، لكن هذا ليس هو سبب عدم زواجي وبقائي وحيداً طيلة هذه السنين! فأنا أنسنت وحدتي وخلواتي، ملأتها بالعمل والقراءة والتأمل والموسيقى والنزهات بين الغابات والبحار! واليوم أنظر إلى ليلي، التي لم تتزوج لسبب خارج عن إرادتها أيضاً فأجد لها عجوزاً مهجورة منذ أمد طويل، فأحزن لها، وأحزن أكثر لأنني لا أستطيع أن أقرب من روحها الطيبة وهمومها الكثيرة، هي الآن تغمرني بالكثير من حنانها ورعايتها، ولكنني أخشى عليها، ماذا لو لسبب قاهر عدت إلى السويد فجأة؟ ماذا لو قتلت بانفجار، أو بمرض مفاجئ؟ كيف صار التفكير بنهاياتنا واجباً يومياً! هي وأقارب لنا نصحوني بالزواج " هنا الكثير من الأرامل والعوانس بذلك تعيل امرأة وترعى يتامي " وكانت أقول لهم: "يمكن مساعدة اليتامي دون الزواج من أمهااتهم!" نصحوني أن لا أكثر من الخروج درءاً للمخاطر كثيرة! هم محققون بذلك خاصة وإن ما في بغداد لا يسر ولا يغرى بتحمل العناء والخطر من أجله! نزلت إلى وسط المدينة مرات عديدة، تجولت في شارع المتنبي حيث المكتبات وأرصفة الكتب، وجلست في مقاهٍ يلتقي فيها أدباء وصحفيون، فرحت في الأيام الأولى، ثم أخذت المزعجات والألام تتواتي، ثمة مثقفوون وكتاب وصحفيون، بعضهم أصدقاء، وجدتهم قد تغيروا، كثيرون يكرهوننا، يقولون إننا عشنا مباحثات الخارج، بعيداً عن معاناتهم الطويلة والمؤلمة، ثم جئنا لننافسهم في حياتهم هنا؟ على ماذا ننافسهم؟ ماذا لديهم نحسدهم عليه؟ واقع معقد مريع وصعب الحل، لا يجوز نكران معاناتهم! ولا ينبغي المزايدة بالثورية والوطنية. لا أريد الدخول معهم في جدل مريض، والحديث عن الخنوع والتسليس والسكوت عن الظلم، والمنفي الذي كان احتضاراً طويلاً، وليس فندقاً بعشرة نجوم، كما اعتقادوا، لم أرد حتى على من حاول

استفزازي وتجريحي بفظاظة، أعرف أننا جمیعاً ظلمنا، وانتهينا إلى مصیر لم يكن بمکزل عن تقصیرنا جمیعاً. عدت من المنهی، وووجدت المنهی هنا أيضاً! صرت اشعر أن لا شيء يقعنی سوی الصمت والكتابه، قررت أن أمکث في البيت لا أخرج منه إلا لضرورة، حتى رياضه المشي التي احتاجها لمعاناتي من السکر وارتفاع ضغط الدم، لم تعد هنا ممکنة. ولکي اضمن عزلة هادئة قطعت الانترنت عن الكومبيوتر، أربك عملي انقطاع التيار الكهربائي بين ساعة وأخرى! ما زلت أجد في الذكريات ما يمنعني شيئاً من الفرح والأمل، أحس الآن ويدی على الأوراق القديمة العائده بتیار غامض یسری منها إلى قلبي، فهو شعاع يأتي من الماضي إلى الحاضر، فهو شعاع کدر قاس ینطلق من الحاضر إلى الماضي يستحثه للنهوض في أعماقی من جديد، شيء أعمق من الحنين، وأقرب للأمل. یبدو كلما تحطم شيء في الحياة، ثمة شيء آخر مهما كان صغیراً وكالنواة ینهض مكانه، ويکفي لشنданا إلى المستقبل! علني استطیع المضي في كتابة الروایة، وترتيب هذه الأوراق داخلها، وإذا وجدتها لا تکفي أو لا تبی بأحداثها سأقتدي بعلماء الآثار حين یسلدون ثغرات وتخرم النصوص من تحلیلاتهم ومخیلتهم وتوقعاتهم ثم یمضون دون کلل یفكون شفرات الماضي. سأحاول استخراج ما حدث لأجاثاً، أین ذہبت وماذا لقيت، حين اختفت، ومن يدری قد تكون أجاثاً لم تختف أصلاً، وإن الأمر کله لعبة ذكريات مريرة طاحنة، وإن صدیقی حارس الآثار أراد إشعال خیالی برواية مؤثرة آنذاک، أو هو ابتهال خاص بعواطف وقد شهدت الآثار لحظات حبنا الأخيرة؟ أو إنني في بحثی عن أجاثاً أبحث عن روحي المعدبة وقد صارت تحت كل هذا الرکام من الحجارة والأنقاض، وعن بغداد المهدمة موطن الروح مهما تبدلت عليها الأوطان؟ إنها لعبة أحزان على كل حال، لا أستطيع أن أجزم بشيء سوی بالكتابه نفسها وهي ستشق طریقاً لنفسها كما یشق السیل طریقه ولا ینتظر من یحفر أماته، لا شيء تبقى الآن سوی الكلمات!

صعد ماكس درجات السلالم متهالكا، يكاد ينهاز. دخل حجرة النوم، وتداعي على الفراش. انتفض فجأة وراح يرفع الأغطية؛ عل أجاثا تكون نائمة تحتها، ضحك من نفسه بمرارة كيف يختفي جسدها الضخم الجميل تحت هذه الأغطية الريبعية الخفيفة؟ هل سافرت إلى الشام واستقرت في فندقها المفضل في حلب؟ أم ركبت قطارها المفضل، الشرق السريع الذي تبدع فيه حبكات روایاتها، عائذة إلى لندن؟ ولكن لم يحدث بيننا أي خلاف أو شجار أو حتى تعكر مزاج، لتركني، حياتنا غاية في الصفاء والانسجام! ثم كيف تغادر الفندق دون أن تأخذ معها حقيقتها؟ فهي ما زالت مركونة في الزاوية وملابسها معلقة داخل الدولاب. والأهم من هذا كله كيف ترحل دون أن تأخذ معها آلاتها الكاتبة، مذ بدأنا العيش معا كنت أراها تحملها قبل أن تهتم بأمر حقيبة ثيابها، أكثر من مرة قالت لي: "أنا أتنفس هواء العالم من خلال الآلة الكاتبة، ومهما كان ولعي بالبيانو عظيم لكن تكتبات الآلة الكاتبة عندي أعظم من نغماته الساحرة! عليها أعزف سيمفونياتي الصامتة، حتى أبني صرت أسمى آلاتها الكاتبة بيانو أجاثا، كل روایاتها كتبتها بثلاثة أصابع تنقر عليها كمناقير عصافير الحب. مادامت الآلة هنا، فهي هنا أيضا". وجد أيضا قارورة العطر الصغيرة التي فيها فتات تساقطت من ألواح النسخة الآشورية لملحمة جلجامش، حفظتها كأنها تعويذة، تحملها معها أينما ارتحلت. بقاء القارورة هنا يعني أن غيابها لم يكن بإرادتها أو رضاها، هي تعرضت لخداع أو ضغط وعنف على الأغلب! هل هي الآن حية أم ميتة؟ نهض وقد دخلته قوة مضطربة. اخذ يتفحص الشرفة أدار نظره تحتها متفحصا رغم إنه مر في المكان قبل قليل، راوده هاجس رهيب أن تكون قد ألقت نفسها منها متصرحة. ولكن، هذا ليس مكان مضمون للانتحار، فهو ليس مرتفع كثيرا، سقطتها ستتصيبها بكسور فقط.. ولكن ما الذي يدعوها للانتحار؟ أليست هي سعيدة معي بعد زواجهها الفاشل من الضابط الإنجليزي، ولم تكن هي

السبب في فشله. كانت تقول دائمًا "أحس كأنني مررت بكل هذا العذاب والرحيل، والقلق لكي ألقاك، كأنني كنت أبحث عنك أنت بالذات، كلانا يبحث، أنت تبحث عن إله كبير تحت الأرض، ولم تجده حتى الآن، وأنا أبحث عن الله صغير فوق الأرض، ووجدته فيك!" كنت أعرف أنها قد قررت أن تجعل زواجنا سعيداً، لكنني كنت ألمس بين حين وآخر رغم سعادتها التي تبدو غامرة ثمة سحابة حزن تظلل وجهها تحت قبة القش الشمسي، حين نسب بين القبور، يعتريها ذهول مفاجع، كنت أعزوه لإدراكها المصير القاسي للإنسان: كومة صغيرة من العظام المنخورة! وكنت استغرب لماذا هي مولعة بحبكات الجريمة، القتل، والموت، الخطف والسرقة؟ ألا ينم هذا عن كونها هي أيضاً خائفة من الموت، خائفة أن تخطف أو تسرق أو تتعرض لأذى ما؟ هل ترى في الإنسان وحشاً كاسراً يتخفى خلف وجه رائق مزوق بحضارة ومدنية لم تصل إلى روحه، ولم تغير من حيوانيته؟ أحياناً أتصور أن أجاثاً مهما ابتسمت بوجه الناس فهي في قرارها نفسها ترى أن الإنسان كائن زائف دعي كذاب؟ وأنا ألسن أنساناً أيضاً؟ ومن يخاف من شيء قد يقاربه على سبيل التحدي، أو للانصياع والاستسلام له. ولكنني أظلمها فهي تثق في الناس كثيراً وتتفانى في جبهم وخدمتهم. ما هذه الأفكار السوداء التي صارت تزحم رأسي، ما هذا الذي يحدث يا أجاثاً؟ نهض من فراشه وألقى مرة أخرى نظرة من حاجز الشرفة على النهر، بين جدار الفندق والنهر حوالي ثلاثة، أوأربعين متراً، شاطئ رملي تتحلله حشائش وأجمات من شجر الطرفة والأشواك الخضراء، نوارس تحلق في أسراب ترسل صيحاتها، لأول مرة يحس أنها حزينة كأنها معه تنادي على أجاثا، نداءات وأغاني الصيادين والبلامين الذين يعبرون الناس بقواربهم جعلته يشعر بشيء من الطمأنينة أن هذه المدينة وديعة مسامحة حنونة لا تقتل الغرباء، لا تخطفهم ولا تسرقهم ولا تعتدي عليهم، وإن أجاثا في لحظة ذهول عن نفسها، هي في شرود وتجوال طويل، وستعود. نزل درجات السلالم مطمئناً بعض الشيء، وألقى نفسه على

الأريكة الجلدية السوداء في بهو الفندق، عاد يفكر، هل أخذتها في لحظة ما  
روعه بغداد وجمالها، اجذبتهما إلى أعماقها فراحت تائهة غائبة عن نفسها  
هائمة بجمالها الفطري البسيط تتجلو في أزقتها وحواريها تستدعي أطیاف  
وجوه ماضيها الشهير، وسحرها القديم، ألم تكن تقول بين حين وآخر،  
أحثنا يا ماكس نحن الآن في أرض ألف ليلة وليلة؟ في مدينة كانت عاصمة  
الدنيا، تصبح بأنوار الحضارة، قبست حضارتنا من نورها كما قبست من أنوار  
المصريين واليونانيين وغيرهم؟ لقد انكفت بغداد على نفسها قرونًا، وعليها  
أن ترد لها بعض فضلها علينا فتساعدها على النهوض من رقاد القرون الطويلة  
التي عاشتها غائبة عن العالم". لا، لا يمكن لامرأة تحب مدينة، أن تقابلها  
تلك المدينة بالغدر والعقوق فتقتلها، كما لا يمكن لأجاثا وهي تحب العالم  
بهذا القدر؛ أن تكره نفسها؛ وتتحرج! قر في نفسه كما لو كان يحلل لوحًا أثريًا:  
لم يقع لأجاثا أي سوء، لقد استدعتها روح بغداد، اجذبتهما كساحرة متمرة،  
فضاعت في أزقتها الملتوية المتشابكة فهي أغصان شجرة معمرة عتيقة. بعد  
قليل ستدخل علينا يقودها فقير درويش، آخر جها من خان أو نزل، أو تكية  
في مسجد قديم! قطع جرائيل أفكاره، وهو يسأله فجأة:  
- ألا أترى يا سيدي أن علينا إخبار الشرطة؟

أحس ماكس بصعقة، أعاده صوت عامل الفندق المشوب بقلق وخوف وأضحين إلى الحقيقة المرة، فأخذته رجفة في أطرافه، كان قد فكر بذلك قبل ساعة كيف تجاهل ذلك، لم يعد الأمر تحت قدرته لا بد من تدخل قوة أكبر، لقد تأخر كثيراً، هل حقاً أجاها قد اختفت؟ وهي الآن في وضع يستدعي تدخل الشرطة؟ هل قتلت أو خطفت أو انتحرت، واختفت إلى الأبد؟ لا هذا غير ممكן! لا أصدق أبداً. انبعث صوته واهنا، مع نفسه: قبل أن أخبر الشرطة علي أن أتصل بريتشارد، فهو أيضاً الموظف الذي يتبع عملنا رسمياً من السفارة البريطانية. هم بالنهوض، وجد جسده ثقيلاً، منكمشاً لا يكاد يطاووه، تحامل منهكاً، واتجه إلى تلفون الاستعلامات الأسود الثقيل، بدا

له في تلك اللحظة حيوانا شرسا مخيفاً. ولكن لابد له من استعماله. سمع صوت ريتشارد من مكتبه في السفارة يوظه من شروده:

- ماذا هناك يا ماكس، أنت بخير؟

لم يطأوه قلبه ولا لسانه للقول أن أجاثا قد اختفت قال:

- خرجت أجاثا من الفندق؟ دون أن تعلموني، طال غيابها، وإنني قلق عليها كثيرا.

مضى يرد بصوت واهن جاف على أسئلة ريتشارد. كان يتوقف، ليبلغ ريقه، يأخذ شهيق، ويعاود الكلام، فهم ريتشارد أن أجاثا مختفية منذ ساعات دون أن ترك أثرا:

- أنت يا ماكس وأجاثا تتصرفان وكأنكما في لندن، نحن نعيش في أرض أهلها يكرهوننا، ويناصبونا العداء، كن يقظا، سأخبر السفير، لتحرك بسرعة، وعلى أعلى مستوى. لا ترك الفندق، سأتصل بك، أو آتيك بنفسى الأمر خطير يا ماكس، خطير للغاية!

كان جبرائيل يتبعه بقلق، حين وجده يعود للجلوس في أريكة البهو، أسرع وجلب له قدحا من الماء، مع فنجان قهوة تركية، احتسى ماكس جرعات صغيرة من الماء، شعر بكلمات ريتشارد تدور برأسه، "أنت تهون الأمر" الوضع خطير "سأخبر السفير هذا الذي يسمونه مستر بینج بونج لولعه بلعبة كرة المنضدة، يقطع اجتماعاته المهمة ليلعب البینج بونج، هل سيحول أجاثا إلى كرة على منضدته، ويتبادل بها الضربات مع المسؤولين بهذا البلد؟ هل وصل الأمر إلى هذا الحد، هو يعرفه، أخشى أن يتعدد الأمر بدلا من أن يحل. ندم إنه أخبر هؤلاء العاملين في السفارة، ليته أنتظر أكثر، أين تكون قد ذهبت؟ ستأتي بعد قليل، أو حتى في اليوم التالي، ربما طرأ لديها أمر لا تريد أن تزعجني به. هي ذكية عاقلة وتتصرف هنا كرجل، رغم جمالها الأخاذ، وجاذبيتها الطاغية، وانبهار الرجال بها هنا، لكنهم لا يلبثون بعد دقائق من لقائها أن يتصرفوا معها بتهيب واحترام، وحذر. الإنجليز هنا يهولون الأمور،

هم تلقوا ضربات موجعة من أهل هذه البلاد، نتيجة سياستهم المتغطرسة، كم نصحتهم بالرفق بهم ومعاملتهم بأسلوب أفضل، حدثتهم عن تاريخهم القديم الراقي فلم يصدقوا، العراقيون وديعون مسالمون إذا لم تجرح كرامتهم، أنا وأجاثا لم نؤذهم؛ على العكس جئنا نخرج لهم تاريخهم العظيم من تحت التراب؛ ليعتزوا به، ويستعيدوا ثقتهم بأنفسهم، ولا يصدقون ما يقال عنهم من أنهم أقوام بدائية متوحشة، لا يرجى تقدمها! لا يعقل أنهم سيقتلوننا لقاء ذلك. العاملون في السفارة لديهم ضغائن متراكمة مع أهل البلاد، لذلك يخافونهم ولا يتوقعون منهم غير الشر، صار يهدئ نفسه. ظل لا يستقر، يجلس لحظات ثم ينهض، يصعد إلى الحجرة يدور فيها، ثم يخرج إلى الشرفة؛ يتطلع إلى الأفق لكنه هذه المرة راح ينظر إلى الأرض، صعق مرة أخرى وراح قلبه يخفق بقوة، انحنى قليلاً، جئنا متهاكماً، وجد قطرات دم أسفل الحاجز، حدق بها، مسها بطرف إصبعه، قدر أنها لم يمض عليها وقت طويل، بل وجدها نقاط متقطعة مكونة خيطاً أحمر قان يمتد حتى مخرج الشرفة، طمأن نفسه، هي قطرات صغيرة، قد تكون سقطت من طير جريح عابر، أو قطة نطت من شرفة مجاورة. لا، إنه دم أجاثا، دم إنساني، لا يمكن أن يكون دم طير أو حيوان، ماذا؟ أ تكون قد طعنت؟ لكنه دم قليل، لا ينم عن طعنة دامية قاتلة! أقرب لجرح صغير، هذا نذير شر كبير. انحنى محاولاً شم قطرات الجافة. أحس أنه يعرف رائحة دمها، وكيف لا يعرف رائحة دم هذه المرأة الجميلة التي أحبها من أعماقه، ووجد فيها الأم والحبية والصديقية؟ كيف لم أحس بما حدث؟ أكان نومي ثقيلاً إلى هذا الحد، كم كان مشئوماً عملي الطويل نهار أمس فأسلمني للنوم؟ ألم تصرخ أجاثا حين طعنت، أو اقتيدت لمكان ما، هل كمموا فمها؟ كيف أنزلوها؟ وخرجوا بها من الفندق وموظفو الاستعلامات كما عهدهم يقطظون حذرون، لا يتوانون عن تناوب مراقبتهم وحراستهم لمداخل ومخارج الفندق؟ هل شدّها الخاطفون بوثاق وحبال وأنزلوها من الشرفة إلى الشاطئ، وهربوا بها بقارب، هل هذا معقول؟ ولكن إذا لم يكن

هذا قد حدث، أين تكون قد ذهبت؟ امرأة تختفي فجأة ولا تترك خلفها سوى قطرات دم، لا بد أن من فعل هذه الجريمة هم جماعة منظمة، اختطفوها ليطلبوا فدية، ألم يحدثنا الراهن بهنام في نينوى: أن "المنقبين جاءوا يسرقون كنوز البلاد، ونهب ثرواتها" هذه ليست قناعته بقدر ما هو تحذير لنا وحرص علينا، سمعت من كثيرين هنا، عراقيين وعرب وحتى أجانب، أن المنقبين الألمان تواطئوا مع الحكام العثمانيين على سرقة وتهريب آلاف القطع الأثرية الشمينة من آثار سومر وبابل إلى برلين، أخذوا حمولات سفن كبيرة من أحجار وألواح العراقيين القدماء، كان الولاة ورجال البيت العالي قد باعوا الكثير من تاريخ العراق إلى الأجانب، أو في الأقل غضوا الطرف عن سرقته، بحججة إنه تاريخ وثني قام قبل الإسلام! نحن اليوم متهمون بهذه الجريمة أيضاً وعلينا أن ندفع الثمن. ولكن حتى الآن لم يصلني شيء من الخاطفين، فهم حتماً يعرفون رقم تلفون الفندق حتماً. أم لم يمر وقت كاف بعد، ستصل رسالة تضمن مطالبهم لنتظر، أم إنهم خطفوها انتقاماً من الإنجليز وسياساتهم التي تثير سخط الكثيرين من الأهالي هنا؟ وسيرسلون لنا جثتها بدلاً من رسالتهم التعيسة؟ رغم بعدينا أنا وأجاثا عن السياسة، والسياسيين وانهماكنا في أعمالنا العلمية، تداهمنا السياسية ومصائب السياسيين، لكن قد لا يكون هذا الدم دمها، وكل ما أفكر به هو مجرد تهؤات وأوهام، انحنى عليه مرة أخرى، إنه دمها، وهو يذكرني برحيل زهرة فواحة كبيرة تماماً الكون بعطرها وجمالها، لا هو ليس رائحة جسد يموت، إنه رائحة جسد حي معافي قوي يعصي على الموت، لكنه حين نهض وواجه الأفق الفسيح الفارغ العميق للمدينة، اجتاحته موجة أخرى من الخوف، وجد في هذه القطرات القليلة إعلاناً صامتاً بموتها أو نهايتها! جرح في رقبتها من قبضة كتمت أنفاسها وخرجت بها إلى سيارة أو قارب، والمحظيون عصابة، هكذا تراءى له ما جرى! تفجر يأسه، تأكد له أن شراً كبيراً قد وقع لأجاثاً، راح يردد وبصوت مسموع "ريتشارد محق، الوضع خطير والإنجليز مهما فعلوا من خير لأهل هذه البلاد، هم

مكروهون، ومستهدفون منهم "فجأة نهض دون وعي، هرع مسرعاً غاضباً إلى إدارة الفندق، وجد مدير الفندق أمامه، هو أيضاً كان قلقاً يكاد يسحقه الهم والخوف، أن تفقد أو تخفي امرأة أجنبية من فندقه؛ تلك ضربة ساحقة له ولعمله، وقد تكون نهاية لمستقبله كله. انبرى ماكس:

- ما حدث لأجاثا سببه إهمالكم! كيف تدخل إلينا عصابة من القتلة ولا تحسون بها؟ ثم أنتم حتى الآن لم تفتشوا كل حجرات الفندق، اكتفيتم بالبحث عنها في المطعم والبار والممرات وبعض المرافق.

كان المدير، يصغي إليه مرتبكاً ممتعق الوجه يحار ماذا يقول، فهو أيضاً قد رأوه ما حدث وأضره كثيراً، سيتعرض لتحقيق طويل وسيستغله خصومه ويشنعون به، سيحكم بالسجن. في الأقل سيدان بتهمة الإهمال وعدم مراعاة قوانين العمل، فالسلطة هنا لا بد أن تخرج بشيء يرضي الأجانب، وهؤلاء الإنجليز لا يرحمون، لم يجد سوى أن يزيد من الانحناءات والابتسamas المرتجفة الحزينة وكلمات:

- اطمئن يا سيدى، هي بخير، ربما هي في ضيافة أسرة أجنبية أو عراقية، وليس لديهم تلفون ليعلموننا، لنتظر، يا سيدى!

قال ماكس بحزن:

- أنت لم تفتشوا جميع حجرات وزوايا الفندق، أعتقد أن أجاثا قد تعرضت لاعتداء شنيع، خطف، أو قتل من يدرى! وربما هي والجناة لا زالوا في الفندق.

- يا سيدى، جميع الغرف مشغولة من نزلاء محترمين، وحسب القانون لا يجوز تفتيش حجراتهم إلا من قبل سلطة مأذونة، ومع ذلك فتشنا الكثير من الحجرات التي غاب عنها أصحابها لحاجة ما، كما ليست لدينا غرف خالية!

توقف ليبتلع ريقه الجاف مضيفاً:

- يا سيدى لقد فتشنا حتى المخازن والزوايا المغلقة، واستطعلنا السطوح

المجاورة فلم نعثر على شيء، والأهم لم نجد أي أثر مقلق يدل على حدوث جريمة، اطمئن يا سيدى ستنظر السيدة أجاثا عما قريب!

لم يتحدث معه بشأن قطرات الدم، خشى أن تعبث بها الأيدي قبل أن تتفحصها الشرطة المختصة، تركه يتكلم لوحده وخرج مسرعاً، اتجه إلى خلف الفندق، المكان الذي يقع تحت شرفة حجرتهم حيث كانت أجاثا تقف، وحيث وجد قطرات الدم. راح يدور وحده متفحصاً الأرض الرملية، وما حولها، لم يوجد ما يدل على أن أحداً قد مر فيها، لا وجود لأثر أقدام أولئك الرجال الذين تخيلهم ينزلون أجاثا من الشرفة العالية لطابقين ويقتادونها إلى قاربهم، كانت الحشائش والنفايات القليلة المتباشرة فيها على وضعها العادي والطبيعي لم تمس، ولم يتعرض أي جانب منها لما يطمسه أو يهشمها، ومع ذلك حادر ماكس أن يجوس فوقها، متذكراً أن تحقيقه الآثاري، هو غير التحقيق الجنائي، أستطيع التحقيق في كسر بجمجمة قديمة جداً، من قبل التاريخ، لكنني لا أستطيع التحقيق بوضع جمجمة في هذا الزمن. ولمن؟ لأجاثا أعز إنسانة في حياتي! كانت هي من يحقق في مقتل أبطال روایاتها، فتصير اليوم ضحية، أين المفتشون الذين ابتدعوهم: هركيول بوارو والكولونيل برس ومس جين ماربل، والذين كانوا يحلون الغاز وطلاسم جرائم روایاتها الغريبة! كم أنا اليوم بحاجة لهم ولبراعتهم المذهلة في الكشف عن القتلة، وأجاثا بحاجة لهم، كأنه نسي أنها هي التي خلقتهم! لا، لا توجد جريمة. هي حية سليمة، معافاة، وستأتي بعد قليل هي فقط في شرود وغياب عن نفسها؟ ألم تخفي عام 1926 في لندن، ثم وجدت سالمة؟ ظلت ضائعة عشرة أيام لا يعرف أهلها وأصدقاؤها عنها شيئاً، آنذاك اشترى الشعب البريطاني في البحث عنها، فهي كاتبهم المفضلة، أنيستهم في ليالي الوحدة والبرد والضباب، ولكنهم بحثوا عنها في بريطانيا وليس في العراق، بين هؤلاء الناس الغامضين الذين كلما قلت إنني عرفتهم حين عاشرتهم ونقيبت في تاريخهم، أجدني اليوم لا أعرفهم، ولا أدرى ماذا كانوا يخبئون لي ولأجاثا.

ماذا سيقول الإنجليز حين يسمعون باختفائها، أو خطفها، أو مقتلها؟ بالطبع ستكون صدمة كبيرة لهم، يغضبون ويحزنون كثيراً، اليوم من غير المعقول أن يركبوا جميعهم قطار الشرق السريع ويأتون إلى بغداد للبحث عنها، ستتطلع أنظارهم إلينا، أنا وريتشارد والسفير بینج بونج للعنور عليها، ولكن الآن ما الذي يجعل أجاثا تصاب في بغداد بالذهول وتنسى نفسها ولا تعرف أين تكون؟ كل ما شتت ذهنها وأضاعها آذاك قد ولى وانتهى، فالآلم التي خافت أن تفقدتها، قد توفيت، بكت عليها وحزنت كثيراً، ثم صمتت. والزواج الأول فشل وانتهى بطلاق قانوني ومعه طويت صفحة من الآلام والدموع والندم. والصدمة العاطفية التي قيل إنها السبب الحقيقي لشروعها، لم أمس لها أثراً طيلة فترة زواجهما السعيد! ورغم إنها تكبرني؛ لكنني أراها دوماً يافعة شابة، وأتلقى منها حب الزوجة، وحنان الأم، كيف لا أعشقها وأعبدها؟ لا أعتقد إنني قصرت معها في شيء أو أساءت إليها، لتصدم، أو تعيش لحظة كآبة قاتلة. في ذلك الاختفاء تركت سيارتها على الطريق وقد فقدت الذاكرة، وكانت تسأل المارة؛ من أنا؟ أتعرفونني؟ حتى لقيها أحد أقاريبها مصادفة وأتى بها إلى بيتها! اليوم لو كانت قد فقدت ذاكرتها وتاهت في شوارع بغداد ستسأل بعربي مكسرة، من أنا؟ أين أنا؟ من يقودني إلى مكان؟ وسيفهم من تسأله وضعها وسيأتي بها إلى أي فندق يعتقد أن الأجانب ينزلون فيه، قد يكون فندقنا، وقد يكون آخر، وسيعرفونها! أو يمضي بها إلى السفارة البريطانية أو إلى أي مركز للشرطة، هذا إذا لم يكن يطمع بمكافأة. أو يخشى أن يصمه الناس بالخيانة لأنه اقتاد إنجليزية إلى سفارة بلادها. تجادب ماكس خاطر آخر؛ تكون أجاثا قد ذهبت إلى مصر؟ تذكر كلاماً قالته في جلسة لهما قرب أطلال نمرود في الموصل: أتمنى أن أقوم برحلاة أخرى إلى مصر، حتى أنت سأجئك بها يا ماكس! رائحة النيل ونخيله وقواربه وغناء الملائكة والصياديون ما يزال يملأ جوانحي سحراً وغموضاً. أريد أن أكتب المزيد عن شخصيات من تاريخه، اختاتون بعد أن كتبت عنه صار صديقاً قديماً لي، يطيب لي أن أتحدث معه

دائماً، تعرف أنا لا أتناول قضايا أهل بلد الحالين في رواياتي لكنني أجده في التاريخ القديم ينبعاً ثرا الحبكات مثيرة، لا يبين من الأهرامات العظيمة سوى الثالث. ما تحت بحراً الرملي الثلثان، فيما الكثير من حكمة البشر، وألامهم! سحرني العراق القديم فرأيته من داخله، ومنعني أقصى الخيال، أريد أن أراه من مصر، كما رأيت مصر من العراق، أريد أن أسافر إلى البلدان الذي بزغ منها فجر البشرية، إلى مصر، أدور حول الأهرامات، صروح وادي الملوك، إلى بقايا حضارة المايا في أمريكا اللاتينية، إلى سور الصين، وقصور الهند العتيقة، أحاول أن أشم كما الكلب البوليسي تلك الرائحة المنبعثة منذ آلاف السنين من الدم المسفوح ظلماً، والعرق النازف من أجساد الفقراء وهم يموتون جياعاً ليثروا قصوراً وقبوراً للملوك! وقتلتهم الكبار! يا عزيزي ماكس، الجرائم الصغرى لم تعد حبكاتها تغريني، أرى كتابتي لها كمن يصيد الأسماك الصغيرة في البحر، خائفاً من مصارعة الحيتان وال코اسج! أتطلع لروايات تكشف كم صنع جبابرة الماضي وطغاته، من مظالم وقسوة وعنف العاضر. أتبع خط الشر منذ بدء البشرية حتى اليوم. شهدت حربين عالميتين، ملاييناً حزناً وغضباً، جعلتني أرى أن الجريمة ليست فقط تلك التي يرتكبها أناس تعساء، ضحايا مجتمعاتهم وأقدارهم، ينفذونها بالأسلحة الصغيرة، بل هي تلك التي يرتكبها رجال كبار منهم الناس ثقتهم واحترامهم وهم عادة لا يعرفون استعمال المسدسات، أو السهم، بل يعرفون استعمال الطائرات والدبابات والغواصات، ويحملون ألقاباً كبيرة جداً، ملوكاً ورؤساء وزعماء! لذلك فإنني إذا أردت أن أكتب رواية الجريمة المعاصرة فإن علي أن أبحث عن القتلة الكبار المختبيئين كالشعالب في شقوق التاريخ، وجحوره المظلمة، أطمح لرواياتي المقبلة أن تطيح بكثير من الألقاب والتماثيل المقدسة! أ تكون أجاهاً قد ذهبت إلى مصر؟ إلى الصين؟ إلى قصور المهراجات في الهند قاطعة آلاف السنين إلى بدايات حضارات البشر، ترصد القضايا الكبرى، باحثة عن المتجررين، القتلة الكبار؟

**السفير البريطاني يقول للباشا نوري السعيد: حتى إذا وجدتموها ميتة، فريدها منكم حيّة!**

استمع السفير البريطاني، الملقب بالمستر بونك متحفزاً، لريتشارد وهو يبلغه اختفاء أجاثا كريستي، ووجهه الغليظ يزداد حمرة مع كل كلمة ينطق بها، رفع سماعة التلفون على الفور، ليكلم الباشا نوري السعيد رئيس الوزراء، رجالهم في بغداد كما يقولون:

- حدث خطير وقع لمواطتنا العزيزة أجاثا كريستي الكاتبة العظيمة، على أرضكم؛ خطفت من فندق تايكير بالاس، إنها إحدى درر التاج البريطاني يا باشا، أملبي بشجاعتكم وإخلاصكم لبريطانيا العظمى، أن تجدوها وبأسرع وقت!

وبما إنه مولع بلعبة البنج بونج فقد رد الكرة الوهمية لوحده:  
- لا تقولوا لنا إنكم عجزتم عن العثور عليها، لا أريد القول جدوها لنا حية أو ميتة، أريدها حية يا باشا، حية. حتى إذا وجدتموها ميتة. هذه أجاثا كريستي فخر الإنجليز. شكسبير على هيئة امرأة معاصرة يا باشا! انتقض الباشا:

- امرأة أجنبية تخطف في العراق؟ هذا غير ممكن، خطف الأجانب ليس من أخلاق العراقيين!  
لكن السفير قال:

- هذا ما حدث يا باشا، قبل قليل أعلمنا زوجها المقتب الآثاري ماكس مالوان إنها منذ الصباح الباكر قد اختفت، وقد بحثوا عنها كثيراً، دون جدوى، وحتى الآن، ونحن في منتصف النهار؛ لا أثر لها!

صمت الباشا متذكر محاولاً إخفاء انفعاله. أحس بأن ما حصل هو اهانة شخصية له وللدولة، الباشا الذي لا يفكر سوى في السياسة راح يفكر لو حدث هذا حقاً فهو جريمة سياسية، المعارضة التي عجزت عن النيل من سطوة دولتنا؛ أرادت أن تمرغ سمعتنا بالوحش، اختارت هدفاً كبيراً، ليس لأنها

كاتبة فأنا لم أقرأ لها، حتى شكسبيرو لم أقرأ له سوى مسرحية "تاجر البنديقة"، ومسرحية "روميو وجولييت" لم أستطع إكمالها لميوعتها. الضحية كبيرة لأنها امرأة إنجلزية مشهورة في بلادها وأوروبا، هي صيد ثمين لمن يريد أن يساومنا عليها، قتلها أو إياذها سيجعل الإنجليز والأوربيين يتساءلون، كيف تقولون إننا صنعنا دولة قوية متحضررة اسمها العراق؟ أين رجلكم القوي في العراق المدعو نوري السعيد؟ هي ضربة سياسية محكمة لي شخصياً، سيظهرون بعد قليل يطالبون بشمن سياسي: افسخوا عقود شركات النفط لنطلق سراحها، أطلقوا سراح السجناء السياسيين لنطلق سراحها، الغوا سجن نقرة السلمان، أو من يدرى يجعلونها قضية أكبر، ارفعوا أيديكم عن فلسطين، الغوا مشروع تقسيمها، لنطلق سراح أجاثا كريستي، هم يريدون تشويه سمعتنا في العالم، جرجرة سمعة الدولة والإنجليز في أوحال العراق! رفع سماعة التلفون، كان الوصي عبد الإله على الطرف الآخر، جلس لتوه على مكتبه بعد وعكة ألمت به في مساء أمس، حدثه بما سمعه من السفير الإنجليزي، بعد صمت قصير، جاء صوته واهنا برما:

- هذه قضية خطيرة، ثقتي كبيرة أنك يا باشا ستواجهها بالحزم المعهود فيك! موفق إن شاء الله، أعلمك بما يتحقق أولاً بأول، دمت بخير، وأغلق التلفون.

صفن الباشا لحظة، خطر له أن يخابر وزير الداخلية، تذكر إنه هو البasha نفسه في هذه الأيام يحمل حقيبة وزير الداخلية أيضاً، ربما يعين وزيراً جديداً بعد أيام، وجد نفسه منفعلاً مرتبكاً على غير عادته، لكنه تذكر قضية الدكتور موزي؛ فعادت نفسه للهدوء والطمأنينة، فهي تكشف له قوة دولته وسلطته عليها، أخذ يستعيدها في ذهنه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا وسرور. الدكتور موزي هو رئيس الاتحاد السويسري الأسبق، استدعته الحكومة العراقية للاستفادة من خبراته في بناء الدولة السويسرية التي يقولون أنها تعمل مثل الساعة السويسرية عليه يساعدهم في بناء الدولة العراقية؛ لتكون كالساعة

السويسري أيضاً، ولم لا؟ أحلام الرجال يجب أن لا تقف عند حد! كانوا قد أعدوا للدكتور موزي جناحاً في فندق تايكرو، نفس الفندق الذي احتفت منه أجاثا كريستي، في اليوم التالي لوصوله راح يتجلو في شوارع بغداد يتفحص المدينة عمراناً وشوارعً وساحات، محدقاً في جوه الناس وثيابهم وتصرفاتهم مثل خياط يتفحص جسداً ليحيط له بدلة أو دولة ثلاثة، وعلى مقاسه، في لحظة تفكيره البيروقراطي امتدت يد نشال بغدادي ماهر إلى جيبيه، ونشلت محفظته الممحشة بالعملات الصعبة. وصور زوجته وأبنائه، بل أن النشال استغل شروده العميق وقد تصوره يمشي وهو نائم، ومد يده في جيبي الآخر ونشل بخفة الساحر جواز سفره وقيمة عطر وحلقة زواجه الذهبية التي كان قد وضعها في جيبي بعد أن أحس أنها صارت ضيقة وقد أخذ جسده يسمن ويترهل! هرع الخبير السويسري إلى نوري السعيد الذي كان يتتابع عمله مباشرة متظراً منه دولة عراقية نظيفة نزيهة معلنًا أمامه بهلع وخوف أن يتخلّى عن مهمته "دولتكم التي شوارعها يسرح فيها نشالون يسرقون حتى حلقة زواجي؛ لا تصلح أن تعمل كالساعة السويسرية، هي لا تصلح لها سوى ساعة رملية!" ضحك الباشا وراح يهدئه، قال له أذهب ونم لي تلك هانتا غدا ستكون المحفظة والحلقة والصور كلها عندك. اتصل ببهجهت العطية مدير التحريرات الجنائية: "أريد كافة المسروقات من الضيف السويسري على مكتبي وخلال أربع وعشرين ساعة". أتصل العطية وعلى الفور بضابط الشرطة عبد الرحمن السامرائي المحقق لمجرب في السرقات له: "الباشا يريد المسروقات على طاولته غدا، وإلا فستحلون الليلة كلّكم ضيوفاً عندي في سجن الدائرة!" استدعى السامرائي عدداً من قدامى النشالين في المنطقة وشرح لهم الأمر وهددهم "هذه المرة لا تساهل، سأضعكم في السجن المؤبد؛ إذا لم تأت المحفظة قبل الساعة العاشرة صباحاً" طلب منه أحدهم أن يجمعه بالضيف السويسري ليفهم منه أين سرق، وكيف. اصطحبه إلى الفندق رفقة مترجم والتقي مع السويسري وراح يحاوره، وأخيراً التفت النشال المتقدّم إلى

- المحفظة يا سيدى عند (يوسف الأشراح)، فهذه طريقة في النسل  
انطلقوا للبحث عنه، علموا من أهله انه سافر إلى البصرة، عرفوا أنه  
يريد أن يصرف المال المسروق في ملاهيها ومواخيرها الكثيرة. سجلوا  
أوصافه وشكل ملابسه، وتوجهوا إلى القطار، استطاعوا تشخيص النشال  
والقاء القبض عليه في محطة على منتصف الطريق، فعادوا به مقيداً،  
وفي الساعة التاسعة صباحاً من اليوم التالي كانت المحفظة والمسروقات  
الأخرى على طاولة البasha، فسلمها بنفسه للكتور موزي، دهش وقال  
مبتسماً فرحاً:

- لماذا استدعيني لتنظيم دولتكم؟ إذا كانت تعمل بكل هذه الدقة  
والحرص؟ لا تستغرب إذا قلت لك إن البوليس السويسري لا يستطيع  
أن يحسم مثل هذه القضية بأقل من خمسة عشر يوماً، وقد لا يستطيع  
الوصول إلى الجاني! عند عودتي سأقترح على صناع الساعات في سويسرا  
أن يضبطوا ساعاتهم على حركة دولتكم.

رد البasha وقد ارتسم حزن على وجهه:

- لا تصيينا بالغرور أيها الرئيس الكريم، ما نزال نحتاج لخبراتك، فلدينا  
"بلاوي ومصايب" الملائكة والشياطين معاً، ونحتاج لماء البحر كله؛  
لنظهر دولتنا وببلادنا منها!

عندما تذكر البasha قضية الدكتور موزي هداً واطمأن قائلاً في نفسه، لا  
يمكن لأحد في بلدنا أن يهنا بسرقة محفظة، فكيف بامرأة، وكاتبة مشهورة؟  
سنكشف هذه الجريمة خلال ساعات أيضاً! تناول تلفونا آخر، طلب بهجت  
العطية مدير التحريات الجنائية المسئول عن الأمن العام في البلاد، إضافة  
لرئاسته الشعبة الخاصة المعنية بأنشطة السياسيين المعارضين خاصة  
الشيوعيين، لم ينس البasha كعادته أن يقرعه؛ ولو بشكل خفي:  
كيف يا بهجت تخطف من تحت انفك سيدة إنجليزية؟ أتعرف كم يبعد

فندق تايكير عن مكتبك في السنك؟ بضعة أمتار، فقط لا غير، هذه ضربة كبيرة لنا، كيف يطمئن الإنجليز الذين يعملون على استخراج النفط في كركوك والبصرة؟ كان العطية يعرف طريقة الباشا في تكليفه بالمهام الخطيرة لذلك، فهو يظهره مقصراً أولاً، لذا هو يصمت ويصبر عليه حتى يقول المفيد:

- لقد اختفت سيدة إنجليزية تدعى أجاثا كريستي، هي مشهورة، يقولون إنها كاتبة كبيرة، منذ الصباح الباكر من فندق تايكير ولا أحد يعرف عنها شيئاً، أريدك أن تجدها حتى لو كانت تحت الأرض، أريدها حية معافاة يا بهجت، لا أريدها تصاب بأذى بأية مواجهات مسلحة. حتى إذا وجدتها ميتة؛ أريدها منك حية! لا تجعلونا نبدو ضعفاء أمام بريطانيا.
- والعطية يقول بين جملة وأخرى:
- صار سيدي، تأمر سيدي!

### اختطفها الشيوعيون ي يريدون إنهاء الاحتلال الإنجليزي، وبعد الاحتلال السوفيتي، ما الفرق بين رمضان ونار؟

نهض العطية من وراء مكتبه، أشعل سيجارة، توقف برهة وسط الحجرة، المكسوة أرضها بسجادة رخيصة بدأت تتهراً لكثره تجواله العصبي عليها في كل أعماله ومهمااته الصعبة عادة، مضى كعادته يجول عليها جيئة وذهاباً، نافثاً الدخان بمزاج فرح! من يخطف امرأة إنجليزية لمساومتنا عليها غير الشيوعيين؟ لعبة يائسة تورطوا بها بعد الهزائم التي منوا بها! هذه فرستنا لإنزال آخر ضربة بهم، فستكون ماحقة حاسمة هذه المرة، خضعت حكومتنا لضغط الإنجليز وخفضت عقوبة الإعدام بحق فهد قائدتهم إلى المؤبد بحجة أنها لا تريد تعريض سمعة بريطانيا لما يضرها بعد الحملة العالمية التي نظمها السوفيت لإنقاذ عميالهم في بغداد، كانت خطوة خطأة، من حكمتنا الرشيدة، فهمها الشيوعيون أنها دليل ضعفنا وخوفنا من السوفيت المتتصاعد

نجمهم بعد الحرب، فتمادوا في نشاطهم لهدم أسس دولتنا، هم ينادون بجلاء الإنجлиз، لكنهم يريدون هيمنة السوفيت، ولا يخفون ولاءهم لستالين، ولو لديهم دور عبادة لصلوا له فيها، اعترف بعضهم أمامي أنهم يسجدون أمام صورته في أوكرارهم السرية التي أسلقوها فوق رؤوسهم، ما الفرق بين هيمنة وهيمنة؟ وما بين الاحتلال والاحتلال؟ أليسوا كلهم أجانب يفضلون مصالح بلدانهم على مصالحنا نحن الصغار المستهدفين في هذا العالم؟ يريدوننا أن تكون كالمستجير من الرمضاء بالنار! سألهي القبض على آخر أعضاء خلية لهم، وأنزعز الرهينة حية معافاة من قبضتهم، وقبل أن نجلدهم سيعرفون أنهم تلقوا رسالة من فهد وهو في سجن الأحكام الثقيلة يأمرهم بتنفيذها لهدفين: إذلال بريطانيا وتمرير سمعتها بالوحش، وإظهاري مع الحكومة عاجزين عن تحقيق الأمن لا للأجانب ولا للمواطنين! سوف لا تجد حكومتنا مناصاً من إعادة محاكمته، وثبتت حكم الإعدام عليه لكونه مارس نشاطه الإجرامي الهدام من السجن، بعد الرأفة به! وستنفذ الحكم بأسرع وقت، سأقوم بنفسي بلف حبل المشنقة حول عنقه، وأشفى غليلي منه، ذلك حلمي الكبير! عاد وجلس وراء مكتبه، أخذ يستدعي كبار مساعديه، اجتمعوا في حجرته، بعضهم لم يجد مكاناً على الأريكتين الجلدتين السوداويتين المتقابلتين فظل واقفاً، سحابة من الدخان ملأت الخجرة، والهواء الريبيعي كان ساكناً هنا اليوم، كأنه في وجوم معهم. التحق بهم مدير الشرطة. وممثل عن وزارة العدل، لم يطل اجتماعهم، شكلوا فريق عمل يمثل مختلف الاختصاصات والصلاحيات ليقوم بالتحقيق بدءاً من فندق تايكر كان العطية يؤكده: حققوا كما تشاءون، لكن لا تنسوا أن هكذا جريمة، ضحيتها إنجليزي، وراءها دافع سياسي! من هم أعداء دولتنا الذين أوقفوا كل حياتهم ونشاطهم على هدمها؟ إنهم الشيوعيون! وبينما هم يهمون بالخروج جاءت سيارة السفارة تحمل ريتشارد، وبعض الموظفين الإنجليز والمترجمين العراقيين، فالتحقوا بهم وتوجهوا بسياراتهم إلى الفندق. سمع ماكس لغطا وهياجاً، ظن أن أجانا

قد جاءت؛ وهم يستقبلونها في الفندق فرحين مبتهجين نزل السلم مسرعاً مبتهجاً، فواجهه على السلم جبرائيل ليقول له:

– جاءت الشرطة، ورجال من الحكومة، وهم يريدونك!

هبطت قواه، وصار لا يكاد يتوثق من موضع قدميه، وجد أمامه مجموعة من الرجال بثياب مدنية، تحف بهم شرطة برتب مختلفة، يتقدمهم ريتشارد، أقرب من ماكس ليقول له:

– لا تستهن بالأمر، لتحرك بسرعة، يبدو أن أجاثا تصرف بإهمال، أرأيت؟  
هذه هي مساوئ عدم الاهتمام بالسياسة!

خفق قلبه بوجع حتى إنه وضع يده على صدره، امتعض من ريتشارد الذي لا يكف عن تقريره حتى في هذا الوقت. أخذ ثلاثة رجال يتناولون على سؤاله: متى شاهدتها آخر مرة؟ ألم تسمع أصواتاً أو ضجيجاً؟ هل نومك ثقيل؟ خفي؟ بماذا حدثك ليلة أمس؟ هل لكما خصوم أو أعداء، هل تلقيتما تهديداً؟ وبينما كان يجيب على أسئلتهم ويجاريهم في آية تفاصيل صغيرة يستفسرون عنها، كان يتضرر أن يطلبوا معاينة حجرتهم، وشرفتها؛ ليدلهم على قطرات الدم، وحين وجدهم يستغرقون بأسئلتهم التي وجدها بعيدة عن ما هو مهم في القضية قال:

– هناك قطرات دم وجدتها حيث كانت تقف.

صمتوا وأخذوا ينظرون في وجوه بعضهم، نهضوا وراحوا يصعدون مسرعين سلم الفندق، اقتادهم إلى الشرفة، تفحصوا قطرات الدم ورسموها، بالقلم الرصاص، سجلوا شيئاً، وراحوا يرتفعون البصمات من على الحاجز، وشيئاً من الدم، تتبعوها، وجدوها لا تستمر سوى خطوات قليلة. تقطع قرب مدخل الحجرة! خطر للمحقق إنه قد يكون ترشح من العادة الشهرية، عاينوا أرض الحمام لم يجدوا دماً. فسأل المحقق: كم عمرها؟ رد ماكس: 58 سنة! هز المحقق رأسه قليلاً، هل رأيت أحداً يحوم حولها، ينظر إليها بطريقة مريبة أو غريبة؟ سأله أحد المحققين: هل شاهدت في الفندق من ينظر إليها بطرق

غريبة؟ تذكر إن جبرائيل ينظر إلى أجاثا طويلاً أحياناً. كان آنذاك يفسرها على أنه هيام شاب مراهق بامرأة جميلة مثيرة رغم سنه المتقدم، لكنه الآن وجد نفسه مضطراً لأن يفكر بشكل آخر؟ هو الآن يفرق ويتمسك بقصة، من يدري؟ قد يكون هو من جذبها لإحدى حجرات الفندق ليقوم بعمل دنيء، وحين قاومته قتله؟ أيعقل هذا؟ هو شاب وسيم ودبيع نظراته دائمًا حزينة شاردة، يقرأ روايات أجاثا، يعاملهما باحترام وتهذيب، ولم ير منه تصرفًا فظًا، كيف يقدم على هكذا جريمة؟ قرر أن يقول لهم ما لحظه عنه، وهم سيقدرون الأمر:

- لاحظت أن نادل المطعم جبرائيل يطيل النظر إليها أكثر من المعتاد!
- كيف يتعامل معكم العاملون في الفندق؟
- عموماً بشكل طيب، لكنني تحدثت مع المدير حول ما وجدته تقصيراً في تفتيش الفندق، ولا أدرى أن كان ثمة تقصير أو عمل مقصود سابق لما حدث لأجاثا!

استدعوا مدير الفندق، اختلوا به لأكثر من ساعة في زاوية من المطعم، ثم قاموا بجولة معه في طوابق وأرجاء الفندق، ومرروا على حجراته واحدة بعد الأخرى، ثم صعدوا إلى السطح، مستطعين جوانبه وموقعه. استدعوا موظف الاستعلامات:

- ماذا شهدت عند باب الفندق بين السادسة والسابعة صباحاً؟
- أنا متأسف تركت مكاني في هذا الوقت، شعرت بوجع في بطني، واضطررت أن أضطجع قليلاً في حجرة استراحة عمال الفندق. ولم ألحظ أو أسمع شيئاً غريباً يحدث في الفندق!

طلبوا من ماكس ملازمة الفندق وعدم الخروج، تركوا شرطين في الفندق لحراسته. خرجوا يقتادون معهم، مدير الفندق، وجبرائيل، وموظفي الاستعلامات، صعد ماكس إلى حجرته، أحس بالندم لشكوكه بجبرائيل فهو شاب لطيف ومهذب وخدوم، ولا ينبغي أن يكون انبهاره بجمال أجاثا أو

بشخصيتها ككاتبة، سبباً لتوجيه التهمة له بقتلها، أو خطفها. تذكر أن دعوبول النوتري هو أيضاً كان معجباً بها، ويفغى لها وأحياناً يرقص لها ويهز بطنه نشوان في القارب، هل يكون هو قد خطفها أو قتلها؟ هل يخبر الشرطة عنه أيضاً؟ كثيرون كانوا ينظرون إليها باعجاب واستهاء رغم إنها قاربت الستين. إذا احتسب كل من نظر إليها باعجاب أو استهاء كم هو عدد المتهمين بخطفها وقتلها في هذا اليوم المشئوم؟ لا يبدو هذا مضحكاً؟ شعر أنه بحاجة إلى هدوء واسترخاء ولو قليلاً، يستجمع فيه أفكاره وشتات نفسه. تخيل روحه جرة جميلة قديمة صمدت تحت طبقات تراب الزمن الطويل الثقيل ثم فجأة وهم يستخرجونها سقط عليها حجر كبير فهشمها وتناشرت، هل ستعود كما كانت؟ أضطجع على فراشه، فلقا يائساً لا يدرى ماذا يفعل غير الاستسلام لأفكاره وخيالاته وهي تعذبه كأن يدا من خارجه تسلطها عليه. أخلد لهدوء مغمضاً عينيه، لكنه لم يجد سوى الظلام وخطوط حمراء تمر تحت جفنيه كالبرق. راح ينبعش وينقب في ذاكرته، هذه المرة، ترددت في ذهنه كلمته التي أعجبت بها أجياثا يوماً، وسررتها لإحدى روایاتها: التنقيب بين الحجارة والصخور والقبور أسهل وأكثر متنة من النبش والتنقيب في الذاكرة، هناك نجد أفراد القدامى وأحزانهم وقد استحال كلها إلى تراب وغبار متطاير، هموم منتهية، أو جائع لا قلب يستقبل ضرباتها! في ذاكرتنا حتى الأفراح تحمل لنا الخوف أن نفقدها، أو الأسف على فقدها أو زوالها! يقولون إنني ماهر في النبش والتنقيب في القبور المجهولة والمنسية، هم لا يعلمون إنني سيء، فاشل في التنقيب داخل رأسي وذاكري، كم هي كثيرة القبور والسراديب في أعماقنا، بينما نتصور أننا بعيدون عن القبور وفي مأمن من ظلالها المفترسة. كنت أقول لنفسي أنني أجهل أين تكون قبور أسلافي، أو قبرى الذي صرت أشعر إنني أحمله معي في أعماقى! بينما أصل بسهولة إلى قبور الملوك والأباطرة الأقدمين. عاد يفكر باحتمال سفرها إلى مصر، بدونه فهو لم يكن متحمساً لمشروعها هذا، قال لها لننتهي من عملنا في

حلب أولاً، شعر بالخوف، أ تكون قد سافرت إلى مصر؟ ولم تخبره لكي لا يعترض أو يعيق سفرها ولو بصمتها أو بدموعه فقط، هم بالنزول إلى تلفون الفندق لمكالمة ريتشارد في السفارة يرجوه أن يتصل بالمحققين العراقيين ويلفت نظرهم إلى هذا الاحتمال ليعدوا البحث والتحري ويعرفوا إن كانت أجاثا قد عبرت الحدود، لكنه تذكر قولهم "تأكدنا برقيا وعلى الفور، من المطار وال نقاط الحدودية الأرضية والبحرية أن أجاثا لم تغادر العراق" وإنهم أمروا نقاط الحدود لإيقافها عن العبور إذا ما جاءتهم، والحفاظ على سلامتها وراحتها، ريثما يصلوا إلى موقف صحيح من البلاغ الذي تقدم به زوجها حول اختفائها. تذكر أن كثيرا من علماء آثار وتاريخ ومنقبين حالوا إفاناعها لتكون معهم تعطي بكتابتها لأعمالهم وشخصياتهم قيمة ومنزلة بين قرائهم، ويحصلوا على المزيد من الدعم المالي من جهات علمية ومصرفية أو سياسية في الغرب، لكنها رفضت، لا يمكن لأي كان أن يغيرها بمالي أو سعادة وهمية، فهي لا تخضع للابتزاز، هذه قناعتي عنها! هل من المعقول أنها خرجت متخفيه ولو بوثيقة مزورة، إلى وجهة أخرى مجهرة تماماً، غير متوقعة لتخفي وجودها، وتحقق تلك الراحة العميقه في أن تكون في مكان لا يعرفها فيه أحد، بينما هي تعرف كل من حولها، هذا بعض ما كانت تقوله: جميل يا ماكس أن تخفي عن الناس، لا يعرفون أين تكون لا يستطيعون أن يصلوا إليك، يطرون احتمالات عن مصيرك، عن موتك، وأخرى عن حياتك حسب ما يتمونه لك؛ هذا يقول ابتلعاً البحر، ذلك يقول غاص في رمال الصحراء، آخر يقول خطف، قتل، فقد ذاكرته وتاب على غير هدى، بينما أنت جالس في مأمن على الشاطئ تحتسي قهوتك تكتب أو ترسم أو تطالع كتاباً أو تحدق بسكنون في زرقة السماء والبحر، بهذه الغيبوبة الجميلة تحقق تواصلك مع قريحتك فبدع! سألهما: تختفين حتى عني؟ اكتفت بضحكة بدت لي عصبية غامضة، فسكت! أ تكون أجاثا قد ذهبت لبلد فيه شواطئ جميلة لبدع وتحقق سعادتها هناك؟ ربما من يدرى؟ ولكن ما الذي

يدعوها لهذه المغامرة الصعبة وهي كما أعرف تحبني بعمق وقوة، كما أنا أحبهما بعمق وقوة؟ موفرا كل الأجراء الملهمة للكتابة! ما يغريها و يجعلها تحبو كطفلة نحو علبة حلوى هي موضوعات رواياتها والحبكات القصصية الجذابة، حلمها برواية جميلة ترفرف بعلافتها الجميل كطائر غريب قادم من سماوات بعيدة هو الذي يستلب عقل أجاثا، ويجدبها لمغامرة تفقد فيها وقارها، حصافتها، وحياتها إذا اقتضى الأمر! وهذا يعيدي إلى احتمال أنها خرجت بجواز سفر مزور ميممة شطر شواطئ لبنان أو الإسكندرية ل تستقبل الصيف هناك! كان الوقت قد فارب المساء، سيحل الليل، أول ليل يمر عليه في هذه البلاد وأجاثا ليست بجانبه مجهرولة المصير. اكتشف أنها كانت هي شمسه الحقيقية، كم كان وجودها يضئ حياته، شمس الشرق التي عشقها وجاءا ليستخرجا التاريخ الذي صنعته على هذه الأرض. غابت الآن بغيابها. كم الزوجة الحنونة، غالبة، لا يمكن لأي شيء في الدنيا يملأ الفراغ الذي تتركه. لقد كانت هي مركز الكون الحقيقي لي! ظل مشتنا منهاكا، لا يدرى ماذا يفعل وكيف مضت الساعات ثقيلة مريرة قاسية.

ها قد انقضى اليوم ولم تظهر، لم ينم طيلة الليل، ظل يتقلب على الفراش محموماً، تأخذه كوابيس، وتطلقه أخرى، كان أطول ليل في حياته. ما أن أشرق الصباح حتى نزل إلى البهو يريد أن يحس بشيء آخر غير وحدته الثقيلة، هذا الصباح الثاني الذي يتوجب على ماكس أن يواجه العالم فيه وليس أجاثا معه، ظل خائفا، تذكر كلماتها كأنها تتوقع هذا اليوم العصيب:

- هذه هي الحياة، تيار جارف، لا يتوقف لانتظار أحد، أو الحزن عليه، إذا غبت عنك، لا تحزن، لا تتوقف، واصل عملك واكتشافاتك وحياتك، تزوج، أنجب الأطفال الذين حرمت منهم لأجلني.

ويظل ساهما، لماذا تتحدث معه هكذا؟ وهي تعرف أن ذلك يؤلمه كثيرا، الآن يدرك، أنها كانت تهيئه لأي حادث في هذا المكان الغريب! وها

قد حدث! لم يكن هناك جبرائيل، شعر بذنب وألم لغيابه، كان يحنون عليه ويختلف عنه من محنته، هو وزميله والمدير ما زالوا معتقلين. لا يعلم حتى الآن ما هي إفادتهم، ولا كيف يجري التحقيق معهم، ما حادث أكبر من هؤلاء المتهمين، وعلى أن أنتظر شيئاً يأتي من بعيد!

يمكن لصديقين بريئين أيام طفولتهما، أن يجعلهم الأيام  
يتسابقان: أي منهم سيعمل الآخر على حبل المشنقة؟

ظل السفير الإنجليزي، بين ساعة، وأخرى يتحدث مع الباشا نوري السعيد تلفونيا، وفي لحظة انفعال حادة سريعة استقل سيارته الكاديلاك، ودخل على البasha ليقدم له طلباً غريباً:

- أرجو يا بasha أن تضع الجيش العراقي كله في الإنذار (ج)، وتنشره على الحدود، نخشى أن تكون ثمة عصابة دولية هي التي خطفت أجاثا وتريد أن تخرج بها إلى بلد ما؛ لمساومتنا على أمور تتعلق بمصالح بلادنا العليا، مستغلة حب الإنجليز لأجاثا!

ظل البasha يتطلع في وجهه مندهشاً، تذكر قولهً كان يردده لأنصاره وخصومه معاً، وهو ملتزم به فعلاً "تجاري الإنجليز قدر استطاعتنا، ولكن هناك حداً يجب أن لا نسمح لهم بتجاوزه معنا، مهما كلف الأمر، وكل ما تحتاجه هو أن نصمد في وجوههم وعيوننا تقدح شرراً"، لذلك رد البasha بهدوء جاحظ العينين فوق جحوظهما الطبيعي:

- نكون في هذه الحالة كمن يتناول الحساء بمعرفة البثير! جيشنا يا سعادة السفير معد للقضايا الكبرى، وقضية أجاثا من اختصاص الشرطة، وسنجد لها، اطمئن!

ظل السفير يبحلق به بيلاهة. أطلاعه البasha على ما يقومون به من بحث وتحر عن أجاثا، وكيف أن الوصي يتابع معه التحقيقات بنفسه، وما أسفرت عنه هذه الجهدات الحثيثة من نتائج، من المؤسف أن بعضها مقلقة، لكنهم لم

يفقدوا الأمل في العثور عليها قريباً، حدثه كيف إنه يرى أن وراء اختفائها دوافع سياسية، قائلاً:

- سنضرب رجالاً من المعارضة السورية، وربما العلنية أيضاً، تفهموا موقفنا ووضعنا، لا تخرج علينا صحفكم وجمعياتكم الخيرية في لندن باعتراضات واحتجاجات من أنهانته حقوق الإنسان، وعلىنا أن نراعي تقاليد ومصالح بريطانيا في التعامل مع السجناء السياسيين، أو المعارضين.

كان البasha يقصد تدخل الإنجليز في إجراءات محاكمة فهد سكرتير الحزب الشيوعي، ومطالبتهم للحكومة العراقية بأن لا تكون محطة للإنجليز في المحافل الدولية. فاستصدروا إرادة ملكية من الوصي بتخفيف حكم الإعدام بحقه إلى المؤبد، رغم إنه كان يشعل البلاد بين فترة وأخرى مظاهرات وإضرابات وقلاقل، هزّ السفير رأسه موافقاً:

- سنكون معكم في كل إجراءاتكم مهما كانت قاسية من أجل الوصول إلى مواطننا أجاثا كريستي! أنتظر النبأ السعيد منك يا بasha!

رغم رفض البasha وضع الجيش العراقي في حالة إنذار (ج) من أجل أجاثا كريستي؛ إلا أنه أعطى أوامره لوزير الدفاع، ودوائر وزارة الداخلية لتشديد الرقابة على المخافر الحدودية، والمطار والموانئ؛ حتى بدا وكأنه يضع الجيش والدولة كلها في حالة إنذار فعلاً، دون إعلان رسمي! يجب أن تعثروا على أجاثا كريستي، يجب أن تجدوها سالمة معافاة، "حتى لو عثرتم عليها ميتة؛ يجب تسليمها حية للسفارة البريطانية، فذلك أمر يتعلق بعلاقتنا ببريطانيا العظمى، ومصير العراق!" الكل صار يهتف "يجب العثور على أجاثا كريستي حية أو ميتة، وإذا وجدتموها ميتة؛ يجب أن تسلموها حية ترزق!" فيظل هؤلاء المسؤولون يتطلعون بوجوه بعضهم، ماذا يستطيعون أن يفعلوا؟ كانوا يضحكون أحياناً! وتتوالت التعلقات "إذا وجدناها حية ترزق؟ هل سنرزق معها؟ أم سنظل أحياء لا نرزق؟". إحدى الصحف تسرّب إليها الخبر

علقت قبل غيرها في اليوم التالي "أيقضدون أن نعوضهم بامرأة أخرى، حتى لو وجدنا امرأة شقراء حسناء، بين نسائنا السمراءات والسوداوات، كيف نجعلها تتكلم الإنجليزية؟ وكيف نجعلها تكتب الروايات البوليسية المسلية للإنجليز؟" كل المعلومات التي توالّت عليهم كانت تقول، "لم تعبّر الحدود امرأة إنجليزية باسم أجاثا كريستي"، هذا يعني أنها ما زالت داخل العراق. السفارة البريطانية لم تُنفِّ وصول تهديدات لطاقمها أو أصدقائها المحليين في المجتمع والدولة. ولرعاياها خاصة من العاملين في حقل النفط وأكدوا أن ماكس وزوجته وصلهما تهديد غريب، عندما كانا يقيمان في منطقة نينوى، حيث تسلل أحدهم إلى المكان الذي يسكنان فيه قريباً من مخزن أسلحة سنجاريب، وكتب على الثور المجنح الكبير: "ماكس، أجاثا! نذركم أنا سقطير بكم على جناحي هذا الثور العظيم، ونلقى بكم إلى الأرض! طعاماً للضواري، إذا لم ترفع حكومتكم يدها عن نفطنا" لكن ماكس ينفي أنه وأجاثا قد هددوا لا على جناح ثور، ولا على جناح بعوضة! ويقول إنه لم يسمع بهكذا هراء سوى الآن. وإنه وأجاثا لم يتعرضا لإيذاء طيلة عملهما هنا لسنوات طويلة. كان في غاية النشوة واللهفة في عمله منقباً عن آثار الحضارات الأولى، وفي كل يوم يصل لاكتشاف حضاري جديد ومثير. يزيد حياتهما هو أجاثا، بهجة وإثارة، "كنا نعيش بسعادة وبساطة، ونسير دون حراسة!"

لكن بهجة العطية يرى الأمر غير ذلك! كان هذا الرجل المتمرّس والمعرف بقوّة الشكيمة، يعيش منذ سنوات جواً مكفراً من الصراع العنيف مع الشيوعيين، واحتتجاجات أنصارهم في العالم، وقد أتعبه هذا كثيراً، كما أتعب الباشا السعيد والوصي والإنجليز وهم في هذه الأيام يفكرون بإعادة محاكمة فهد قائد الشيوعيين، فهو لا يزال يحرك أتباعه وأنصاره من زنزانته في السجن، فيقومون بمظاهرات ضخمة في بغداد؛ تدخل الشرطة معها بمواجهات؛ فيسقط المئات قتلى وجرحى وتشل الحياة العامة! كان فهد قريباً طفولة للعطية، جلساً معاً على نفس الرحلة في المدرسة الابتدائية في البصرة،

وكانا أليفين وصديقين يحب أحدهما الآخر كثيرا، فهد من أسرة مسيحية كلدانية فقيرة معدمة، والعطية من أسرة إقطاعية كبيرة باذخة الثراء، اضطر فهد في مطلع شبابه لقطع دراسته والعمل كاتبا في إحدى مؤسسات جيش الاحتلال الإنجليزي! وجد نفسه فجأة بروليتاريا مضطهدا، فاعتنق الشيوعية، سافر سرا إلى موسكو وتلقى التعاليم الماركسية الليبية وعاد ليبني الحزب الشيوعي الذي نما بسرعة وتحول إلى جسد ضخم يمد أذرعه وخلاياه إلى أنحاء العراق، ويقف كالماراد في وجه الدولة الفتية التي ما تزال تتلمس طريقها برعاية الإنجليز! بينما مضى العطية مواصلا دراسته العسكرية، ثم يتدرج في مسالك الدولة والصعود في سلم الوظيفة حتى أمسك بقبضته مسئولية أمن البلاد. وجد نفسه في مواجهة المصير مع صديقه القديم فهد، صارا عدوين لدوتين، ناسيين ملاعب الطفولة والصبا! وجد العطية أن همه الأكبر هو أن يلف حبل المشنقة بنفسه على رقبة صديقه القديم، وهم فهد أن تطيح ثورة البروليتاريا بالعطية ويلف العمال حبل المشنقة حول عنق العطية، وعنق دولته أيضا، فهي من العالم القديم الذي لا يليق بالشيوعيين الحالين بالجنة على الأرض لا في الآخرة!وها هو يرسل من يختطف أجاثا نكاية به ولاظهره فاشلا في حفظ الأمن! قال العطية لمعاونيه يمكنني تخيل الرسالة التي ستصلني من الشيوعيين اليوم أو غدا "أطلقوا سراح رفيقنا فهد سكريير حزبنا المقدم، وأمنوا وصوله بطائرة خاصة إلى موسكو، لنطلق سراح أجاثا كريستي" ، ما هي الشيوعية؟ هي باختصار هدم وتدمر الحياة القائمة من أجل جنة السوفيت الموعودة، والتي هي الجحيم! من يكون قد اختطفها غيرهم؟ أنا لهم! أحد معاونيه قال بتهذيب وتهيب منه:

- رغم إن ما تقوله احتمال وارد وصحيح يا سيدى، إلا أنها يبغى أن لا ننسى أن للإنسان مشاكل وعداوات حتى مع نفسه، وثمة احتمال أنها انتحرت بإلقاء نفسها في دجلة مثلًا!

هز العطية رأسه مسفها كلام معاونه، وعرض تقريرا وصله من مخبر

سري دسوه في ما تبقى من تنظيم الشيوعيين المتأكل عبر حملات الإعتقالات والاختراقات يقول فيه: "حصلت على معلومات أكيدة أن أجاثا قد خطفت من الفندق من قبل عصابة شيعية واقتيدت إلى أحد أوكرارهم السرية في منطقة باب الشيخ، غير بعيد عن الفندق" انفض الاجتماع بقرارهم بدء حملة واسعة النطاق للاحقة بقايا الشيوعيين في كل مكان في بغداد والمدن الأخرى!

داهمت مفارز الشرطة حي باب الشيخ، هو حي شعبي يتمتع بمهابة دينية خاصة، يوجد فيه مسجد وقبر الشيخ الكبير عبد القادر الكيلاني، جرى تفتيش العديد من المنازل وال محلات والحمامات الشعبية، ولم يعثروا على أي أثر لأجاثا، لكنهم اعتقلوا المزيد من الشبان والرجال وبعض النساء بهمة الشيعية! وعندما أعلم بهجت العطية الباشا نوري السعيد بما قامت به شرطته، أيده في هذا الإجراء قائلاً "يعجبني فيك يا بهجت أنك تسمع نبض الحرب الباردة التي يشنها الروس علينا، فهم يريدون إبعادنا عن حلفائهم الإنجليز الأوفياء، ابق منطقة باب الشيخ تحت الرقابة، أخشى أن يكونوا قد أخفوها في أحد المساجد، لا تنس أن خليتهم الماركسية الأولى كانت قد ولدت في جامع الحيدرخانة، ولكن مداهمة مسجد الكيلاني يجب أن تكون الحلقة الأخيرة، لا تتسرع! لا تثيروا الناس علينا، فتشوا الآن بيوت العاملين في ورشات النسيج، اعتقلوا أعضاء نقابتهم، قوموا بجولة تفتيش في حي الطاطران والهيتاويين!" وبسرعة خاطفة يداهم الشرطة والمخبرون حي باب الشيخ، والأحياء الأخرى، لكنهم يتحاشون دخول المسجد الكبير، أو الجوامع الصغيرة، يقتسمون ما تبقى من بيوت النقابيين في مختلف المهن البسيطة والبارزين بين العمال، والسكان الفقراء قبل أن يتقطعوا أنفاسهم من المداهمة الأولى. ومرة أخرى لا يجدون أجاثا كريستي، لكنهم يعتقلون المزيد من الأشخاص لا علاقة لهم بالشيوعيين وكل ما وجدوه لديهم بضعة كتب أو صور بعضها لممثلات سينمائيات معتقدين أنها صور أجاثا كريستي! لم يحصل العطية على شيء من حصادة الوفير من الشيوعيين، أخذ السفير

البريطاني يخابرها أيضاً، صارخاً:

- نحن نريد أجاثا كريستي، وأنتم تعلموننا باعتقالكم شيوعيين، ماذا نفعل بالشيوعيين ثلاء الدم؟ كل ما في جيوبهم من أقلام لا تستطيع أن تكتب جملة واحدة مفيدة مما كتبته أجاثا كريستي!

كاد العطية يصاب باليأس، لكن ما أن تظهر بارقة واهية، حتى يعلق عليها أملأ كبيراً، ويمضي لتنفيذها فلا يتحقق شيئاً ينفع في الوصول إلى أجاثا. صار يردد لمن حوله: "إذا ما نظرت على كريستي راح يضخم وجهنا، متظلنا سمعة بالعالم! واقروا على العراق السلام!" جاءه تقرير كتبه مخبر صحفي، يعمل مخبراً لدى السلطة أيضاً، يقول: "أن من خطف أجاثا هو جلال العطار، وهو روائي شهير، ومدرس ثانوي من الموصل، تعرف عليها هي وزوجها حين كانوا ينقبان في نينوى، فوقع في غرامها! وكان يستقبلها وزوجها في بغداد ويقيم لهما الولائم، وقد حاول تقديم الهدايا لها ومجازاتها وهو سكران، فصدمته وانقطعت علاقتها وزوجها به. لكنه ظل مغرماً بها، مستعداً لارتكاب أي شيء لينالها، فظل يزحف نحوها بخبث، وهما قد أقدم على اختطافها، وجسها في بيت بضاحية من بغداد، لينال وطره منه". العطية يعرف العطار، كان أحد قيادي الشيوعيين، لكنه تخلى عنهم وراح يتقدّم، ويصفه فكرهم، ومع ذلك بقيت سمعته في الأوساط الثقافية إنه شيوعي! تحمس العطية لهذا التقرير وأمر باعتقال العطار، وإخضاعه للتعذيب ليتعرف وعلى الفور! ذهبت الشرطة إلى مدرسة المتوسطة الغربية في الرصافة حيث يعمل لاعتقاله، أعلمهم مدير المدرسة أن العطار قد سافر إلى النمسا منذ أسبوعين. بياجازة خاصة، ثم أكدت ذلك سلطة المطار، ثمة صديق للعطار، آلمته الحملة التي أثيرت لتشويه سمعة العطار بينما هو يعرف قصته مع أجاثا، كان العطار يود أجاثا ويعذرها كروائية يطمح أن ينال شيئاً من شهرتها وبراءتها الروائية، ولم يكن ينظر إليها كحسنة مشتهاة، وقد سمع منه أنها حين رددت كعادتها عبارتها "لا تنسوا أنا زوجة رجل آثار، أزيداد قيمة لديه كلما تقم بي العمر رد

عليها "لا تقولي أنك قطعة أثرية بل قوللي أنك قطعة من الخلود، حسناء لا تفني ولا تشيخ!" انبرى هذا الصديق الوفي معرضًا نفسه لخطر الاعتقال في جو محتمد، ليدللي بشهادته عنه في مركز شرطة العبخانة فحوها: أن العطار سافر وراء فتاة مسيحية كان يحبها فهجرته وهو ما زال يجد في أثرها منذ سنوات دون جدوى، وإنه لا تشغله عنها أية امرأة أخرى، وإن علاقته بأجاثا وزوجها علاقة أدبية وثقافية بحتة. وإن العطار من الرفعة والتسامي ما يجعله فوق الشبهات! وبذلك حصل العطار وهو غائب على براءة من تهمة خطف أو قتل أجاثا، كان سيصعب عليه أن يحصلها لو كان موجوداً في بغداد حتى ولو بعد جولات طويلة من الاعتقال والتعذيب! كان يخيل للع天上 إنه يمكن له أن يجد خلف أي شيوعي أجاثا كريستي مقيدة بالحبال، مكممة الفم، ثم حين يعتقل الشيوعي ولا يجد خلفه سوى بيتا خاويًا حتى من طعام أو كساء، وليس هناك سوى أهله ودموعهم، وبضعة كتب وصور ممزقة، يصاب بخيبة أمل، ثم يمضي لاعتقال آخر، وحين لم يعد ثمة شيوعيون ليعتقلهم دخل في مأزق البحث عن الأعداء السياسيين لبريطانيا العظمى، فصار كل من عارض الوجود البريطاني في العراق، أو انتقد السياسية البريطانية متهمًا بخطف أجاثا كريستي! اعتقل كثيرون لا نشاط لهم سوى الجلوس في المقاهي وإطلاق أسلتهم الطويلة في شتم الإنجليز، واعتبارهم سبب بؤسهم وشقائهم! اعتقلوا أشخاصاً قالوا أن عقود استثمار النفط الممنوحة للإنجليز والأمريكاني وغيرهم مجحفة بحقوق العراقيين. وحين لا يجد المحققون أية علاقة لهؤلاء اختفاء كريستي، يحيلونهم إلى المحاكم متهمين بأنهم هددوا بحرق منشآت ومقرات شركات النفط وأغتیال المهندسين والخبراء الأجانب العاملين فيها! أعادوا اعتقال شخصيات عراقية وعربية مقيمة في العراق نادت بالتصدي لبريطانيا ومصالحها دورها في تقسيم فلسطين، وقيام إسرائيل. جميع هؤلاء وجدوا أنفسهم متهمين باختطاف أجاثا كريستي وعليهم أطلاق سراحها على الفور، أما إذا عثر على جتها، فسيكونون هم من قتلها، وسيحاكمون بالإعدام، بينما

الكثير من هؤلاء لم يروا أجاثا لا حقيقة ولا صورة، ولم يقرؤوا لها رواية أو حكاية، ولم يسمعوا بها أصلاً!

كل حقائق وأسرار بغداد، صغيرها وكبیرها؛  
لا يمكن أن تجدها إلا عند شرفاء روما!

لم تسفر التحقيقات السريعة الحامية مع كل المعتقلين من السياسيين عن أية نتيجة، لكن رجال التحريرات لم يفتر عزمهم للوصول إلى أجاثا بأسرع وقت! وإذا كان الخاطفون لم يظهروا أو يكشفوا عن هويتهم، حتى الآن، ولم يرسلوا مطالبهم، أو أية إشارات تتم عن وجودهم، فإن من الخطأ الوقوف مكتوفي الأيدي بانتظارهم! "المسكونة أجاثا كريستي هي الآن رهينة معدبة بين أيديهم، وهم يريدون تحطيم أعصابنا، وإيصالنا إلى تهالك نفسي وعقلي فتقبل بمطالبهم مهما كبرت وثقلت!" ثمة ضابط كان يقول دائمًا: "كل خفايا وأسرار بغداد صغيرها وكبیرها لا يمكن أن تجدها إلا عند شرفاء روما!" كل زملائه من المعاونين والشرطة يعرفون المعنى الواسع "لشرفاء روما!" ظهر هذا المصطلح في بغداد؛ عندما جاء جورج أبيض بفرقته المسرحية من القاهرة إلى بغداد، ليقدم مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير، فطلب من صاحب المقهى الذي ستقدم فيه المسرحية أن يجلب له أشخاصاً عاديين يظهرون لثوان في مشهد على أنهم شرفاء روما. كان المتعهد يعرف أن غالبية الرجال في بغداد يزدرون التمثيل والممثلين، ويعدونه مشيناً ولا يليق بالرجال؛ رغم إنهم يعجبهم التفرج على المسرح. كان مسرحه يقع في الميدان المكتظ ببيوت الدعارة والمواخير، فقام بجولة سريعة على مقاهيه، ولمَّا مجموعة من النشالين والقوادين والشواذ وافقوا على أن يكونوا شرفاء روما لقاء دراهم قليلة! وما أن سمعت من المسرح صيحة "والآن يتقدم شرفاء روما ليحيوا الملك العظيم" وظهر هؤلاء، حتى ضج المكان بالضحك وصيحات الاستهزاء، وإلقاء الأذية عليهم! فالمتفرجون يعرفونهم واحداً واحداً، فهذا قواد شهير، وذاك

نشال لا يبارى، وأآخر لوطي، والرابع مطيرجي يسرق حمام جiran، ومن السابع حتى العشرين هم من أصحاب السوابق، والجرائم المخلة بالشرف! تحول هذا المشهد إلى مسرحية كاملة طفت على مسرحية جورج أبيض القادم من القاهرة ليり فنه الجميل لل العراقيين! عم الهرج والمرج وأسدل الستار، وقد أصر شرفاء روما على أن يلعبوا دورهم الحقيقي فهم لم يغادروا مقهى المسرح؛ إلا بعد أن نسلوا شيئاً من جيب هذا، وسرقوها معطفاً لذاك، وأخرجوا رجالاً من المسرحية إلى بيوت الدعاارة المجاورة! ومنذ ذلك اليوم حصلوا على لقب فخري: شرفاء روما! ولكن المؤسف أن كثيراً من الناس في بغداد يتتوسعون أو يتطرفون باستعمال الألقاب والمصطلحات فشملوا به فقراء معدمين، وباعة متجمولين على الأرصفة وحملين وصياغي أحذية، وعاطلين ومتسللين وشقاؤات عرف بعضهم بالشهامة، وكل مطيرجية الحمام، ومحضرى أرواح وقارئى كف، ورمل وخرز ومجانين مساكين، بل شملوا به دراويش ومتصرفة بدعوى أنهم محталون. ولم يكن كثير من الناس يرتاحون لذلك، لكنهم رحبوا بشموله وزراء ونواباً في البرلمان وشيخوخ عشائر ورجال دين عرّفوا بفسادهم وبسرقاتهم وتقاضيهم الرشاوى وتسترهم على أقاربهم ومحاسبيهم! ومع ذلك ثمة ما يشبه الإجماع أن كل ما يخفى على سطح الحياة في بغداد يهبط كما قطع الحديد في البحر، ليستقر على السنة هؤلاء! لم تكن تلك المرة الأولى التي يستدعى فيها شرفاء روما للمهام الكبرى، فكثير من النواب والوزراء استعنوا بهم للوصول إلى مناصبهم الرفيعة، أو للاحتفاظ بها مدى الحياة. كما إن مديرية الأمن العامة تعدّهم مستشارين احتياطيين لها، ولديها سجلات بأسمائهم، لتنتجد بهم عند الملمات! معاونو التحريرات ترددوا في استدعائهم لقضية أجاثا الحساسة، حتى يأخذوا موافقة مديرهم العام بهجة العطية، فاكتفى بإيماءة من رأسه علامة الموافقة، فكلمته الصريرة تعني أنه تخلى عن قناعته السياسية المعروفة حول اختفاء أجاثا! وبسرعة استدعى معاون الشرطة الكثير من شقاوات محلات بغداد وخاطبهم:

- انتو الزلم أهل الحمية، مرة أجنبية ضيفة عدنا، وبمحمانا، ترضون يخطفوها؟  
ويتلمون شرفنا، شوفوني نخوتكم، وعز الزلم!  
نفع الشقاوات المجتمعون صدورهم العريضة، ونفضوا يشامغهم على  
أكتافهم، وتحدى رئيسهم:  
- سيدى بعد ساعة راح تشوفها بمكتبك، بس نريدك تسمحنا نسوى اللي  
خطفها قوزي على تمن!  
اكتفى بهز رأسه، قائلاً:  
- عاد لطوخوها!

نفع كل منهم نصف دينار، وعلبة سجائر "غازى". خرجوا تقدمهم  
صدرهم، يهوسون "لندن وترید نحاميها" ويا كريستي جينالك فزعة.  
أرسل معاون الشرطي في دعوة مجموعة من الدراويش ومحضري  
الأرواح وقارئي الكف وما تحت الرمل ومنجمين وضاربات ودع من  
الغجريات. جمعهم في ساحة وقوف السيارات لبنياء مديرية التحريرات، وقف  
أمامهم خطيباً أمام الجماهير:  
- أريدكم تشوفونا شطارتكم من أجل العراق. الوطنية مو خاصة بالشيوعيين  
والقوميين، وكامل الجادرجي وأمثاله من النايمين للضحى، انتو الوطنيين  
الشرفاء الصدكك، اريدكم تلکكونا كريستي، تطلعوها من جوا الككاع!  
هي أخت اليزابيث ملكة بريطانيا، الإنجليز يعبدوها مثل مريم العذراء، ولا  
يستطيون العيش بدونها، والملكة قالت: أنا مستعدة أبيع تاجي المليان  
جواهر وذهب بسوق الهرج بغداد وانطيه لليلككيها!

اشتعل حماس بعضهم فوقف هاتفاً بحياة اليزابيث، وفيصل الثاني الملك  
الصغير، والوصي والباشا، وبهجهت العطية. وعدوه أنهم سيضعون أنفسهم  
بالإنذار ليجدوها له. أعطى كل منهم ربع دينار، سمع العطية من شباك حجرته  
المطل على الفناء الكبير حيث يجتمعون أصواتهم تتعالى وتردد اسمه نهض  
وأطل عليهم، سأل أحد معاونيه:

- من دعيم من شرفاء روما؟
- دعواهم جميعهم، والذين أمامنا الآن سحرة ومحضرو أرواح ودراوיש، وأرباب استخارة، وقارئو كف!

خطر للعطية أن قراءة الكف علم صحيح، ويمكن أن يعتد به، قال له: هات لي قارئ كف، نزل المعاون مسرعا إلى الفناء وأتى له برجل مسن قارب الثمانين، كان يعرفه، طويل أشقر الوجه بلحية بيضاء، قال المعاون للعطية؛ إنه قارئ كف لا يخطئ فهو قد خبره، إنه من التابعين لتكية في مسجد الكيلاني، احتسبوه مع شرفاء روما ظلما، وهو من شرفاء بغداد! حodge العطية بنظرة مستريبة قائلا: دعه يدخل! فتح العطية كفه له سريعا فهو لا يريد أن يضيع المزيد من الوقت، تطلع الشيخ في وجهه، قلب يده، ألقاها سريعا، طلب الثانية، قلبها، ألقاها، عاد للأولى، ثم بدا إنه يريد أن يلقيها ليعود للأخرى، فبادره العطية "شنوا أنت راح تشتريها؟ فضنا عاد!" سأله الشيخ أعطيني الأمان إذا قلت لك ما أرى؟ ذهل العطية. قال بسرعة: لك الأمان! قال الشيخ: قلبك يتحرق للانتقام من شخص، ربما هو قريبك أو صديقك تريد أن تقتله، وهو أيضا يتحرق لقتلك، ولكن في النهاية كلاكم ستقتلان، أحدكم بيد الآخر! فالحقد يجعل الحقد، والدم يجعل الدم! قال العطية خائفا، غاضبا: من أين لك هذا؟ قال الشيخ هذا هو المشهد مرسوم بعروق دمك على راحة يدك! كيف؟ كيف؟ رد العطية بارتياع؟ قال الشيخ ستحدث ثورة في البلاد، وتتفلت الأمور من عقالها، أنا لا أعرف تواريختكم، ولكن حسب تاريخنا، سيكون ذلك في عام الذئب، الذي سيتلوي عام الحمار، ثم يعقبه عام الأسد الهصور، يعقبه عام السلفقة، حتى تأتي أعوام الثعابين والعقارب! ضغط العطية زر الجرس منفعلا، دخل عليه معاونه، صاح به: أخرج هذا المخرب، لا أريد أن أرى وجهه ثانية!

ظل من تبقى من شرفاء روما، متجمعين في الفناء بين السيارات المتوقفة، لا يعرفون ماذا يتظرون، أعطى المعاون إشارة لهم من يده وصرفهم. استبقى

رجل اشتهر بتحضير الأرواح ومخاطبة الموتى والغائبين، والحديث معهم وإسماع أصواتهم لمن معه. اقتاده إلى حجرته، طلب منه أن يقوم بتحضير روح أجاثا كريستي؛ ليعرف أين هي الآن؟ حية أم ميتة؟ ماذا تعاني؟ وماذا تقترح هي بصفتها كاتبة روايات بوليسية للوصول إليها، وإنقاذه. جلس الرجل في مكتب الضابط وراح يحضر روح أجاثا، وقد جلس معاون الشرطة بجانبه متهدلاً، وقد دون على ورقة صغيرة أسئلته، لكن محضر الأرواح بدلاً من أن يحضر روح أجاثا كريستي حضر بالخطأ أو الإهمال روح امرأة تدعى ممه يستي، وهي امرأة مرأبية عجوز من أصل إيراني، عاشت في حي الطاطران بيغداد، ويقال أنها جمعت ثروتها من اشتغالها في الدعارة، والقواعد، سمع معاون الشرطة صوت العجوز، هكذا خيل إليه؛ يخرج مكتوماً من صدر محضر الأرواح، المغمض العينين، والمتظاهر بغيوبته عن نفسه، وهي تروي أنها أرادت أن تتوسل إلى الله، فقصدت الديار المقدسة، حيث حجت ووصلت عند قبر الرسول، وعادت بريئة من الذنب "طاهرة كما ربي خلقتني" لكنها عند عودتها خطفتها عصابة من قطاع الطرق عند الحدود، وهي الآن في جوف بئر عميق في صحراء الربع الخالي، وصار صوتها مسماً، وهو يخرج من صدر الرجل محضر الأرواح؛ وهي تتسلل به أن يرسل مفرزة شرطة خالية لإنقاذها، وإنها إذا نجت على أيديهم المباركة؛ فستبرع بكل ثروتها الكبيرة من الدعارة للأيتام والمساكين وبناء المساجد.

وجد المعاون نفسه يائساً من محاولاتة مع الدراويش والسحرة، ومحضري الأرواح، فطردهم قائلاً في نفسه: "الناس محققة في تسميتهم شرفاء روما، هم مشعوذون، حالة مجتمع!" وندم أنه بدد جهده، وبعض المال معهم، دون جدوى. شعر إنه يائس تماماً، لكن ثمة حلقة طرحت أمامه ومن الصعب عدها خرافية. أو لعبة دجالين. ذكره بها زميل محضرم، حلقة براقة بعض الشيء، ولا بد له من طرقها عليها تقدح شرارة تضيء الطريق إلى مخبأ أجاثا، وهو ما كان قد حدث قبل سنوات لحقيقة القنصل

الفرنسيي عندما جاءت بزيارة لشقيقها في بغداد، فاختفت فجأة وقد بحثوا عنها طويلاً، وتعذب كثير من العراقيين حين عولموا كمتهمن عند التحقيق في اختفائها وأخيراً وجدوها، مخفية أو مقيمة بكل راحة وأمان ومتعة في أحد بيوت الدعارة في الميدان. فتاة فرنسيية جميلة انساقت مع نزوة غريبة في ممارسة الدعارة في بلاد الشرق، عدها البعض فضيحة للسفارة الفرنسية، لكن القنصل الفرنسي ظهر متورد الخدين فرحاً، يضحك أمام ثلاثة من الصحفيين، قائلاً:

- هي مجرد نزوة حضارية! هذا أمر طبيعي، ألم يقم نائب الرئيس الأمريكي حين زار بغداد بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، بزيارة لنفس حي الدعارة هذا الذي تتحدثون عنه، وقضى وقتاً طيفاً فيه؟ حتى إذا كانت زيارته للمرة الجنسية وليس للاستطلاع كما قال، فذلك نشاط إنساني عادي، ما قامت به شقيقتي هناك هو مغامرة طريفة تنم عن جرأة ثقافية، لماذا يحقق للرجل ما لا يحق للمرأة؟

اقتنع معاون شرطة التحريرات بالحكاية، فأرسل شرطياً سرياً، مرتدية ملابس مدنية إلى منطقة الميدان، في الجانب الغربي من شارع الرشيد، عرف هذا المخبر بمكره ولباقيه وسرعة إنجازه لمهامه في التجسس وجمع المعلومات. سأل أحد القوادين إن كان لديهم في المنزول قحبة إنجليزية، تطلع القواد في وجهه مستغرباً:

- انتو كل يوم طالعين مظاهرة بشارع الرشيد، خابصينا، وقاطعين رزقنا، تصيرون: يسقط الاستعمار: طردوا الإنجليز، وهسه جاي تريد كحبة إنجليزية؟ لعد وينها الوطنية؟ غير تتفعون قحاب البلد؟  
جاراه الشرطي السري ضاحكاً:

- الطبيب وصفها لي، كحال الانجليزية باردة عل القلب، وما توجع لا الراس ولا الظهر، العراقيات وجعن راسي وظهربي، ما بي حيل عليهم.  
شهوانيات!

- نفحة درهماً، فوعده أن يبحث له في المتنزول، جاءه بعد ساعة إلى مقهى الميدان حيث ظل ينتظره، قال له وهو يعلّك على عادة أصحابه:
- ما عدنا غير كحاب عراقيات، سمرات، وسودات يطين الظهر، يمعود هذا الطبيب اللي كلّك العراقية اتعبك، كلشي ميفتهم، يكولون الإنجليزية هي اللي اتعب، باردة، لوح ثلج، زين تزيد ولد؟ حلو ناعم؟
  - يعني متأكد ماكو انجليزية عدكم؟
  - الله وكيلك، محمد كفليك، كل اصحابنا عراقيات أباً عن جد، وكل وحده تفك المصلوب، تكون للكرم غيب وآني بمكانتك، تعال وشوف.
  - عندما نهض شرطي الأمن عن تحت المقهى مغادراً، نهض له القواد: تره يفوتك، الفاتحات اليوم ورد جوري، أحلى وأنظف من الإنجليزيات!
  - ركب شرطي الأمن إلى دائرة التحريرات الجنائية ليبلغ مسئوله المعاون: ما كوا بالمنزول إنجليزية، لا كريستي، ولا هريستي!

عقدت لجنة التحقيق في اختفاء أجاثا اجتماعها برئاسة مدير التحريرات الجنائية كرس ل مجرد وتقدير ما توصلوا إليه في التحريرات والتحقيق ومعرفة طبيعة هذه القضية الغامضة. كان ما تحقق شيئاً، قاموا بعده جولات تحقيق مع جبرائيل وزميله عامل استعلامات الفندق، كان جوابهما متطابقاً، ولم يغيروا فيه مع كل جلسات التحقيق، "لم نلحظ شيئاً غريباً في الفندق يوم اختفائها، ونحن لا نحمل لها ولزوجها سوى المودة والاحترام، نحن عمال فقراء نريد إعاشة أهلنا، نحاول قدر ما نستطيع أن نبتعد عن السياسة، ولا نحب المشاكل ورغم تعرضهما للضرب ولقدر من التعذيب والتهديد، والشك بأن هنا قد يكون شيئاً؛ لأن ابن عمه شيوعي خطير، يقضي عقوبة السجن المؤبد في سجن نقرة السلمان! لكن إفادتهما لم تغير سوى أنها صارت مصحوبة بالبكاء والانهيار والغيبة عن الوعي. ورغم قناعة المحققين براءتهما إلا أن مدير التحريرات أصر على إبقائهما معتقلين، قائلاً "ياماً تحت السواهي دواهي!" لكن البعض يعتقد إنه لا يريد أن تخلو يديه من ملاحقين

في قضية كبيرة تتبعها الرؤوس العليا في الدولة. كانت الساعات تمضي على المحققين أيضاً عصيبة سريعة، بطيئة، ثقيلة فارغة، والبasha بين ساعة يقصفهم بجرس تلفونه الرهيب: ها اشسويتوا؟ وين وصلتو؟ لا تخلوهم يقولون علينا سباع علشيو عين، أرانب على القتلة والمجرمين!

## القيثارة السومرية تبعث أنغامها؛ تناديني أن أكتب أحزانها!

لم يذق ماكس طعاماً طيلة يوم أمس، كان يشرب القهوة فقط، ويسحب أنفاساً عميقاً من غليونه الأنثيق، أستهلك عدة أكياس من تبغه الفاخر، فكر أن عليه أن يتغذى وإن يبقى نشيطاً صاحياً ليفكر بشكل جيد ويعمل بقوة ودقة للعثور على أجاشا، فهي بلا شك مثله في محنة وقعت فيها دون أرادتها. مضى إلى المطعم، جلس على مائدهما، أراد أن يحس أنها ما زالت بجانبه ولم تفارقه، ربما هي ما تزال في الحجرة وستنزل بعد قليل، تناول فطوراً خفيفاً، دون شهية، كأنه يتجرع دواء، احتسى أكثر من فنجان قهوة مرة، عاد إلى حجرته، هم بنزع ثيابه لكنه تذكر إنه لا يدرى اللحظة التي يأتي فيها محققون، أو يطلبها فيها ريتشارد وعليه أن يكون مستعداً للنزول إلى البهو أو الخروج من الفندق. استلقى على فراشه ببنطلونه وقميصه على غير عادته، شعر لأول مرة أن نظام حياته بدأ يتخلخل وينهار! ثمة شيء لسعة، نهض، ليفتح دولابها، حيث رتبت بعض الملابس على رفوفه، وجد أنه نسي حلقة مهمة قد تضيئ ما حدث! وتحل هذا اللغز الرهيب، أوراقها! حرق قلبه خائفاً، ماذا لو وجد رسالة تنبئه أنها ستتحرر غرقاً؟ وأنها تعفيه أمام العالم كله من موتها الذي اختارتته، ماذا لو وجد رسالة تنبئه أنها قررت هجره والعودة لزوجها الأول كريستي الضابط الطيار الإنجليزي الذي ما زلت تحمل لقبه، ولديها بنت منه؟ ربما ما زالت تحبه رغم ادعائهما أنها نسنه، وطوطه من حياتها تماماً! فهو كان يخونها، وينظر إليها كربة بيت؛ عليها أن تخدمه وابنته، ولا تطالب بشيء. أو ربما هو نفسه جاء ليتقم منها بعد أن هجرته، بينما كان

يحبها ومدلها بها؟ وكانت أجياثا تحفي عنه مشكلتها الجديدة معه. صار ماكس متوباً، لم تعد قدماه تحملانه، ارتعش جسده، وأحس ببرودته رغم النسمات الدافئة القادمة من النهر الطافح بالشمس. عاد لفراشه، لم يستطع تقليل أوراقها، كانت كالعادة مرتبة. هي فنانة في ترتيب أوراقها، الأجزاء المكتوبة على الآلة الكاتبة من الرواية مرتبة بعناية وفصولها مثبتة بدبایس ملونة كأنها جداول فتيات جميلات. رسائلها، حبات روايتها التي تداهمنها خلال العمل أو في السوق أو عند النوم فتستيقظ مذعورة، لتكتبها بخطها الجميل. حاول الاسترخاء في فراشه، لا يستطيع الاقتراب من أوراقها، ربما فيها السر كلّه، لماذا لم يطلب المحققون الإطلاع عليها؟ هم بالطبع لا يعرفون بوجود هكذا أوراق لديها، لم يخطر على بال أي منهم أن للكاتب عادة أوراقاً خاصة يدون فيها يومياته، معاناته، أو ما يعن على باله، ربما لأنهم لا يجيدون الإنجليزية، أو هم لم يعتادوا هنا الوصول إلى حقيقة الجرائم أو القضايا الغامضة من كلمات على الورق، وإنما من دماء وسكاكين على الأرض، واعترافات تتوزع بالقوة والتعذيب أو بالإغراء، لذلك هم استبشروا بقطرات الدم القليلة الجافة. لكن الأدھى والمثير للقلق أنهم، كما لمس، يركزون في تحقيقهم على الجانب السياسي. الإنجليز في هذه البلاد، والبلاد المجاورة، مكررون، خاصّة بعد ما حدث في قضية فلسطين، لماذا تتحمل أنا وأجياثا ذنبهم الثقيل الذي لا يد لنا في صنعها؟ ريتشارد يتهمني وأجياثا بأننا لا نفهم شيئاً كثيراً في السياسة، ولا نكرث لها، وإننا بذلك قد نعرض أنفسنا لأوضاع صعبة في هذه البلاد، هم يسمونها بلاداً معادية، وأحياناً متوجّحة. وأنا أراها بلاداً محبة ولطيفة، ذات تاريخ عريق وإسهامات حضارية عظيمة، مجاهولة أو متتجاهلة. كم لقينا من حنان وكرم الناس هنا، وكم قابلناهم خاصة أجياثا بابتسمات محبة صادقة. لست نادماً، ولا أظن أن ما حدث لأجياثا أمر يتعلق بالسياسة! ومع ذلك "لا أدرى!" كان مبللاً مشوشاً، ظل يتقلب يقطعاً في فراشه شاعراً بخوف حقيقي من أوراق أجياثا. مرة يقرر أن ينهض لتصفحها،

ومرة يؤثر الهدوء تاركا الأمر لساعة الحقيقة القادمة، لا محالة. فجأة استجمع ما تبقى من قواه ونهض إلى أوراقها المرتبة على رف خشبي داخل دوالبها. تناول بسرعة رزمة منه، مضمومة بدبوس، هي فصول من رواية مدونة بالألة الكاتبة، نفضها، لا توجد بينها أية ورقة جديدة أو غريبة، تجاوز الأوراق المكتوبة بالألة الطابعة، مد يداً مرتجلة إلى أوراق مكتوبة بخطها، هذه هي المخيفة، لا يعقل أن تكتب أجياثاً وصية انتحارها، أو رسالة هجرانها له على الآلة الكاتبة، فكر أن هكذا أمور تكتب باليد حيث يمتد شريان من القلب إلى القلم، أزرار الآلة بينها وبين القلب برودة المعدن، أمسك بالأوراق المكتوبة بخط يدها، تصفحها متأنياً، واحدة واحدة، لم تكن كثيرة، معظمها ملاحظات ت يريد إدخالها في مجري النصوص المكتوبة، بعضها ملاحظات عن سفرهما، أخرى تتضمن المصارييف التي أنفقاها على رحلتهما، ورقة عليها أسماء ومقادير توابيل وزهورات ت يريد شرائهما، ورقة بمقترناتها وما عليهم اتخاذها من إجراءات لسفرهما المقبلة إلى حلب حيث سيستأنفان التنقيب هناك. هذا يطمئنه كثيراً، لا توجد ورقة الانتحار المرعبة، ولا رسالة عن هجرها له، أو سفرها بدونه، لكنه لم يأس، وجد هذا وحده بشير خير. توقف عند ورقتين من أوراق الآلة الكاتبة الكبيرة، واحدة تتحدث عن القيثارا الذهبية، عشر عليها في حفريات جنوب العراق، يعود تاريخها إلى ما يزيد عن 2500 قبل الميلاد. والأخرى عن لقائهما بالراهب بنهام، أحس بالتعب، كأنه يعود من رحلة طويلة مضنية، أخذ يقرأ بصوت مسموع، يريد أن يسمع من خلال الكلمات صوت أجياثاً: "حين رأيت القيثارا العجيبة خفق قلبي لها، نغماتها تغفل في روحي، تحيني، تبني شكوكها وأحزانها لآلاف السنين، تتحدث معى بالموسيقى، لغة الكون المفهومة من الجميع، سأعرف ما كتمت في صندوقها الموسيقي، من حب وهيام وصدود، تبني هموم بلادها الكسيرة، المغيبة لقرون طويلة، ثم وهي تنھض اليوم زنقة في رمال الهجير. أرى الشاب السومري الأسمر الجميل يداعب أوتارها في حضرة الكاهنة، والفتاة العذراء

المنذورة تحتضنها لتهدي النهر الهائج كثور، تتحول إلى طير كبير يحملني إلى سماء مضيئة بعيدة، تخلصني من بقايا ضباب لندن الذي يصر على مراقبتي، ويلفني كرداء تحت جلدي لا فوقه، تقول لي: تعالى واسمعي لحنني وكلماتي، أبق معي هنا، أما مللت حكايات المجرمين والقضاة والمحققين؟ قلبت بيديك الجميلتين عظام موتانا، كلماتهم ودموعهم، صرت تعرفيننا وتفهمين انتفاضات أرواحنا، أكتب للعالم عنها، ليس فقط القصة البوليسية مشوقة، صراعات الملوك والكهنة والفقراء المساكين عندنا فيها الكثير مما هو مضحك وجذاب وله نكهة الروايات العظيمة! سأغنيها لك الآن؛ نغمات أوضح من الكلمات. نغماتي أليفة لك يا أجاثا، من أعماق أوتاري خرجت نغمات هاندل وبتهوفن وموزارت وشوبان وبرامز وغيرهم من العباقرة التي تعشقين موسيقاهم. هذه القيثارة الذهبية ترفع رأس الشور المقدس وتلاحقني، صرت أخاف موسيقاها الجارحة المتسائلة، أحياناً الجمال والروعة يصيران عبئاً ثقيلاً، من يخلصني منها، حدثت ماكس عنها فضحك، يبدو ماكس وهو مستغرق بالتنقيب والحفر في الأرض، أشبه بالمولدة التي تستخرج الأطفال من أرحام أمهاتهم، ثم لا يهمه فيما بعد كيف سيعيشون، وماذا سيكونون، وكيف يموتون!

ألقى ماكس الورقة إلى جانبه وسرح مع كلماتها، يتذكر أنها قالت له:

– ماكس ساعدنـي بالشفاء من هذه القيثارة، ماذا أفعل معها؟

قرأ تاريخ الرسالة، كان قبل خمسة أيام من اختفائهما، على الأكثر كتبتها في بيت الآثار، كانت تحلم بكتابـة رواية تجمع التاريخ القديم بالمعاصر، قدر أن بعض مقاطع مخطوط روایتها، مبهمة معقدة، مشوشة، لم تستقر عليها بعد، هذا حال كل كتابـة إبداعية، فهي تبدأ مختلطة بسيطة ثم تتضح وترقـى شيئاً فشيئـاً، هل سيكون اختفائـها أبداً؟ هل سيقع لها أذى يقعدـها عن كل شيء؟ فلا تكتب هذه الرواية، أم ستعود سالمة لتكتـبها بإبداعـها المعهود؟ لا علاقة للقـيثارة باختفائـها ولا يمكن أن تتحول إلى نـسر يقتـنص ضـحيـته الغـزالـة

أو الأرنب من البرية، مضى يقرأ كلماتها، وجدتها تقارن بين رأي يقول أن كهان السومريين كانوا يعزفون على القيثارة لتهذئة الشiran وهي تساق للذبح أضاحي في الأيام المقدسة، ورأى آخر يقول أن الكهنة يطلقون أنغامها لتحمل أرواحهم إلى قلوب الآلهة ل تستحم داخلها حيث البحار الهائلة، ثم تعود إليهم صافية نقية كما المطر. وأشعة الفجر.

مكتبة الرمحى أحمد

ربما ستدخل ذلك كرمز في روایتها! تقول: كما تفتح لك خايبة في التنقib ستأنيك روایتي، أسراراً مدهشة من أعماق الزمن في كأس ذهبية! لماذا لم تشرعني بكتابتها فوراً كعادتك في الكتابة؟ قالت: أنا أكتب في الفندق على مضمض، مخطط أولي، لكي لا تفر حبكة تراودني فجأة، الفندق لا يمنحك مزاجاً للكتابه العميقه، هو يمنحك مزاجاً للتجوال في المدينة، والتسوق، الاستلقاء في الفراش وقراءة روایات الآخرين. لكي أكتب روایة القيثارة الذهبية أحتج لجو سحري يدخلني هيكل سومريا بروائحه وأطيفاته، أرى منه ذلك المدفن الذي ظلت العذرارات يعزفون فيها حتى وصل مخلب الموت إلى قلوبهن. كنت يا أجاثا تكتبي في خيمة غير بعيدة عن حفر التنقib وضوضاء الحفارين، كنت تقولين إن أجمل الإلهام هبط علي وأنا وسط الأرض الجرداء الملائمة بالصخور وأكواح التراب، أو في بيتنا الصغير ذي الحديقة القابع أسفل تل النبي يونس في الموصل، اكتب متكة على مخزن أسلحة الملك الآشوري سنهاريب، كنت أحياناً أسأل نفسي هل أنا بحاجة لكل أسلحة هذا المخزن لأنصنع حبكة قتل؟ سيف واحد، سكين واحدة، رصاصة واحدة تكفي للقيام بجريمة وإطفاء سعادة الكثيرين؟ ماذا كانوا يصنعون بكل هذه الأسلحة؟ أريد الآن كتابة روایة يمتزج فيها رجال ونساء التاريخ بحياتنا الحاضرة. هل هذا يا ماكس خيال جامح لا يطيقه الناس؟ وكنت أطمئنها لا، هذا ما يريد الناس، هذا ما يريدون الأدب والفن، هي كما أعرف لم تكتب شيئاً من هذه الروایة التي تشغلاها وتشغلني، طبعاً ستحتفظي هذه الروایة باختفائها! خسارة هائلة؛ موت أو ضياع المؤلف، أين أنت الآن يا أجاثا؟ ألا زالت تسمعين نغمات القيثارة

الذهبية؟ ألا زالت القيثارة تلتحق كنسر أثيري؟ كم كان بودي أن أعيش على نسخة ذهبية من هذه القيثارة في حفرياتنا لأسجلها باسمك، لم يحالعني الحظ، سبقنا إليها منقبون أفادوا، لكنني لا زلت أحلم أننا سنجد قيثارة أخرى في باطن أرض حلب المشمولة بحضارة ما بين النهرين. لن تغيبني يا أجاثا، لن تتركيني وحدي! راح في شرود؛ إذا فقدت أجاثا هل سأعود إلى إنجلترا؟ فأنسى كل شيء، أسدل الستارة على ماضي ريادي قضيته في التنقيب والاكتشاف الغزير، هل سأعتكف لأكتب ذكرياتي عن الحياة الجميلة التي عشتها معك؟ أية قيثارة في الدنيا تستطيع التعبير عن جمال أيامنا وسعادتنا معاً في هذه الأرض وكل أرض وطئتها، كنت تقولين: ماكس كثير من الناس يقولون أن السعادة هناك، بينما السعادة هنا! وتشيرين إلى صدرك الواسع كسماء تحتضن الغيوم، كم من الشموس لوحت وجوهنا، وكم من الأمطار هطلت علينا معاً ونحن مشدرون في دروب الدنيا، هذا الحب العظيم الذي عشناه، هل من المعقول يتنهى باختفائك؟ أحس بغيرات تلجم بصدره، حاول أن يبكي فلم يستطع، يتذكر إنه كان قد بكى حين تدله بحبها وطلب يدها فطلبت منه أن يمهلها لتفكير، وكان خلال مدة تفكيرها التي طالت بعض الشيء يبكي حين يتصور أنها سترفض الزواج منه. نبكي مع الحب الأول، ثم لا نبكي أبداً مهما عشنا من حب أو هجران؟ عدم القدرة على البكاء هل يعني زوال الحب، عدم القدرة على الحب؟ لا! أنا أحبك يا أجاثا الآن وأبداً. أنت كل وجودي، فقدك سيحطمني، وهذا قد بدأت أتداعى! أعاد الورقتين إلى مكانهما، اعتبراه بعض فرح أن أجاثا ستعود، ويجب أن تجدها في مكانها حين تشرع في الكتابة. كان الراهب بهنام مهذباً وصريحاً معنا، أعلمنا أن كثيرين يقولون أن المتنقين يعشرون كل يوم على خزائن مليئة بالليرات الذهبية، ويعتقدون أننا لصوص، استولينا على الكثير من المجوهرات وثروات بلادهم! هل خطفها أحد ممن يعتقدون أننا أثرياء ونستطيع أن ندفع لهم الكثير من المال ليطلقوا سراحها؟ لأنظر! عاوده الخوف واليأس.

هل هي جثة أجالاً كريستي؟ بأي قلب سأقف أمامها؟ إذهب يا صديقي وشاهدها، وسأبقى هنا أحلم بالأهرامات تسير على عجلات! تنبه إلى دق خفيق على باب حجرته، نهض مسرعاً، وجد عامل من الفندق:

- ثمة تلفون لك يا سيدي!  
نزل الدرج مسرعاً يكاد يسقط، أزعجه أن بدالة التلفون الداخلية في هذا الفندق متوقفة منذ حلولهما فيه، ولم تصلح لحد الآن، كان ريتشارد من السفارة يقول له بصوت حاد بارد كالسكين:

- يؤسفني أن أخبرك أنهم عثروا على جثة على شاطئ النهر في مكان لا يبعد كثيراً عن الفندق، لكنهم لا يعرفون إن كانت لأجالاً أم لغيرها، أعلمونا أن الجثة لامرأة شقراء فيها الكثير من صفات أجالاً. على كل حال هم يريدونك لمعايتها، سأتريك لأكون معك في مشرحة الطب العدلي، سذهب بعد ساعة من الآن حين يهيئونها!

لم يعد ماكس يستطيع النطق، سمع ريتشارد يقول:  
- سنكون معاً، هب نفسك لتقبل الأسوأ!

أعاد سماعة التلفون، وألقى نفسه على مقعد في البهو، وهو أقرب للإغماء، وضع النادل أمامه قدح ماء ولم يتجرأ على سؤاله إن كان يريد القهوة. كان شاحباً مرتجف الشفتين، كان يفكر بريتشارد أيضاً، أحسّه قاسياً كأنه هو من حول أجالاً إلى جثة امرأة قتيلة. تخيل نفسه يقف أمام جسدها الجميل المتخن بالطعنات، لا؛ هذا فوق احتماله، هذا سيدمر أجالاً في مخيلته وفي روحه، نهض إلى التلفون وطلب ريتشارد:

- يا صديقي، أنا لا أستطيع الوقوف أمام جثة أجالاً، أرجوك، أنت تعرفها، جيداً، لا أعتقد أنك نسيت ملامح وجهها أو هويتها، أرجو أن تذهب نيابة عنّي، لتفحص الجثة، وسأنتظر مكالمة منك! لي ثقة أن الأخبار ستكون طيبة!

- هذا صعب بالنسبة لي أيضا، ربما الأمر أسهل لك، فعملك في التنقيب يجعلك ترى هيأكل الموتى دائمًا!

قال في نفسه يالرتشارد كم هو أحمق وغبي، أجابه:

- الأمر يتعلق بأجاثا يا صديقي، لا بعظام الأقدمين، لا أستطيع أن أرى أجاثا بغير ما عهدها به، أرجوك قدم لنا أنا وأجاثا، هذا الصنيع، وادهب وحدك لمعاينة الجثة.

صمت ماكس برهة ثم قال:

- رغم إنني اعتقد إنها ليست جثتها، لكنني لا أستطيع رؤية جثة من المحتمل أن تكون جثتها مهما كان الاحتمال ضئيلا، كان ريتشارد يردد:

- أوكى ماكس، أوكى!

عاد ماكس إلى مقعده، ورغم إنه أزاح عن صدره كابوس احتمال أن يرى أجاثا جثة ممددة في مشرحة، لكنه ظل هامدا برهة؛ ثم راح الأمل يدب فيه، لا، أجاثا لم تمت، لم تقتل، هي حية في مكان ما، وستعود فرحة منتشرة لأنها كانت في مغامرة مرحة! لكنه لا يلبث أن يعود؛ ليفكر إنه لن يراها بعد الآن! أحس باختناق البكاء في صدره لكنه تمالك نفسه وظل على رصانته. لأول مرة ومنذ زواجه أحس بحاجته لكأس من ال威士كي، لقد منعته أجاثا من الشرب إلا بموافقتها، كان قبل زواجهما يعب من ال威士كي كثيرا، يراه يفتح الذهن، ويستخرج الذكريات كما يفتح أزميل المنقب الأرض ويستخرج منها الذكريات ولو مختلطة بالطين! هبط إلى بار الفندق، وطلب كأسا من ال威士كي، ارتشف جرعات بينما يصره يسرح عبر النافذة إلى دجلة، تيهه في سمائها العالية العميقه جعله يحس بأن أية مشكلة هي صغيرة إزاء عظمة الكون، النسيم العذب المتدقق من النافذة العريضة مع غناء الصيادين وصيحاتهم المرحة ودبب الشراب أنعش روحه. لكن البكاء يحاصره ولا يتفجر، هل حقا هناك داء في الدنيا اسمه البرود الإنجليزي؟ شعر أن أجاثا قريبة منه، ولا يمكن أن تتركه، وإن جههما عظيم لا يقهر، ولا يدمره قاتل أو

مغتصب! جاءه النادل يصاحب شابا قدم نفسه أنه صحفي يعمل في صحيفة محلية مشهورة ويريد أن يجري معه مقابلة، تحدث ماكس بملامح متوجهة:  
- لا أريد أن أدللي بأي كلام قد يربك مجرى التحقيق. ساعدونا بالصمت  
رجاء!

لم يدع الصحفي للجلوس؛ فظل واقفا متهيبا:  
- لا أريد أن اكتب للإثارة، وإنما بحثا عما حدث حقا، كاتبة كبيرة تحطّف في بلادنا، تلك اهانة لنا جميعا، أريد أن أهيب بالناس ليساعدوننا في البحث عنها!  
- أعلموني بما تكتبه الصحف هنا عن قضية أجاثا، لماذا كل هذه القسوة؟  
لماذا تمتزج الأعيب السياسة عندكم بما هو إنساني فتدمره؟  
- ليس كل صحافتنا كذلك. معذرة إذا كنت قد أزعجتك!  
نظر إليه ماكس متأملاً في شرود حزين:  
- وأنا أرجو أن تعذرني، لست في مزاج من يطلق تصريحات، أعدك إذا ما عادت أجاثا أن أخصك بحديث أترك لك اختيار موضوعه وحجمه!  
- أتمنى أن نجدها سالمة وبخير.  
ومضى بهدوء. عاد ماكس إلى كأسه، تجرعه دفعة واحدة وطلب كأساً آخر، في تلك اللحظة استقر في نفسه أن أجاثا لم تتم، لم تختف مطلقا، ستظهر، لا بد أن تظهر، .. هي من تهب أبطالها حياتهم من الوهم أو الحقيقة، لا يمكن لأية قوة أن تسلبها الحياة، هل هي نشوة الشراب؟ هل هي صدمة الجثة المشتبه بها هي التي جعلته يكابر ويعاند ويعتقد أنها حية، فقط في مكان آخر، نهض فجأة، غادر البار وانحدر إلى الشاطئ، وجد دعబول البلام، سأله:  
- ها، هل عادت أجاثا؟

اكتفى ماكس بهزة غامضة محيرة من رأسه، وأخلد للصمت، راح دعబول على طريقته يتحدث مع ماكس محاولا دس الكلمات الثلاث أو الأربع التي يعرفها من الإنجليزية في كلماته، (فيري ككود، ووتر، فشن، عفارم ككود

فش مشوي، ووتر) ... صاحب انتو تنطون حرية لنسوانكم أكثر من اللازم، لا تقلق، راح ترجعلك، بس مرة ثانية لتخليها تروح وتجي بكيفها ايدك بابدتها! ظل ماكس شارد الفكر عنه، كان دعبول سكران أيضاً، حين وجد ماكس منشغلًا عنه قال:

- أدرى صاحب أنا أحجى شيش ييش، بس شسوبي لازم نحجي والا نموت، المايحجي، يختننك!

هز ماكس رأسه مظهراً أنه يستمع إليه ويفهم ما يقول، لكن دعبول نظر إلى عيني ماكس الذابلتين، خمن أنه سكران، رق صوت دعبول وهو يقول:

- صاحب احنا اثنين سكارى، بس إنت سكران بالويسكي، وأني سكران بالعرق المغشوش، أنت دايخ تدور على زوجتك، وما تدرى هي وين، وأني دايخ لأن أدرى زوجتي وين، هي بالمكبرة كاعدة من الصبح تجي على ابنوا الوحيد اللي غرك بهالنهر الملعون بذاك الصوب، ( وأشار جهة الكرادة في الكرخ)، آني دعبول البلام اللي اعلم أولاد الأغنياء السبع، إبني يغررك يمي؟ وين كان عقلي؟ غير أفكر بالعيشة، هذا حظي！  
أحنى رأسه وأخذ يبكي رافعاً طرف دشداشته ليمسح دموعه كالطفل، حاول ماكس أن يقترب منه فقد أحس بألمه أكثر من أي وقت، هو لم يفهم كل ما قاله لكنه يعرف أنه يبكي على ولده الذي مات دون الثامنة، مضى ماكس يجر خطواته، لماذا أنا لا أستطيع أن ابكي مثله على أجانائ؟ عاد إلى بار الفندق وطلب الويسكي، كأساً طافحة، أخرى وأخرى، حاول أن يبكي فلم يفلح، نهض ضاحكاً من نفسه قائلاً، يبدو إن الإنجليز يعرفون كيف يصنعون سيارات الروز رايز، يتتجون ويستكبي فاخراً، موسيقى صاحبة، أقمصة جيدة، سياسة مجونة، ولا يعرفون كيف يبكون!

صعد إلى حجرته، لم يبدل ثيابه، تداعى على فراشه. أخذه نوم عميق، دون رغبته، أو رضاه، كان يريد أن يبقى يقطاً ليستقبل من ريتشارد خبراً رهيباً

جداً أو طيباً بعض الشيء، لكن النوم اخترق أرقة الطويل وسكته الحالية كالسهم، استقر نائماً لما يقرب الساعة. استيقظ فجأة وقد أخذ بخناقه كابوس عميق، كان يلهث، تناول قدح الماء من المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، يقطع شربه لهاث حاد؛ جعله يمسك صدره خائفاً.

كان قد رأى نفسه في مشرحة الطب العدلي، وإن الجثة التي ذهب مع ريتشارد لمعايتها قد وجدها جثة أجاثا، وكانت مقطعة، وقد صفت أحجزتها بمكعبات، ورغم إن وجهها كان مشوهاً؛ لكنها كانت تتسم له قائلة:

ـ كل هذه يا ماكس بسبب تنقيبك في بلاد هؤلاء المتوحشين، هم غاضبون علينا كثيراً، يقولون أنك تبحث عن أصنام أسلافهم لبعثها من جديد، وتحطيم دينهم العظيم! وتجمع ذهبهم ومجوهراتهم لسرقتها، لذلك فهم سيعاقبوننا بالموت، وسيمثلون بجثتينا، هذا الذي فعلوه بي سيفعلونه بك، قالوا لي إنهم سيقطعون جثتك، ويرمونها للكلاب، قالوا إنهم أشفقوا علىي لأنني امرأة، فابقوا لي لحمي، اكتفوا بتقطيعه، أتستحق هذه العظام المنخورة والخرز الرديء والألواح المفتة الذي تستخرجها من ترابهم، موتنا وعداينا هذا؟

كان هلعاً يتصرف عرقاً، وجد فمه ينفتح:

ـ أنسنت يا أجاثا الخنجر السومري الذي يلمع تحت الغبار؟ القيثارة الذهبية؟ حلي شبعاد الأنثية؟ ملحمة جلجامش؟ أنسنت؟ أنسنت؟ لا تستحق هذه الأشياء كل هذه التضحية، وقف ريتشارد الدبلوماسي الإنجليزي بجانبه قليلاً ثم احتفى، تبعه الشرطي والطبيب وحارس المشرحة، بقي هو وأجاثا يتجادلان، كان يسألها بهدوء كما الصمت في الأحلام:

ـ ولكن أين أنت الآن بالضبط؟ هل في أحضان الموت الباردة؟ أم بين أنفاس خاطفين مجرمين؟

ـ ألا تراني يا ماكس؟ أم أنت لا ترى إلا عظام من ماتوا قبل ستة آلاف عام؟ فجأة ظهر كاهن قديم يرتدي زيه السومري، يتبعه حرس مدججون

بأسلحتهم القديمة، دروع وسهام وسيوف، تقدموا من ماكس وبانحناء خفيفة  
قال الكاهن:

- سنأخذها إلى المعبد، وندفنها على الطريقة الملكية السومرية، هذا يعني  
إنك يا ماكس ستدفن معها، ستنضع بجانبك ما يكفي من النبيذ المسموم  
قليلًا، سنجعل موتك مرحًا وسريعاً ولن تشعر بالآلام التي يتحملها  
الناس العاديون، وسنجعل العذراوات المنذورات يعزفون لكمًا ترنيمه  
الوداع على قيثارتهن المقدسة، لا تمانع، ألم تقل أنك تحب أجاثا أكثر  
مما تحب نفسك، الآن حانت ضريبة هذا العشق الكبير!

حاول ماكس أن يتفضّل، صاح بوجوههم خائراً، حتى إنه لم يسمع صوته  
يخرج من حنجرته: "معذرة، لم نفعل شيئاً سيئاً، أردنا فقط أن نعرف أحفادكم  
بشخصياتكم العظيمة!" وبينما كان حرس الكاهن يمسكون به، يقيدون يديه،  
ويقتادونه، فجأة أخذت الأهرامات تزحف على عجلات ضخمة وتقرب منهم  
بسرعة، تفتح أبوابها ويخرج منها رجال بشباب فرعونية، وبوجوه مومياءات  
وهيأكل سود، يشتباكون مع الحرس السومري في جدل متواصل، يجعل  
الكلمات تنتقل من أفواههم مكتوبة في الهواء، كلهم يتحدثون الإنجليزية  
بطلاقة ووضوح فلا يبقى لدى ماكس شك في ما يقولونه:

- هو وأجاثا كريستي جاءا ينشان في مقابرنا ليقلقا راحة موتانا! سنقوم  
بتتحطيطهما مع مجموعة من الذئاب والثعالب والأفاعي ونعلقهم عند  
باب الهرم، ليعرف من يزورنا مصير أعدائنا!  
والسومريون يقولون:

- بل سنشنقهما على أبواب بابل!  
قرروا اقتسامهما، شرعوا في قطع ماكس إلى نصفين، صارت كل جماعة  
تمسك بطرف منه، تجذبه إليها، أحس بالآلام هائلة، أفاق من نومه لا هناء! عب  
قدح الماء كله، واعتدل جالساً في السرير، ما هذا الذي يجري؟ يبدو أن  
السومريين والفراعنة غاضبون علينا، ماذا حدث لأجاثا؟ ما هذا الطوفان من

الرعب الذي يحتاجني ولا عهد لي به في هذه البلاد؟ لو فقط أستطيع التفكير بهدوء لاهتديت لمكان أجاثا! أجاثا ما تزال حية، موروثات هذا البلد تقول: من تراه ميتاً في المنام؛ هو حي في الحياة، وبقوة، وعمره سيطول أيضاً، بذلك ستعيش أجاثاً عمراً طويلاً، معجزات كثيرة وقعت على هذه الأرض، لم لا تقع هذه المعجزة الصغيرة؟ ظل في سريره صافنا، يستعيد تفاصيل الكابوس، مرات، ويهرب منه!

## هذه الأوراق أخطر من جثة مشتبه بها

وقع بصره على حقيقة أجاثا الكبيرة مرکونة إلى جانب الدولاب الواسع، نهض إليها، تحرج أن يفتحها، لم يعتد التفتيش في حقيقة أو خزينة لها، عندما قلبت ملابسها أو أشياءها الخاصة، في الدولاب، فذلك لأن ما فيه من ملابس وأوراق وأشياء صغيرة كان مشتركاً بيننا، لكن حقيقتها هي شيء حميم خاص بها، وعلى التريث في تقليل محتوياتها، هذا لا يريحني، وقد تدخل أجاثا فجأة وتجلبني أقرب في أشيائها الخفية، فيصعب علي أن أوضح لها دوافعي للبحث فيها، ماذا أقول لها؟ رغم كل الحب والعلاقة العميقة بيننا، وقراءتنا للرسائل التي تصلنا معاً، فقد أبقيت، وأبقيت هي أيضاً؛ مساحة معينة هي سر خاص لكل منا، ربما كل منا مستعد لكشفه للأخر، ولكن تحت مبررات مقتنة. وهل هناك ساعة عصبية غير هذه الساعة العصبية للخوض في خصوصيات بعضنا؟ لم تكن الحقيقة مغلقة، كانت مفتوحة تقريباً، فقط هي مضمومة الجانبين، ذلك شجعه على إخراج ما فيها بهدوء، لم يكن فيها سوى ملابس الخروج، وبعض ملابس داخلية ما تزال في أغلفتها، لم تفتح بعد، وبعض أكياس زهورات جافة، وسفرجلة من الموسم الماضي، وقد نضجت كثيراً، أعطت الشاب رائحة طيبة، طريقة قديمة لتعطير الملابس تعلمتها من عائلة موصلية عريقة كانت صديقة لنا، لكن ثمة جيباً، ملصقاً بالجانب الفوقي للحقيقة، لم يكن سورياً، بل كان مخفياً بعض الشيء، ثمة ظرف أسمه سميك،

عليه عبارة بخط يدها: "اختفاء ولفريد ثيسجر، في الرابع الخالي، مغامرة بين مضارب شيخ القبائل العربية في الخليج!" وثمة عنوان آخر بالخط الأحمر، "ولفريد ثيسجر يبحث عن بنت المعيدي، تصاعد الحب في أطواره المختلفة حد القتل ما هذا؟ كيف غفلت أنا عن هذه الأوراق الهامة والخطيرة طيلة هذه الساعات القاسية؟ ولكن لماذا لم تضعها أجاثا مع أوراقها عن رواية القيشار؟ هل فقط لأنها ستعمل عليها لاحقاً، أم هي تزيد إخفاءها عنّي؟ لماذا قالت "اختفاء ولفريد" ولم تقل "اكتشافه للرابع الخالي" برحمة معروفة. هل في مخيلة أجاثا فكرة عن رواية تجعله يختفي فيها في الرابع الخالي، وبما من يبحث عنه في هذا العماء الرملي! أهي قصة بوليسية أم فلسفية؟ هل في فكر أجاثا رواية يقتل فيها ثيسجر حبيبته بنت المعيدي الذي هو هائم غائب عن نفسه باحثاً عنها؟ لا أدرى ماذا أقول الآن! فأجاثا لا تستريح حتى تحول العرس إلى مأتم، وعنق الحب إلى طعنة قاتلة، ثم تكتب عنها رواية، ذلك حظها وحظي! على أن اقرأ أوراقهما جدياً، وأفكر بها بتأنٍ قبل أن أحكم بشيء، ولكن الوقت يمضي وقضيتها على نار ملتهبة، ولا تحتمل صبراً ولا تضariات في الآراء والأفكار! هذه ساحة كبرى أخرى على أن أبحث فيها عن أجاثا؟ وقد أبحث في أوراق ولفريد ثيسجر أيضاً؟ ترك ماكس الحقيقة مفتوحة. وضع المظروف جانباً على الأرض. تلمس باحثاً عن جيوب أخرى. لم يجد شيئاً. تذكر وكما في كابوس أنهما في ليلتهم الأولى في الفندق التقوا في قاعة الاستراحة بطاقة الأرضي، بالمستكشف الإنجلزي ولفريد ثيسجر وأجانب كثيرين، إنجليز وأوريين. دهشت لوجوده في الفندق وفي بغداد دون أن نعرف أنا وأجاثا، رغم قوله إنه لم يأت سوى قبل يوم واحد. شغلنا عنه أنا وأجاثا في أحاديث مع بعض الأجانب كانوا معجبين بأجاثا، لكن استوقفتني لهفة أجاثا وهي تلتقي ولفريد ثيسجر، ضمته إلى صدرها بحنان وحرارة واضحتين، رغم إنني لم أعتد الغيرة من أصدقاء أجاثا ومعارفها، لكنني شعرت أن في اهتمامها بشيسجر شيئاً غريباً لم أدرك كنهه. هو صديقنا

تردد علينا في بيت الآثرين كثيراً، واستقبلنا بحفاوة واهتمام؛ ضيفين عنده في الأهوار قبل فترة؟ كان يتحدث عن هذه المستنقعات المائية الشاسعة لأنها أضحت ملكه، أو محميته الخاصة. حرص على راحتنا وإسعادنا، وتحدث لنا عن كل شيء صادفنا في الهور، أو خطر له عنها! كان لا يتوقف يرويحكايات عن البنت الفاتنة التي تدلل بحبها كثيراً والتي تدعى "بنت المعيدي"، لكنني شعرت وكأن جواً أو مزاجاً غامضاً بينه وأجاثاً. لم أره في مطعم الفندق أو ردهته، بعد ذلك، كأنه اختفى فجأة، هذا يوخر قلبي، ويشير شكـي، لماذا اختفى في نفس الوقت الذي اختفت فيه أجاثاً؟ هل من المعقول أن أجاثاً رحلت معه؟ هرع إلى استعلامات الفندق، قالوا إنه غادر الفندق في ساعة مبكرة من الصباح، لأنها نفس الساعة التي اختفت بها أجاثاً! بالطبع هما لا يمكن أن يخرجوا من الفندق متراقبين معاً، موظف الاستعلامات يقول إنه لم ير أجاثاً تغادر الفندق، لكنه أكد أن ثيسجر غادر مبكراً جداً حتى أنه دفع حسابه في الليل. هذا جعل ماكس يفكر أن ثيسجر كان يعد لرحيله ومن معه بعناية ودقة! أيمكن أن تكون أجاثاً بهذه الخفة والجنون فترتكب هذه الحماقة؟ أكان ثيسجر في حديثه وحكاياته المختلفة أو الصحيحة عن بنت المعيدي، وتدلله بها يكذب علي، ويريد التغطية على حبه وتعلقه بأجاثاً؟ لا أدرى! بدأ هذا الرجل يحيرني حقاً! عاد إلى حجرته ووجه ثيسجر بسماته الجذابة الآسرة للنساء تماماً ذهنه! فكر أنه سيعرف ما حدث لأجاثاً مع ثيسجر من هذه الأوراق، في الأقل طبيعة مشاعرهما نحو بعضهما، لابد له من قراءتها وتلميـها بتأنٍ، إنها اخطر من الجثة التي يشتبهون أنها لأجاثاً، جلس في الشرفة. وجد الحجرة تكاد تخنقه. جاءه عامل الفندق، لم يدعه يفتح فمه، نهض مسرعاً قبله يهبط الدرج كان تلفون ريتشارد في انتظاره، بكل بروء قال:

- لم تكن جثة أجاثاً، علينا أن ننتظر...

خشـي أن يقول ريتشارد الغبي "نـتظر جـثـة أخـرى"، قاطـعـه شـاكـراـ، شـعـر بـراـحةـ عـمـيقـةـ، توـقـفـ، كـأنـهـ ليـتـهـلـ شـاكـراـ اللهـ، يـتـشـرـبـ النـتـيـجـةـ الطـيـةـ. عـادـ

مسرعا إلى حجرته، يشعر أنه الآن يمسك بطرف الخيط الذي سيقود لأجاثا حية، وربما عاشقة من جديد، وليس جثة هامدة، وفي هذه الحالة وقد خانته هل سيتمنى لو أنها كانت هي الجثة الهاameda؟

جاءنا و معه عاصفة من الغبار، كأنه يجر خلف الربع الحالي!

جاء ولفريد ثيسجر إلى بيت الآثاريين قبل عامين، هو من بحث عنها، شهرته الكبيرة تسبقه مثيرة غبار الصحاري، فهو البطل الإنجليزي عابر الربع الحالي مستعينا بإذلاء شبان من عرب عمان ودبي، وبمباركة ودعم مالي سخي من أمرائهم وشيوخهم. طويل القامة، متين، بوجه بيضوي أشقر، وشعر ذهبي، وعيون زرقاء حادتى النظارات. ورقبة طويلة حمراء عليها بعض الأخداد التي تنم عن مواجهات طويلة، وصورة لمناخات قاسية وتقلبات حياة جافة. كان دائم التلفت ببناهة، وسرعة بدريهه، مع تجهم يبدو أحيانا عذبا كابتسامة، متدقق الكلام، لا يفتا يروي الحكايات التي تصغي لها أجاثا كطفلة مبهورة، كأنها ليست هي الروائية العظيمة! يتمتع بجاذبية لا تقاوم، لاحظت أن أجاثا تهتم به كثيراً، بل خيل إلى إنها تتطلع إليه باشتئاء، أم تراها مخيلتي التي مرضت الآن بسرعة تدفعني لهكذا تصورات وتهيؤات سيئة وجارحة؟ جاءنا مع صديقنا الباحث في الآثار السومرية مستر هاري شبرد والذي كان تلميذا و مریدا للمنقب الكبير ليونارد وولي رائد التنقيب في أوروبا وأوائل العشرينات ومكتشف القيثارنة الذهبية العظيمة في المقبرة الملكية السومرية. تعرف عليه ثيسجر في مدينة الناصرية، كانت لديهما اهتمامات مشتركة كثيرة، يحتملان المشاق الكبيرة من أجل المعرفة مهما صغرت. نزلنا معنا في البيت، أفردنا لهما، حجرتين في الطابق العلوي، في الصباح التأمينا في جلسة هادئة بعد أن فرغنا من الفطور، قال ثيسجر "أحببت الحجرة كثيراً لأنها تطل على النهر، وأسمع منها غناء وصيحات الصيادين التي تطربني"، صرت بعد طوافي في الأهوار؛ لا أطيق بعد عن شواطئ الأنهر، صرت

أشك أنني استطيع أن اقتحم الربع الخالي مرة أخرى، السباحة بالرمال بين الأفاعي السامة، والرياح الحارقة، أقطع من السباحة في لجة بحر يعج بسمك القرش والحيتان، وأصعب مغامرة في هذه الدنيا، فظاعة أن ترى موتك يتقدم إليك مغمورا بالنور الساطع لا بالظلام! يضحك قائلًا وهو ينظر إلى أجاثا (هل الآن فقط صرت أتذكر إنه كان ينظر إلى أجاثا؟):

- الآن أسأل نفسي، أحقا أنا قطعت صحراء الربع الخالي؟ ذلك الجزء القاحل الذي يبدو وكأن السماء قد نسيته منذ ألفتها من يدها على الأرض عند بدء الخليقة! أشتاق إليها، وأترد!

قالت أجاثا دون أن ترفع رأسها عن جورب تقوم بحياكته لي بحنانها المعهود الذي أكثر ما يؤلمني أنه باختفائها؛ صار موضوع شك وتمحیص عندي:

- صحراؤك يا ولفرید ثیسجر تقابل البحر الميت، هي بحر من الرمال هل رمالها، مالحة؟

ضحك وهو يقول بصوت صلب معدني:

- تجاوزت مرحلة معرفة طعمها، كيف عرفت أن ما دخل فمي ورثي من رياحها جعلني عمودا من الملح؟ اذهب يا أجاثا إلى هذه الصحراء قبل أن تفقد عذريتها وتمتلئ بالبشر، والأقطع بمحطات البترول؛ فقد عرفت أنها تزخر بالنفط والمعادن الثمينة وال سعوديون والعمانيون والخليجيون الآخرون تنبهوا إليها، ويزمعون استثمارها قريباً، تعالى لتراها برحلة مشتركة قبل أن يغمرها الدخان بدلاً من عبير زهور الشيح والخزامي المقاومة للهجير بمزيد من العطر! كان مهوسا باكتشافاته، قلقا، فوضويا في مشاريعه، مرة يقول "أريد أن أنقل اهتمامي من سطح الأرض إلى باطنها، وألجم ميدان البحث عن آثار العهود البعيدة في هذه البلاد المحتضنة أكثر من نصف التاريخ البشري". ومرة ينفض يديه من الآثار ويتجه لمشروع آخر هو أقرب للمغامرة! قال: جئت إلى العراق، بعد أن وصلتني رسالة من

صديقي الدكتور هكسلي زميل مالوان في فرقة التنقيب في أور، وأخرى من صديقي هاري وهم يدعوني إلى أور للتنقيب في جنوب العراق، ومناطق أخرى، رغم إبني لست مختصاً بالأثار، ربما كانا يطمحان أن أوظف علاقاتي مع موسرين في لندن والخليج العربي لأحصل لهما على تمويل لبعثاتهم للتنقيب في العراق أو مصر، حيث نشأت الحضارات الأولى متزامنة، وكانت ثمة جسور خفية بينهم، سيكون مفاجأة علمية أن نكتشف تلك الجسور وامتداداتها إلى اليونان لتبني حضارتها لاحقاً.

بذلك سنجد جذر الحضارة الأوربية والغربية! أحاديث هاري الطويلة مع هكسلي جعلت طموحي يمتد إلى الصين والهند وإلى حضارة المايا في أمريكا الجنوبية، كم تميّت لو يمتد بي العمر لأنيش عن جذور الإنسان وطفولته لنوطد الأخوة الإنسانية. وندرك القدرات الكامنة لدى الشعوب المختلفة الآن بعد أن كانت في أزمان سحيقة مبدعة متجدة. انطفأ حلمي في التنقيب، لا أدرى لماذا، شيءٌ مثير صادفي في العراق! قاطعه هاري قائلاً، وهو يقتل شاربيه الذهبيين المبللين دائمًا بالبيرة:

- أتمنى لو يضم ثيسجر طاقته الكبيرة الخلاقة إلينا في التنقيب خيراً له من التيه على الرمال أو الماء! اقترحت أن يفرضوا على الشركات التي تحفر بحثاً عن النفط تمويل بعثات التنقيب عن كنوز الحضارات القديمة، كل متر هنا يمكن أن تجده تحته قطعة حية من ذاكرة البشر!

عاد ثيسجر يتحدث:

- قضيت يا عزيزي هاري معكما وقتاً طيباً، اكتشفت إن عدم امتلاكي اختصاص في الآثار سيجعل الآخرين يشكون بدوافعي، يظنونني أعمل لأغراض تجارية أو استعمارية، وكلا التهمتين تؤلماني! فكرت بارتياح بادية الشام، ورحت أرتب لرحلتي إليها، قال لي هكسلي: أنت مشتت الذهن، بعشر الهموم، لا تعرف ماذا تريدين، تدير ظهرك لكنوز الحضارات وتذهب لتلتفن أيامك في الرمال المليئة بالأشواك والشعابين! لكن مفاجأة

غريبة حصلت، منحت هكسلي دليلا آخر على تشتت تفكيري، وتيهني وضياعي، صرت فجأة أفكر بالمعدان وموطنهم الأهوار! أخذ ماكس يقلب الأوراق بعجلة، وقلق شديد، قال في نفسه يصعب العثور على ورقة تقول أن ثيسجر وأجاثا في علاقة خاصة حميمة وإنهما قد اتفقا على شيء ما، وأقدما على مغامرة طائشة! إذا أردت أن أقرأ هذه الصفحات من أجل التتحقق مما حدث فعلي، أن أقرأ ما وراء سطورها وهذا يتطلب مني هدوء نفسيًا، وبرودة أعصاب، هل أنا الآن كذلك؟ لا، لكن إهمالها أيضاً يزيد مخاوفي، أي شيء أفهمه منها قد يلقي ولو قليلاً من الضوء على ما أنا فيه. ينبغي أن أحذر من آية استنتاجات أو حكم نهائي قد أندم عليه. رغم إبني لم أر هذه الأوراق سابقاً لكنني أعرف طبيعتها والغرض منها، ما زلت أتذكر أن ثيسجر سأل أجاثا:

- هل تستطيعين يا أجاثا أن تكتبِي مغامرتِي، في الربع الخالي وأهوار العراق في روايَة؟

صمتت أجاثا برهة، قالت:

- ربما تعرف، أنا تشغلي الحبكة الفنية البارعة، رحلتك مشوقة مثيرة، ومفخرة لبلادنا إنجلترا وعلى أن أجده مدخلًا دراميًا لها، ويُسرني أن أكرس جهداً لكتابتها بنص جميل وجذاب، لذا عليك أن تزودني بمذكراتك أو ملاحظاتك التفصيلية عما شاهدت وسمعت أو خطر ببالك، وأتمنى أن تصبر على بعض الوقت ريثما تختمر في ذهني، وتصير جزءاً من حاستي الخاصة!

فرح وثيسجر، وأشرق وجهه:

- سأكتب، لدى صفحات كتبتها عن الربع الخالي، تلك الفلاة المثيرة، أتمنى أن تروق لك!

- دون لي كل ما يعن على بالك، أريد كل التفاصيل الخاصة برحلتك، في الربع الخالي والأهوار وجوهما العام، حتى أنا لا أعرف آية جزئية هي

التي ستقدح ذهني وتجعلني أضع يدي على مفتاح صندوق روایتك، أية ذرة رمل تدخل المحارة فتصير هي نواة اللؤلؤة! لا أريد أن أرى أحداث رحلتيك في الربع الخالي والأهوار مرتبة كما وقعت في الزمن، بل من خلال روحك أنت، أكتب أي شيء، لا تقل هذا أمر قد لا يهم أجاثا، لا، أنا لا أمل من الإسهاب، فهو سيكون في الكتابة الروائية موجزا وبقدر ما يحتاجه القلب البشري ليعبر عن مكنونه!

كنت وأنا استمع لها؛ مندهشاً؛ أنها قد أعطته تقريراً معظم خبرتها الروائية، وهي نادراً ما تتحدث أو تبوح بها لأحد!

## هل هو مكتشف صحاري ومستنقعات؟ أم هو شرير تائه يبحث عن نفسه في الرمال والماء ولا يجدها؟

خرج هاري إلى المدينة، وبقي ولفريد ثيسجر في حجرته. قال إنه يريد أن يكتب شيئاً مما وعد به أجاثا. ألقت أجاثا عدة الحياكة، انصرفت للآلة الكاتبة، أحياناً تلجمأ للحياكة حتى لو كان هناك ضيوف بعد أن تستأنفهم، أحياناً تأخذ من خيوط الحياكة ستاراً أو جداراً يعزلها عن أحاديث الضيوف إذا كانت مملة، خاصة أولئك الذين يتربدون علينا في مكان العمل في نينوى، لكنني لمستها تقبل على أحاديث وثيسجر وهاري بكل جوارحها. تقول إن نفذات الحياكة المتنظم تعلمها أن تحبك أفكارها الروائية بنسيج دقيق محكم. بدأت حروف آلتها توقع ألحانها العذبة فارتاحت. انصرفت أنا لعملي، لدى الكثير من جرد الحسابات، والفهرسة للقطع الأثرية المكتشفة. هي تستشار بالموضوعات الجديدة لا بمن يأتي بها. لا أعتقد أن لأجاثا اهتماماً خاصاً بثيسجر. لكن هل يطمئن قلبي؟ لماذا هذا الصمت المجنون الذي يؤجج الظنون الرهيبة في عقلي؟

ذلك الأصيل، ظل ثيسجر في حجرته لا ادرى إذا كان ما يزال يكتب أو يقرأ، أو ممارساً هوايته في النظر عبر النافذة الكبيرة إلى دجلة وشواطئه تعج

بالطيور والصيادين والعايرين. عاد هاري متعباً بعض الشيء لكنه حمل بعض الأطعمة والفواكه، والخبز الساخن، جمعتنا مائدة عشاء استغرقت لأكثر من ساعة وجلسات سمر، استمعنا فيها إلى موسيقى كلاسيكية، من اسطوانات جديدة اشتريناها من مكتبة مكتزي سمعت أجياثا تقول لثيسجر:

- أنت مثلني يا ثيسجر تحب موزارت، أنغامه الرومانسية، والتي اسميتها أنا بالريفية، تعيدني إلى أيام طفولتي في الريف الإنجليزي، فهي عبة بشذى الورد والعشب المظلل بالغيوم!

كلامها لسع قلبي وراودني الشك لأول مرة! حين فتح هاري زجاجة ويستكفي جلبها معه من لندن، وهم بحسب كؤوس لنا، رفضنا ثلاثة الشرب، شرب هاري لوحده، وضحك منه ثيسجر قائلاً:

- ستشرب مثل عصافور وحيد تحت المطر!  
رد هاري ضاحكاً:

- ما حيلتي إذا كان سرب العصافير يعتقد أن الغيوم السود مظلة ستقيه من المطر!

ضحكتنا وشرينا الكثير من عصير الرمان محفوظاً من موسم العام الماضي، جاءنا منه الكثير معبأً في زجاجات هدية من أحد عمالنا في شهربان. الشهيرة ببساتين الرمان، قالت أجياثا لثيسجر:

- أنت مثلني تكره الشراب، وتنهي عنه!

الآن أتذكر أو يتهياً لي أنها كانت تطيل النظر إليه، أ تكون قد وقعت بحبه؟ ومن لا يرى ولفريد ثيسجر، ولا يغرم به؟ هو يمتلك مغناطيسية تستند على قوام رياضي، ورشاقة أكتسبهما من تدريبه المبكر على الملاكمة التي أحرز فيها جوائز وموقع متقدمة في مطلع شبابه، وقد حافظ على لياقته البدنية الفائقة، وقوة شخصيته، عبر حياة نشطة غنية متعددة الرواقد والأفاق. خفة دمه يصعب أن توجد عندنا نحن الإنجليز في مناخنا الثقيل. أكتسبها هو من الأسفار الكثيرة ومعاصرة الناس والانطلاق في العالم؛ وهذا ما جعله جذاباً

ومعشوقة بجدارة، رغم شطحاته التي تجعلني أصفه بالجنون أو العته! جلسنا بعد العشاء نحتسي العصائر ونتبادل أحاديث شتى، حدثنا ثيسجر عن الشكوك التي تلاحمه بين المعدان الذين اسماهم عرب الأهوار، بعضهم يقول إنه جاسوس:

- وماذا لدى أهل الهر لأتتجسس عليهم؟ هل جئت أسجل عدد ما لديهم من جواميس ودجاجات وكاب مشايف؟ لأرسلها إلى وزارة الدفاع البريطانية في لندن؟

حمل ماكس أوراقه، ليذهب بها إلى الشرفة، أحس الشرفة مخيفة، وثمة ضوضاء تأتي من جهة الهر، تقطع تأملاته الغائرة عميقاً، أحكم إغلاق باب الغرفة، ومضى إلى السرير، لم يتمدد، جلس وسطه متربعاً، متكتماً على المخدات وقد جمعها خلفه، ومضى ساهماً لا تنفعل يا ماكس! انظر للأمر بهدوء أقرأ الأوراق بدقة، وتأن لتصل إلى الحقيقة، لا تظلم ثيسجر، لا تظلم أجاشا! وأخذ يقلب الأوراق، وجد بينها صورة فوتوغرافية، ما أن ألقى عليها نظرة عامة حتى أشاح عنها، وجدتها صورة رهيبة، ما فهمه منها الآن يكفي لكي يجد أنها تحمل دلالات مقلقة ومخيفة، ركناها جانباً، قرر أن لا يعود لتأملها والوصول إلى حكم بشأنها ألا بعد أن يتنهي من قراءة الأوراق التي وجدتها، طويلة، قد تورثه الملل، رزمة سميكية، بسطور متراصة! كما أن ثيسجر يسهب في الكلام، هو يسهب في الكتابة أيضاً. كان قد دعاها للسفر معه إلى الأهوار في شتاء العام الماضي. كنا أنا وأجاشا ولو مبارد هيلي وكاترين قد زرنا الأهوار عدة مرات، بحثنا وتناقشنا في أصول سكانها، ونصحناه بالتراث في نسبتهم إلى السومريين قبل دراسة علمية متأخرة، هو مندفع وراء حلم رومانسي، أن يتصور بنت المعيد التي سلبت لهه كما يدعى هي حفيدة السومريين وحضارتهم الرائدة، والموغلة في القدم! وجدها يتحدث متقدلاً بين عدة موضوعات تشق ذهنه، يتذكر رجالاً رافقوه في رحلته الاستكشافية للربع الخالي؛ فيبدأ بحكاية له معهم، ثم يقطعها فجأة ليقفز إلى قضايا تتعلق

برجال ونساء لقيهم في الأهوار، ثم كأنه وصل غايتها ينتهد ويأخذ بالحديث الذي لا يمله عن بنت المعيدي، ثم يظل يدور حول طيفها أو اسمها، وما قيل له عنها وما يحلم به حولها مواصلاً الحديث مع أجاثا لتكتب رواية عن حياتها واستكشافاته ويطلق ضحكة قائلة:

ـ ما دمت لا تستطعين أن تكتبي إلا عن جريمة قتل، لنسلم بالأمر، سأدعك تقتلين حبيبي بنت المعيدي، لتهمي رجلاً إنجليزياً بقتلها، ليكن قائد الحامية البريطانية في العمارة أو الناصرية، بل ليكن أنا رغم إبني لا يمكن أن أمسها بأذى حتى لو همت بقتلي! مستعد أن أتحمل أية تهمة أو عقوبة تقوديني إليها، من أجل رواية ناجحة لك، اجري قلمك على الورق ودعني قلوب القراء ترکض لاهثة على الصفحات ليعرفوا من قتل بنت المعيدي ولماذا قتلها!

أتذكر إبني قلت مستفزاً له:

ـ روايات أجاثا تزدحم بالفنادق الفخمة، والقطارات المرفهة، والرجال والنساء المترفين الأنثيين، ماذا في الأهوار مما يجلب القارئ الأوروبي؟ فهز رأسه ممتعضاً!

وتصحّك أجاثا وأبقى أنا أتابعه وهو يؤشر بيديه منفعلاً كأن بنت المعيدي ستقتل حقاً!

ـ أنا واثق أن روایتك ستأتي عميقه جداً ويبعد فلسفتي!  
تعمدت إثارته:

ـ أي بعد فلسي في رواية عن المستنقعات؟  
احتد صوته:

ـ أن تبحث في صحارى الماء عن سراب الماء، وعن طيف جميل هارب،  
أليس هذا فلسفة؟

وضحكتنا! بدأ ثيسجر يضجرني بلجاجته مع أجاثا بمواقع لم تجد بها كما قالت لي في حينها حبكة رواية مقنعة، بدأت هواجسي، هل هذا

الرجل الغريب يريد أن يبني مع أجاثا علاقة خاصة، اختطاف الحمام من عشها، متذرعاً بالكتابة والرحلات والتجارب الجريئة، مخفياً وراء قناع جبه الوهمي لبنت المعيد؟ قضينا معه أسبوعاً، توغلنا في أعماق الهرول في زياراتنا الأخيرة، رأينا أجزاء منه لم نكن رأيناها في جولاتنا السابقة فيه. كانت نزهة طويلة رائعة، رغم ما لاقيناه فيها من صعوبات الإقامة والنوم وهجمات البعض، ومشقة الحصول على الماء النظيف، في صرائف المعدان المترنحة على الماء. أجاثا قالت:

- لا تكفي مئة رحلة لكي نلم بحياة هؤلاء الناس المستغرقين بعزلة مخدرة، كأنها الحلم الطويل لا يدرؤون متى يفيقون منه ليجدوا الحياة قد فاتتهم كثيراً!

ترى هل ذهبت أجاثا الآن في تلك الرحلة؟ ولكن لماذا لم تقل لي، لماذا تذهب وحدها معه؟ هذا غير معقول، لو كان هذا ما حدث؛ يكون أحدي شطحات أجاثا التي مهما بدت رصينة عاقلة، لكنها لا تخلي من جنون، ربما هي تلتقي مع ثيسجر بهذه الحال الغريبة، عقل ورصانة وهدوء، ثم فجأة يتهم كل شيء ويطلق الجنون والطيش من مكمن غامض مجهول. أعتقد إن هذا هو سر اختفائها، لاشيء آخر! أم أنا المجنون إذ أفكر بذلك؟ ثيسجر؟ هل جاء إلينا في بيت الآثاريين ليحطّم قلبي؟ ماذا فعلت له، وهل يحدني معه نقاش؟ إنه قلق مضطرب، هل هو مكتشف صحاري ومستنقعات؟ أم هو شريد تائه يبحث عن نفسه ولا يجد لها؟ كانت الأوراق في ظرف خاص، كتب عليه بخط جميل وسريع كالاحتزال وبحبر اسود كأنه من نقيع الفحم "صفحات من مغامراتي في الربع الخالي، التقلبات، عجائب الناس والأرض" كدت أقع في الأسر لدى قطاع الطرق الصحراوية، عيشي بين عرب الأهوار". كان خط ثيسجر ناعماً ممزوجاً كأنه احتزال، ومع ذلك كان واضحاً أنني يمكن فراءته بسهولة، خاصةً من قبل ماكس الذي تعود على خطوط الأقدمين والمحدثين! هذه الأوراق قد تكون أدلة مجرمية لا مادة خام لرواية مقبلة! ثمة أوراق أخرى

عليها كتابة بالحبر الأخضر وبخط أجايا: انبطاعات عن شخصية ولفريد ثيسجر، قوامه الجسدي الفكري والنفسي! وضع ماكس الأوراق جانباً وراح في شرود عميق! استطيع تفهم أن أجايا لم تطلعني على أوراق ثيسجر فهي ليست من الرسائل الشخصية التي اعتدنا أن يطلع أحدنا الآخر عليها إذا ما جاءتنا من أي شخص أو مكان في العالم، ولكنني لا أفهم لماذا خزنتها بهذه الطريقة في حقيبة ملابسها وكأنها تريد إخفاءها عنّي، هل وجدتها مهمة جداً وتصلح لرواية هامة، كما لا أدرى متى استلمتها منه، هل سلمها لها ليلة أمس حين التقاهما في الفندق؟ جائز! فانا لحظت أنها قد ضمت أوراقاً أخرى إلى الصحف والمجلات الإنجليزية التي ترسلها السفارة البريطانية لنا لاستلامها عادة من استعلامات الفندق! متى كتب ثيسجر هذه الرسالة الطويلة؟ أغلب الظن إنه جلبها معه ليسلمها لها، وربما لم يجد لحظة مناسبة حيث كنت معهما طيلة الوقت، ربما سلمها لها في غفلة مني، أو تركها لأجايا لدى الاستعلامات. أليس هذا شكلاً من المراوغة، ومحاولات إغواء امرأة من خلف ظهر زوجها؟ أم تراني متوجني عليه؟ وعلى أجايا أيضاً، والأمر كلّه لا يعدو تعارفاً تقافياً حضارياً مشروعاً؟ إنه يطمح جاداً أن تكتب عنه رواية، لا شيء أكثر من ذلك! لم الظنون الجارحة؟

إذا ذهب غريمك إلى الربع الخالي، لتك أن تلاحمه،  
ولكن حذار من منازلته على الرمال المتحركة!

أشكرك يا عزيزتي أجايا إذ وافقت على طلبي، أن تجري عينيك الجميلتين على ما دونته الآن عن رحلتي من مشاهدات وملاحظات؛ لتصوغي منها رواية لن تكون وساماً على صدر حياتي كلها! لم يتع جو بيتكم لي أن أتحدث إليك طويلاً، أرجو أن تفهمي، فأنا لا أتحدث عن عاطفة محргة لك، أو لي، إنما عن مشاعر صادقة، واهتمام بدأ معي منذ قرأت روایتك الأولى، ثم زاد تعليقي برواياتك وبك بعد أن رأيت صورك، وجدت وجهك يوحّي بالجمال العظيم

والطيبة والسماحة معاً. فمضيت أتابع ما تنشرين من روايات وما تصرحين به للصحف من أقوال وأفكار وآراء ومشاريع، ثم انقطعت أنا عن مدينة أوربا، وغبت هائماً في صحارى الشرق، واليوم أعود للحضارة، وأي باب لها أهم من إبداعك ورؤيتك لها وللعالم؟ حين عرفت من المنقب هاري، مساعد ماكس أنك هنا في بغداد طلبت منه أن يأخذني معه إلى بيتك، ويمنحك شرف التعرف شخصياً عليك! دهش ماكس: ثيسجر في الوقت الذي يتحدث عن موضوعيه وتجرده، يحاول كسب أجاثاً فيتحدث معها بحميمية وطلاقه، "متبرماً من جو بيتنا": "وتعلقي بك وبرواياتك" كأنها دون زوج، ماذا يظنني؟ صديقها فقط؟ رجل غريب متطفّل عليها؟ عاشقاً خاتماً وما على ثيسجر سوى أن ينزل لمنافسته على حبها؟ نسي إبني عانقت قلبها بعد قصة حب تقرب من الأسطورة! ثيسجر استهل مذكراته بنداءات إعجاب وهياً لا حق له بها، هذه ليست أوليات عمل روائي على الورق، بل عمل روائي على الأرض! شباك خديعة وسطو على بيت زوجي آمن، وأجاثاً ليست خالية له إلا إذا كان قد استمالها، هل أجاثاً معه الآن؟ ثيسجر هذا رجل معتوه ومخبل. لو لم يكن كذلك؛ ما الذي يدعوه للتيه في الصحراء تحت العواصف الرملية ظامناً جائعاً زائغ النظارات؟ أو على ماء الأهوار، مدعياً حبه لفتاة رأى صورتها فقط؛ أي مجنون هذا؟ لقد أعطى مثلاً تعيساً علينا نحن الإنجليز! إنه ليس غريب الأطوار وحسب، مشوه العقل والمشاعر. وجد ماكس أن الأوراق هي عدة رسائل كتبها ثيسجر في أوقات وأماكن مختلفة، ظهر له ذلك واضحًا ليس فقط من اختلاف الحبر، ونوع القلم، بل من اختلاف الموضوعات التي كان يتطرق إليها! أو الآن سأعطيك نبذة عن حياتي: ولدت في أديس أبابا، عام 1910، الابن البكر للنبييل ثيسجر الوزير البريطاني في الحبشة، نشأت في بيت بني من القش، والطين على النمط الأفريقي، البيان الفخم لم يكن من نصيبي، رغم إننا عائلة سفير الناج البريطاني، كان أبي يؤثر حياة التكشف والبساطة، وعلمنا نحن أبناءه وعائلته عليها، وهذه الخصلة لازمتني طيلة حياتي وساعدتني

على تحمل شظف العيش والجوع والظماء في رحلاتي داخل الربع الخالي، والأماكن الأخرى المجدبة القاسية والخطرة، وستظل نهج حياتي، لكثرة جولاتي وارتيادي لأماكن مجهولة ومنسية؛ اتهموني بالتجسس؛ بينما أنا منذ طفولتي وصباي مولع بالاستكشاف وحب الاستطلاع، وهي من خصال الجواسيس؛ كما هي من خصال الفنانين والمبدعين، أي هي خصلة يشتراك فيها الملائكة والشياطين. ذهبت وأنا في العشرين بمعاهدة خطيرة لتبني مجرى نهر أوаш في إثيوبيا، خدمت مع القوات البريطانية في السودان، بمنطقة دارفور، ومنحت رتبة رائد.

يشعر ماكس بالضجر من تفاصيل حياة ثيسجر ويجد لها مقدمه ومحاوله لإغراء أجاثا بتاريخه وعائلته لكن لا يلبث أن يجد المبرر لها، فهي مادة خام ضرورية أتفق مع أجاثا على إعدادها ل تستند عليها في كتابة روایتها عنه، من حقه أن ينظر لنفسه كأحد المهتمين بالحضاره الإنسانيه، المساهمين ببنائها، وأن يعرف نفسه لأجاثا، ومن المفيد أن يتعرف الإنجليز العاملين في هذا البلد، فلم الظنون؟ "تلت وسام الخدمة الممتازة، أرسلت في مهمة خاصة إلى سوريا وواصلت دراسة اللغة العربية هناك بعد أن بدأتها في لندن، يبدو إنني كنت محظوظاً حين تعرفت على الجراد، في عملي بمكافحته في السعودية، إذ قادني إلى الربع الخالي فجذبني أعمقه وكاد يذروني مع الرياح لولا إرادة نهضت من داخلي ودعنتي لمصارع كثبانه المتنقلة وبقيت واقفاً على قدمي! بعضهم يدخل الصحراء يريد الاستحواذ عليها وامتلاكها، أنا يا أجاثا تركت الصحراء تجتاحني، تغزوني مثل امرأة جميلة شهوانية وتسيطر على اعشت مع البدو، قمت معهم برحلات قصيرة، جربت فيها ما يفعله الجوع والعطش والحرارة والبرد في البدن والنفس، كتمارين لمعامرتى الكبير! سرني كثيراً أن شيوخهم تفهموا أهداف رحلتي ولم يشكوا بي، مدننا شيوخهم الكبار بالمال والجمال وتعهدوا بحمايةتنا، منحنا كبارهم تصريحًا بانتسابنا إليه! دفع الكثير من الأذى والخطر عنا! تناوبت

ماكس انفعالات شتى وهو يقرأ، مرة يصف ثيسجر بالوحشى الخائن، ومرة يلوم نفسه على انفعاله وتطرفه ويقول عنه "لا بد أن أقر، إنه كان مهذباً، وقد لمست غمامه حزن على وجهه، أشعر بصدقه ولا أظنه ممن يخون، أو يغوي المتزوجات، ليجرهن للخيانة". "مساحة الربع الخالي أكبر من مساحة العراق بكثير، تتدخل فيه أرض المملكة السعودية واليمن وعمان وإمارات عربية أخرى، أي مستطيل كوني هذا؟ رمال زجاجية تلمع كالبرق تحت الشمس أحياناً مثل مرآة تعشى البصر، كثبانها العالية تنتقل من مكان لأخر خلال ساعة واحدة، ونحن نمضي خلفها وكأننا نطارد غيوماً جافة هبطت لترقص على الأرض! هل رأيت وجه إنسان مرة ينتقل أنفه إلى أعلى أو أسفل، ومرة يتنقل فمه أو عيناه أو أذناه من موضع إلى آخر في وجهه، هكذا وجه هذه الصحراء، رسام عظيم قدماء غائصتان في الرمل ورأسه في السماء يرسم لوحاته الهائلة على هذه الرمال كلما أكمل لوحة من الألق الأصفر والأحمر والتجاعيد بحجم وديان وتلال محاها بيده الضخمة ورسم لوحة أخرى على الفور، لا معالم ثابتة تستدل بها، يجب أن نثبت وجه هذه الصحراء في ذاكرتنا. على قافتلنا أن تسير في مناخ يتردد بين حرارة 60 درجة مئوية صيفاً، إلى 7 مئوية تحت الصفر شتاءً، وقد يكون هذا كله محتملاً، ما لا يتحمل وحشة هذه الصحراء وفراغها الهائل حيث نسير ونسير دون هدى، ودون هدف! باختصار لو قلنا أن المتأهة قد تجسدت على الأرض لوجدنا أنها الربع الخالي! إذا فكرت أن تكتبي رواية عن الأبدية واللانهاية، والتيه المطلق فتعالى معنا في رحلتنا المقبلة في قلب هذه الصحراء! ومع ذلك ثمة حياة؛ جراثيم وأرانب وضب وأفاعي وطيور العباري والقمري والعناكب والقوارض، أكمات شجيرات تغمرها الرمال، ثم لا تلبت الرياح تأتي وتفتكها من سجنها، قالوا إن تجار البخور والعطور ومواد التجميل النسائي سبقونا في قطعها، أنا أصدقهم فجمال المرأة، وما يزيدها فتنة يجعل الرجال يصنعون معجزاتهم! هذه الصحراء علمتني درساً عظيماً: أن الحياة لا تفهر

ولا توجد قوة مهما كانت غاشمة تمنع ابئتها واستمرارها، نعم يا عزيزتي أجاثا، الصحراء والرمال يمكن أن تعلمنا أكثر من الكتب، أنصحك أن ترفعي رأسك عن الكتب والأوراق وتأتي لترثي كتاب الصحراء! في جوفها أنهار ماء عذب، وأديمها يتشقق من العطش، دليلنا ابن غبيشه يتلو شعراً عن جمل يموت من الظماء بينما على ظهره قرب الماء، كمثل للعاشق الذي حبيته قبالته ولا طريق له إليها، لست نادماً إبني نثرت سنوات من عمري كما العشب الجاف في الصحراء، تنازلت عن أيام كان يمكن أن تكون مفعمة بتمتع ومباهج المدن لأملاً روحي بنور الصحاري، وعقب زهورها اليانعة والجافة، ورائحة البشر حولها ما زالوا فيها على فطرتهم الأولى! كنت أسير على رمال البوادي حافياً لأحس بها تحملني مثل أم حنون، أرى قرص الشمس ينزل إلى الكثبان ويتوارى تاركاً خلفه أعمقى وقد تأججت بوهج حنين إلى السماء! أسير والقمر يداعب شعري بنور رقيق وحين تحل العتمة، ثم الظلام أغيب لأبعث من جديد مع الفجر! فأتنفس الهواء النقي يدخل رئة إنسان لأول مرة! كان غذاً نا التمر واللبن المجفف، نحفظه لأشهر على ظهور الجمال، تمرة واحدة نقطع بها أميلاً في الصحراء، يا عزيزتي أجاثا: الصحراء هي الحرية، هي الصراحة المطلقة، هي الأمل في أقصى حالات يأسه ينهض من الجدب، قد لا تكون الصحراء مريحة زاخرة بنعم وخيرات المدن، لكنها سخية في التعويض، تمنح العدل والأمل من الرمل، والبساطة طليقة سيدة مثل فرس جامعة لا أنسى أعرابياً قبالتها على مشارف الصحراء وجهه اعتصرته الرياح، قال:

- لقد اختفت النار هنا منذ عهد بعيد، لا نار؛ إلا نار القرى، والضيافة والكرم، وما تراه اليوم ليس سوى حرائق صغيرة، يشعها صيادون ليشووا عليها صيدهم من الطيور والغزلان! النار النظيفة الطاهرة فستختفي باختفائنا نحن

بدو الصحراء! لم أحدق بوجهه الغريب وحسب، بل رحت أحدق بوجوهه  
أدلاي أبناء هذه الصحراء كانوا ينظرون إليه حزاني، وقد أوشك بعضهم  
على البكاء! كيف ينتعون هذا الجزء من الأرض بالخالي؟ وهو مزدحم  
بالجوم والأقمار والواحات الغارقة الناهضة، وبالأطیاف والأحلام حتى  
أشباحه كانت أليفة غير خطرة ولا مخيفة، هذه الرمال مهما طمرت من  
جذوع وهيأكل فإنها لن تدفن ذكرياتي! كم تشيرني الرمال المتحركة في  
الصحراء وكم تخيفني، أعجبتني كلمة قالها رجل بدوي معنا: "إذا ذهب  
غريمك إلى الربع الخالي، لك أن تلاحقه، ولكن حذار من منازلته على  
الرمال المتحركة!" قال ماكس أنها حكمة جميلة حقاً تنطبق على حالي  
مع ثيسجر!

### ماذا، لو جذبت خطاك أسوار جنة عاد؟

كنا نسير ليلاً، قافلة من عشرة رجال، جمالنا تكاد تنوء بنا وما معنا من  
معدات، كنا في أواخر الربيع، نتحاشى المسير نهاراً، لهيب الشمس الحارقة.  
 يجعل ذرات رمال السوافي بقوة حبات الرصاص المنطلقة من بندقية نشيطة.  
 مال القمر للاختفاء، وثقل الظلام وغدا خيمة من قماش أسود أعمدتها رؤوسنا  
 ودواينا المنهكة، لكن جمالنا كانت تغذى السير كأن في داخلها خريطة دقيقة  
 لمسالك ومغالق هذه البيداء العظيمة. فجأة ندت شهقة من رفيقي شهاب العز  
 وهو رجل من ظفار، كان جمله يسير جنب جملي، فهو دليلنا ومستشار رحلتنا  
 والمسئول عنا أمام شيخوخ. في دبي وعمان والبحرين لكنه يقول: أنا مسئول  
 أمام ضميري أولاً عنكم! وتلفت صوبه كان يصيح:  
 - أنظر! أنظر!

لم أتبين شيئاً حولنا خلل الظلام، لكنني أحسست بيده تشير أمامه، بل  
 خيل لي إنني رأيت ومضة نور خاطفة على وجهه، كأنه غاب عنى والقافلة،  
 وعن نفسه، راح يصيح:

- عاد.. أرم ذات العماد!

كان قد أوقف جمله عن المسير، فجذبت جملي أيضاً وتوقفنا، توقفت  
القافلة كلها، صاح:

- انزلوا، انزلوا، لنجلس! ثم نرى كيف يكون مسيراً!

لم يسعني سوى الامتنال لمشورة هذا الرجل التي هي بمثابة أوامر،  
إنه خبير بمسالك الصحراء، ملماً بذاكرتها الرملية المتحركة الزائفة، كل  
يوم هي بفعل الرياح بعيدة عن أية سكينة أو هدوء، أيام وساعات الماضي  
والحاضر، عواصف تلعب لوحدها كما في بكاراة الكون الأولى، لشهاب العز  
مع الصحراء، وجبار ظفار رحلة العمر كله، وحيث أن الرابع الخالي امتداد  
لا نهائي لا يجرأ أحد على الغور فيها إلا لمسافة محدودة؛ فإنه يمضي بعيداً  
يجوبها هادئاً مطمئناً مع جماعة، أو لوحده يستره ثامن ورموش عينيه التي  
بدأت تشيب. حافظاً تضاريسها عن ظهر قلب:

- صرت أسير في هذه الصحراء كأنني أسير داخل قلبي!  
سألته مندهشاً:

- وهل يمكن للمرء أن يسير داخل قلبه؟

- نعم حين ترضى بدنياك، تألفها وتحبها، تصير هي في قلبك، وحيثما  
سرت فيها تكون في قلبك!

عجبت لهذا الرجل الأسمر الرشيق، النحيف الجسد، الذي بعيني  
نسراً، كيف يجد رضاه وقناعته في تلال، ووديان من الرمال الجافة، فيجعلها  
قلبه وضميره! نزلنا بهدوء، أوقدنا النار وسخنا ما لدينا من ذخيرة القهوة  
المعجونة، بعد أن أضفنا إليها القليل من الماء، وأخر جنا كسر الخبز، وقليلاً  
من التمر، وجلستنا نقضم ونحتسي القهوة بفناجين صغيرة، وقد خيم علينا  
صمت ووجوم، كنت أنتظر من شهاب أن يتحدث ويقول لماذا هذا التوقف،  
ما الذي حدث وما هو معنى صيحته: "أرم ذات العماد"، صرنا نحظى بلمحات  
من وجهه بعضنا على وجه النار والجمر من حطب الشجر الشوكى الصلب

الذى نحمله معنا! شعرت أن رجالنا يعرفون ما حدث، لم أشعر أنهم يتظرون  
توضيحاً، قال:

– أتعرف لماذا رأينا؟ إنه وهج قصور جنة عاد الذهبية؛ تومض لنا من تحت  
الرممال، ت يريد أن تغويانا لتبتلعنا! لو كنا سرنا خطوات أخرى لانجذبت  
أرجل جمالنا إليها؛ ولظللت تسير بسرعة خارقة؛ حتى لا ترك لنا مجالا  
للنزول عنها، ثم تغور بنا في مهاويها السحرية، ومن ينزل إلى قاعها  
يختفي إلى الأبد، ولا يظهر إلا يوم القيمة، وفي جهنم طبعاً!

بقيت أتطلع إليه، لم أكن استغرب هكذا ضرب من الأساطير، حين  
أتيت هنا كنت أعرف إنني سأغوص في رمال الأسطورة والخرافة والأخيلة  
الشعبية العجيبة، فأذهان هؤلاء الناس خصبة ثرية بالأحلام، إذا لم يجدوا  
أسطورة؛ صنعواها! ما دامت أيديهم مغلولة عن العمل والحركة وإنتاج المادة،  
هكذا كانت انطباعاتي؛ لكنني أبداً ما كنت لأتصور إنني سأتعثر في الصحراء  
بواقعة بهذه! سكت، لكن شغفي ازداد؛ كنت بالصمت أحثه على الكلام، كان  
قد قارب الستين، وجهه مليء بالغضون الحادة، ظل يحتسي القهوة وينفث  
دخان سيجارته، مولياً ظهره عن وجهتنا التي رأي منها النور المتوج! شعرته  
يتخاشى ذلك، كما يتخاشع تغيير مسارنا الآن، لأمر لا أدركه! مال إلى دون  
الآخرين:

– هذه بقايا جنة عاد، أرم ذات العماد، أسلافنا يقولون أن الملك شداد  
بن عاد، هو من كان قبل ثلاثة آلاف عام؛ يحكم هذه الأرض الشاسعة  
الممتدة من اليمن حتى أطراف الربع الخالي شاملة عمان ودبى وجزءاً  
كبيراً من نجد وشواطئ الخليج العربي! وكان هو وقومه يعبدون الأوّلان،  
فجاءه رجل من قومه يدعى هود حاملاً رسالة من الله! نصحه أن يؤمن  
بإله الواحد الأحد، ويكتف عن عبادة الأصنام، ويقيم العدل بين الناس،  
لكي يرضي الله عنه، وبيهبه وقومه جنته العظيمة! ضحك الملك الجبار  
المتعجرف من النبي، قائلاً! أي سخف هذا؟ كيف أؤمن بما لا أراه؟

رد هود: إذا آمنت به ستراء! سأله شداد: وإذا لم آمن به، ولم أطعه، ماذا سيحدث؟ أجابه هود: سيكون مصيرك جحيم فظيع لا أتمناه لك، ولا لقومي أبداً! سخر الملك منه، ما هذا الهراء؟ وهم بطرده ولكن تريث قليلاً، وأخلد للصمت! هذا يعني أن كل ما لديه من نعيم وترف ونساء كثيرات وخیرات وفيرة، منح الفتاں منها لرعاياه، ليست شيئاً أمام جنة الله! وإن هذه الدنيا الجميلة ستغنى سريعاً، وسيهجم هو تحت التراب في موت طويل بانتظار حساب عسير، ما هذا؟ أهي مصيبة كبرى حقاً، أم مجرد هراء رجل يدعى النبوة؟ صاح بهود: "صف لي جنة إلهك!" فراح هود يقول: هي جنة وارفة خضراء، عرضها السماوات والأرض، قصورها من ذهب وفضة، تجري من تحتها الأنهار من عسل وخمر وماء عذب، جواري حور عين وغلمان، لا عمل فيها ولا مرض ولا موت، الكل يجد فيها طعاماً وشراباً مما تشتهي الأنفس، وتتنمي القلوب، والكل في فرح وسرور! فكر شداد إنه قد وجد الحل، فهو لو بنى جنة الله فإنه سيحظى على كل هذه النعم، إنه سوف لا يموت أبداً! ضحك من هود قائلاً: "سأبني مثلها، بل وأفضل منها" "كان بودي أن أقطع رأسك ولكن ليس قبل أن أريك جنتي وأجعلك تؤمن بها، وتقر أنها أفضل من جنة ربك، وتكون رسولي إلى الناس تدعوهم للسجود لي!" وظل يهذي ويردد كالمعتوه: من أين جاء الله هذا لينافسني؟ سأسحب البساط من تحت قدميه!

هكذا مضى شداد في طغيانه وفجوره، واسمع يا مستر ولفريد بقية الحکایة! نهض شهاب العز وملأ دلة القهوة ووضعها على النار وعاد يتحدث: أمر شداد كاھن أوثانه أن يدون أوصاف الجنة، وضعها أمامه، وأوكل لآلف من أمرائه، أن يتولوا بناءها، وضع تحت إمرة كل واحد منهم مائة ألف رجل! أمرهم بان يشيدوا قصور جنته كلها من ذهب وفضة وأحجار كريمة! فانطلق ولاة مملكته الواسعة يسوقون الناس يحفرون ليل نهار في المناجم

يستخرجون الذهب ويسكبونه على هيئة صفائح للبناء. انطلق الغواصون  
يحرثون بحار المملكة جامعين اللؤلؤ والمرجان. وجدوا إن هذا لا يكفي  
فأمر جباته بالانتشار في أرجاء المملكة يفتثرون في خزائن البيوت ونحور  
النساء وأصابعهن، وأستانهن عن الذهب والفضة والياقوت والزبرجد! وثمة  
صيحة تلاحقهم: اجلبوا الجوادر حتى ولو من جلود الناس، ومن النطف في  
الأرحام! صاروا يركضون حتى خلف ذرق الطير معتقدين أنها ذهب يتسلط  
عليهم من السماء! صنعوا جبالا هائلة من صفائح ولبات البناء من الذهب  
مزينة باللؤلؤ والأحجار الكريمة! استغرق جمع كل ذلك عشرة أعوام،  
 واستغرق بناء الجنة ثلاثة سنتين، وزادوا عليها ثلاثين من أجل التحسينات  
ومظاهر الزينة والبهرجة! نهضت قصور شامخة من الذهب والفضة؛ تقوم  
على أعمدة ضخمة عالية من ذهب مزينة بالزبرجد والياقوت، فهي تستكشف  
أن تلامس الأرض بل تناطح السماء! فسموها لذلك أرم ذات العماد! كان في  
كل قصر ثلاثة آلاف حجرة؛ تشع بقوة فلا تدري هل نور الشمس يأتي منها،  
أم من السماء! جعلوا أنهار العسل والخمر تجري من تحتها كما في جنة الله،  
وشذى المسك والزعفران يفوح من مائها وترابها! لكن شداد ابن عاد أضاف  
لها نهرا من ماء خاص به ينبع من جبل عليه قصره القديم، مع نهر آخر من  
شرابه المفضل: عصير زهور الخشخاش مذابا بالزعفران والنارنج! أضاف  
إليها نهرا فارغا، مجرد وادٍ خاوٍ، وضع على ضفتيه كلمات تقول: إملأوه بما  
تشاءون! ويقول الرواة أن هذا يعني: أيها الناس انظروا جنتي، إذا رفضتموها  
أرسلت فيه دماءكم تجري دافقةً، وإذا قبلتموها أرسلت لكم فيه بعضًا من  
نهرى، عصير الخشخاش والزعفران! ملأ ضفاف أنهار الجنة وحدائقها بآلاف  
من حوريات حسان عين، وغلمان مخلدين لكنه قال: فتيات وغلمان وخمور،  
هذا لوحده يبعث على السأم والكآبة، أضيفوا لهم مغنين وموسيقيين وشعراء  
ورجالا ونساء مسنين يررون لهم الحكايات المسلية، ومهرجين يقومون  
باضحاكم، بذلك يمكن احتفال الجنة، فهي كما تعرفون المكان الوحيد

الذى لا يعمل فيه الناس، ولا يتظرون فيه شيئا آخر! كان مندفعا في سباق مع الله يريد الفوز عليه! جعل قصره في جنته يعلوا شامخا فوق قصور مئات آلاف القصور العالية والشرفات الواسعة. تحيطه مع القصور الأخرى حدائق غناء واسعة بأشجار باسقة، وحيث إنه أراد جنته قطعة من البقاء الأزلي والخلود؛ أمر بإزالة ما بني المهندسون لها من أسوار منيعة وأبراج حراسة، كان قد وقف عليها حراس غلاظ مدججون بالسيوف القاطعة، والسياه المسمومة قائلا: جنة شداد ابن عاد قوية منيعة باسم ملكها وسيفه وروحه الأبدية! لكنه أمر أن توضع حولها أبواب رمزية كبيرة شاهقة من ذهب ونحاس لتصون هيتها وحرمتها التي لا يمكن التنازل عنها، ولتلمع أكثر في الشمس، مغيبة كل أبواب جنة الله في السماء! أشعروا أن الطيور والأسماك التي ترد من باقى العالم؛ ما أن تدخل هواءها أو ماءها حتى تتحول إلى طيور من الذهب والفضة وتستطيع أن تتكلم وتغني كالبشر تماما! وإن فاكهة الشجر وثمارها من ذهب ولؤلؤ وياقوت ومرجان، في داخلها عصير الفاكهة الطبيعية وحلاؤتها وعطرها! وإن زهورها تبعث أنغاما وتصدح بالأغاني، لكي يصنعوا لها هيبة جنة الله! جاء شداد ابن عاد ليفتتحها رسميا ومعه آلاف من عائلته وحاشيته وضباطه وأعوانه، ومعهم ألف ألف جارية حسناء عليهن ثياب من الحرير والياقوت، هن عشيقاته الجميلات، يفضلن بكاره ألف منهن كل ليلة! هكذا قالوا، كان في الطريق لا يفتأ يصيح بأعوانه هاتوا هود لأجعله يقر أن جنتي أفضل من جنة ربه، فيسجد لها ولبي! لكن هود كان قد هجر البلاد، وراح يطوف العالم شريدا، كما حدث لجده إبراهيم الخليل، وللمصلحين عادة! وهنا يا ولفريد تختلف الحكاية، فمن قائل أن شداد حين اقترب من جنته لاحت له ظبية فاتنة فقرر صيدها بنفسه؛ فراح يطاردها متبعدا عن جيشه، حتى هوى إلى واد عميق انھال عليه ترابه فحاول أن يستجدي ملك الموت أن يمهله؛ ولا يقبض روحه حتى يرى جنته ولكن هيبات، ترك ملاك الموت بأمر الله التراب يطمره مع جنته! ولكن كيف لملك متغطرس انفق كل هذا

الجهد والذهب على جنته ثم يعافه من أجل غزالة؟ هذا غير معقول! هكذا قال شهاب العز، وكأن كل ما رواه سابقاً كان معقولاً، رغم معرفتي بطبيعة حكاياته، لكنني كنت مستمتعاً بها:

- ولكنني أؤمن طبعاً برواية جاء ذكرها في القرآن الكريم، تقول (فأرسلنا عليهم ريحَا صرضاً في أيام نحسات) وهكذا ظل عقاب الله العادل يرجم شداد وأعوانه الضالين وجنتهم المارقة سبع ليالٍ وثمانية أيام! حتى صار كل شيء ركاماً صمت برهة، طلب أن تملأ الفناجين بالقهوة المرة الفواحة الموقفة، وعاد للكلام: ربما يا ولفريد يدور في خلذك الآن كيفبني شداد جنته في صحراء كهذه؟ لا لقد كانت هذه الأرض جنات لوحدها لما تجري فيها من جداول وينابيع وما تزخر به من غابات وبساتين، لم يكن البحر بعيداً عنها كثيراً، وكانت زاخرة بالخيرات والطبيات ولكن غضبة الله عليها أحالتها إلى ما تراه الآن من رمل وبياب وهوام، وريح لافحة، وعلى كل حال، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه. فجأة نهض العز للصلوة هو ومن معه! وبقيت جالساً أرقهم، وقد غمرني خشوعهم. شعرت أن الصحراء كلها يمكن أن تصير في لحظة محراً با للروح، وإن أشواق الإنسان الحارة العميقية يصعب حصرها أو وضعها في طريق واحد. بعد أن انتهى قال لي: لقد دعوت لك معنا بالخير. والآن هيا! ركبنا جمالنا، وانعطينا إلى طريق دار به بعيداً عن جنة عاد، فوجئت به يلتفت نحوي ويعود يحدثني بحكاياته التي ظننتها قد انتهت ولا أدرى هل زادتني جهلاً أم معرفة قال:

- أتعرف يا ولفريد أن هذه الجنة الهائلة العظيمة فعلاً بعد أن اكتملت لم يدخلها أحد قط سوى رجل واحد، وصلها مصادفة، كان يبحث عن ناقه الضائعة، وحين وجد نفسه في داخلها ظن نفسه إنه قد مات وبعث في جنة الله! لم يمكن فيها سوى أياماً قليلة أصابه السأم من هذه الجنة الذهبية، ويقال إنه هو الذي قال كلاماً صار مثلاً: جنة دون ناس لا تجاس!

حانت مني التفاة جانباً حيث تركنا موضع جنة عاد، ويا لدهشتي يا أجايا  
لقد رأيت وهجاً من نور برتقالي، كأن قنابل كبيرة تتفجر هناك، أو قباب  
من ذهب تحت الشمس، وكنا نلتج الفجر! في رحلاتي الطويلة في الربع  
الخارجي، وفي مدن الخليج العربي رأيت أن هذه الجنة تتنقل في مخيلتهم  
بين اليمن أو عمان أو البحرين، أو دبي أو مدن نجد ومهمماً اختلفوا في  
تفاصيلها يتفقون في القول: يراها المُقبل إليها من بعيد، تشع قصورها  
وأعمدتها، بنور يعشى البصر، ويلهب القلب، فيسعى نحوها مسحوراً  
آملاً أن يجد بابها الذهبي لكنه إذا اقترب منها لن يجده فتذروه الريح  
على كثبانها العالية! لذلك هي تخيف الناس بقدر ما تجذبهم! وكنت  
أقول في نفسي هم لا يعدون الحقيقة، في أعمق كل واحد منا توجد جنة  
كهذه، تجذبه ليركض نحوها، ثم في النهاية ليس سوى الرمال تذروها  
رياح الزمن هنا وهناك! انبعث صوت دليلنا بغناء أسى وفقدان، ازداد صوته  
الجميل حزناً، ربما يتسرّع على الجنة الضائعة، ربما على امرأة مرت في  
حياته وتركت له الحسرات! ماذا لو اجتذبت خطاك جنة عاد يا عزيزتي  
أجايا؟ هل ستكتفين روایة عنها؟ جنة هائمٌ في قلوب البشر، كل خطاهم  
الكثيرة لا تقودهم إليه! هل سيكون عنوانها "جريمة في جنة عاد"؟!

### في معرك السياسة؛ يصعب أن تلتقي الحقيقة بالعدالة

عقد العطية مدير التحريرات الجنائية، ومعاونوه اجتماعهم الصباحي في  
حجرة المقاعد الجلدية السود كعادتهم، لم تسفر تحريراتهم عن أي شيء  
يتعلق باختفاء أجايا أو ينهي الغموض الذي يكتنفه، ويرضي رئيس الوزراء  
والبلاط، وقبلهم السفير البريطاني.وها قد مرت أربعة أيام على ذلك ثقيلة  
مريرة، سيفقدون مناصبهم، وربما يسجّلون لقصصهم، إرضاء لبريطانيا التي  
فقدت مواطنة مهمة، وفي بلاد وهايتها دولة حديثة، وأدخلتها العالم الجديد.  
كما يقول الإنجليز دائماً، الجنة التي عثروا عليها ملقاء بين أدغال قصب كثيف

في شاطئ جزيرة أم الخنازير، وظنوا أنها لأجاثا كريستي، وجدوها لفتاة شابة جميلة طويلة شقراء كأجاثا، عانس دون الأربعين قتلت كما قيل غسلا للعار؛ إذ جلبها قواد لمجموعة من الشبان السكارى في الجزيرة، وفي مصادفة مجنونة كان شقيقها الذي يصغرها بأعوام بينهم؛ فانتقض خنجره وغرسه في صدرها. في هذا الاجتماع لم يحضر مثل وزارة العدل. علموا إنه تعرض لمرض مفاجئ، وسيرسل محله المحقق خالد سامر، أحدهم وكان يعرفه قال إنه يمتاز "بجدية وكفاءة عالية" تلقى خالد التكليف بسرور وابتسامة حزينة، مضى على عجل إلى دائرة التحريات، وأدخل على الفور مكتب المدير العام، كان العطية بقامته الرشيقه النحيلة، تلتمع جمرة سيجارته على وجهه الأسمر النحيل، يجول وسط المكتب وقد شغلته قضية أجاثا واستعصت عليه، وهو المعروف بكسر الأبواب لا فتحها بالمفاتيح، حسب مقولته، صافحه بهدوء اقرب للبرود كعادته مع من يقودهم، شرح له ما تحقق في هذه القضية، كان خالد يصغي باهتمام، ورغم إدراكه أنه يمثل القضاء وعليه أن يحافظ على استقلاله لكنه بتهدئيه قال:

- سأضيف جهدي في التحقيق القضائي إلى جهود زملائي، أرجو أن تسمح لي بالتحرك الحر! العطية كعادته لا يقبل أن تمس هيبة سلطته:
- أعلمني بما توصل إليه، ولا تخذ أي إجراء أساسي دون علمي!
- طبعا.. طبعا

قال خالد، وقد أزمع في نفسه أن يتحرك بكل الحرية الداخلية المتاحة من القضاء، وإلى خبرة روحية عميقه اكتسبها من روايات أجاثا، وزخم الذكريات التي عاشها معها وزوجها في صباح الطلاق في أيس! كان خالد متأنلا لما تعرضت له أجاثا، من الصعب أن يشرح لرئيسه أو أي من زملائه، مشاعره الخاصة، وعلاقته القديمة بأجاثا وزوجها. فهو له معهما ذكريات الصبا المفعم بالأحلام، المتطلع لآفاق العالم القادمة من بعيد، كيف يفهم الموظفون الكبار هذا النوع من الذكريات؟ قبل أكثر من خمسة عشر عاما،

كان صبياً في الثالثة عشرة حين جاءه سائحين إلى مدنته أيس في أعلى الفرات، حيث ولد وترعرع ونشأ فقيراً منطلقاً بين شواطئها وبساتينها وجزرها وحواريها القديمة. أجاها وزوجها مع الكثير من السياح الأجانب اعتادوا القدوم إلى أيس في الشتاء والربيع لمشاهدة دوالى النواعير، وبساتين التخييل الوارفة، والتجوال بين معالم وأطلال هذه المدينة التي على ما يبدو لديهم معلومات غزيرة عنها، يسيرون ضاحكين في طرقاتها الضيقة المترية الملتوية وفي أيديهم كاميرات وكتيبات صغيرة. أهالينا يحذروننا منهم قائلين: إنهم كفار، مالهم حرام علينا، يأكلون لحم الخنزير، طعامهم مسموم، يضرطون بحضور الناس، ولا يستحقون، رائحتهم قد تسبب لنا الجنون! لكتنا ما أن نخرج إلى الطرقات، ونراهم حتى ننسى تحذيرات الأهل ونقترب منهم مبهورين مستطلين، نلاحظهم متضاحكين مندهشين لمرأى نساءهم اللواتي يتباخرن بشعورهن المصففة بأشكال غريبة كالتيجان، كاشفات عن صدورهن، بفساتين ملونة خفيفة مكشكشة، وسرافويل قصيرة تظهر أفخاذهن الشقر أو المنمشة. نتفاوز أمامهم كالغزلان نريد مساعدتهم دون أن يخطر في بالنا أن نأخذ منهم لقاء ذلك نقوداً أو أي شيء، لكنهم إذا أعطونا الحلوى أو العلكتناولها منهم بلهفة يسبقها لعابنا وضحكنا. نجرب معهم ما تعلمناه للتو في المدرسة من الكلمات الإنجليزية، نقودهم إلى الجزر الصغيرة المتناثرة في النهر وبقايا طواحين الماء، وإلى العيون الكبريتية، نشغل مياها المختلطة بالغاز، يلتقطون الصور، أحياناً يسلموننا كاميراتهم، ويعلموننا كيف نضغط على أزرارها وتلتقط صوراً لهم. وعند رحيلهم يأخذون عناويننا، يعدونا أنهم سيرسلون صورنا حين يعودون لبلدنا، قلة صدقوا، فأرسلوا لنا صورنا مع كارتات بريدية عن مدنهم وحدائقهم وقصورهم؛ منهم أجاها كريستي وزوجها ماكس، بذلك تعرفت عليهم، تبادلت معهما بضعة رسائل؛ تعثرت رسائلهما ثم انقطعت، في آخر رسائلهما قالا أنهما كثيراً التنقل، ولا عنوان ثابت لهما؛ ما جعلني أوقف رسائلي، لكنني بقيت أذكرهما، وأشعر نحوهما بامتنان. إذ

جعلتني مراسلتهما، ولو لفترة قصيرة، ورغبت في قراءة كل روايات أجاثا؛ متلهفاً للعلم الإنجليزية، لم تكتفي الرزمة الصغيرة التي أرسلتها لي من رواياتها، فرحت أبحث في بغداد عن رواياتها، بطبعاتها الإنجليزية والعربية، واقتضي الساعات الطويلة أتعلم قراءتها بالإنجليزية. روايات أجاثا جعلتني أتجه إلى كلية الحقوق، وجعلتني أهتم بالتحقيق الجنائي، وأختص به.. نشأ خالد يتيمًا معوزًا، والدته التي تكدر وتتكدر بأعمال الخياطة والخصف مكتتبة من إكمال دراسته، لم ترض له أن يتوقف عن الدراسة لأعالتها وأخته الصغيرة، ما كانوا ليقبلوه في كلية الحقوق، فهذه الكلية يقتصر الدراسة فيها على أبناء الأغنياء وكبار رجال الحكم ومن يسمونهم بالذوات، لكن درجاته العالية، وإصراره؛ جعلهم يقبلونه، فمضى في دراسته متفوقا دائمًا، الفضل لأمه ولأجاثا معاً، تلك حقيقة، لا يدرى الآن كيف يشرحها لأجاثا لو لقيها، أو لأمه التي رحلت عن الدنيا بعد تخرجه بسنة واحدة. آن الأوان لأرد لها الفضل، وهل هناك لحظة تحتاجني فيها أهم من هذه اللحظة؟ هو مقتنع تماما أنها بريئة من كل ما راحت بعض الصحف تکيله لها ولزوجها من اتهامات قاسية. وهو واثق من ضميره لن يخالف القانون! درس بشأن إجراءات التحريات الجنائية، وجدها غير مقنعة، ولو يقول للعطية "سيسيكم القضية حرف اتجاهها بعيداً عن الحقيقة!" بل ودأن يقول له تلك العبارة التي ظلت عالقة في ذهنه من أيام محاضرات القانون الأساسي في الكلية" في معركة السياسة يصعب أن تلتقي الحقيقة بالعدالة!" هذا صعب فالعطية معروف باعتداده وشراسته، ورغم قربه من مرؤوسيه، لكنه لا يتوانى عن زجرهم وإسكاتهم إذا طرحوا ما يراه مخالفًا لطريقة عمله! ورغم قناعة خالد العميقه أن القضاة يجب أن يكون مستقلأً عن السلطة التنفيذية، وإن هنا بشكل عام كذلك، لكن ثمة خروقات كثيرة تقع كل يوم، وكان دائماً يحذر ويرتاب من هكذا لجان مكونة من الشرطة والقضاة، ويراهما طريقة ناعمة خبيثة لتدخل السلطة التنفيذية بالسلطة القضائية، وكثيراً ما يكون كعب الشرطي، أعلى من كعب كتاب القانون، لذلك اختار أضمن

الطرق وأسهلها وأكثراها أملأً أن تتمر طلب من العطية أن يسمح له بمقابلة ماكس كمحقق منفرد، تماماً كذلك المفتش البارع الذي يظهر فجأة في روايات أجاثا، هم أن يقول إنه يعرفه جيداً، بل ثمة علاقة صداقة خاصة بينهما، ولكن هذا سيبدو مضحكاً لهذا المدير الكبير، المتقيد بالشكليات والجو الرسمي للعمل. اختار ما أعتقد أنها أكثر العبارات إقناعاً:

- الحديث الشخصي الحميم قد يوصلنا إلى معاناة أجاثا الداخلية أيضاً، هي مسألة ساعات لا أكثر. نظر العطية إليه كأنه يقيسه من فوق إلى تحت: تصرف! فال்தقرير الذي جاءني عنك جيد جداً! وكرر عليه عبارته "لا تتخذ إجراءً مهما دون علمنا"

بالتأكيد قالها بهدوء مضيراً تفسيراً بكل المرونة الممكنة!

خرج مسرعاً إلى الهواءطلق في شرفة الحجرة التي خصصت له، والمطلة على شارع الرشيد وحركة الناس والسيارات ذاهبة آية فيه، ثمة بناءون قبالتهم يعلون طوابق في عمارة قيل أنها ستكون معهداً للفنون الجميلة، مع سينما حديثة!

## هربت من المرأة إلى الصحراء، وآه من الروح إذا أفترت!

لا أنكر إنني جئت العراق فخوراً متثلياً، وربما مغورراً، بنجاح مغامرتى في الربع الخالي! كنت أفكّر أن أنطلق منه في رحلة استكشافية في بادية الشام، كنت أعرف إنها تعج بقطاع الطرق واللصوص والقتلة والمهرّبين، كما هي آهلة بالبدو الرحل. فكّرت أن أتحقق من أصل جماعة تعيش هناك يسمونهم "الصلبة" ويقال أنهم أحفاد وضباط ومقاتلين، جاءوا من أوروبا في الحروب الصليبية، وبقوا في هذه الأرض بين أسرى أو مختبئين تائهيـن، هم شقر طوال بعيون خضر وشعر ذهبي، على وجوههم حزن عميق يعيشون على هامش القبائل، ينزلون بتتردد وتوجس إلى المدن القرية يعتاشون على مداواة الناس بالأعشاب وتجير العظام، قد يكون أسلافهم أطباء أوربيـن

صلبيين والناس في المدن يكرمونهم بعيداً عن أحقاد الماضي. ربما بعضهم توارث خوف أسلافه متصوراً أن الحروب الصليبية لم تنته حتى الآن! لم يفكّر بهم لدافع عرقي كما قد يظن البعض بل لأنني دائمًا يجتذبني المهمشون والمذلّون والمنسيون فأهتم بهم، رغم أن وجهي الأساسية هي دراسة هذه الصحراة بما خرجت من صحراء؛ حتى وقعت بحب صحراء أخرى! البعض يقول إن هذا الولع الصحراوي القاسي هو انعكاس لجفاف أعمامي وظمامها لحب عظيم، ربما هذا صحيح؛ فالحب الجميل هو الماء الذي يجعل الصحراة الشاسعة في أعماق الإنسان جنة خضراء زاهية، وصحراء الروح هي فقدان الحب! وآه من الروح إذا أفترت! أحياناً لا أرى فرقاً بين وجه المرأة الجميلة الطيبة وصفحة السماء صباحاً، لكنني دائمًا أهرب من وجه المرأة إلى وجه السماء في الصحراء ربما خوفاً من الخديعة والخيبة وذل الفشل، رغم الفرص الكثيرة التي حفلت بها حياتي في إنجلترا أو أوروبا؛ بقيت أتطلع أو أبحث أحياناً عن المرأة المنشودة في خيالي ولم أقترب كثيراً من امرأة حقيقة، لذلك لم أجدها أو هي لم تجدني، ومع ذلك بقيت أنتظر وأتخيل أن ثمة امرأة رائعة في عالم مجهول تبحث عنِي، ولا تستطيع الوصول إليَّ! تصوري يا أجياثي المضحكة، رغم كل واقعيتي وصبري على مصاعب الواقع واحتراقي لتحدياته لكنني، ابتليت باشتراطات صعبة في المرأة، لست واقعياً معها؛ كأنني لا أريد الإقرار أننا كائنات أرضية لا سماوية نحمل نفس أخطاء الحياة عيوبها وأوجاعها، ونقصها الأبدى (ما مصيرية الموت هذه؟) ومع ذلك بقيت أطمح لامرأة تملأ عقلي وروحي وخيلي مثلما تملأ جسدي، وحيث إنني لم أجدها لا في لندن ولا في مدن أفريقيا أو آسيا حللت بها للذا قلت في نفسي لألقي روحي ومشاعري كلها في المغامرة والمجهول والخطر والأحلام المتجمعة كلها كالذئاب والأزهار في الصحراة، أرى فيها حزني وعطشي ورحابة أملٍ في هذه الدنيا القصيرة المدى ريشما تجدني تلك المرأة التي لا أدرى الآن في أية أرض هي تبحث عنِي؟ (ستقولين يا عزيزتي أجياثي: أنت

فطيع في نرجسيتك)! أجريت اتصالاتي بشيوخ في السعودية والخليج وشمال العراق، من أجل مغامرتى في الباذية، فلقيت منهم استجابة وكرما واستعدادا للعطاء دون شروط؛ فقد عرفوني وتوثقوا من صدقى وجديتي وزهدي، حيث طلباتي المادية كانت قليلة جداً، وطمعت فقط بمحاباتهم وقدراتهم الإنسانية أو العشائرية في تسهيل تنقلاتي وضمان سلامتى! ثم فجأة حدث لي ذلك الشيء الغريب وغير مشروعى وربما حياتي كلها!

## كيف نقفر من كيس الزمن، مثل سمكة من شبک الصياد؟

كنت جالساً عصراً في مقهى شعبي بسيط في بغداد، أحتجسي الشاي الثقيل من استكان مذهب الفوهه، وأتطلع إلى زحمة الناس الفقراء وحركتهم وكدحهم على الأرصفة، حانت مني نظرة إلى صدر المقهى فوق نظري عليها، وجه فتاة حسناء لم أر مثيلاً لها من قبل، بقية مذهب لا أتأمله، وجه فاتن لا أستطيع وصفه سوى بحلم هائل أدخلني جنته، كل الصحارى تلاشت أخذني تورد الخدين، ونعايس العينين المكحلتين والصدر الناهد تحت أزهار الثوب المزركس، وجدتني أهمس لنفسي: "هذه هي الفتاة التي أبحث عنها، وقد رست اليوم بصورتها من وراء جدار الغيب! والغريب استقر في نفسي أنها هنا تبحث عنى!" هل هذا معقول أن تلك المرأة التي انتظرتها طويلاً، وتصورت إنني لن أجدها سوى في لندن أو باريس تأتيني الآن إلى هنا في علاوى الحلقة في بغداد، أهكذا تلعب بنا أقدار الحب؟ اغتنمت أن صاحب المقهى يتقدم مني، كأنه كان يرقبني، سأله، مشيراً إليها:

- من هذه؟

أطلق ضحكة قصيرة:

- أنت أيضاً؟ إنها بنت المعيدى!

- ماذا تقصد أنت أيضاً؟

- كلهم هنا يعشقونها، فهي معبودة الرجال، وعدوة النساء، منافسة كل

امرأة! كل رجل رآها وقع في حبها، وكل امرأة سمعت بخبرها؛ اعتبرتها ضرة لها!

ورحت أكرر القول في نفسي "هذه الفتاة هي من كنت أبحث عنها، ومن كانت تبحث عنني" نعم يا أجاثا حلم شرقي هائل أخذ قلبي. وراح يسوقني وكأنني حewan تحته، أمسك بزمامي وانتهى الأمر! رأيت وبأم عيني تلك الفتاة تتقدم مني، توقفني وسط المسافة بيننا، وتقول:

- كفاك هربا مني، أنت هنا معي منذ زمن طويل!

- ولكتني رجل غريب أتيت توا من جزر بعيدة، يسمونها الجزر البريطانية!

- وأنا عيناي تجذبان السفن القادمة من الجزر البعيدة، ألم تشعر بشعاع متقد يداعب قلبك من بعيد، فتبعته إلى هنا؟

قالتها بعنجه ضاحكة بينما جسدها الأشقر يكاد يميل لحضني، ونظرت في عينيها الواسعتين العميقين، كانت فيهما حزم من الضوء والعتمة مجداً ولتين بقوه، وبما يكفي لجذب السفن من أعماق البحار، بل لجذب الجزر البريطانية نفسها من بحارها إلى هذه البقعة الشعبية البسيطة الرثة الفقيرة من بغداد! في تلك اللحظة ألغيت رحلتي إلى بادية الشام وقررت البقاء في بغداد أبحث عنها. تعمدت إسكات عقلي الذي قال هي مجرد صورة رسمنها مستشرق من أوهامه وصبواته، ابق على عهده للصحراء فهي الحقيقة وما هذه الصورة إلا تذكرة رحلة فناء في عيني فتاة جميلة لا وجود لها! بقيت منكفتا في المقهى لا أجرأ على النظر إلى الصورة أحسست إن الفتاة التي نزلت من الجدار لملاقاتي قد دخلت قلبي ولم تعد إلى الجدار! ثمة صوت في أعمامي: ابدأ من هنا، أبحث عنها، هي فتاة أحلامك ها أنت قد تجاوزت الأربعين من العمر وماذا تنتظر؟ ومن تفته الفرصة في هذا العمر ستلتقطه الشيخوخة في أحضانها الباردة لتسلمه إلى القبر، ولا شيء آخر. سارع فهي تتدركك منذ عهد بعيد لا تخيب رجاءها ولا تحبط أملها! حدق في عينيها ستتجدد صورتك هناك خلف رموشها الطويلة الجميلة! جاءني صاحب المقهى يعرف إبني الإنجليزي،

ويطيب له الحديث معي ثم في كل مرة يقول مندهشاً "عجب أنت تتكلّم عربي أحسن من أهل بغداد، أين تعلمت العربية؟" وأقول له "في دمشق" فيهز رأسه مبتسمًا، قائلاً "ماشاء الله، ماشاء الله":

- هل هذه المرة الأولى ترى صورتها؟
- نعم
- صورتها في كل مكان في المقاهي في المطاعم في الفنادق في البيوت معلقة إلى جانب صور الملوك، كيف لم ترها؟
- كنت منشغلًا بالإعداد لسفر طويل، ربما مررت في أماكن فيها صورتها ولم أحظ بها!
- هي من المعدان كانت تبيع الروبة على الرصيف، رأها صدفة، ضابط إنجليزي فوقع في غرامها، خطفها من زوجها، وذهب بها إلى لندن! بقيت أتطلع إلى وجهه الأسود، وذقنها النابتة بكثافة فمه بلا أسنان تقريباً، تتبّع منه رائحة تبغ الأرجيلة.
- أنت إنجليزي، ألم تسمع عنها في لندن؟
- لا أبداً.
- هي الآن في لندن يقولون، إنها صديقة الملكة اليزابيث! لم لا تجعلونها ملكتكم؟ فهي أجمل من اليزابيث النحيفة كأنها طير الماء! الله أعلم، شmdirينا أنتو الإنكليز كل شغلكم أسراراً! ضحكت أن ملكتنا طير ماء، زادني فضولاً، فجأة وكما تفجر نبع في أرض قاحلة وجدتني أحب بنت المعيدي!

يا أجاثا، تخيل الزمن وعلى ظهره كيس هائل، السماء والأرض قماشته السميكة، يحمل فيه كل الناس، لا ينسى أحداً، بل هو لا ينسى حيواناً ولا شجرة ولا ذرة غبار أو ماء لا تفلت من فمه الكبير الشره؛ يحملنا نحن متاعه ومقتنياته المضحكة بهدوء وصمت وخبيث، ليمضي بنا مع خطوطه الأسفنجية الناعمة، يلقينا حسب مزاجه، هذا في المقابر؟ ذاك في الريح، في البحار،

في الصحاري. آخر في الذاكرة، في النسيان آخر في الحب في الكراهية، في المزابل؟ كيف نفلت من كيسه الطويل العميق، نقفز منه كسمكة من شبك الصياد؟ هل هذا مستحيل؟ لا مهرب لنا سوى أن ناوي إلى قلوبنا وضمائerna، وماذا تكون القلوب أو الضمائر غير الحب؟ هذه اللومضة قدحت في ذهني حين كنت في صحراء الربع الخالي، وكنت قد نسيتها، وتفجرت حين رأيت بنت المعيدى، لا مهرب لي من الزمن سوى أن أحب، أو أكون جديراً بمن أحب، حتى إذا لم يحبني بذلك نستميل قلوبنا ونجعلها معنا لا ضدنا، بذلك ينسانا الزمن، أو يتسامح معنا إذا قفزنا من الكيس الكبير الذي على ظهره، وحين يتلقفنا الزهر أو القبر بعد ذلك، لا نأسف على شيء، حيث لم نبق له شيئاً منا، تركنا كل شيء خلفنا لمن نحب أو لمن يحبنا!

تنفس ماكس بغضب، ماذا يريد ولفريد هذا الساحر الماكر أن يقول لأجاثا؟ لكنه هداً قليلاً حين أخذ يقرأ:

أنا من دولة عظمى، لكنتني الآن شريداً بإرادتي، نفيت نفسي إلى بلدان ضعيفة فقيرة، وعشت معهم على الكفاف، بإرادتي خرجت من حضارة أوربا، باحثاً عن روح غريبة أنا نفسي لا أعرفها تماماً ربما هي روح الصحراء، روح الماء، روح العالم، والآن استيقظت في روحي حاجتي لروح المرأة وجسدها، أيقظتها عيناً بنت المعدان، قد لا أجدها، لكن يكفي أنها جعلتني أعرف التوقف، هو الخطوة الأولى للحب وأحزانه الكثيرة!

## حكايات كثيرة عن الحسناء، جنة وارفة، لكن شبح الضابط الإنجليزي هناك دائماً

قلت يجب أن أستقي معلومات عنها من مصدر موضوع، كنت أعرف صحيفاً طريفاً اسمه سليم البكري، يتكلم الإنجليزية بطلاقة، ويترجم منها وإليها بغزاره، يتتردد على السفارة البريطانية؛ يزوده أحد أصدقائي ببعض الأخبار لتنفرد بنشرها صحيفة الأهالي التي يعمل بها، وقد تقرب إلى يريد

مني أن أزوده بصفحات من رحلتي في الربع الخالي. كلمته تلفونيا من الفندق، وتواعدنا مساء في مقهى على شارع الرشيد، كنت مستعداً أن أقايسه بكل مذكراتي عن الربع الخالي مقابل بعض المعلومات عن بنت المعيدي! وجدته ينتظرني في المقهى. بعد أن عرف ما أريد، أطلق ضاحكة قصيرة قائلاً: - لم أكن أعلم إنك تعمل في المخابرات، وهذه المسكينة التي يقال إنها ضحيتكم، صرتم لا تعرفونها، ما الذي ذكركم بها؟

كان من الطبيعي أن يقول ذلك، فشارع بغداد ما زالت تهتز، رغم انتهاء المظاهرات الضخمة التي مرت عليها حول المعاهدة مع الإنجليز، فالأوضاع السياسية هنا معقدة شائكة والصراع على النفط فيه، قد بلغ أوجهه، والأرض كلها تكاد تشتعل به، ولا شيء يشغل الناس غير السياسة وتقلباتها، ومعظمها يصب في كره الإنجليز، والحكام الذين يعتبرونهم عملاء لهم، كنت أريد أن أصارحه: - إنها ليست قضية مخابرات، لا أخفي عليك، لقد رأيت صورتها في المقهى، وصرت أحبتها بل مغرماً بها، وأريد معرفة أي شيء عنها! أخذ يضحك، وقد توقعت هذا:

- تحبها من صورة لها في المقهى؟ لم أكن أصدق ما يقال عن خفة عقول الإنجليز حتى رأيتها! ومع ذلك لقد جئت متاخرًا يا ثيسجر فهي حسب ما يحكى عنها، رحلت إلى بلادكم من سنوات طويلة، ولم تعد، هي منافية تعيش في ظل مغتصبها، قيل إن ضابطاً إنجليزياً أحبها فانتزعها من زوجها، أو والدها، وأخذها إلى إنجلترا!

هذا ما قاله لي صاحب المقهى، بقيت أطلع في وجهه، أنتظر المزيد: - يا ثيسجر فهمت إنك تلقي نفسك في أحضان الصحاري بسرعة، كيف تلقي نفسك في أحضان النساء بسرعة أيضاً؟ احذر! فالنساء هنا أخطر من الصحاري يبتلعن حياتك؛ ثم لا تجد في يدك سوى حفنة رمل!

توقعت تحذيره من العشق والعلاقات مع النساء في مجتمعهم المحافظ والمترسم:

- أريد علاقة جدية معها، الاقتران بها شرعاً كما تقولون!

هز رأسه صامتاً، رفع وجهه نحوي وراح يتحدث جاداً:

- لماذا تورط نفسك بمازق كهذا؟ أتعرف من هي صاحبة هذه الصورة؟

آلاف الشبان والرجال يتطلعون مبهورين إلى وجهها الفاتن، كل يوم، في المقاهي والمطاعم والبيوت، يستلهم جمالها العظيم لكن لا يجرؤون، ولا يخطر ببالهم البحث عنها، يعرفون أنهم لن يجدوها، لقد أخذها الإنجليزي قبلهم، ويسوا من إنقاذهما أو استعادتها، كل ما يفعلونه، يخرجون صورها من تحت مخداتهم سراً، يتأملون وجهها الجميل وصدرها الناهد، وبعد أن ترهقهم حسراتهم، يستعيدونها شيئاً، يغتصبونها، في حلم عنيف، مستعينين بلاعبهم، أو مواد أخرى، حتى يقدرون أرواحهم في وجه السماء والقمر، أو على أحديتهم، لهذا ألقوا صورها على جدران المراحيض العامة؛ فهكذا دواء أو غذاء يمكن توفيره للعاجزين، ولا يكلف خزينة الدولة شيئاً! يا ثيسجر الرجال والنساء هنا في سجينين متبعدين، يتمنون لو يهدوا الجدران عليهم ليلتقو تحتها، ولكن هيئات فالسجانون رجال دين وشرطة وكتب مقدسة، وأباء وأمهات يقفون على الأبواب والشبابيك، صور بنت المعيدى واحة خضراء في سجن الرجال!

وأنت جئت اليوم لتتنزع هذه الواحة لك وحدك!

عاد لصمت قريب من الوجوم، قال فجأة:

- إذا صح أنها رحلت مع خاطفها إلى بلادكم، لم لا تذهب وتبث عنها هناك؟

ويطلق ضحكة ناعمة:

- لماذا لا تدعني أبحث لك عن فتاة عراقية جميلة مسيحية مثلك، أو أخرى جميلة جداً تسلم من أجلها، تتزوجها هنا وتستريح، وترى حنا معك؟

- يا صديقي سليم، لا أدرى ماذا حدث لي، أنا الآن متيم بهذه الفتاة، وأريد أن أعرفها!

- هذا هروب، فالبحث عن فتاة هي مجرد حلم في حلم، ووهم في وهم؛ يعني إنك لست جاداً، في الاقتران بفتاة حقيقة، ومع ذلك من قال أن الأحلام لا تستحق الركض وراءها، هيأ أركض..!

ولأنني أعرف أنك مثقف رحالة وفيلسوف (تصوري) أغدق علي لقب فيلسوف) فأنا سأساعدك في ذلك، فإذا كنا نخشى الضباط وأسلحتهم، حتى لو كانوا عراقيين، فنحن لا نخشى، المثقفين حتى لو كانوا إنجليز!!

توقعـتـ إنهـ سيـطـلـبـ أـجـرـاـ لـقـاءـ جـهـدـهـ وـاستـشـارـتـهـ،ـ كـمـاـ فـيـ بـلـدـانـاـ،ـ لـكـنـهـ أـصـرـ أـنـ لـاـ يـأـخـذـ شـيـئـاـ،ـ حـتـىـ مـذـكـرـاتـيـ لـمـ يـتـطـرـقـ لـهـاـ،ـ لـكـنـهـ طـلـبـ شـيـئـاـ آـخـرـ:

- فقط أرجو أن توصي صاحبك في السفارة أن لا يدخل علينا بأخبار الإنجليز في بغداد، فأنتم اليوم تحكمون بلادنا من وراء حكومة متمرة، يتقدمها الدهيبة نوري السعيد، الذي لا يجعلنا نعرف ماذا وراءه أو قدامه، أنيروا طريقنا أنار الله طريقكم!

ضحك حتى أخذته نوبة سعال:

- لكم النفط والويسكي والنساء، ولنا رجال السلطة والأحزاب الكثيبة، والتقاتل والسجون، هذا هو قدرنا نحن العراقيين والشرقين! قل لصاحبك يعطينا الخبر اليقين، وأنا سأؤسس لك معهد دراسات عن بنت المعيدي! ضحكت وطمأنته، قلت له على طريقة البدو الذين عايشتهم في الخليج

العربي وبلهجتهم:

- إبشر الخير قادم"

- ومع ذلك لا تتوقع إنك ستصل إلى بنت المعيدي، فقضيتها غامضة، وغير مؤكدة، أخشى عليك من لوعة الغرام على أرضنا، فيقدر ما رمالها ساخنة، هي تحرق حتى عشاقها ومحببيها، والأسوأ تجعلهم مجانيـنـ هـائـمـينـ عـلـىـ غـيرـ هـدـىـ!

- اطمئـنـ،ـ هيـ إـحـدـىـ قـرـاراتـ حـيـاتـيـ المـجـنـونـةـ،ـ وـهـلـ يـخـافـ المـجـنـونـ أـنـ يـجـنـ منـ جـدـيدـ؟ـ

كانت ضحكاته تطمئنني، وهو يعيد القول:  
- أنا لا أصدق حكاية خطفها من قبل الإنجليزي، ربما الناس يتحدثون عن

بلدهم المستلب لا عنها هي حقا، ثمة شيء صحيح واحد فيها، وهي أنها لا وجود لها في العراق، ولا في أي مكان آخر، ربما هي تهبيات، أوهام مضطهددين، محرومين، ومع ذلك سأبحث معك عنها!

لابد يا عزيزتي أجاها أن تكون صورة بنت المعيدى، قد طالعتك على صدر بهو أحد الفنادق، أو المطاعم والمقاهي التي ارتديتها في بغداد والموصل وكركوك ومدن الجنوب، فصورها وهي حاسرة الرأس كاشفة عن شعر أسود كثيف ينسدل إلى ما تحت الكتفين، أو وهي معتمرة طربوشها تركيا نسائيا أنيقا، وابتسماتها الحزينة المضمرة على شفتين كوردة لم تفتح بعد، تمنح المكان جمالها ورقتها وبهاءها فيفيض ويمنح السكينة والرقة والهدوء!

هي في ذروة جمال يتعدد بين الريفي والمديني، وكما اعرف أنت تحبين الجمال الريفي أو القروي، كم رأيت من الفتيات لم أتوقف عندهن، ولكي لا أبدو مستهينا بالمرأة الإنجليزية أو الأوروبية أقول: هذه الفتاةأخذت من جمال الأوربيات الكثير، كما أخذت من ملامح الشريقيات وروحهن وغموضهن ما يكفي لمس القلب. شيء من شعاع جمال الحقوق والبراري المتموجة بالزهر، ورونق بيوت المدن الفخمة! كيف هزت حياتي؟ (هل هي صورة فقط؟ ومضمة سماوية؟) حلم أذهلني عن نفسي وأهدافي ومشاريعي وجذبني إلى متأهات عالم بعيد مجهول.

ترفع بريطانيا يدها عن العراق! تضع أمريكا يدها على العراق! خبر جديد؟ نبؤة ساحر؟ خبيثة مخللات متغصنة؟

زرت صديقي كولن استيفنسن حيث يعمل في سفارتنا في الصالحية ببغداد، هذا الرجل البدين المرح الذي تعرفيته؛ وكيف هو كما قلت أنت لديه قدرة عجيبة على مجاراة أصدقائه حتى لو انهمكوا بصيد البعض! حجرته

مطلة على حديقة وارفة، تتکع على دجلة. وجدته متفرغاً للقائي، حدثه عن غرامي المفاجئ، وحاجتي إلى أخبار سياسية لتغذيته والوصول به إلى نهايته السعيدة، ضحك، وراح يقهقه قائلاً:

- أنا عادة وإنجليزي أصيل؛ لا أضحك على النكات إلا في اليوم التالي، ولكن نكتتك المثيرة هذه جعلتني أضحك على الفور! ومع ذلك أزوادك بكل الأخبار التي أتمنى أن لا توصلك إلى نهاية تعيسة، فحكاياتك ميّة منذ البدء يا صديقي! أية أخبار يريدها صاحبك؟ سياسية عالمية؟ أم عامة تخص العراق فقط؟

- لا أدرى لا خبرة لي في هكذا أمور، ما تستطيعه..!

- طبعاً هو يريدها تخص العراق، أخبار سياسية، مقابل أخبار غرامية، هي صفقة قديمة أزلية ولكنها ستحدث هنا بطريقة جديدة! لا يمكنني أن أفترط بأخبار قد تعدّ أمنية أو مخابراتية تخص بلدنا، ولكن استطيع أن أزوادك بأخبار سياسية تبدو مخابراتية، يهمسون بها في حفلات الكوكتيل في السفارات، وتتداولها صحف في لندن، لكنهم هنا لا يقرئون ولا يعلمون بما يدور حولهم!

- أنت تعرف صاحبي سليم البكري يقرأ الإنجليزية، ولكن معظم الصحف الإنجليزية تصل بغداد متأخرة، أو لا تصله!

- استطيع أن أزوادك بخبر قد يكون مثيراً للكثيرين من العراقيين، وهو أن الحكومة البريطانية بدأت تشعر أن مستعمرتها السابقة "أمريكا" التي كانت مجرد قطة صغيرة في قفصها، قد أصبحت الآن نمرة شرسة، حطمت القفص ومضت تفترس الطرائد، وهي الآن وبعد خروجها من الحرب العالمية الثانية متتصرة؛ أخذت تنافس بريطانيا على نفوذها في الشرق الأوسط، وبعد أن عرفت بوجود أكبر خزين للنفط في العالم تحت أرض العراق كما في السعودية؛ أخذت تعمل على أزاحتنا منه، وأخذت مكاننا فيه، بعض الصحف كتبت أنهم الآن يستغلون تدمير الناس من وقوف الإنجليز

مع اليهود في فلسطين، وكره الناس لنا كمستعمرین فأخذوا يكونون خلايا لهم في الجيش العراقي للقيام بانقلاب، لعلك تعرف أن تاريخ الجيش هنا هو تاريخ الانقلابات ومحاولات تحطيم الدولة المدنية، وإقامة دكتatorية عسكرية، كثير من الضباط هنا فارغو الرؤوس ممثلو الغدد بالأوهام، والطموحات الخاصة، والانقلابان السابقان قبل سنوات قليلة، كانا بتمويل وضغط ألماني، والقادم سيكون أمريكا، ثمة ضباط كبار يطمحون للسلطة، أمريكا الآن تستغلهم بوعيهم أو دون وعيهم ليقوموا بانقلاب! أعلم صاحبك إن بريطانيا تعرف هذا المخطط، وترقب الوضع عن كثب، وتهيأ لذلك! هذا خبر هام؛ تستطيع أن تعطيه لصاحبك بالتقسيط، تعلم! لا تعط الخبر السياسي الكبير والهام دفعه واحدة، احصل لقاء كل دفعه منه على كمية مناسبة من الأخبار العاطفية، وأجعل نهايته مقرونة بوصول معشوقتك إلى السرير، أو في الأقل تمنحك عدداً من القبلات الساخنة! أنت خبير برم الصحراء، وتجهل رمال السياسة المتحركة، ورمال العواطف المتقلبة التي قتلت في العالم أكثر مما قتلت شعابين وذئاب الصحاري!

خرجت منه متتشياً، تصوري يا أجياثا أنا الذي لم أحلم يوماً أن اهتم بالسياسة صرت شغوفاً ومتطلعاً لمعرفة شيء عن أسرار الصراع الأمريكي البريطاني على العراق، قائلاً في نفسي من أجل عيني بنت المعيدي سأشتغل في السياسة، وأنظم لحزب، إذا اقتضى الأمر! تحدثت لسليم بالخبر كله دفعه واحدة، كنت أريد أخبار هامة عن حبيبي المجهولة البعيدة، أريد أن أقربها مني بأسرع وقت. ضحك وظل يقهقه:

- ترفع بريطانيا يدها عن العراق! تضع أمريكا يدها على العراق! خبر جديد؟ نبوءة ساحر؟ زير مخللات قديمة متعمنة! هذا خبر عتيق يا صاحبي، أقدم من الملابس المستعملة التي يصدق بها الإنجليز على العراقيين، ومع ذلك يا ثيسجر أنا سأحدثك بكل ما أعرفه عن بنت المعيدي، دون مقابل

من أي شيء، لا تتعب نفسك! هذا صاحبك كولن يتصورنا سذجاً بلهاء، نحن نعرف أن كل الأقوياء في العالم يتصارعون علينا، بريطانيا وأمريكا وفرنسا وحتى هؤلاء السوفيت الذين يصورهم الشيوعيون المساطيل هنا ملائكة وقديسين، هم مستعدون لحرق كل الشيوعيين من أجل موطن قدم لهم في بلادنا. كنت أمزح معك، لا تتعب نفسك كل خبر للحب يسعدني أن أنقله لك أو لغيرك لا تهتم، نحن نتعامل مع الأجنبي بحب، إذا تعامل معنا بحب حقيقي، لا نزدري إلا من يستعمل الحب فناعاً للكراهية!

أشعل سليم سيجارته التي لا يفارق دخانها وجهه المستدير الأشقر، وعينيه الصغيرتين العمشاوين، وراح يحدثني:

- لا بد إنك عرفت أن كثيرين لم يفلتوا من صورة بنت المعيدي، فهي معلقة حتى في قاعات نوم جنود في ثكنات للجيش، كما في بيوت الموسرين والقراء، والنساء يرمقنها بغيرة وحسد! والملك غازي وضعها إلى جانب صورة الكاتب الفرنسي أනاتولي فرانس التي ورثها عن والده الملك فيصل الأول، اعتبر قصة اغتصابها أو خطفها أحد الأدلة على انتهاكات الإنجлиз للعراق. سأله الملك علي، وكان محافظاً جداً "لماذا تعلق صورة بنت غريبة في مكتبك؟" أجابه: هذه ليست غريبة، هذه بنت العراق الجميلة، تمثل عندي روح البلاد، وقد اغتصبها الإنجлиз، وليس كثيراً عليها، أو علي أن تكون صورتها في مكتبي، وحجرة نومي! وكان يتحدث عنها من أذاعته التي أقامها في قصر الزهور، وكان المذيع الأول فيها. ويصر على القول أن من رسم صورتها هو فنان عراقي يدعى عبد القادر رسام، استعادها بمخيلته بعد أن جلس والد الفتاة بجانبه يصف له ملامح ابنته المخطوفة، وإنه قد وضع الكثير من دموع والد الفتاة العحارة في الزيت الملون، وكان الملك يخاطب شعبه: مأساة بنت المعيدي، هي مأساة العراق المغتصب، ولن تتكرر!

- نعم هذا جميل، أنا لا أريد اغتصابها إذا رفضتني، سأبتعد عن طريقها!
- تعجبني فيك روح الطفولة والبساطة، لو التقتك يا ثيسجر لحبتك، لكن هذا يكاد أن يكون مستحيلاً فهي الآن قد اختفت تماماً! سكت برهة قال:
- كنت أتمنى لو جمال هذه الفتاة ومؤاساتها قد علمت الملك الهدوء والوئام، هو انجرف مع ضباط يمليون لهتلر، في انقلاب دموي، ضد حكومة معتدلة، معظم الساسة والزعماء لا يحسون بروح الفن، يأخذونه مظاهر، وشعارات فقط،!
- أنت في بحثك عن بنت المعيدى ستلقى الكثير من المتابع، حاول أن تفهم أهل البلاد وتمضى في حلمك!
- أنا منشغل بها لا تحدياً، بل استجابة لنداء حب.
- أفهمك لذلك سأتعاون معك، والآن سأحدثك عنها!
- طلب أرجيلته، أخذ يرتب جمرتها، وأنا أترق أريده أن يتحدث، أخيراً انبعث صوته مع الدخان:
- عرفت أن لهذه البنت أسماء كثيرة، فهي فاطمة، وليلي المعيدية، وبنت المعيدى، زينب، جميلة، فتنة، حليمة، أسماء أخرى كثيرة بل أن ثمة مثقفين لدينا لا يرتضون لها هذه الأسماء ويسمونها "موناليزا" العراق، وجدت إن اسم فاطمة يقترن بها في أكثر الحكايات الكثيرة الشائعة عنها وكلها تدور حول أصلها، وعائلتها واحتطافها، وهي محيرة فعلاً، ورغم الاختلاف في تفاصيلها يجمعها شبح واحد، لضابط إنجليزي، أغواها أو أغواته، ثم احتطافها وهرب بها إلى لندن! اللعنة على العروب والغزوات كلها منذ بدء الخليقة حتى اليوم! لا تكتفي بإزهاق الأرواح، ونهب الثروات، وتدمير البيوت، بل هي تشرد الناس العزل، وتسببي النساء والأطفال!

# لبت المعيدي حالات وأطوار، والقارب الصغير تتقاذفه أمواج البحر!

في الحكاية أو في أحوال الأرض: ابنة المعيدي عائلتها من المعدان، تربى الجاموس في الهرور، ذهبت إلى مدينة العمارة بأطباق اللبن والقimer لتبقيه كباقي نساء المعدان. في السوق رأها ضابط إنجليزي، دهش لجمالها، وتدلله بها، تكلم معها بما يعرفه من كلمات عربية قليلة، شجعته ابتسامتها الساحرة، ونظراتها المبهورة به، فعرف أين تسكن، فأقنع وجهاء من العمارة وذهبوا معه لخطبتها، لكن والدها رفض تزويجها له، حاول كثيراً معه فلم يفلح. هنا تسير الحكاية في جدولين من ماء دافق لا يخلو من كدر، واحد يقول أن الضابط الإنجليزي وقد لمس ميلها له وهيامها به أيضاً، تخلى عن كل شيءٍ مركّزه العسكري والنجمات والنياشين، قسمه العسكري، وهرب بها إلى لندن وهناك استقدم فناناً ليرسمها في لوحة أرسلها إلى أهلها مع مبلغ من المال كتعويض! لكنها وقد صفعها ضباب لندن وبردها وبرودة الإنجليز، سرعان ما ندمت وظلت تنوح وتنعذب كحمامة كسيرة حتى ماتت شابة! آخر يقول: أن الضابط الإنجليزي حين يأس من نيلها، قام هو برسسمها، فحصل على الصورة دون الفتاة، وإن كل هذا كان عام 1934، بينما يقول آخرون بل إن ذلك حدث عام 1920 خلال الحرب التي شنها الإنجليز لإخماد ثورة الإقطاعيين وشيخ العشائر ضدّهم!

سكت سليم وراح يجذب أنفاساً عميقاً من الدخان، ويحسّي شايته بهدوء وتلذذ ويرمقني بانتشاء وقد لمس ارتياحي للشطر الثاني من حكاياته الذي يعني أنها ما تزال حية وفي العراق وفي أحضان عائلتها في الهرور، وتمنحها عمراً مقارباً لعمري، قلت لسليم:

- هكذا صورة لا يمكن أن يرسمها سوى رسام محترف ومتمرّس، فكيف يستطيع ضابط هاو أن يرسمها وبهذه الدقة والروعة؟ ومن أين يأتي برسام محلّي أو أجنبّي في جنوب العراق لرسمها؟ وكيف تتمكن الفتاة وقد

رفض أهلها تزويجها له؛ من الجلوس معه ساعات طويلة مرتبطة كل هذه  
الثياب الجديدة عليها والغريبة ليرسمها؟

ضحك قائلًا: فعلاً هذا صحيح لكنني أحدثك بما سمعت ولا يعني هذا  
إنني مقتنع بما أحدث! عدت أقول، وكنت قد سرت بهكذا احتمال:

- لماذا من المستحيل أن يحدث هذا، أو أن لا يكون الضابط وقد حرم منها  
قد جلس لوحده واستعاد دقائق ملامحها ورسمها واضعاً فيها كل نبضات  
قلبه وخلجات روحه! ولم لا يمكن أن تصور رجلًا عسكريًا، يصير فناناً؟  
لا خاطفاً ولا معتدياً؟ لماذا ننسى قدرة الحب على قلب أصعب الإنسان  
من أن يضغط على زناد البنية، ليضغط على فرشة الرسم؟

ضحك سليم قائلًا:

- انظر كيف جعلك الحب شاعراً، في مجال الحب لك يا صديقي أن يجعل  
المستحيل ممكناً!

لكنه جاء بما يحيط أحلامي قائلًا:

- هناك حكاية أخرى مغایرة تماماً!

رفعت رأسه إليه، وقد توجس قلبي:

- خلال الأيام التي بني فيها الإنجليز ذلك الجسر قرب الحلة، الذي  
أسموه(two reach) وتحول فيما بعد على لسان الناس إلى (طويريج)،  
كان الضابط الإنجليزي منهمكاً في عمل دقيق؛ نقش العلم البريطاني  
على الأعمدة الحديدية الوسطية للجسر لتخليد ذكرى وجود الإنجليز  
في العراق، مرت فتاة حسناء، كأنما ضربه ظلها؛ فرفع رأسه متطلعًا إليها،  
بهره جمالها وصده عن متابعة عمله، فأرسل من يتبعها ويأتيه بمعلومات  
عنها وقد اعتبرها معركته الأخيرة في هذه البلاد التي خسر فيها جيشهم  
الإنجليزي آلاف الجنود أكثرهم كانوا من السيخ والهنود. جمع عدداً  
من وجهاء ورجال دين في الحلة وبغداد وسطاء يسعون له مع أهلها  
المعدان الذين لم يستطيعوا أمام هذا الحشد الديني والعشائري، إلا

الموافقة على زواج ابنته منه، أمها وكانت جميلة مثلها: قالت "سوف أزفها إلى قبرها مع الإنجليزي، لا إلى بيت عرسها" هكذا إذن حصل هذا الزواج بتراضي الطرفين، دون أن نعرف رأي الفتاة، وهل للمرأة رأي في الزواج أو الطلاق في بلادنا؟ تأخذها حالات وأطوار من أقدارها، قارب صغير تقاذفه الأمواج، حتى الإنجليزي أمام شهواته في بلادنا لا يكتثر لرأي المرأة، لم نعرف إن كانت الفتاة قد أحبته، أم أنها فقط أسلمت مصيرها لمشيئة الله، وقرار أبيها! لم يقم حفل عقد القرآن في صريفة أهلها القصبية المدخنة، بل في دار بلدية الحلة، وقد حضره رتل كبير من رجال دين شيعة وسنة، نفحهم الضابط مala وهدايا، وجاء قس من بغداد حاملا باقة ورد كبيرة عابقة بيركات الكنيسة! يقولون إن الضابط طار بفرحته بفتاته الحسناء، قبل الطائرة التي حملتها إلى روما لقضاء شهر العسل، وهناك تعرف على رسام بورتريه التقاه في ساحة بياتسا نافونا، ورسم هذه اللوحة الجميلة لها وأرسلها إلى عائلتها! بقيت أتعلّم إليه مندهشاً حزيناً لما يحدثني به، كأنه يلعب بقلبي على جمر أرجيلته وينفع به ليتوهج مع التبغ ويدخله أيضاً "لكن مصدرها آخر يروي حكاية الضابط بشكل آخر: أن الحامية الإنجليزية قد استأجرت بيتها على شط الحلة، كان الجنود من السيخ والكركة الهنود يقومون عصر كل يوم بتنظيف المكان أمام بيت الحامية، وتهيئة مائدة الضابط الانجليزي الشاب من طعام وشراب ودخان؛ ليجلس على كرسي أنيق مريح يحتسي كؤوسه، ويحدق بوجوه وأجساد النساء قادمات إلى الشط لغسل الملابس أو المواتين أو للتزوّد بالماء. كان إذا رأى فتاة جميلة يعطي مراسله وهو معدي روبية هندية لبسها هدية لها إعجاباً منه بجمالها! وكانت للمعدي فتاة جميلة فخطر له أن يأتي بابنته التي اسمها جديلة ليراها الضابط ويستأثر بروبياته الكثيرة، وحين رأى الضابط الانجليزي جديلة الفتاة كاد يسقط مغشياً عليه، وقد صعقه جمالها، وتمضي الحكاية لتقول أنه منح والدها

ليرات ذهبية عثمانية كثيرة، وتزوجها في حفل اقتصر على أهل العروس وأقاربهم من المعدان، وثلة من الجنود الإنجليز والسيخ والهنود الذين قدموا عروضهم الطريفة من الغناء والرقص الهندي والأهواري! وقد استدعي الضابط مصور الجيش فجلب كاميشه التي كان يصور بها مشاهد المعارك الحربية بين الجيش الإنجليز من جهة، والعثمانيين وأبناء البلد المسلمين الذين رأوا بحكم العثمانيين امتداداً للخلافة الإسلامية الأولى، قال له:

- هذه المرة ستتصور وجه أجمل امرأة في العالم، بدلاً من أبغض صور في العالم، الدم والجثث والدخان!

قام المصور بتصوير الفتاة بعدة أوضاع، وهي ترتدي أجمل الثياب، بذل الضابط مالاً كثيراً للحصول عليها! ثم أرسل صورها إلى إحدى المجلات الانجليزية، فنشرت أجملها على الغلاف بعد أن حولتها إلى ما يشبه اللوحة الزيتية. حين رأى الرجل الذي باع ابنته بالليرات العثمانية صورة ابنته في المجلة الانجليزية يتداولها الرجال في مقاهيحلة، استيقظت حميته فجأة. ذهب إلى الضابط مع أحد الوجهاء يطالبه بتطبيق ابنته قائلاً "لقد أعطيتها لك، لا للرجال في المقاهي" لكن الأوان قد فات! فالفتاة وقد ذاقت مفاسن الضابط الإنجليزي فأحبته، راوغت والدها، واغتنمت هي وزوجها سفر أول بآخرة دنماركية من البصرة إلى يومبي فاستقلانها، حيث قضيا بضعة أيام في الهند، زارا خلالها تاج محل، وشكراً عبره الله ومقدسات المسلمين والهنود واليسوعيين معاً التي جمعتهما ومنحهما بركاتها، ثم سافرا إلى لندن، واستقرا هناك يعيشان مع أبنائهم بكل هناء ونعم، بعيداً عن حياة العسكرية، وهموم بريطانيا وال العراق! هنا نستدل أن هذه اللوحة هي صورة فوتografية وليس لوحة مرسومة باليد والزبرت، والله أعلم، في كل تفصيل وكل أمراً ويتركني أتأمل وجهه مثل كلب ينتظر أن يمن عليه صاحبه بعظامه أخرى عليها بقية لحم، كم لهفة الحب مذلة، يجعل العاشق كلباً منقاداً! وافقه ماكس، تتم بصوت

مسنون وهو في فراشه، كلبا ذليلا يجري خلف ضباع! ثمة ما أستوقفه، لو كان ثيسجر مغراً بأجاثا وعلى علاقة معها، هل يتهمك على بنت المعيدي إلى هذا الحد؟ إطالته النظر إليها، وإطراوه لها، هو من أجل أن تكتب عنه رواية، مغامرتها الخطيرة في الصحراء لم تمنحه الشهرة، بينما رواية عنه من أجاثا تجعله مشهوراً في العالم كله! لكنه لا يكف عن دعوتها للهور أو الربع الخالي، وجل حين أجابته:

- الأمر ليس بهذه البساطة يا وثيسجر!

تنهدت باريماح، هكذا أوقفت اندفاعته. ومع ذلك يصعب أن أخمد شكوكي، لماذا ظهر ليلة وجودنا في الفندق، ثم اختفى يوم اختفائها، هل خرج قبلها أو بعدها ليلتقيا بمكان يسافران معاً، وأين؟ هل إلى الأهوار، أم إلى الربع الخالي؟ ألقى الأوراق جانباً، وسرح ببصره عبر باب الحجرة، حيث يستطيع أن يرى الضفة الثانية من النهر، وتعاوده شكوكه بثيسجر، لماذا يسرد كل هذه التفاصيل عن بنت المعيدي؟ أيحاول استثارة غيرتها؟ يقولون إذا أردت اجتذاب امرأة تحدث معها عن امرأة أخرى؟ أحس باختناق، قرر أن يخرج، يتمشى أو يجلس في مقهى قريب، مخالفًا تعليمات التحريات، فهو لم يعد يجد لها معنى في ظل هذا الصمت الثقيل والطويل، والشرطين الذي يحرسانه غالباً ما يسرحان بعيداً، أو يرى أحدهما نائماً على كرسيه عند باب الفندق!..

جائني السياب وجبرا، عرضنا مساعدتهما، كلنا عاجزون،  
وثيسجر ييدو مهمتها حقا ببنت المعيدي!

كان ماكس في ردهة الفندق يسلم مفتاح الغرفة لموظفي الاستعلامات، يريد الخروج؛ عندما دخل الفندق شابان؛ تذكرهما على الفور. كانا قد زاراهما في بيت الآثار قبل أيام؟ أحدهما جبرا إبراهيم جبرا، وهو أديب ومترجم، فلسطيني، ولد وعاش طفولته وصباه في القدس، بعد انتهاء دراسته

في كمبردج لم يستطع العودة إلى فلسطين، فجاء إلى العراق ليعمل أستاذًا للأدب الإنجليزي في كلية الآداب ببغداد. والثاني، بدر شاكر السياب شاعر ومترجم عن الإنجليزية، ولد في أبي الخصيب، يعمل مدرساً ويكتب في صحيفة تصدر في بغداد. تعرفت أجاثا عليهمما العام الماضي في صالون عائشة السلام في الأعظمية. كانوا قد قرءا في الصحف خبر اختفاء أجاثا، لم يصدقوا، وقد جاءوا ليتأكدوا من الخبر، ولি�تحددوا مع ماكس علهمما يستطيعان القيام بشيء من أجلها. وجدا ماكس هاماً، ومحطمًا، كان واضحاً من وجود ماكس لوحده بوجهه الحزين الشاحب، أن أجاثا لم تعد، ومع ذلك سأله السياب:

- هل من جديد؟

وحين هز رأسه صامتاً بأسى، قال جبرا:

- لا تقلق يا ماكس، ربما هو مجرد عارض نفسي لدى أجاثا!

كان جبرا قد قرأ الكثير عن حادثة اختفاء أجاثا في لندن، قبل سنوات طويلة، ولديه فكرة عن شطحات وذهول المبدعين الإنجليز والغربيين عموماً!

أضاف السياب بنزعته الجماهيرية:

- ماكس كلنا سنجند أنفسنا للبحث عنها، سنعمل على إصدار بيان باسم المثقفين العراقيين يشجب ما حدث لأجاثا ويطالب المختطفين، ولو إنهم مجرمون عاديون، بإطلاق سراحها.

خرج ماكس عن صمته وتمزقه النفسي، قال:

- شكراً لاهتمامكم، لا أحبذ أي تصرف قد يعقد القضية، هي الآن بيد الشرطة العراقية والسفارة البريطانية، وهم كما لمست حتى الآن يعالجونها بطريقة حسنة!

لم يدعهما ماكس للجلوس في بوفيه الفندق، خرج بهدوء، وتبعاه، أزمعا مداراته لوضعه النفسي المتردي، لكنهما شعرا بفجوة بينهما وبينه. كان متحفظاً، حذراً، وجداً ذلك أمراً طبيعياً، فهو يشعر بجو عدائٍ في هذه البلاد.

كانت أجياثا هي مقصد الشابين ومحور صداقتهم واهتمامهما، يتداولان معها الحديث عن الرواية والشعر والفن والأثار، ويقدمان لها نصوصهما الشعرية والقصصية بالإنجليزية لتبدى رأيها بها، لكن ماكس بعد سير لدقائق بين زحام المارة، والسيارات المناسبة بهدوء وخلاء، بدأ يخرج من وبروده وبيدي سروره بقدومهما بنظرات ودية ينقلها بينهما. أحس بشيء من الطمأنينة معهما، فهما يشعرانه أن أجياثا ما تزال موجودة، وهي محظوظ اهتمام المثقفين العراقيين! تذكر جبرا إنه حين التقى أجياثا كريستي في صالون عائشة مصادفة، وتبادل الحديث معها ظل لساعة غير مصدق أن الذي تحدث معها هي أجياثا كريستي مؤلفة الروايات البوليسية الشهيرة، إلى أن قالت له عائشة أنها أرادت أن تجعلها مفاجئة له، وإنها هي فعلاً بلحمنها ودمها ودخان غليون زوجها المعطر! حين سأله أجياثا عن نتاجه الأدبي، خجل وهو يقول لها:

- لم أكتب حتى الآن سوى رواية واحدة وبالإنجليزية، ما زالت حتى الآن تتنقل بين دور نشر مغمورة في لندن، ولم يوافق أحد منها على نشرها!
- ما هو عنوانها، وحول ماذا تدور؟
- عنوانها "صيادون في شارع ضيق" حول معاناة مثقف فلسطيني في بغداد الأربعينيات، صراع أسرة برجوازية بغدادية مع نفسها، ومع الواقع الجديد المتحول سريعاً!
- بودي أن أقرأها!

وعدها أن يأتيها بنسخة من مخطوطتها! كان السباب مهتماً أن يعرف رأيها، بشعره، عبر نماذج من ديوانه "أزهار ذابلة" ترجمها على عجل وقدمها لها في زيارته الأخيرة، هو فرح بما قالته حين عرفت أنه مهتم بتجديد قصيده، والخروج بها من العمود التقليدي الثقيل:

- هشم الأعمدة الصخرية للقصيدة، الإنجليز أنجزوا ذلك منذ فترة طويلة واعتبروه جزءاً من نهضتهم الحضارية، القصيدة كالمرأة إذا تحررت التقت بروحها وحقيقة، بل أستطيع القول أن تحرير القصيدة يعني تحرير

المرأة أيضاً، ستجعلني كلما رأيت امرأة تسير بثياب جميلة ملونة بعيداً  
عن العباءة السوداء والحجاب أتذكر قصائدك الحرة!  
التفت إليهما معاً:

- اكتب الجديد، مقابل كل قصيدة ستكون هناك امرأة جديدة، وسيكون  
مجتمع جديداً!  
هذارأسيهما موافقين كطفلين عند جدتهما!

هل سيفقدان هذه المبدعة الكبيرة والمتواضعة؟ وأين؟ في العراق! يا  
للعار! كانا قد ردداً هذه العبارة كثيراً، وهما في طريقهما إلى الفندق، كان  
جبرا الذي فقد وطنه فلسطين يعد العراق وطنه، والمثقفون العراقيون  
أشعروه أنه عراقي أكثر منهم، كانوا يتلقون في صالون هو جناح كبير من  
قصر عائشة المطل بحديقته الواسعة على النهر؛ تغدق عليهم عائشة ألوان  
الأطعمة والحلويات والمقطوعات الموسيقية. وكانا يجدان أجاثا قبلهما في  
معرض للفن التشكيلي، أو في حفلة للموسيقى السيمفونية في قاعة الملك  
فيصل الثاني، وفي أماكن أخرى، وأحياناً يكون معهما الروائي جلال العطار،  
فيتحاورون بهدوء ورقه، سألتهم هل بدأ كتابكم يؤلفون القصص البوليسية؟  
إنه مؤشر على تنامي الشعور بالعدل وحقوق الإنسان، والديمقراطية أيضاً،  
لكي لا يتم التحقيق في الجرائم في الظلام ينطلق المحققون أحرازاً يبنشون  
وينقبون بحثاً عن الأشرار، ويقول لها أحدهم، لم يكتب أحد هنا رواية بوليسية،  
القراء العراقيون يستوردونه من الخارج، وأجاثا كريستي أعظم المصدررين  
ويضحكون، هل انتهت هذه اللقاءات الطيبة، وتلك المرأة الجميلة في خطر  
المجهول؟ كانوا يسرون في شارع الرشيد دون هدف قال جبراً:

- ما رأيك يا سيد ماكس أن نجلس في مقهى البرازيلية؟

كان جبراً بملابس جديدة قشيبة وبقوام رشيق، بوجه فاتح البشرة،  
وملامح جذابة، تغمره سحابة من دخان غليونه، والسياب بقوام نحيل طويل  
بعض الشيء ووجه غير متناسب؛ بعضهم يرى فيه دمامنة وقبحاً، لكن البعض

ممن يحبونه يرى في دمامته رقة ووسامة غريبة، رغم أن أذنيه الكبيرتين، وأسنانه الكبيرة البارزة كلها تميل به بعيداً عن الوسامـة! لكن صوته العميق المشقق يشد سامعـه إلـيـه! أما إذا نطق بـشعرـه فإن جـسـده يغـيب تـاماً وتحـلـ مكانـه روـحـه الكـبـيرـة الطـيـبة العمـيقـة الحـزـينـة. كان النـادـل يتـقدـم إـلـيـهم بأـكـوابـ القـهـوة حين قـطـعـ ماـكـسـ الصـمتـ فـجـأـةـ وقالـ بـنـبـرـةـ ذـكـرـتـ جـبـراـ بـمـسـرـحـ شـكـسـيرـ:

– أنا يائـسـ من عـودـةـ أـجـاثـاـ، يـبـدوـ إـنـيـ لـنـ أـرـاهـاـ مـطـلقـاـ!

أخذـاـ يـتـطـلـعـانـ إـلـيـهـ وقدـ اـرـتـسـمـتـ عـلـىـ وـجـهـيـهـماـ سـمـاتـ حـزـنـ وـتـجـهـمـ،  
قالـ السـيـابـ:

– سـتـرـاهـاـ حـتـمـاـ، بـلـادـنـاـ رـغـمـ الغـلـيـانـ السـيـاسـيـ ياـ مـسـتـرـ مـاـكـسـ؛ مـسـالـمـةـ وـأـهـلـهـ طـيـبـونـ، وـمـعـرـوفـونـ بـإـكـرـامـ الضـيـفـ حتـىـ لوـ كـانـ عـدـوـهـمـ. لاـ بـدـ أـنـ ثـمـةـ التـبـاسـاـ فـيـ قـضـيـةـ أـجـاثـاـ، سـتـأـتـيـكـ الـيـوـمـ أـوـ غـداـ، وـسـتـكـتـبـ هـيـ قـبـلـ غـيرـهـاـ روـاـيـةـ بـولـيـسـيـةـ عـمـاـ حدـثـ لـهـاـ!

ندـتـ عـنـ جـبـراـ ضـحـكـةـ قـصـيرـةـ:

– ربـماـ هـيـ مـجـرـدـ مـزـحةـ مـنـهـاـ، وـهـيـ مـزـحةـ ثـقـيلـةـ دونـ شـكـ!  
قالـ مـاـكـسـ بـأـسـيـ وـاضـحـ:

– لاـ التـبـاسـ، وـلـاـ مـزـحةـ، ثـمـةـ مـاـ هـوـ أـخـطـرـ! وـأـنـاـ قـلـقـ جـدـاـ!  
كانـ كـلـامـ السـيـابـ مـثـقاـلاـ، بـالـسـيـاسـةـ وـالـمـصـطـلـحـاتـ الـأـجـنبـيـةـ، وـكـانـ الـبـعـضـ يـخـشـىـ عـلـىـ شـعـرـهـ مـنـ ذـلـكـ، وـقـدـ انـهـمـكـ بـالـتـرـجـمـةـ لـبعـضـ الصـحـفـ لـيـزـيدـ دـخـلـهـ القـلـيلـ، وـتـحـسـبـاـ لـاحـتمـالـ فـصـلـةـ مـنـ وـظـيـفـتـهـ بـسـبـبـ نـشـاطـهـ الشـيـوـعـيـ، وـكـثـيرـونـ يـعـجـبـونـ كـيـفـ لـمـ يـعـتـقـلـ لـحـدـ الـآنـ، وـيـعـزـزـونـ ذـلـكـ لـكـونـهـ أـصـحـيـ مـعـرـوفـاـ فـيـ بـيـرـوـتـ وـدمـشـقـ وـالـقـاهـرـةـ، قالـ!

– طـبـعاـ لـبـرـيطـانـياـ أـعـدـاءـ كـثـيرـونـ فـيـ بـلـادـنـاـ، وـلـكـنـكـمـاـ أـنـتـ وـأـجـاثـاـ مـثـقـفـانـ كـبـيرـانـ وـصـدـيقـانـ لـشـعـبـنـاـ، المـنـاضـلـوـنـ فـيـ بـلـادـنـاـ يـفـرـقـانـ بـيـنـ الـكـوـلـونـيـالـيـنـ الـمـسـتـغـلـيـنـ، وـالـأـنـجـلـيـنـسـيـاـ الـغـرـبـيـةـ النـقـيـةـ التـقـدـمـيـةـ!

دخلـ المـقـهـىـ حـسـينـ مـرـدانـ بـقـامـتـهـ الـمـتوـسـطـةـ الـمـمـتـلـةـ وـوـجـهـ الـمـسـتـدـيرـ

وعينيه المتركتين هنا وهناك كعصفورتين محبوبتين في قفص، اتجه إليهم،  
ألقى تحية مقتضبة متعالية، جلس على المقعد الخالي الوحيد بجانبهم، كان  
مفلساً كعادته، صاح بجبرا وهو يلهث من التعب اثر سير طويل فهو لا يمتلك  
ثمن بطاقة الباص:

- ذرنا على كهوة!

قال جبرا مبتسمًا:

- تأمر أبو علي!

كان جبرا يحب صعلكته، قائلًا (أحبه لصلكته التي نحن نريدها، ونعجز  
عنها) كان يراه شاعراً موهوباً بوهيميا بخيال جامح ورؤى جريئة! شعر حسين  
بوجود شيء حزين جلل؛ فقال بلهجته الساخرة المعتادة:

- قولونا عليمن مسوين مجلس عزاء، حتى نبجي ويأكلون ونقرأ الفاتحة!  
التفت جبرا إلى ماكس قائلًا:

- أقدم لك صديقنا الشاعر المجدد حسين مردان!

اكتفى ماكس بانحناءة خفيفة برأسه، بينما رفع حسين رأسه شامخاً،  
أضاف جبرا محدثًا ماكس لأنما لينسيه موضوع أجالاً:

- حسين هو أول شاعر حديث في العراق يقف في المحكمة بسبب ديوان  
شعر، كان ديوانه "قصائد عارية" هو بنفس وزن ديوان "أزهار الشر"،  
لبودلير في فرنسا!

اكتفى ماكس بابتسامة خفيفة وبدأ متسللاً، قال السياب لحسين مشيراً  
إلى ماكس:

- ماكس مالون زوج أجالاً كريستي، لاشك إنك سمعت باختفائهما!  
قال حسين متصنعاً حزناً:

- آني اللي حررت خبر اختفائهما بجريدة الشعب  
عاد جبرا يرسم على وجهه ملامح حداد على فقد أجالاً، بينما بدا السياب  
يوشك أن يبكي ويرثيها بقصيدة مترجمة، قال موجهاً كلامه لماكس:

- لابد إنها في ضيافة أصدقاء لها، وغفلت عن أعلامك، هل اتصلت بالسيدة عائشة؟ قال ماكس:
- اتصلت بها وبعفيفة اسكندر، وهما لا تعرفان شيئاً عنها!
- قال جبرا:
- لا تقلق! ستظهر قريباً، ليس هناك خطر جدي عليها، بغداد آمنة، آمنة تماماً!
- هو يتذكر دائماً المظاهرات العارمة التي انطلقت قبل فترة قصيرة، مطالبة بإلغاء المعاهدة مع الإنجليز، وهزت بغداد وشلت الحياة فيها، وسقطت فيها العشرات من الطلبة والشرطة والأهالي، بين قتيل وجريح، سماها المعارضون وثبة كانون، وسمتها الحكومة قلائل الهدامين، كاد جبرا يقتل في إحدى سوراتها العنيفة. كان على باب الكلية عندما أطلقت الشرطة النار على المتظاهرين، وسقط طلبه قريباً منه، وظل الرصاص يمر فوق رأسه، كقضبان ملتهبة.

**ثيسجر يسأل السباب عن قصيدة غزل في بنت المعيدي، والشيوعيون يريدون من السباب قصيدة عن المومس العميماء!**

فجأة سألهما ماكس:

- هل تعرفان ولفريد ثيسجر؟
- كان ماكس يعرف أن ثيسجر يتتردد على مقاهي المثقفين في بغداد؛ متحدثاً عن رحلاته المثيرة ومشاريعه الاستكشافية؛ يريد أن يجعلها عليه ويبعد عنها السرية والتكتم؛ كي لا تحتسب كتجسس، ويريد أن يكتبوا عنه ويزروه كبطل مغامر، قال السباب:
- نعم أعرفه؟ هو يأتي هنا، نجلس ونتحدث عن رحلاته، الآن صار يتحدث كثيراً عن بنت المعيدي، واقعاً في غرامها!
- وراح يضحك، سأله ماكس:
- مارأيكما به؟

رد جبرا:

- ـ أنه رجل طيب ومسالم!  
ـ أضاف السباب ضاحكا:  
ـ وظريف حالم أيضا، سألني ألم تكتب قصيدة غزل في بنت المعیدي؟  
ـ حين قلت، لا، كتبت قصيدة عن الموسم العمياء، هز رأسه مستغربا!  
ـ استلم جبرا الحديث منه قائلاً:  
ـ حسين مردان يقول أن الشيوعيين يدفعون السباب ليكتب عن الموسمات  
العمياوات، وليس عن الحسنوات المصنونات المبصرات، لا لشيء إلا  
لأنهن برجوازيات مرفهات، وهذا أكبر خطر يتهدد موهبة السباب، وهو  
محق في ذلك!  
ـ التقط حسين اسمه، هو لا يعرف الكلام الإنجليزية ولا يفهمه، فسأل  
باعتداه المعهود:  
ـ شبيه حسين مردان؟ شنوا دترشحو لمجلس اللوردات البريطاني؟ طبعاً  
آنی ارفض الترشيح حتى لو طلبت إيدي الملكة اليزابيث، عندي "أمونة"  
الحلوة ملكة بنات الميدان، أعظم ملكة!  
ـ ضحك جبرا والسباب، كان ماكس شارد الذهن رغم أنه فهم حديثهم  
بالفصحي والعامية.

- ـ شعر جبرا أن عليهم أن يتركوا ماكس، ولكنه تذكر الأوراق التي جاء بها  
إلى أجاثا، فتح محفظة جلدية بنيّة، أخرج منها مظروفاً أبيض كبيراً، قائلاً:  
ـ كنت قد طلبت من أجاثا صفحات من مذكراتها أو يومياتها لاستفادة منها  
في جو رواية أريد كتابتها عن القادمين من بلاد الضباب؛ حالمين بشمس  
بلادنا وأنوارها؛ فأعطيتني هذه الصفحات الممتعة جداً، كم أنا ممتن لها،  
هي جريئة صريحة شفافة في كل كلمة تكتبها. تحفظ ماكس ملهوفاً لقراءة  
أي شيء لأجاثا، كأنه سيتحدث معها الآن، ومن جديد، تناول الأوراق  
من جبرا بلهفة واضحة، انفرجت أساريره بعض الشيء، قال وهو ينهض:

- أرجو المغفرة، لا أستطيع البقاء طويلاً خارج الفندق؛ فقد تأثيرني مكالمة عاجلة من الشرطة، أو السفارية. واضعاً يده في جيبي ليدفع فانبرى السباب قائلاً أنت ضيفنا. نهض ثلاثتهم يودعونه!

خرج من المقهى يغدو الخطى مسرعاً، رغم مشيته المترهلة، كان مستعجلًا، يريد أن يصل حجرته، ويختلي بأوراق أجاثا كأنه سيلقاها ثانية. قال حسين:

- اختفاء أجاثا لعبة بريطانية يريدونها مع نوري السعيد؛ لتمرير صفقة ما من ورائها! ضحك جبراً مستخفاً، وقال السباب:

- أيها الشاعر العظيم، تهمني بالخصوص للشيوخين بقصائدي، وتنشر هيج آراء بجريدةكم؟ أنا أعتقد، اختفاءها حالة إنسانية غامضة أقرب للشعر، أو الحلم!

- لا لا هذا مو رأي أنا، هذا رأي السياسيين المشرفين على الجريدة! قال جبراً:

- سمعت، أن منظمة طلابية تدعى "اليد الحمراء" اختطفتها بسبب قتل الشرطة الكثرين من زملائهم الطلاب، وللمطالبة بإطلاق سراح السجناء والمحوقين السياسيين بعد وثبة كانون!

قال السباب:

- أعتقد أن الاختطاف ليس من عادة العراقيين في النضال، تروع الناس أسلوب همجي يجر الأوضاع لمزيد من التدهور، بدلاً من حل المشكلات!

- نعم هذا صحيح، لكنني هكذا سمعت من بعض الطلاب!

قطع حسين الحديث وحوله إلى جلستهم وشربتهم الليلة:

- يا الله نروح للبار، نكمل حديثنا، نشوف شلون السباب صار مفسر أحلام!

لازم تشربونا، انتو قبضتو راتب! أنا حتى بعد شهرين ما أقبض، الجريدة مفلسة كل يوم يغلقوها ومينطوها إعلانات، هسه أنا ما أعرف ليش الجريدة تتدخل بالسياسة، خل تكتب عن الملاهي عن السينمات عن

الكاولية الطيبين، ويخلون أم اللبن تحجي بالسياسة، أحسن!

AFLIGH باقتيادهما إلى بار جبهة النهر، قائلاً وهم يدخلونه:

- تر موتفضوها بربع مسيح ومزة جاجيك، أنا اريد نص بطل مستكبي وبيك؛  
حتى يعدل راسي، وعشانا سمك مسکوف! مو تکلّبون علي؟ وكانوا  
يصحّكون!

## أتعرف أكبر سفينة في الدنيا؟ تستطيع أن تحتويها بقبضتك!

صعد ماكس درج الفندق؛ مسرعاً، أنفاسه تتلاحق متقطعة، استبدل ثيابه واستلقى على سريره يريد أن يسترخي قليلاً، هو يعني ارتفاع ضغط الدم، ولا يعلم إذا كان مقدار الدواء الذي يتناوله ما يزال كافياً وهو في هذا التوتر الشديد. ومع ذلك لم يجد خروجه دون جدوى، حصل على أوراق جديدة لأجاثا، شعر بانتعاش لحديثه مع السباب وجبراً، كلنا عاجزون أمام هذه المصيبة، كأن شيئاً من قوة الشعر بدأت تداخلني، وتجعلني أقدر على تبيان هذا اللغز!

كان ماكس في لهفة شديدة لقراءة أوراق أجاثا، ألقى أوراق ثيسجر جانباً، حتى الآن لم أجده فيها شيئاً يدلني على أجاثا. لا أتوقع أن تقول لي في هذه الأوراق أين هي الآن، وماذا حدث لها، لكنني أتوقع أن أجده فيها شيئاً ما قد يضيء ولو جانباً من لغز اختفائها!قرأ عدة صفحات وجد أنه كان قد قرأها سابقاً، هي ليست جديدة، أجاثا لا تكتب شيئاً، إلا وتطلعني عليه! وضعها جانباً، كنت حين قرأتها آنذاك عرفت كل شيء تقريباً عن حياتها، تطابقت حياتي مع حياتها منذ لحظة حبنا الأولى، نحن كفلقتي بذرة إذا انفصلتا لن تبنتا في أية تربة في هذه الدنيا، ولم تكن أجاثا تلح في السؤال عن تفاصيل حياتي، لكنني صرت أشعر أنها تعرفها كلها تقريباً، كيف؟ بالإيحاء؟ بمخيلتها الروائية الخلاقة؟ بالانتباه لظلال كلماتي وخليجاتي؟ بأسئلتها لي دون الإيقاع على. هي تكره التجسس على الآخر، حتى في عملها الإبداعي.

كنا جالسين عصرا في حديقة بيتنا الصغيرة في الموصل، نحتسي الشاي مع البسكويت. قالت أتعتقد يا ماكس إبني اعرف فقط أنك ولدت في لندن سنة 1904 من أبوين كادحين، أنهيت دراستك في أوكسفورد متخصصا في علم الآثار وتاريخ الشرق الأوسط وإنك أعجبت وانهربت بتاريخ العراق القديم وقررت أن تكرس شطرا كبيرا من حياتك له، لا، .. لا يا ماكس أنا أعرف اهتماماتك في صباك ومراهقتك، ماذا كنت تقرأ وتتذكرة، نزعتك الإصلاحية وتطلعك لعدالة مطلقة كادت تلقي بك في أحضان الشيوعية، أعرف تهوياتك العاطفية المبكرة والخجولة، أعرف أنك لم تكن مكتئاً لوسامتك ورشاقتك وتطلع الفتيات لقوامك المشوق الجذاب، أعرف مشيتك الحزينة الذاهلة عما حولك وولعك بالغليون بعمر مبكر، أعرف تلك الشابة الجميلة زميلاتك في الكلية التي أحببتها بجنون، وبادلتكم ببعضها من الحب ثم هجرتك فجأة فقررت، بعد تخرجي أن تذهب إلى صحراء أور لتدفن ذكريات حبك فيها، وبينس الوقت تواصل دراستك وبحثك في تاريخ العراق القديم. بقراءة أوراقها هذه صرت أعرف أجاثا أكثر، لماذا لا نستطيع أن نعرف من نحبه إلا عبر الآخرين؟ في رسالة لهم أو حديث معهم، أو إلا إذا أرد هو أن يعكسها لنا في وقت لا نتوقعه! امرأة بعمرها وشهرتها تهتم بكل شئوني الصغيرة، كيف أشك بمحبها لي؟ لمجرد أنها اختفت في ظروف غامضة؟ أو أن تصلكها رسالة طويلة مهووسة ملتبسة من هذا الرحال شبه المخوب ثيسجر؟ أليست هي التي طلبتها منه مادة لرواية محتملة عنه، هم بالنزول إلى الشاطئ، لكنه صار يخشى لقاء دعبول وسؤاله عن أجاثا، ثم ينطلق في غناه وبكائه وضحكه ورقصه! وهو الآن ليس في مزاج لذلك. كيف احتمل هذا الكهل فقدان ابنه الوحيد؟ الآن صرت أدرك، لا شيء يدمر الإنسان سوى فقدانه أحبتة، وأعرف أن أكواه العظام تحت الأرض، التي نقلبها بمجارفنا، كانت خلفها الكثير من الأحزان، هل يكفي كأس ال威士كي للنجاة؟ أيام شبابي لقيت شابا في حانة بلندن، كان يعب الشراب بكثرة، تجاذبنا حديثا عرفت منه أن حبيبة الحسناء قد هجرته

مع رجل مسن غني. وكنت أنا أيضاً أاعاني من الغدر والهجران، سألني أتعرف ما هي أكبر سفينة في الدنيا؟ بقيت أهز رأسي لا أعرف ماذا أجيب، زاد اللغز عموماً وهو يقول: تستطيع أن تحتويها بقبضة يدك، بقيت أهز رأسي قال: لا تتعب نفسك: إنها كأس الشراب؛ تناوله وأنظر كيف يطوف بك البحار كلها! ويفتح لك شواطئ الدنيا؛ فترى طيّها وخبيثها! أنا اليوم لا احتاج لأكبر سفينة في الدنيا، أحتاج أصغرها، بلم دعబول البلام، يجمعني وأجاثاً نمحر عباب دجلة! توقف عن القراءة، شعر إنه سيضيع جهده وقته مع أوراق ثيسجر ولا يجد شيئاً، يكشف عما حدث لأجاثاً. لم يشعر بالجوع، بل بشيء من الغثيان، أدرك حاجته للقمة تسند معدته وهي تعب من دخان الغليون. كلما دخل ماكس مطعم الفندق ليتناول لقمة بسيطة، ودون شهية؛ يتذكر جبرائيل ويشعر نحوه بالأسى والندم؛ أيكون قد جنى عليه بإفادته عنه؟ أم كان عليه أن يكون موضوعياً ودقيقاً في الإجابة على أسئلة المحققين، وتطرقه لجبرائيل كان بتأثير إحساسه في حينها، يتمني الآن لو يستطيع إطلاق سراحه أو يفعل شيئاً من أجله، ولكن الرجوع في إفادته سيكون صعباً، والقضية يجب أن تأخذ مجريها الذي بدأته. أما هنا فقد أوقفوه لتركه مكانه في الاستعلامات! والمدير كان من الطبيعي أن يستدعي للتحقيق، فهو المسئول عن أمن الفندق وزلائه. بينما كان نادل المطعم يقدم له الطبق الخفيف الذي طلب، استوقفه ماكس، سأله:

- هل لديك أخبار عن جبرائيل وحنا؟

لم يسأله عن المدير، ربما لشعوره أنه كان مقبراً بشكل ما، وإنه رجل ثري، وحتماً له علاقات ب رجال كبار يحمونه، هز النادل رأسه بأسى:

- هما لا زالا موقفين في مركز للشرطة قرب الفندق، وقد سمحوا لأهلهما ولنا بزيارتهم، جبرائيل طلب أن أجلب له روایات أجاثاً ليسلّى بإعادة قراءتها، قال إنه لم يكن يتصور يوماً أنه سيكون متهمًا بخطف أو قتل أجاثاً كريستي، فقد أحبها كثيراً، إنه يضحك فرحاً ويقول: أنا متأكد

أنها ستعود، وتكتب رواية بما حدث لها، وستذكرني فيها، ويعرفني العالم كله! وقد سلم عليك كثيرا، أما هنا فهو يقضي وقته بالنوم، لقد عرضوه للتعذيب أكثر من جرائيل، لا أدرى، يقولون إنه قصر بواجهه، ويقولون إنه يحب الشيوعيين، كانوا يريدون انتزاع اعترافات منها، ولكن على ماذا يعترفان؟ رجع ماكس إلى حجرته، تناول أوراق ثيسجر، عاد واقنع نفسه بشيء تعلمه في التنقيب "لا تدري أية حجر ترفعه أو تسير باتجاهه؛ فتجد الكنز العظيم"، هنا لا تدري في أية صفحة أو سطر أو كلمة تجد بابا يفضي إلى أجاثا، هل علي أن أقرأها كلها؟ ولم لا؟ كم تلال من التراب حفرتها بحثا عن لقية أثرية صغيرة؟ ثم أليست أوراقا مسلية، تكاد تنسيني همومني؟ لأقطع بها هذه الساعات العصبية حتى تحل اللحظة السعيدة وتظل أجاثا؟ لأقرأها، فقد أجد فيها وبشكل ما الكلمة السرا!

خالد يقوم بدور المفتش هركيول بوارو، ثمرة روح طيبة؛ قاربناها في ماض بعيد، ونسيناها، تأتي اليوم وتمدد لنا يدا

كان المحقق القضائي خالد يتبع بقلق ما تنشره الصحف المحلية عن اختفاء أجاثا. بعضها أسمته "اللغز الإنجليزي الكريه" وجد أن الصحف المعارضة السرية والعلنية تتحدث متحاملة أو مشفية، مشككة في القضية برمتها "ماذا تفعل أجاثا كريستي في بغداد؟ لو وجدت فإنها جاءت لتكتب رواية تقوم من ورائها بالتجسس على العراقيين وحركتهم الوطنية". ثمة صحفي كتب: "أجاثا وزوجها جاسوسان خطيران، غربا الأطوار، فإذا كان الجواسيس يتجسسون على الناس من فوق الأرض، فهمما يتجسسان على العراقيين من تحت الأرض، بحججة التنقيب يقومان بحفر أنفاق تصل إلى ثكنات ومعسكرات الجيش ومقرات الأحزاب الوطنية لتسجيل كل شيء وإرساله إلى المخابرات البريطانية!" يحفرون تحت بيوت الناس وحجرات نومهم وحماماتهم، فيصورونهم وهم عراة وفي أوضاع خاصة لا بتزاحم

فيما بعد، محذرا من أية أصوات غريبة تنطلق من تحت بيوتهم! صحيفه الشيوعيين السرية كتبت: "إنها لعبة، يراد من ورائها تبرير وتصعيد حملات اعتقال الشيوعيين، و تحويل العراق إلى قاعدة تجسس ضد الاتحاد السوفيتي، أمل البشرية الأعظم" كان خالد قد درس أضمار احتفاء أجايا جيدا، وجدهم في دائرة التحريرات الجنائية قد أغرقوها في خضم الصراعات السياسية التي تشغله الحكومة. فزادوها غموضا، وتعقيدا، وصارت مستعصية تخلق قضايا أخرى. وإذا ظل التحقيق على هذا المنوال فلن يصل إلى أجايا، بل قد يساهم في إيزادها وربما قتلها! قرر أن يتلقى بماكس لا كمحقق رسمي، بل كصديق قديم، وعله يتذكره! مضى إليه راجلاً، لم تكن المسافة بين مقره وفندق تايكر سوى أمتار قليلة. كان وهو يسير بتمهل يحاول أن يستجمع أفكاره ويستنفر خبرته، ويحدد من أين يبدأ، أو يمسك الخيط. سار وأثقا، مسترخيا، آملاً أن يصل إلى نتيجة طيبة. هو بقوام ممشوق أقرب للطول، بوجه دقيق الملامح، على شيء من الوسامه، فاتح البشرة، بشارب رفيع مشذب، فوق شفتين مضمومتين تؤثران الصمت كرجل قضاء، أعزب، يشغله طموحه في السفر لمواصلة دراسته القانونية في لندن أو باريس! خطر له أنه سيجد في روایاتها، خيطا يضيء طريقه إليها! لا حاجة له لكي يعيد قراءتها فهي موجودة في ذاكرته وما عليه سوى أن يسترخي ويطلق العنان لخياله ووجданه يحلقان في أجواءها المثيرة المشحونة بتقلبات النفس البشرية وتفجراتها الغريبة، دخل الفندق بهدوء، لم يعلن عن هويته. أعلم موظف الاستعلامات، والشرطي الجالس بجانبه، أنه يريد مقابلة ماكس، سأله الموظف بحذر:

- هل أستطيع أن أعرف من أنت؟

- قل له صديق قديم من أيس، وهو سيعرف!

كان ماكس أثناء ذلك مستغرقا في قراءة أوراق ثيسجر، مبحرا في لجتها التي ما تزال غامضة له، لكن مجيء أي طارق بيعث أملا في قلبه أن له علاقة باحتفاء أجايا، كما يجعل قلبه ينقبض هلعا، "وقف طير على حاجز الشرفة

سأظنه يحمل شيئاً عن أجاثا" هرع نازلاً، إلى باحة الفندق! لم يتعرف على خالد حتى بعد أن توقف هنئه عن قرب محدقاً في ملامحه، ظل خالد يبتسم بهدوء:

- مستر ماكس هل نسيت نوعي أيس، وعيون الكبريت؟
- أقبل ماكس إليه يصافحه، قائلاً بخفوت وببرودة:
- أنت خالد، أهلاً؟

خمن خالد إنه لو كان في وضع نفسي أفضل لاستقبله بحرارة، ولضممه إلى صدره مثلما ودعه وهو صبي. هو الآن يبدو فاتر المشاعر إزاء كل شيء، تذكره كيف كان يداعب الأطفال ويحنو عليهم في أيس، ويتابع أجاثا ويرقبها وهي تخطوا بين سواقي البستين والدروب الترابية الضيقة. اليوم وقد اختلفت، هو حزين محبط، عليه يستطيع أن يرد له الطمأنينة والأمل:

- آسف لم أكن أعلم أنكما في بغداد، يؤسفني إنني ألقاك في هذا الظرف الأليم، كنت أتمنى أن نلتقي بغير هذا الحال، ولكن أطمئن ستعود أجاثا، وتكون بيننا، قلبي يحدثني أنها بخير!

عرفه على وظيفته الحالية، راح يشرح له طبيعة مهمته. شعر ماكس بالراحة، بدا على وجهه حبور وهدوء. وانطلق يحدثه بمكتون صدره، كان يتحدث بسرعة وتدفق بعد أن وجد أن خالد يتكلم الإنجليزية بطلاقة رائعة، ربت على كتف خالد:

- عظيم! أنت ذاك الصبي الذي كان يقودنا بين ربوع أيس، صورك لا زالت لدينا، يسعدني إنني ألقاك الآن.. لو فقط أجاثا معنا. وأخذ صوته يرتعش.

- أطمئن سائقها.

أطلعه على القائمة الطويلة من السياسيين وأتباعهم الذين اعتقلوا في الأيام الماضية، لم يحدث لقضية خاصة أن شغلت الحكومة والشرطة والقضاء، والباطل الملكي نفسه كقضية أجاثا:

- أرى إن التحقيق يجب أن يأخذ مجرى آخر، وسنجد لها حتما حية معافاة!
- إذا كان كل هؤلاء أعداء بريطانيا، فهم ليسوا بالضرورة أعدائي أو أعداء أجياث! الساسة يصنعون أعداء لبلادهم بسرعة، وأنا أبني صداقات بيضاء، أنا واثق، ليس لنا عدو واحد في هذه البلاد، نعم لا أعداء لي أو لأجياث، لا هنا ولا في أي مكان في الدنيا! صمت فجأة. لام نفسه، هل حقا هما دون أعداء؟ وأخذ يفضي بما يشتعل صدره لخالد:
- جئنا نبحث عن الماضي، فغرقنا بمشاكل ومصائب الحاضر، أنا وأجياثا مؤمنان أننا بمهمة إنسانية وحضارية، هل أن أجياثا قد دفعت ثمن ذلك؟ هل سألحقها أيضا؟ لا أدرى!
- اطمئن، لن يكون إلا الخير؟ التحقيق سوف لن يسقط أي احتمال، بحثنا ينبغي أن يكون هادئا قدر الإمكان! هل ثمة أوراق لأجياثا، مذكرات، صفحات روائية، شيء من هذا القبيل؟
- أجل، هي عاكفة على رواية، صفحات من مذكرات، رسائل، ملاحظات تتعلق برواياته!
- رائع! هل أستطيع أن أطلع عليها؟
- نعم لا مانع لدى!
- هل أستطيع مرافقتك؟ أريد أن أرى وضع حجرتكما؟
- بل هناك شيء خطير، لا أدرى هل علمت به!
- حين مرا بالشرفة أشار ماكس إلى قطرات الدم:
- هذه أخطر، شيء تركته!
- انس هذا الشيء، التقرير الذي جاءنا عنه من المختبر أكد إنه رعاف أنيفي، فيه مادة مخاطية.

تطلع خالد في أرجاء الحجرة، انشغل ماكس بجمع ما سيسلمه من أوراق، أحس بامتنان لجبرا والسياب الذين جلبوا أوراق أجياثا، فهـي ستكون مفيدة لخالد في بحثه وتحقيقه، قرر أن يستبقي أوراق ثيسجر لديه، ليس فقط

من أجل أن يستكمل قراءتها بل لكي لا يتسرع في أثارة أشياء قد تعد فضيحة لزوجته دون مبرر، فهو في كل ما قرأه وما راوه من شكوك و هواجس لم يجزم بعد بوجود علاقة ثيسجر بما حدث لأجاثا، سلمه أوراقها، قائلاً:

- هناك أوراق أخرى، أريد أن أتأكد من علاقتها بقضية أجاثا ثم أسلمه لك!
- لك ذلك، لكن لا تستبعد شيئاً؛ فقد تكون قصاصة صغيرة هي مفتاح القضية! نصحه بالهدوء والاسترخاء والحدر، ودعاه ومضى!

أحس ماكس براحة ما، هذه يد طيبة تأتي من ماض بعيد، لمسة حنونة، أخذته مشاعر متضاربة، مزيج من الخوف والحنين لتلك الأيام التي عاشها مع أجاثا يجوبان فيها ضفاف أعلى الفرات، لم يطأ عه قلبه أن يقر باختفائها، عاودته رغبة الشراب، لكنه أحجم، خشية أن يظل يواصل الشرب ويفقد تركيزه وهو أحوج ما يكون إليه عاد يقرأ قائلاً "حالد الآن يقرأ أوراق أجاثا، وأنا أقرأ أوراق ثيسجر، وعل أحدنا يجد كلمة هي المفتاح!"

كان حبيبياً شاعراً، أقر بعجزه عن الانتصار على ضابط إنجلizi، أعطاها نصيحته القاتلة، وقد نفسته إلى مصير رهيب تراوح بين نار الحريق، والبيرة المثلجة!

انبعث صوت سليم ممزوجاً بالدخان يحدثني بحكاية أخرى:

- وللترجمان حكاياتهم المثيرة عن هذه الفتاة الفاتنة، وهل يسمح جمالها الباهر لقوم أو أمة أن تدير ظهرها لها، أو لا تدعيه لنفسها؟ هم يقولون إن اسمها فاطمة "بنت الصمانجي" أي "بنت التبان"، وإن عائلتها كانت تسكن الحي القديم من كركوك، بدأت مأساتها عندما حملت مكنسة القش وراحت تكنس البيت، وما أن وصلت العتبة حتى مرت مفرزة حراسة إنجلizية، وعندما وقعت عينا الضابط الإنجلizi عليها تعثر وكاد يسقط؛ فأمسكه جنوده، وتظاهر بالدوخة والدوار فطلب له الجنود الماء من الفتاة الجميلة؛ فجلبت لهم. وقفـت تنتظر ليعيـدوا لها الـقـدح الفخارـي الكبير،

وبينما أخذ الجنود يرشون الماء على وجه الضابط، ويسوقونه، كان هو ينظر إليها من تحت جفونه المسبلة بخبت، ويحفظ مكان بيته البسيط الرث. في اليوم التالي أتى إلى عائلتها مع وجهاء ورجال دين طالباً يدها؛ معلناً استعداده لأن يسلم ويصير تقيناً ورعاً، بل ورجل دين بعمامة كبيرة من أجل أن يفوز بها. عرض على أبيها الفقير الذي يعيش على جلب التبن من الحقول وبيعه لمربى الماشية؛ الكثير من المال؛ لكنه رفض. كان هو وأمها غير مقتنيين بتزويجها من غير مسلم، وحتى لو أسلم فإن وجوده في بلادهم سيكون مؤقتاً وقصيرًا، وسيأخذ ابنتهما إلى بلاده البعيدة، بلاد الكفار! لكن الضابط لم يأس فراح بين يوم وآخر يأتي إلى أبيها بوفود من وجهاء التركمان ورجال الدين، محملين بمختلف فتاوى جواز المسلمة من غير المسلم؛ إذا أسلم، بل زادوا على ذلك بقولهم مجتمعين إن تحويل غير المسلم إلى الإسلام يعادل حجة إلى بيت الله، ويمنح فاعله قصراً في الجنة! أخذ الضابط بطريقة ما يوصل هدايا من ثياب وحلي وحلوى إلى الفتاة وأهلها، كانت العائلة ترفضها مقاومة بريقها ورائحتها، وأخيراً لعب الضابط الإنجليزي بالتهديد والوعيد إن لم يحصل عليها، فسلط بعضاً من رجال الحكومة المحليين في كركوك وبينهم رجال من التركمان الأشداء الذي لهم مصلحة في استرضاء الإنجليز وعدم إغضابهم للحفاظ على ثرواتهم وإقطاعياتهم بعد أن أقروا بزوال حكم العثمانيين أبناء عمومتهم، أخيراً انهار الأب المسكين، ورضخ لهم ووافق على زواج ابنته الجميلة من الإنجليزي، (غنى شاعر تركمانى فيما بعد عن لحظة استسلامه هذه قائلاً، قوة الإنسان من قوة بلده، وأهله، فلماذا يكى البيل لوحده في ليل الحديقة؟) لم تلبث خدمة الضابط الإنجليزي أن انتهت أو هو سارع لإنهائها ليضع زوجته في قفص ذهبي في لندن. ثمة جiran لهم قالوا، "الضابط كان شريفاً على الطريقة الإنجليزية، وفي بو عده في أن تكون فاطمة عند أهلها، ولكن ليس جسداً بل صورة"، فأتى برسام إيطالي

مهاجر وطلب منه أن يرسم فاطمة على غرار الموناليزا، فرسمها له بأكثـر من وضع جميل خاصة وهي تعتـمر الطربوش النسائي التـركي المشـرب بالذهب، وأرسل صورتها لأهـلها عبر بـريد الجيش الإـنجلـيزـي المضمـون! قالت أمـها تـنظر إلى الصـورة باـكـية:

- ابـتـيـ التي حـملـتهاـ في رـحـميـ تـسـعـةـ أـشـهـرـ لـحـمـاـ وـدـمـاـ، تـعـودـ لـيـ أـخـيـراـ قـطـعـةـ منـ القـماـشـ وـالـصـبـغـ وـعـلـىـ خـشـبـةـ هيـ تـابـوـتـهاـ!

يـقولـونـ أـنـهـاـ دـفـنـتـ صـورـتـهاـ فيـ زـاـوـيـةـ مـهـجـوـرـةـ مـنـ بـيـتـهاـ الـفـقـيرـ، وـلـمـ تـكـفـ عنـ الـبـكـاءـ، حـتـىـ مـاتـ، وـأـنـ فـاطـمـةـ لـمـ تـكـنـ حـيـاتـهاـ فيـ لـنـدـنـ أـقـلـ حـزـنـاـ وـعـذـابـ؛ رـغـمـ الـبـيـتـ الـكـبـيرـ الـجـمـيلـ الـذـيـ وـضـعـهـاـ فـيـ زـوـجـهـاـ. قـالـواـ إـنـهـاـ لـمـ تـنـجـبـ، أـصـبـيـتـ بـالـعـقـمـ نـتـيـجـةـ صـدـمـتـهـاـ، آـخـرـونـ يـقـولـونـ إـنـهـاـ أـنـجـبـتـ بـنـيـنـاـ وـبـنـاتـ بـعـضـهـمـ تـبـوـأـ مـنـاصـبـاـ فـيـ وزـارـةـ الـخـارـجـيـةـ الـبـرـيطـانـيـةـ. وـإـنـ أـحـدـهـمـ جـاءـ سـفـيرـ الـبـرـيطـانـيـاـ فـيـ الـعـرـاقـ! وـكـالـعـادـةـ هـكـذـاـ حـكـاـيـةـ لـاـ تـكـتـفـيـ لـنـفـسـهـاـ بـثـوبـ وـاحـدـ، فـرـاحـ النـاسـ يـرـوـونـ عـنـهـاـ أـكـثـرـ مـنـ مـسـارـ وـمـصـيرـ مـنـهـاـ حـكـاـيـةـ مـؤـثـرـةـ وـحـزـينـةـ جـداـ، تـقـولـ أـنـ فـاطـمـةـ كـانـتـ عـاشـقـةـ لـشـابـ فـقـيرـ كـانـ يـهـيمـ بـهـاـ حـبـاـ، وـإـنـ بـعـدـ أـنـ رـأـيـ عـذـابـ أـبـوـهـاـ وـهـمـاـ يـقاـومـانـ عـبـثـاـ كـيـدـ الـإنـجـليـزـيـ وـتـهـدـيـدـاـهـ، طـلـبـ مـنـهـاـ أـنـ تـرـكـهـ؛ وـتـسـتـسـلـمـ لـقـدـرـهـاـ! وـهـذـاـ زـادـهـ عـذـابـاـ فـيـمـاـ بـعـدـ، فـتـمـضـيـ الـحـكـاـيـةـ لـتـقـولـ: إـنـ كـانـ شـاعـرـاـ، وـمـغـنيـاـ ذـاـ صـوتـ جـمـيلـ، فـأـصـبـيـبـ أـثـرـ فـرـاقـهـاـ بـلـوـثـةـ عـقـلـيةـ، فـهـامـ عـلـىـ وـجـهـهـ فـيـ شـوـارـعـ وـطـرـقـاتـ كـرـكـوكـ، يـبـكيـ وـيـضـحـكـ وـيـنـشـدـ أـشـعـارـاـ يـلـعـنـ فـيـهـاـ الـانـجـليـزـ مـرـدـداـ: "الـمـحـتـلـ يـنـتـزـعـ مـنـ الـبـلـادـ الـتـيـ يـحـتـلـهـاـ أـجـمـلـ مـاـ فـيـهـاـ، لـيـغـرـسـ مـكـانـهـاـ أـقـبـحـ مـاـ عـنـهـ" وـإـنـ ظـلـ يـسـعـىـ حـتـىـ وـصـلـ إـلـىـ حـجـرـةـ مـديـرـ شـرـكـةـ نـفـطـ كـرـكـوكـ؛ فـسـكـبـ حـولـهـاـ صـفـيـحةـ نـفـطـ، وـأـشـعلـ بـهـاـ النـارـ، مـلـقـيـاـ نـفـسـهـ فـيـهـاـ صـائـحاـ؛ "أـيـهـاـ الـإنـجـليـزـ كـمـاـ أـحـرـقـتـمـوـنـاـ بـنـفـطـنـاـ؛ اـحـتـرـقـوـاـ مـعـنـاـ وـلـوـ لـمـرـةـ وـاحـدـةـ" وـلـكـنـ الـمـديـرـ الـإنـجـليـزـيـ فـيـ تـلـكـ الـلحـظـةـ كـانـ فـيـ مـطـعـمـ الشـرـكـةـ مـعـ أـصـحـابـهـ يـحـتـسـيـ الـبـيـرـةـ الـمـثـلـجـةـ، فـاـحـتـرـقـ العـاشـقـ الـمـسـكـيـنـ لـوـحـدهـ! ثـمـةـ مـنـ يـتـحدـثـ أـنـ بـعـدـ أـنـ مـاتـ وـالـدـاـ فـاطـمـةـ، وـتـشـتـتـ أـشـيـاءـ الـبـيـتـ بـيـنـ أـخـوـاتـهـاـ وـأـخـوـاتـهـاـ الـمـتـفـرـقـيـنـ، وـلـمـ

يكترثوا الصورة شقيقتهم، استطاع جار لهم كان يعرف حكايتها، الحصول على الصورة، أرسلها مع أحد أقاربه إلى بيروت فطبع منها نسخاً كثيرة وأخذ يتاجر بها، بذلك بعثت فاطمة من جديد، صارت صورها تعلق في المقاهي والمطاعم وعلى جدران قلعة كركوك، أسموها نجمة كركوك، وقمر التبان، والفاتنة التركمانية، وضحية الاغتصاب والظلم، وراحوا يألفون لها، الأغاني والترانيم الحزينة التي اشتهرت منها أغنية تناديها (يا ابنة التبان ذات الأربع عشر ربيعاً، غابت الشمس خلف التلال، تعالى هنا، القلوب تبكي مع اليابس، والطيور لا تقوى على الطيران، والصخور تنفت مع الريح) وما تزال الأغاني التي ترنم بها حية مؤثرة حتى اليوم يغينها التركمان في أعراسهم، وختان أبنائهم، وأفراحهم، وينمون عليها أطفالهم!

**الحكاية الأكثر فجيعة لفاطمة ححدث في كركوك، لكن نجمتها الساحرة سطعت في مياه الأهوار! قررت أن أكون تحت تلك السماء، وقد اخترت الحب المستحيل!**

عاد صوت سليم يأتي مخرشاً تحالطاً نبرة حزن ثقيل:

- ومع أن حكاية التركمان عن فاطمة قوية ومؤثرة، وتکاد تكون مقنعة، لكنها ظلت تسمى بنت المعیدي ويزغ نجمها فوق الأهوار، وليس من أي مكان آخر، والناس هناك يؤکدون أنها أبنتهم، ويرهانهم أن الإنجليز، دخلوا من الجنوب عام 1914 وان الصورة بدأت بالظهور في العشرينات، سنوات كافية لبدء حب ونموه وانتكاسته، والإنجليز لم ينتشروا في كركوك إلا بعد بدء شركاتهم بالاستحواذ على النفط فيها، وكانت آنذاك صور بنت المعیدي قد انتشرت في كل مكان! بقيت شارداً مع هذه الاحتمالات أو الادعاءات لسيرة الفتاة ومصيرها، المتكرر فيها دائماً وجه ضابط إنجليزي غاصب، بسحنة وحشية، قلت:

- أنا خجل مما فعله ضابطنا الإنجليزي!

قال سليم مبتسما:

- أسلافنا أيضا خلال حروبهم فعلوا ذلك، يصعب أن نتظر من الحروب شيئا آخر!
- يبدو إن كل جماعة تنسبها لنفسها، لتقول أن الجمال لدينا وليس لدى الآخرين!
- ثمة صراع خفي بين الطوائف والقوميات في هذه البلاد، ليته يبقى يدور حول فتاة جميلة، ولا يتفجر حول أي شيء آخر! وجدتني أواصل معه حديثا في جو السياسة سأله:
  - ألا يكفي التمسك بالجمال لدحر الشر؟
  - ليس العنف دائما الطريق الأمثل لكسر العنف!
  - سكت فجأة، اعتراه وجوم قال:

- أعتقد أن اليوم الذي تختفي فيه هذه الصورة عن أنظار العراقيين، فلا صورة أخرى لهم غير صور الحروب مرة أخرى!

شعرت وكما الحلم أن حكايتها تسقط في قلبي مثل حمامه جريحة، بطلق ناري من صياد يترصد لها، وإن قلبي صار نهرا جاريا، توقف عن الجريان فجأة ليحتضنها، وسيظل متوقفا متفكرا، حتى يعيدها للحياة سعيدة. قلت في نفسي أنها من الممكن أن تكون بنت المعیدي مربى الجاموس، أو بنت التبان التركمانی أو الأشوري الآتي من تاريخ مدید، أو الكردي المنعزل في الجبل، أو بنت أي آناس آخرين، لكنني الآن أميل لاحتمال أنها بنت المعیدي، وإن أهلها الآن في الأهوار، ليس فقط لأن أهل الجنوب هم أول من احتك بالإنجليز، حين دخلوا عبر شبه جزيرة الفاو، بل لأن قلبي يحسها امرأة نهضت من أساطير المياه الشاسعة، دون أن أغفل الاحتمالات الأخرى! لا أدری هل كان هذا حلما، ومضة باهرة أم قرارا صائباً انفجر سليم فجأة بضحكة جعلتني أنظر إلى وجهه مستطلعا، قال تذكرت ما أضافه الشيوعيون لحكاية بنت المعیدي، فهم يقولون أن المخابرات السوفيتية

لكونها تشعل الثورة العالمية كعمل خيري، لوجه البروليتاريا، وتقف إلى جانب المضطهدين في العالم، استطاعت اختطاف بنت المعيدى من بيت الضابط الإنجليزى في لندن، وتهربها إلى موسكو، وهي الآن تعيش في بيت فخم قريباً من الكرملين، وقد تعلمت الروسية، وأخذت تنظم بها الشعر، وقد صار ستالين يتردد عليها يحتسى كؤوس الفودكا أمام وجهها الجميل مصغياً لقصائد تمدحه بها وتعينها بصوتها الشجاعي وإنه سيبقى يحتضنها حتى يتنصر الشيوعيون في العراق؛ لتعود وتنفذ حلمها العظيم في تحويل الأهوار إلى فينيسا الشرق. راح يداري جمر أركيلته وهو يقول: حقاً لا أحد يسبق الشيوعيين في تجارة الأوهام! وجدت في مكتبة مكنزي صوراً لها بطبعة لبنانية وعلى ورق صقيل فاخر، فاشترت واحدة. وضعت لها زجاجة وإطاراً خشبياً مذهباً، صرت أضعها أمامي حينما حللت! أتأملها دون ملل، أحدها، وتحدىني بصمت وهدوء، دون وجع الرأس الذي يصاب به الأزواج عادة. كنت أعجب لعجزي عن معرفة حقيقتها. أقول: لقد اكتشفت الرابع الحالي الذي تربو مساحته على 640 ألف كيلو متر مربع، وأعجز اليوم عن اكتشاف حقيقة صورة، مساحتها أقل من متر مربع واحد! ضحكت من نفسي، هذه الجميلة؟ لا يمكن أن تؤطر بنفس إطار صورتها؟ هي عالم لا أستطيع اكتشافه، حتى لو كنت اكتشفت كل صحارى وبحار الدنيا! وأعود أناقض نفسى: حتى إذا لم تكن هذه الفتاة حقيقة؛ فإن لدى ما يكفى من الخيال لجعلها حقيقة، أو بالقدر الذي يشدنى إليها أكثر! أرى الناس في المقهى يتطلعون إليها فأحس أنها موجودة حقاً وليس وهذا قد اعتراني. إنها لي وحدي، تنظر لي دون الآخرين، نظرة غامضة عميقه أطلقتها قبل سنين. اسمعها تسألني أيرضيك الذي وقع لي؟ اختطفني، بالأحرى اغتصبني ضابط من قومك وأنا عزلاء ضعيفة. أنقذني! سأحبك بإرادتي، تعال! ستعيشي الحب الجميل! عزيزتي أجاثا، فجأة رجعت مراهقاً، كأنني لم أر جميلات في بريطانيا، أو في أماكن أخرى، صرت عبر وجهها أرى جسدها وأتأمل مفاتنه، كل حواسى

وغرائزى تفجرت نحوها بعد ما دفنت طويلا تحت رمال الصحراء الساخنة، فجاءت حاملة ظماً الرمال دفعة واحدة، وجدت وجهها وجسدها يتناغمان كما الغابة والقمر ينيرها ليلا! بعد أيام وجدت أن شبقي الجسدي نحوها هو قسوة عليها، وعلى أنا أيضا، فتوقفت عنه، نادما خجلا، وجدتها مشاعر فجة وحيوانية حقا، صار تطلعى لها يقوم على الحرمان، والحزن المبكر خشية فقدان، وبقدر ما كانت تبدو البنت مستحيلة كانت تصير أملأاً وتحدى، لن يذهب بحثي عنها سدى، أشعر إبني على ذلك الشاطئ الذى تبحر منه قوارب الليل نحو المجهول الجميل دائما! قد تسأليني لماذا أنت دائماً تبحث عن الأماكن الخطرة، الصعبة القاسية، غصت في أعماقى بحثا، وجدت إن لدی ميلاً لذلك منذ طفولتي، سنواتي الأولى انصرمت في الجبسة، كانت آنذاك دونما سيارات وطرق معبدة. وبعد أن عادت عائلتى إلى لندن وأنهيت دراستي في أوكسفورد؛ عشت ثمانية عشر سنة أخرى متنقلة بين مناطق نائية في أفريقيا، والشرق الأوسط، مع أناس يتسمون بالعفوية والتلقى والذكاء الفطري، لا يسعون للشهادات الأكاديمية، ولا الملابس الغالية المبهргة، طعامهم وشرابهم كقوت كالطiyor. تغمرهم القناعة والرضا المفتقدتان في الغرب منذ فترة طويلة. هذا جعل من السهل علي أن أعيش في الصحراء والمستنقعات. وأعاشر البدو واللطوريين والبدائيين. نفرت من السيارات والراديو والسينما والطائرات؛ ولا أستعملها إلا اضطرارا، لا أتذوق السعادة إلا حين أكون مع راع في البرية، صياد في البحر، مغامر في الغابات، طيف أو شبح في أي مكان من هذا الوجود الشاسع الذي أعظم أمنياتي أن أجول في أرجائه كلها! مضت ميلى إلى حد قصي، يسحرني كوخ من القصب مملوء بالدخان، مع رجال ونساء وأطفال يقتسمون سمكة ورغيف خبز مشويان على الجمر! هؤلاء أبناء السماء، قبل أن يكونوا أبناء الأرض! ثم الآن اخترت الحب المستحيل! سافرت في اليوم التالي للقائي سليم، إلى الناصرية، كنت أفكـر كيف أجـد الطريق إلى الأـهـوار، رغم إـنـي حـصلـتـ من وزـارـةـ الدـاخـلـيـةـ العـراـقـيـةـ

وبتوصية من سفارتنا في بغداد على تخييل لي بالتجوال في منطقة الأهوار.  
ويوصي موظفي الإدارات المحلية بتسهيل مهمتي الاستكشافية! بالطبع هم لا  
يعرفون مهمتي الغرامية لا أحد حتى في السفارة البريطانية غير صديقي كولون  
يعرف إنني عاشق ذهب يبحث عن محبوبته على هذا الغمر الهائل من المياه  
حتى إنه قال ضاحكا "أخشى أن تجدها نصفها حورية ونصفها الآخر سمكة"،  
كولون هذا رغم جسمه الضخم لديه لسان عصافور لا يكف عن الزفقة!

سألني: أجيئت من بلاد الإنجليز لتأخذ المعرفة من المعدان  
وجواميسهم؟ ماذا أقول له؟ وسمكة تقفز فوق الماء؛ تلقي في قلبي  
حكمة الكتب كلها!

نزلت في فندق بالناصرية، يعد أفضل فنادقها القليلة، متوسط الحال،  
نظيف والخدمة فيه معقولة، وثمة أمان وطمأنينة. أعجبني في أهل هذه المدينة  
عدم تحسsem من الأجانب. استيقظت متأخراً، كنت متعباً من رحلتي، رأيتها  
تطل على بعيينها الجميلتين ووجهها المتوردة من فوق طاولة مدير الفندق،  
كأنها قد ازدادت جمالاً بعد رؤيتي لها في المقاهي والمطاعم البغدادية!  
تذكرت ما قاله لي سليم البكري، أن كثيراً من الشبان لهم نزواتهم وأحلامهم  
الجنسية معها كل ليلة؛ كيف حولوها إلى غانية للجميع؟ ترى هل تشارکهم  
هي نزواتهم؟ هل استطاعت اللعبة، هل تستطيع إرضاءهم جميعاً، أية مهمة  
قاسية ألقيت على كاهل هذه الفتاة الطيبة، شعرت بالغيرة حقاً، وبالعجز أنني  
لا استطيع إنقاذهما من مصيرها الفاجع، مفتسبة من إنجليزي، ملكية عامة  
لأصحاب نزوات الليل؟ بشكل ما ذلك زادني عزماً للبحث عنها، حتى إذا  
لم تجني سأحاول أن أعمل شيئاً من أجلها، هل يكفي حبّي لها؟ أقنعت  
نفسـي أنها لم ترافق الضابط الإنجليزي، رغم كل ما قدم لها أو لأهلـها من  
مغريات، عطفـت عليه وسمحت له برسـمها أو تصـويرـها، لكي تبعد شـره عن  
عائلـتها. هي ما تزال هنا تعـيش بين أهـلـها في الأـهـوار، مـمـتنـعة عن الزـواـج،

وإن هذه اللوحة ستزين صدر بيتنا الصغير البسيط، ولتظل صورها لدى العراقيين من شاء تسمى بها روحه، أو يفخر بها تمثل جمال وشموخ بلده، أو يستعملها لحواسه وشهواته! تحدثت مع صاحب الفندق، يعمل مدرساً للغة الإنجليزية في ثانوية المدينة، تحدث معي بانجليزية سليمة، وقال أنه يقرأ كتاباً بالإنجليزية في الفكر الحر، سأله عن سبب مجئي إلى الناصرية، وقد دهش حين عرف أن وجهتي الأهوار، قلت له "قدمت لأدرس أحوال هذه المنطقة الغربية المجهولة في العالم"، وقد أيدني في مسعائي قائلاً، هذا عمل تشكر عليه! فهو لاءُ أناس معدبون والمسئولون لا يفكرون بإنقاذهم ودمجهم بالمدينة الصاعدة في بلادنا، يريدونهم معلماً تذكاريًا فقط، عليك أن تحذر، فيبيتهم قاسية يصعب عليك أن تجد فيها ماءً نظيفاً، موبوءة بأمراض كثيرة، يتربصتك فيها البعض والأفاعي وحتى الخنازير البرية! صمت برهة. سحب نفساً عميقاً من سيجارته. قال هناك ثمة جو عدائٍ خطر ضد الإنجليز، قد تقتل هناك لمجرد كونك إنجليزي! انصرف ذهني إلى الضابط الإنجليزي الذي خطف ابنته. قلت تقصد الضابط الذي خطف بنت المعیدي؟ ضحك قال: لا هذه حكاية! ولكن هنا في الجنوب دارت قبل حوالي ثلاثين سنة حرب بين الإنجليز والأهالي، ذكرياتها الأليمة ما تزال ماثلة في ذهان الناس، وكثيرون فقدوا أفراداً منهم في الحرب ويتحررون للانتقام! بقيت صامتاً تأمله، لم يفاجئني تحذيره فهو لم يغب عن بالي في تنقلنا في كل مكان في العراق، استوقفني قوله أن بنت المعیدي "حكاية"، هل يعني أنها مجرد طيف، شيء وهمي، سأله:

- ما هي حكاية بنت المعیدي حقاً؟

رفع بصره واطح حاجبيه، فالصورة معلقة فوق رأسه، ضحك قائلاً:

- هي فتاة يهمني جمالها حقاً، قد تكون حقيقة وقد تكون خيالاً، ولها حكايات كثيرة، وما دمت سترذهب لدراسة أحوال المعدان؛ فستصل إلى حقيقتها!

أعجبني كلامه وزادني ثقة بضرورة رحلتي! كان لزاماً علي أن أراجع متصرف المنطقة، حاملاً إليه رسالة وزير الداخلية. وجدته جافاً متحفظاً، أو عز لموظف بمنحي ورقة كتب فيها "يسمح له بالتجوال في لواء الناصرية، والتقاط الصور وأخذ عينات من التربة (عدا ما يتعلّق منها بالنفط) وماء وسمك وطيور المنطقة، وتقع على مسؤوليته ما قد يقع له من مشكلات أو أخطار جراء اختلاطه بالناس أو الذهاب في مغامرات غير محسوبة العواقب" ضحكت في سري، وأنا أوقع على الورقة "لا يوجد فيها بند يحرم علي البحث عن بنت المعيدي!" لو كان هذا المسئول يعرف بغرضي من هذه الرحلة؛ لما سمح لي بذلك، ما عرفته من طبائع العراقيين جعلني أتخيله يثور، ناهضاً من كرسيه ليطردني صائحاً في وجهي "انا هنا متصرف، نائب الملك، لست قواداً أيها الكلب الإنجليزي!" بعد أن انتهيت من سلطة الحكومة، كان علي أن أحصل على إجازة سلطة الإقطاعيين الذين يرون أنفسهم هم الحاكمون الحقيقيون لهذه الأرض والناس! قصدت أطراف الريف المطل على الهرم كأنه يطوقه أو يحرسه. كانت القرى أشبه بمملكة مستقلة للإقطاعي مجید الخليفة وابنه فالح، اللذين استنكفا عن مقابلتي، لكن فالح أو عز لمساعدته إعلامي للذهاب إلى سرکاله المدعو صدام لينظر في طلبي! قابلني السرکال منذ اللحظة الأولى بتحفظ، وبنظرة عدائية وشك واضحين! من عادة العرب أن لا يسألوا الضيف عن غايته أو حجته إلا بعد اليوم الثالث لنزوله عندهم، سألني السرکال منذ الساعة الأولى لزولني في مضيّقه:

– ماذا ت يريد يا صاحب، ما هي غايتك؟

وهنا أيضاً كما تعرفين يسمون الإنجليزي "صاحب" وقبل أن أقول شيئاً،

قال:

– لقد أرسل لي فالح رسالة يقول فيها أنك ترغب في زيارة الأهوار، ماذا تريد من أهل الأهوار، هل أنت تعمل عند الحكومة؟  
ولم أعرف ماذا يقصد بالحكومة؟ الإنجليزية أم العراقية؟

- جئت إلى هنا فقط لأنني أسر برؤية الأماكن المختلفة، وبالناس متنوعون  
الأجناس والأشكال!

ظل ينظر إلى بريءة ونهم، تصورته من آكلي لحوم البشر، وإنه يتفحص جسدي إن كان فيه ما يكفي من اللحم للقضاء، في تلك اللحظة كرهته، وخفته كثيراً، وقلت في نفسي أي حب هذا الذي سيجعلني وليمة دسمة لدى أهل المحبوبة، سألني:

- من ينفق عليك؟ ما الراتب الذي تحصل عليه؟  
وتنفست الصعداء، الرجل يريد اقتسام راتبي معه، وليس آكلي نينا أو مشوياً، لم أجده مناصاً من تخيب أمله، قلت:

- ليس لدى راتب، انفق مما لدى، أنا رجل متقدس في عيشي!  
خفت إذا عرف لدى بعض المال أن يقتلني ليأخذه! هكذا فكرت، كنت في بداية دخولي عالمهم!  
راح في صمت دام دقيقة أو دققتين، كانتا طويلاًتين على جدأ، لذا أضفت:  
لقد تجولت في العيشة وفي العديد من الدول العربية والأوروبية أنا انشد المعرفة.

وجاءني صوته مندهشاً زاعقاً متهرئاً:  
- من المعدان؟ جئت من بلاد الإنجليز تشنّد المعرفة من المعدان؟  
- المعرفة موجودة في كل مكان، ولدى جميع البشر!  
هنا تذكرت أن هذا الرجل ليس من المعدان بل من عرب الجنوب الذين يتظرون للمعدان بازدراة، ويفخرون بانتسابهم لقبائل عربية كبيرة معروفة الأنساب قدمت من الجزيرة العربية، فرحت أنه ليس من أولياء أمر محبوبي ليلاحقني أو يقتضي مني، صار صوته أقل عنفاً وحدة:  
- هذه حماقة منك أن تعيش مع المعدان، أنا أريد راحتك لا تذهب للعيش مع المعدان! المعدان كجواميسهم يأكلون ويسربون ويتوغطون في الأوحال، أكواخهم غائرة في الماء، تعج بالبعوض والبراغيث إذا نمت في

كوخ لهم؛ فمن المحتمل أن تدوس جاموسة على وجهك وتهزه، وهم جوعى دائمًا لا يملكون شيئاً، ليس لديهم سوى الرز المتعفن، واللحيف الذي يسبح به الذباب!  
ما جئت لأغير حياتهم، فذلك شأنهم، جئت لأتعرف على حياتهم وأوضاعهم فقط

عندما لمس إصراري على العيش بين المعدان؛ قال بعدم اكتتراث:  
هذا قرارك، ذنبك على جنبك، أي شيء يحدث لك نحن غير مسئولين عنه، ولكن أنصحك أن تتحذّل لك حارساً ونوتياً لقاربك من المعدان فهم يعرفون بعضهم، ويمكن أن يطلع فيهم طيبون يحمونك! صمت فجأة وبقي صامتاً يرمقني مستثقلًا وجودي، وكما توقعت لم يدعني للمبيت في مضيّقه الكبير! خرجت مفكراً، من حسن الحظ أن هذه البنت التي ابحث عنها، ليست ابنة إقطاعي أو سرکال، أو تاجر كبير، هل هي كانت بالصدفة كذلك؟ أم لأن حكايتها كانت مجرد حكاية، وما كان بالإمكان جعلها ابنة رجل قوي جداً، لا يجرأ لا الإنجليزي ولا غيره مسها؟ بالطبع لم اسمح لفكرة أنها حكاية أن تستقر في ذهني، هي ليست بنت إقطاعي فقط، لأن بنات الإقطاعي لا يذهبن لبيع الروبة قرب ثكنات الإنجليز، هن محصنات مدللات في الخدور، هكذا تقول الحكايات أيضاً! ركبت قارباً من مرسي خشبي مخلع على ضفة النهر. بعد مسار مائي متعرج ومضطرب لحوالي ساعة، ألقاني القارب ضحى عند أقرب صرiffة في هذا التجمع الكبير من الصرائف الطافية حول الماء والذي يدعى مدينة الجبايش! قال لي الشاب الذي قاد القارب وأنا أودعه: احذر أفاعي الماء، بعضها سام جداً! "السلام عليكم"، كلمة ساحرة تشبه إشارة إنهاء الحرب، وإلقاء السلاح، ونشر الدعة والأمان ألقتها على رجل مسن يقف أمام صرiffة متهرئة، خائضاً في الماء، وقد اختفى وجهه وراء أشواك من لحيته، وردها على بابي ماء من رأسه وصوت حزين، كالآنين، فشعرت بالأمان!

كانت أمامه مجموعة جواميس خاصة في الماء إلى بطنها، تقف على ظهورها طيور تقر بجلدها، سمعته يقول: أنت الآن في الجبايش، كنت أعرف ذلك طبعاً، لكنني حيتي بيدي مع ابتسامة إنجليزية جعلتها الغربية أكبر من حجمها الاعتيادي، هل كان الرجل قد رأى حيرتي واضطرابي؟ نظرت للماء الممتد أمامي لا حدود له، قفزت سمكة كبيرة أمامي، ولمع من قشور جلدها مع الشمس شيء كالكتابة، خلتها كلمات غامضة، هي ألقت في قلبي حكمة الكتب كلها، من يبحث عن الحب لن يصل طريقه! من يبحث عن الكراهية سيضل طريقه حتى لو وجد الطريق كلها، وسألني السر كال لماذا جئت إلى هنا؟ من هذا المستنقع الهائل علي أن أبدأ رحلتي بحثاً عن فاطمة، رأيت بعينيها كل أحلامي ومواجعي القديمة! الجبايش مدينة مائية مكونة من مئات الصرائف مبنية من القصب والبردي على أكوام من الطين المكدس مخلوطاً بعروق نبات مختلفة، تفصل بينها ممرات مائية ضحلة تكفي لحمل المشاحيف وهي قوارب صغيرة نحيلة رشيقه مختلفة الأحجام، تحيط بالصريفة، وتندمج معها حضائر الجاموس تسرح بينها الكلاب والقطط والدجاج والطيور ويختلط أطفالهم الصغار بهم! يتواصل سكانها مع بعضهم بالمشاحيف وقوارب أخرى من مختلف الأحجام عبر مساحات الماء الشاسعة بحثاً عن طير أو سمكة أو حزمة بردي وخلفاء يغذون بها جواميسهم. يصف بعض المتحضرين في المدن الأهوار بفينيسيا إيطاليا، وهذا ضحك على آلام البشر، فيبيوت وعمائر فينيسيما تفخر بعنادها الفاحش وبصخورها ورسوخها بماء البحر، أما هنا فالأكواخ فقيرة رثة طافية في الماء مكونة من مواد هشة متفسخة تقاد تتماسك فقط بقوة أحلام سكانها وأوهامهم! يعيشون فيها العوز مع البعض والبراغيث، وقد ينام رجل وعائلته وسقف الكوخ فوقهم، ويستيقظون صباحاً ليجدوا أنفسهم طافين فوق سقف الكوخ وقد انحدر بهم بعيداً! لم يأت هؤلاء الناس من المدن أو الريف، وجدوا

أنفسهم يعيشون هنا، منذ عصور سحيقة، مثلما انحدروا بماء الأرض؛ انحدروا بماء الزمن، البعض يقول إنهم سومريون أو من معاصرיהם! ومثل صرائف أو بيوت الجبايش هناك آلاف البيوت منتشرة على مدى هذه الحاضنة المائية الهائلة الممتدة بين البصرة والعمارة والناصرية، ماء غزير يرشح من دجلة والفرات ليجري على هذه الأرض المنبسطة، الناس عموماً يسمون سكانها بالمعدان، وأنا سأسميهم منذ الآن "عرب الأهوار" هم ليسوا مزارعين، بل مربى جاموس وصيادي سمك، وطيور وصانعي مفارش وحصران من القصب، هم مقطوعون عن المدن رغم إنها لا تبعد عنهم كثيراً، أحسست أنهم مرتاحون سعداء بانقطاعهم عن هذا العالم، مستغرون بهذه الرحلة الطويلة المتواترة على الماء كأنهم منذ الأزل هنا، لا هدف لهم سوى وصل بداية البشرية ب نهايتها!

كان الوقت ربيعاً، أجمل أيام الأهوار، قالوا لي بمثل هذه الأيام حتى الأسماك ترقص في وكناتها المائية، لما يتدفق إليها من ماء وغذاء، غافلة عن نبال الصيادين الماهرين الذين تجري قواربهم برشاقة وخفة، كلما التمعت الشمس على الماء؛ رأيت وجه فاطمة قد امتد على كل هذا الغمر الهائل، مؤطراً بسماء زرقاء صافية، ومناراً بشمس دافئة ساطعة.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. تعرفت على النوتين عمارة وياسين وتفاهمت معهما على مرافقتي وأدهشني أنهما حين تحدثت عن الأجر قالا بصوت واحد: "ولا يهمك ما تعطينا إيه صاحب؟ نعمة من الله" دلاني على صانع قوارب ماهر، رجل مندائي يجيد مهنته، ورثها عن أسلافه المعروفين باتفاقهم المهن الدقيقة، وحرصهم على السكن قريباً من الماء؛ لأنه يدخل في كل طقوس عبادتهم ومناسبات أفراحهم وأحزانهم. صار لدى قارب أكبر قليلاً من المشاحيف المعتادة في الهور، رشيقاً جميلاً بمقيدة شامخة كرأس إوزة راقعة عنقها بشموخ، التقيت في ورشة الرجل المندائي رجلاً من العرب الساكنين على أطراف الهور، جاء ليصنع زورقاً له، كان بثياب افرنجية،

شجعني هيئته لمحادثته، سأله:  
- من هو المعيد في نظرك؟  
رد بنبرة واثقة:

- كل من يربى الجاموس، يعيش معه، ويعتاش عليه؛ هو معيدنا!
- وإذا ماتت جواميسه، أو تخلص منها، هل سيبقى معيداً؟
- قال بزفرة ثقة مرت عبر أنفه الأسمر الطويل:
  - ستظل رائحة الجاموس تلاحمه حتى آخر حفيد له!
  - أليس ظلماً، أن ينسبوا للجواميس كأنهم خرجوا من أرحامها؟
  - شعرت إنه متحامل عليهم، رد بجفاء:
    - جرب أن تعاملهم بغير ذلك، وتحمل التنتائج!

أخيراً نمت في بيت من القش يطفو على الماء كأنني في رحم الغيب، لم أولد بعد!

كانت نقلة مدوخة لي، من الربع الصحراوي الخالي، إلى الربع المائي المزدحم بالحياة، من رحلة بين الرمال والأشواك والأفاعي والعقارب والزواحف القاتلة؛ إلى رحلة بين السمك، والبط والطيور، وثعابين الماء، والقصب وأجساد البشر الجميلة أو الهزيلة، من شمس لاهبة، جافة، إلى شمس ممزوجة بالماء؛ حلوة عذبة، أو ملوثة! من الطير المستوحش بين الكثبان المتنقلة، إلى الطير الراقص فرادى وجماعات فوق شمس مفروشة على القصب الأخضر. وجوه بدو الصحراء الملوحة باللهب والرياح والظماء، ثم وجوه بدو الماء المصفرة من المرض والأحزان والعزلة الطويلة! سأخوض هذه السديم المائي الهائل بحثاً عن فاطمة الجميلة، هل سأجدها؟ لماذا تركت خلفي لندن الغاصة بالفتيات الجميلات، وغوانى البارات الحسنوات لا يكلفني سوى جنيهات قليلة للوصول إلى أسرتهن الساخنة؛ وأتيت هنا أخوض في أحوال الأهوار، ومياهاها، وثعابينها ودودها المتسلل إلى الأكباد

بحثا عن فتاة مع كل جمالها وشهرتها لا تزال غير مؤكدة الوجود، أقرب للوهم، أو لحلم بعيداً أخيراً نمت في بيت من القش يطفو على الماء كأنني في رحم الغيب، لم أولد بعداً ينقبض قلبي حين يخامرني شعور أنني لا أمل لي بها، إذا كانت قد تزوجت، خطفت، أو اغتصبت، قبل ثلاثين عاماً تقريباً، تكبرني كثيراً أو ربما ماتت وانطوت ولا يمكن أن تكون لي! فلم هذا العناء وهذا التطلع المؤلم، لكنني أقول الحب الحقيقي لا يشترط التملك، ووضع اليد على المحبوب كما الزواج الشرقي. صار حبي لها دون غاية جسدية أو حسية قد تهبط بمشاعري إلى الحضيض. أملني أن أراها يوماً، حية، أو حتى أن أصل إلى حقيقتها فقط. كنت أدرك أنها ولكونها من هذه الأرض الملتهبة دوماً، فإن على كل عواصف التاريخ، حروبه وجنونه ومطامحه أن تهدأ في جسدها الجميل لتكون لي، وأكون لها تماماً، فتسعدنا الليالي المقرمة، والمظلمة، هل هذا ممكن؟ لا أدرى، ولكن لابد من الحلم، لابد من الوهم! أعرف إن بحثي سيكون طويلاً، وإن النهاية قد لا تكون سارة، أليس هذا كله ضرباً من الجنون؟ ألا يحق لصديقى كولن أن يسخر مني، ويصفني بالمعتوه، وبالأبله أو الأحمق الباحث عن حورية البحر، نصفها فتاة جميلة مخبولة، ونصفها الآخر سمكة جائعة؟ ولكن مع كل ذلك هل يوجد حب عظيم دون طيش وأوهام؟ هل يوجد عاشق حقيقي غير مجنون؟ ينبغي أن أبحث عنها بهدوء وحذر فالناس هنا رغم بساطتهم وطيبتهم، متغصبون متزمتون وقد يقتلونني إذا عرفوا إني جئت لأبحث عن فتاة منهم، التزمرت التكتم حول كل شيء! لم أجلب صورتها معي، أو دعتها لدى صاحب الفندق البغدادي. وقررت أن لا أتحدث مع مساعدى ياسين وعمارة حولها بشيء إلا بعد توثيقى منها، وتعهدهما بكتمان السر! سحرنى في الأهوار السكون البكر المتوجه منذ بدء الكون؛ لم يفتشه سوى صوت طائر عابر، فحيح ثعبان، زعيق إوز يرحل أو يعود، بط يحاول أن يطير، دجاج الماء الأسود، غناء فتى يافع في الظلام يناجي حبيرة مجهرة، هي ذاتها في مكان آخر تغنى

له أو لحبيب مجهول دون أن يلتقيا. هذا ماء يجري هادئاً كأنه متوقف، كأنه لم ينحدر منذ بدء التكوين من جبال شاهقة مكملة في الثلوج في أواسط آسيا، هنا ينبعط جسداً نائماً، تعلوه شمس تفيض عليه ساعات طويلة، وحين تغرب تسحب خلفها القصب الأخضر، لهب موقد تشع عليها أقراص خبز الرز. بيوت طافية على الماء، بينما شعور أصحابها أنها على مستقر صلب، والنجوم تراقص حولهم مطمئنة، لا صوت محرك آلي يلوث هذا السكون الجميل، نعم يا أجاثا هنا آلاف السنين تذوب في الماء، وأنا احتسي منها كأني عاشق مهجور يعاشر كأساً لانهائية، كيف لا أحب هذه البقاع التي ولدت فيها فاطمة، وشبت وحملت كثيراً قبل أن تعصف بها الأقدار! لي أمل أن أجدها فتغدو كل هذه المتاعب ذكرى مرحة. لا بد أن يلوح لي بصيص من النور؛ يهديني إليها، الحياة هنا يا عزيزتي بقدر ما هي جميلة لكنها خطيرة جداً. يكفي أن تلتهب الزائدة الدودية لدى شخص فتقته؛ حيث يصعب الوصول إلى مستشفى! لم تمض أيامى هنا دائماً بيسر وراحة، سرب الطيور القادم من شمال أوروبا هنا ترصده فوهات البنادق قبل العيون، اكتفت حياتي هنا غصات وصدمات! انظري كيف استقبلني أحد الشيوخ في مضيقه، عندما نزلنا عنده أنا ومساعدي ياسين وعمارة ضيوفاً؛ كما هي عادة جوابي الأهوار حين يجن الليل أو يبدأ الغروب متذراً بالظلام الدامس! جلب الخادم صينية فيها أطباق دجاج مقلية وسمك مشوي ورز وخبز ومرق. طبقاً لأوامر الشيخ وضعت أمامي على منضدة خشبية صغيرة مزععة. دعاني الشيخ للأكل، حسته سأأكل معه على عادة شيوخ العرب مع ضيوفهم حين يحترمونهم، لكنه لم ينضم لي؛ لذا طلبت أن توضع الصينية على الأرض ليأكل معه مساعدي، قال الشيخ بحزم، وفظاظة:

- لا! كل حيث أنت، لا توجد مشكلة، أصحابك سيأكلان فيما بعد!  
الححت على إبني أفضل الأكل على الأرض، كما هي عادتي مع  
جماعتي، لكنه رفض، قلت:

- هذه ليست طريقة في معاملة الضيف!  
 فظل صامتا يرمي بوجوم وغضب. أخذت لقمة، امتناعي عن الأكل  
 نهائيا يعد اهانة للمضيف لا تغفر، ولا اعرف عقباها. وقفت، طلبت ماء  
 لغسل يدي، أخذ الجالسون ينظرون للشيخ، سألني:  
 - ماذا حدث؟  
 - لاشيء! أشكرك لقد انتهيت!  
 قال الشيخ صارخا:  
 - أoooo، دعوه يأكل على الأرض كما يرغبه!  
 شكرته ثانية وطمأنته بأنني اكتفيت، عدت إلى مكان جلوسي، وبعد وقت  
 قصير؛ غادرنا أنا وصاحبى اللذان اكتفيا بتناول لقمة مجاملة. كانوا مرتابين  
 لامتناعي عن الأكل، ردا على تصرف الشيخ. خرجت ليلا من مضيقه، السير  
 في الليل في الطرق المائية صعب وخطر، فالرجال هنا ينامون بعين واحدة،  
 العين الأخرى تربق الطرقات فإذا مر مشحوف ولم يعلن عن نفسه أو وجهته  
 فقد يعتبره صاحب البيت عدوا، وقد يطلق عليه النار، أو ينشب فاله في صدره؛  
 لذا فمن الضروري حين المرور بالصراط الجائحة على الماء؛ إيقاد شعلة  
 حتى ولو عود ثقاب، وانتظار سؤال صاحب البيت من العابر لترد "صديق  
 صديق" وتسمع "يا مرحبا بالصديق"، ويسألك: من؟ فتقول اسمك وجهتك؛  
 فيعيد صاحب البيت الترحيب، وقد يعرض عليك المساعدة؛ ليوصلك إلى  
 غaitك. عادات بسيطة، ولكن لو أخطأت فيها لقتلت؛ أو أصبت بأذى كبير،  
 عالم مغامرة وجدته يليق بحبي لفتاة جميلة كالحلم، صار يضحكني حب في  
 أوربا كل تكاليفه غمرة عين ليتهي بعد لحظات في السرير؟ لأشهر لم أذهب  
 إلى مضييف ذلك الشيخ الذي عاملني بفظاظة. عند مرورنا مضطرين بالطريق  
 المائي المحاذى لمضييفه، صار هو ينبرى لدعوتى بالحاج. لبيت دعوته؛ لأننى  
 لا أميل لخلق عداوات، لا داع لها. صار ما أن أنزل عنده، حتى يجلب طعاما  
 وفيرا من السمك ولحم الطيور وخبز الرز، يضعه على سفرة أرضية، وكان

يصر أن أبقى معه الليل ثم أواصل السفر فجراً، غداً طيفاً، وعرض على صداقته، بقيت أحترمه، وأنزل عنده كلما دعاني، لكتني لم أرتع له أبداً، ولم أقصده عامداً! مع كل هذه الأجواء الفظة المنفرة فإن حبي لفاطمة جذبني لهذا الشعب الغريب المبعثر فوق الماء. وجعلني أحتمل مصاعب العيش بينهم، ودفعني لمحاولة دراسة أحوالهم؛ أصولهم وعاداتهم وواقعهم كله. ما أستطيع أن أشخصه أن عزلتهم الطويلة رسمت على وجوههم، وبعمق؛ حزناً وتوتراً غامضين، أتذكرين يا أجاثا الجولة التي رتبتها لكم في الأهوار ونقاشنا في أحوال سكانها وتاريخهم؟ وكيف اختلفنا حول آراء الدارسين ل بتاريخهم، فهناك من قال: إنهم بقايا السومريين والأكديين والبابليين، بعد انهيار حضارتهم بملوحة التربة أو بغزوات جيرانهم العيلاميين والفرس، وأنهم تحصنوا وراء أسوار الماء والقصب الفارع محافظين على جو روحهم الأولى وعاداتهم القديمة، وهرباً من ملاحقة أعداء مجھولين لهم. آخرون قالوا أنهم قبائل نزحت من الهند وإيران مع جواميسهم اثر موجة جفاف طويلة، بعض يقول أنهم عرب هاجروا من الجزيرة هرباً من رمال القحط والمجاعات القاسية لانقطاع المطر سنوات متالية. واستوطنوا هذه الأرض الطافحة بالماء ومثلاً كانوا بدواً رحلاً في صحاري الرمال؛ صاروا بدواً رحلاً على الماء. كان رأي ماكس والعالم لومبارد هو أن من الصعب الجزم بأي منها، فالامر يحتاج لدراسات أكثر عمقاً، رغم أن ما يلهب خيالي هو تصوري أن حبيتي هي حفيدة للسومريين! وإن لوجودها امتداد طويلاً في التاريخ! ولو لا وجود جذوة غامضة في أعماقها لما أثارت عواطف ومشاعر هذا القدر الكبير من العراقيين! هم اليوم غافلون عن الدنيا والعالم كله، ما يقال عنهم وما لا يقال! تطفوا بيوتهم كريش البط في خفته، تهدى نومهم وأحلامهم الأسماك والضفادع وأفاعي الماء، لا يحسون بأسراب البعض والحرمس التي تنهش جلودهم، لا يستيقظون إلا على أصوات ضروع الجواميس وهي تنفجر بالحليب الدسم جداً، فيهبون بأوانיהם إليها مع أصوات الطيور المغفردة

للفجر، وحين تطفح أوانיהם المعدنية بالحليب والقىمر والزبدة تذهب فتياتهم الجميلات الجريئات لبيعه لأهل المدن القرية. تتفاوت بشرتهم بين سمراء على الأغلب أو شقراء نادرة وعيون واسعة مفتوحة مستطلعة، وقامة ممشوقة، كل ذلك بفضل قوتهم من السمك واللبن والطيور وحلوى القصب والنباتات المائية، وحركتهم الدائبة على طرق الماء؛ يحفظون خرائطها عن ظهر قلب! رأيت بينهم نساء جميلات جداً، وصرت أقرب للاعتقاد أن "فاطمة" هي ابنتهن . جمالها وجلستها الوادعة الواثقة تدلان على أنها نشأت في أسرة تمتلك الكثير من الجواميس والمشاحيف! هي مزيج كوني طبيعي من جمال الأوروبيات والشرقيات بروح عريقة تطل من عينين واسعتين جميلتين! (أتحدث عن جمالها يا أجاثا ولا أنسى جمالك الذي يصفونه بالاسكندنافي) لسع ماكس مرة أخرى، ألقى الأوراق من يده، هل إيماءات وإشارات ثيسجر بريئة؟ أم هي خبيثة لها أوثق العلاقة باختفاء أجاثا؟ يبدو إن ولفريد كتب رسالته في أوقات وأمزجة مختلفة، كان ماكس يتوقف بين بعض الفقرات والسطور تاركاً لمخيلته وذهنه يسرح بعيداً متأملاً محللاً الكلمات والإشارات عليه يجد ما يضيء له اللحظة الصعبة التي هو فيها الآن، توقف عند استنتاج مفزع، أن ثيسجر يحاول أغراء أجاثا لرفقته في رحلاته، لإيقاعها في حبائله، هذا جوهر وفحوى رسالته، ما هذا الهراء؟ كيف يتجرأ على هذه المحاولات الخطيرة؟ فهو يقصد ما يقول حقاً؟ أم هو فقط يشطح في خياله وأوهامه؟ أيرى أن أجاثا صبية مراهقة غبية دون تجربة ولا خبرة ولا ذكاء لتطاوله في وعوده أو دعواته الساذجة البائسة؟ أيعتقد إنه المعشوق الذي لا يمكن لأية امرأة أن تقاوم جاذبيته؟ بهذا يفقد وقاره وهيبته واحترامنا له؟ لا يمكن لأجاثا وهي العارفة بخبايا النفس البشرية وما يعتمل في أعماقها من نزوات واندفاعات أن تخدع بالأعيبه ومكائد، هي في طلبها رسالته لم تكن تقصد أكثر من الغرض الأدبي، أنه يحاول بقلمه تفتيت صخرة صلدة! أهي الغيرة؟ أم إنه قد وقع في حبها دون إرادته؟ وما حكايته مع بنت المعيدى سوى قناع

مضحك؟ يتقاقر هنا وهناك، الرابع الخالي، بادية الشام، الهرور، بادية الشام، الوهمية لبنت المعيدي، ثم الدوران حولنا؟ ماذا يريد هذا المجنون؟ أ يريد أن يبني سعادته على تحطيمي؟ أم تراني مخطئ، وهو لا يقصد إغواهها، وإنه جاد وصادق في محاولة إعطاءها مواضيع روائية يعدها أهم من مواضيع الروايات البوليسية، لا ينبغي أن أتسرع في الحكم، عاد يقرأ متأنياً متخصصاً متاماً!

ربما تذكرين، أن لومبارد قال: المعدان، ينفرون من التعليم والثقافة، بذلك لا يمكن أن يكونوا هم أحفاد السومريين، الذين كانوا هم من وضعوا الحروف الأولى، أنا لا أزدرني أصلهم، لكن ينبغي أن نبحث عنه في مكان آخر غير أور أو أكيد. قلت له حينها: ألا يمكن أن نزعوا إدارة ظهورهم للثقافة إلى كونهم أصبحوا بخيئة أمل من الحضارة التي أهملتهم، ونبذتهم؟ قال ماكس لا يمكن لشعب أن يكره الوصول لأنوار المدينة، إذا لم يكن هناك ما يخيفهم، هناك سلطتان ترقبهم من على الشواطئ سلطة الدولة، وسلطة الإقطاعيين وشيوخ العشائر! قلت: طيلة الأشهر الماضية التي قضيتها بينهم لم أسمع عن جريمة قتل وقعت بينهم، ربما يسرقون بعضهم، قليلاً أو كثيراً، لكن تجاوزاتهم لا تصل حد الجرائم الكبيرة، ومن يريد أن يرتكب جرائم يستطيع نيجد في مجاهيل الهرور مهرباً، وملاذاً، قال لومبارد لكنك حدثنا أنهم ضايقوك، قلت نعم ناكدوني وحاولوا طردي من بينهم، أعماقهم لا تحتمل جسماً غريباً، هذا دليل آخر على تعلقهم بأصولهم وحفظهم على تكوينهم! تدخلت أنت لتقولي، دعونا نسمع غناء الطيور وحفيظ القصب والبردي، ونملي بصرنا بأسراب هذه الطيور الجميلة القادمة من أوروبا مثلنا تماماً، الفرق أنها قد تعود بينما نحن وسكت، قال لومبارد: وهل أنت يا وثيسيجر تريد العودة لإنجلترا؟ سكت، ماذا أقول له؟ لو التقيت بنت المعيدي لعشت معها في هذه المستنقعات سعيداً، الحب لا يحتاج لمعارات المدن قدر حاجته لروح راضية قانعة حتى لو في خيمة. لكنني على ما أتذكر تحدثت بشيء آخر قلت: العراقيون لا يكرهون الإنجليز كلهم، هم يفرقون بين جندي

بريطاني يرون إنه جاء لقتلهم، ومهندس بريطاني يرون إنه جاء ليبني لهم جسراً أو محطة كهرباء! أنا سأكرس خمس سنوات من عمري، لدراسة هؤلاء الناس، أريد أن أعرفهم، ضحك لومبارد قائلاً: لتعرفهم؟ أم لتتزوج ابنتهم؟

عجبت كيف اجتمعوا ضدي: **الحلاقون والشيوعيون والملالي وثعابين الماء، الشمس ظلت تغمرني بنورها، والقصب يغنى، ويدى تختن الأطفال بخفة منجل يحصد البردي!**

فتشرت عن أي عمل أستطيع القيام به ويساعدهم على تحمل صعاب حياتهم، وجدت أن الحلاقين يقومون بختان أولادهم الصغار، وبطريقة بدائية وغير صحية، فتصيبهم بالتهابات، وأحياناً بالعقل؟ فقررت أن أقوم أنا بختانهم مستعيناً بأدوات طبية حديثة، حصلت عليها من صيدلية في البصرة، وبخبرة تلقيتها قبل سنوات من طبيب هولندي التقيت به في المنامة، قبل رحلتي في الربع الخالي. أنا الذي معلوماتي الطبية لا تزيد على معلومات أي رجل قرأ شيئاً من الإعلانات الصيدلانية. وقررت أن أقوم ببعض أعمال الطبابة لهم، الناس هنا يتعاشرون مع أمراضهم سنوات طويلة، يذوون، ويشيخون قبل الأوان! اشتريت من مدن قرية أدوية إسهال وصداع وسعال وسوائل تعقيم وضمادات لمعالجة مرضى صاروا يقصدونني أو أقوم أنا بالمرور عليهم بعد معرفتي بأحوالهم الصحية المتردية، وعدم مقدرتهم على مراجعة المستشفيات في المدن. كان مفعولها السريع لدיהם يجعلهم ينظرون لي كساحر، وقديس وصاحب معجزات! أتردد على العمارة أو الناصرية أتزود بما احتاجه من شاي، وسكر، وفاكهه مجففة، وبعض الحبوب، وأشياء بسيطة أخرى احتاجها في عيشي، إذ لا يمكن أن أعتمد في غذائي على السمك والطيور فقط. انحدر بشحوفي مع مساعدتي في هور العمارة أو الحمار، أدخل منطقةبني عامر، هم عرب نزح أسلافهم من اليمن إبان الفتح الإسلامي، أنزل في مضيف شيخهم الحاج فرعون الهاشمي العامي الذي كان يرحب بي كثيراً، ويجد في

إكرامي، وفي مضيّفه الكبير أبدأ حملة ختان أطفال عشيرته وديرته. عشرات الأطفال الذكور يأتي بهم آباءهم ما أن يسمعوا هاون الحاج فرعون يدق دقاته التي تستدعي الضيوف لشرب القهوة. في حملة ختان الأطفال يدقون الهاون دقات مضاعفة. كنت دائمًاأشكر في سري ذلك الطبيب الهولندي الذي عشت معه أيامًا جميلة في البحرين، وقال لي: ما دمت ستعيش بين أناس مقطوعين مهجورين، فعليك أن تفكّر كيف تمد الجسور إلى قلوبهم، وأفضل طريق إليهم هو علاجهم من مرض أو وقايتهم منه، ختان أطفالهم عمل طيب يمس شيئاً غامضاً في أعماقهم وستجعلهم ممتين لك، وستكسب ثقتهم. لم أكن أتقاضى على عملية الختان البسيطة أية أجور. أحد سكان الهاور الظرفاء قال لي مازحاً: أنت تفتح قلوبنا لك، بالمقص الذي تقطع به إبورة أطفالنا! ولكن الحلاقين الذين تضرروا من عملي روجوا أن الطفل الذي يختنه إنجليزي كافر؛ سيصاب بالعقل، وإذا أُنجب فإن ذريته ستكون نجسة وخبيثة! الناس سفهوا أقوالهم، بعد أن وجدوا أن الأطفال الذين ختّنهم الحلاقون، التهبت جراحاتهم وبعدهم ماتوا، أو أصيبوا بعاهات، أو بالعقل! من حسن حظ سكان الأهوار وحظي أيضاً، إنهم لا يعرفون ولا يقررون ختان البنات الذي رأيته شائعاً في الريف السوداني عندما عملت هناك، وفي قرى كردية نائية تحولت بها قبل أن أحدر جنوباً، وكان يجعلني أحس بتقزز وقشعريرة! لكنني أجدت ختان الذكور بعد ما أكد لي الطبيب الهولندي الذي دربني عليه أن لا خطورة منه عليهم، وإن إزالة القلفة لا يقتل الرغبة الجنسية لديهم؛ كما لدى الإناث، وإن يضمن نظافة أعضائهم. ومع ذلك، لو سألتني أنا ضد هذا التدخل في التكوين الطبيعي للإنسان مهما كانت غاياته! لكنه تقليل أو فريضة دينية راسخة لدى اليهود والمسلمين! لم يحدث أن تعرض طفل لمضاعفات سيئة بعد ختاني له. صار الناس يتذمرون حتى ولو لعام أو عامين لحين قدومي إليهم لأقوم بختان أطفالهم، صار مقص الختان الفضي اللون هو جسري الذهبي إلى قلوب الناس رغم أنه خلق لي عداوات مع الحلاقين الفقراء الذين

يقشطون شعر فروة الرأس بسكين تقطيع اللحم بعد حكها بصخرة. رأيت أحدهم يرطب بصاقه ذقن رجل ليحلقه، تصورى حلاقاً يبصق على زبونه قبل أن يحلق له! ولكن هنا الذي يحلقون ذقونهم أو رؤوسهم قليلون، وجوه الرجال هنا خشنة كثة كأنها تنبت أشواكاً، وأبر، لذلك كنت أتحاشى طريقتهم في تبادل القبلات الكثيرة عند اللقاءات! بعد الانتهاء من ختان ثلاثين طفلاً، أو أكثر أحياناً في كل جولة جراحية، نجلس جميعاً نتناول بما يشبه الاحتفال الطعام الدسم في مضيف الحاج فرعون، أخرج عصراً إلى ريف شطآن الهرور، معي الملاحان ياسين، وعمارة والصبي سهر حفيد الحاج فرعون لصيد الطيور. كنت ما أن أصيب طائراً ببنديقية الصيد ويهبط على الأرض؛ حتى يركض إليه الصبي سهر بخفة الغزال ليجلبه لي لأنحره وأزيح دمه، وأضعه في عليهجة الصيد، فتمتلئ بأنواع من الطيور السمية اللذيذة اللحم القادمة من أوكرانيا وروسيا والسويد وغيرها من أصناف الدنيا بعيدة! في صباح اليوم التالي، انطلق متوجلاً في أعماق الهرور حيث قاطنيه موضع اهتمامي ودراستي. صارت بيتهن المائية الهائلة معبدى، انتظر أن تطل علي فاطمة من أفقها المتوجج، ولكن هيئات، كل مسالك الهرور يكتنفها الغموض والضباب، كل الطرق المائية وكل الحكايات التي اسمعها عنها، لا تفضي إليها! الحب وهم جميل، نصنعه نحن إذا لم يعترض طريقنا! سكنت صريفة متواضعة في قرية تتوسط الهرور لأكون على مسافة متساوية من كل الاتجاهات. بناها على رجل متمرس في تشييد الصرائف مستندًا إلى خبرة متوارثة. أقامها على أسس متينة في أكمة الطين المعشوشب والمولح المحاط بالماء الضحل، تفنن في ترصيع جوانبها القصبية ببعض الزخرفات أو التشكيلات من تعشيق القصب بالحلفاء، جلبت فرشاً جديداً نظيفاً، وحرست على الاحتفاظ ببعض المواد المبيدة للحشرات والجراثيم، لكن مفعولها كان يتضاءل أمام هجمات أسراب القوارض والطفيليات والجراثيم! حرست على غلي ماء الشرب، وطهي طعامي جيداً! ورغم كل ذلك أواجهه؛ تلونه، واكتظاظ الهواء

بالبعوض والحرمس ودخان الروث المشتعل والروائح العطنة. كثيرون هنا لا يحليون الجواميس بأيدي أو أوانى نظيفة، أصبحت في بداية وجودي بمختلف الوعكات الصحية من إسهال وزكام وقحة لكن، جسمي تكيف مع الوضع بشكل ما. اعتدت على كل هذا وعلى الأخطار الكثيرة التي تحاصرني في هذه المساحات الشاسعة من الماء. مصيبي أن كثيرين من عرب الأهوار صاروا لا يفوتون فرصة لعزلني ونبذى لأنني بنظرهم لست من دينهم. رغم إنهم معزولون ومنبوذون من العرب القاطنين أطراف الهور أو في المدن وهم من دينهم ومذهبهم أيضاً، فهم يأنفون من معاشرتهم يرونهم أقل شأناً منهم، لا يتزاوجون معهم، ولا يختلطون معهم إلا في شئون البيع والشراء العابرة، وعلى مسافة منهم. كنت أرى بعضاً من أهل الأهوار في المناسبات يتسلون للقرب من عرب المدن، بينما أنا الذي أحبهم واحترمهم وأعد نفس واحداً منهم، وأقدم كل ما أستطيع لهם ينظرون إلى بريء واستعلاء: سمعت أحدهم يقول: "هذا لو ما زايحته الدنيا ما لفي عدنا!" واللافى هو اللاجئ، هم يتصورونني هارباً من شيء أو إنني كنت جائعاً في بلدي وجئت لأشبع عندهم. حتى الآن لم ينادوني باسمي، ولا بلفظة احترام أخرى، رغم أنني كنت الفظه أمامهم واضحاً، بحضورى ينادوني "صاحب" أو "المستر" وبغيابي يسمونني "الإنجليزي" أو "الإفرنجي" ومن أينعت فلقات أعضاء أطفالهم، وآن قطافها، يسمونني "المطهرجي" أو "العاج" من أجل أن يكون ختاني لأطفالهم له مسحة دينية! ثمة من سماني (الديك الهراتي) ربما لشقرتي التي تميز هذه الديكة التي من هرات في أفغانستان، بعضهم يسميني "مالك الحزین" ربما لطول قامتى، وأعظم احترام لقيه اسمي حين جعلوه "مبارك بن لندن"، لماذا مبارك؟ ربما لأن أدويتي البسيطة تشفيفهم أحياناً، أو لا أدرى حتى الآن بالضبط، لماذا؟! كنت أضحك في سري من تصوراتهم عنى، كان يؤلمني أيضاً أن أشخاصاً من عرب المدن يكرهوننى، ويروننى من أعدائهم الإنجليز. كيف أستطيع العيش بين كل هؤلاء؟ لم تكن أخطار الكراهية أو هاماً

أو مجرد توجس، ثمة ريب وشكوك ودسائس حقيقة كانت ترصدني إجاءني صباحا مساعدتي عمارة بجفدين متغرين كالمرحين، كان صامتا شارد الذهن لا يكاد يسيطر على القارب وهو الذي كان يجذب ويديره بيد خبير قوي، سأله: ما بك؟ قال لا شيء، لا تقلق! لكنني ألححت عليه فطفق يتحدث وهو يغالب دموعه:

- يقولون يا عم ثيسجر أنت شاذ جنسيا، ليس فقط المعدان هنا يتحدثون بذلك، بل العرب من حولنا!

ندت عنى ضحكة قصيرة، لكنني استدركت صامتا، فالأمر جدي وخطير في هذه البقاع: كيف عرفت؟

- البارحة جاءني رجل من العرب (يقصد عرب الأطراف "الأفاح") سأله هل لدى ثيسجر زوجة في المدينة؟ قلت له لا، قال: إذاً ما يقال عنه صحيح، هو شاذ، إما أنه يفعل بمن معه، أو هم يفعلون به، سأله ماذا تقصد؟ قال سمعتك يا عمارة وصاحبك صارت سيئة بصحبة هذا الإنجليزي الكافر الفاسق! أنت تعرف يا عم ثيسجر هذه مسألة تتعلق بالشرف، والأخلاق، والسمعة!

- ولكن ما ي قوله الرجل كذب وافتراء، أنت تعرف ذلك!  
نعم أعرف، لكن هذا لا يجدي نفعا!

سرنا باتجاه الناصرية صامتين، تذكرت إن مساعدتي الآخر ياسين كان قد جاءني قبل ثلاثة أشهر تقريرا مرهقا واجما، وكالعادة فقد قدرته على قيادة المشحوف، لم أسأله عما به؟ بعد صمت وأسئلة غير مباشرة، ومماطلة معتادة، أخذ يتحدث:

- رجل من الصحين أتى إلى أبي قال له ابنك يعمل مع الجاسوس الإنجليزي، امنعه وإلا سنضطر لوقفه عند حده، سأله أبي: على من يتتجسس؟ قال: علينا؟ سأله: ومن أنتم؟ قال: لا عليك!

سألت ياسين: ومن تعتقد هذا الرجل؟ قال: أبي يقول إنه من الشيوخين! كان خائفاً، لكنني طمأنته، هؤلاء الشيوخون يتهمون كل أجنبي غير سوفيتي إنه استعماري، قلت لياسين يعز علي أن أفقدك ولكن إذا وجدت عملك معي خطراً عليك؛ تستطيع تركي دون أن نفقد صداقتنا! لكنه بعد يوم أو يومين نسى الأمر وعاد يعمل معي بنفس مزاجه ونشاطه السابقين، ما الحيلة مع عمارة والتهم هذه المرة تتعلق هنا بالشرف والأخلاق؟ كيف أقنعه؟ أعدت عليه نفس الكلام الذي كنت قد قلته لياسين، فظل صامتاً يجده دون انتباه، تركته لصمته وتفكيره. في اليوم التالي وكنا قد بتنا في بيت الشيخ العامري بعد حفلة ختان طويلة لأطفال كثر من مختلف الأماكن في الهرور، تبارى فيها أهاليهم في الكلام الطيب بحقي وإجزاء التحيات والشكر والوعود الطيبة، نهض عمارة من نومه صباحاً، مبتسمًا وأحضر المشحوف لرحلتنا عائدين، وحين صرنا في عرض الهرور قال:

– يا عم ثيسجر فكرت في قضية البارحة، كلام الناس لا يخلص ولا ينتهي معك أو بدونك، والمهم إني أعرفك وأعرف أخلاقك الطيبة، لن أتركك يا عم، لن أتركك!

مساعدي ياسين وعمارة خففاً كثيراً على عبء الحياة هنا، ياسين، دون الثلاثين وسيم داكن السمرة بوجه مستدير وعينين واسعتين تكادان تربان بوضوح في ظلام الماء، رشيق، مهذب جداً. عمارة بنفس عمره كأنهما تؤمان، هما قرييان كما عرفت، لكن عمارة أكثر سمرة، وأكثر امتلاء، ورغم إنهما لم يذهبا إلى المدرسة كأكثر شبان العرب هنا إلا أنهما يتمتعان بتهذيب فطري يدهشني ويزيدني حزناً عليهم، كيف يقيان يطوفان في المشحوف يقتاتان على ما يصادان من سمك أو طير، أو تجود به عليه عائلتهما والجاموستان اللتان يمتلكهما والداهما المرهقان المريضان، حتى يشيخان أو يموتان مبكرين بأحد الأمراض القاتلة التي يتداولونها هنا بينهم كالهدايا المسمومة. كانوا يساعدانني تاركين والديهما يهتمان بشئون وحاجات العائلة، مع فقرهما

المدقع، يقبلان الأجر البسيط الذي أعطيهما، وما كانا يطلبان المزيد، ولا يتقبلان ما أجلبه لهما من ملابس أو هدايا بسيطة إلا بعد إلتحاح، يقولان دائماً أنهما وجداًني أباً أو عما لها. استطعت أن أكسب ثقتهما أتدرج في حديثي معهما عن فاطمة كلامها قالا إنها سمع والديهما وجديهما يتحدثان عنه! لم أخلص من تشنيع الذين يكرهونني وطعنهم بأخلاقي وسمعي، أعطيتهم بعض الحق هم يتوجسون من الغرباء، ولهم مع الإنجليز تجربة مريرة، قلت لأصبر عليهم، لا بد أن يتغير شعورهم نحوه وتعاملهم معه. الحلاقون ومن كانوا يعتاشون على التطبيب بالسحر والشعودة والمواد البدائية هم من يحرضونهم ضدّي، والغريب أن الشيوخين ناصبوني العداء بينما كنت أدعو الناس بشكل هادئ، وقدر استطاعتي، أن يعوا استغلال لإقطاعيين لهم بتشغيلهم بأعمال شاقة بأجور ضئيلة، وإن من يسمونهم "الموامنة" يمتّصون دمهم حين يجرون منهم الخمس، وكانت أحاوّل إيقاظهم، كلّما وجدت فرصة لذلك، والمفروض أن هذا يخدم أهداف الشيوخين إن كانوا يعونها حقاً، لكنّهم اصططفوا مع الحلاقين والمشعوذين، فقط لأنّي بريطاني امبريالي في نظرهم، وبالطبع لو كنت من الإتحاد السوفياتي، لوجدوا ألف عذر ومبرر لوجودي، بل لاعتبرونني منقذاً أمّياً! يوصلني ياسين إلى صريفتي، أهبط من المشحوق فتغوص ساقّي في الماء، ويقول ياسين: احضر يا أبي، ثعابين الماء السامة، تتكاثر هذه الأيام، وأدخل متفكراً: عجبت كيف اجتمعوا ضدّي: الحلاقون والشيوخون والملالي وثعابين الماء! الشمس ظلت تغمرني بنورها، والقصب يغني، ويدّي تختن الأطفال بخفة منجل يحصد البردي! لأنّنا نتناول عشاءً وأنام بهدوء لكن هيهات! ياخذني الأرق، أقول لنفسي، هم محظون، فأنا أتجسس كل يوم على روحي القلقة المعدبة في ترحالها الطويل الدائم علني أصل إلى حقيقتها، فلا أجده في يدي منها سوى نبض عروقي المسرع، أنت أيضاً يا أجاشأ مغامرة باحثة عن روحك، عندما جئت إلى العراق شابة وحيدة ما كنت فقط تريدين الحجّ في أور، بل باحثة عن جذوة روحك في

أرض انسكبت السماء فيها موحدة في قلوب الناس، ولتكتملي رحلة البحث عن عشبة الخلود التي بدأها جلجامش، وقيل أنها انتهت خائبة، وهي ما انتهت، فأنت تقهرين الموت المؤرق برواياتك الشيقة المثيرة! نحن لم نأت إلى العراق كهؤلاء الباحثين عن الذهب في آبار النفط، ولا مثل المسز يبل الباحثة عن السلطة، ولا كبعض الآثاريين الدجالين الباحثين بين عظام الموتى عن مجواهرات يسرقونها، ولا كأولئك الباحثين عن فتيات ألف ليلة وليلة في مواخير تعج بوجوه النساء المسكينات وقد اعتصرها المرض والفقر. أنت في أور أحببت ماكس، ما الضير أن تبحثي عن الحب والخلود معا؟ ما جدوى الخلود الذي لا يضمن لنا الحب؟ ماذا لو عشنا أبد الدهر ولكن دون حب حقيقي؟ ماذا نفعل بالخلود؟ آنذاك، ستتمنى الموت فلا يأتي، أنا يا أجاثا أفضل أن أعيش عمرا قصيرا مترعا بالحب؛ على الخلود كله خاليًا من الحب! أقول من يحظى بحب حقيقي يحصل على الخلود! خذى هذا على مسئوليتي! ثمة أكثر من وشيبة عميقة بيننا يا أجاثا، أقول لها بصرامة ودون مجاملة: أنت ملهمتي وقدوتي، وحتى الآن أنت تكتبين اكتشافاتك الروحية بالكلمات، وأنا أكتب اكتشافاتي بالرماد، أو بالماء! لو اجتمعت خبرتي في الاكتشاف الأرضي، وخبرتك في الاكتشاف الروائي الفني، وعبر رحلات مشاهدات حقيقة، أي كتاب جميل نهديه للناس؟ رغم ارتياح ماكس ل كلمات ثيسجر عنه، لكن قلبه ظل مرتابا، ما هذه الدعوات أو النداءات التي يوجهها لأجاثا، ماذا وراءها؟ أهو حقا ي يريد الإبداع، أم شيئا آخر؟ كيف يكون الإغراء إذاإنه يدعوها لوحدها فقط، كيف يتتجاهلنـي وأنا زوجها؟ ومهما بلغنا من التحرر، كيف ترافق امرأة مهما كانت غايتها نبيلة رجلا في الصحراء دون زوجها أو دون رضاها؟ ماذا يعتقد هذا المجنون، أن كتابة رواية هي أهم من سعادتها وبيتها؟ شعر بأنفاسه تقلقه، كأنه يصعد ج بلا، ولكنه يعود قائلا: لا، أنا أبالغ، إنه لم يتطرق لي لكوني أمرا بدبيها في حياتها، وهو يقصد أن موافقتها تعني موافقتي؛ وإنني سأكون حتما معها! واقتراحه عليها أن تكتب رواية بغير

مواضيعها المعتادة أمر طبيعي يتداوله الكتاب بينهم والقراء والنقاد، وهو أمر مشروع بل مطلوب وضروري، وليس بالسوء الذي أتصوره! سأقرأ لأعرف هل التزم بما أرادت منه أجاثا، أم إنه شط عن الصدد بأشياء أخرى، لا أعتقد أن أجاثا شطت عن الصدد وتقبلت منه ما خرج به عن المألوف، أو قبلته وتعاملت معه وشجعته عليه!

## خالد يستنفر كتب التحقيق الجنائي، وذكريات الصبا، وأشباح روايات أجاثا كريستي لكي يمسك طرف الخيط!

مضى خالد بأوراق أجاثا، إلى مقهى العانين، المطلة على دجلة جهة الكرخ غير بعيد عن جسر الملك فیصل الثاني. كان يجلس فيها أيام دراسته في الكلية؛ يقرأ كتب الحقوق الضخمة، واضعاً بينها روايات أجاثا كريستي، الصغيرة الناعمة، يعتبرها واحات استراحة خضراء، ينطلق في أجواءها الندية الملهمة متخلصاً من جفاف كتب القانون وثقلها، وكآبة حجرته الصغيرة التي لا تبعد كثيراً عن المقهى، أجرها من عجوز، لا تنفك تطالبه بآي جارها قبل حلول موعده. كانت أجاثا قد استهلت ما كتبته بسؤال يشبه تأنيب ضمير معذب "أي نداء انتزعني من ابتي وبيتي في لندن ودفعني بعاصفة إلى صحراء أور؟ تواصل بوحها أو مذكرتها: يصر كثيرون على القول أنني اسكندنافية الملامح، ربما لأن جدتي لأمي كانت مهاجرة سويدية إلى إنجلترا حين كانت موجات الصقيع في اسكندنافيا تأكل كل شيء حتى الجزر والبطاطا وجذور العشب، ولا تترك للناس سوى أجراس الكنائس، لتنعى الموتى من الجوع! وجدي لأبي نزل من قوارب الفايكونك على شواطئ أمريكا، بحثاً عن جدة لي تعرف كيف تطبخ اللحم بعشرة أصناف، وليس كالمرأة السويدية التي لا تشتري اللحم إلا داخل مصران السجق! على كل حال أنا راضية بملامحي ويفرحي أنها تجذب نظرات الرجال حتى لو أثارت غيرة بعض النساء، ليس المرأة وحدها تلتهب من صورتي، بل دمي يشعرني أن الملامح الإسكندنافية

ساخنة وليست باردة كما يشيع عنها متوجو المدافع الكهربائية! ما أتذكره إني عشت طفولة سعيدة. من أين تسللت الأشباح والمخاوف والكوابيس إلى رأسي؟ لماذا قصصي مشبعة بالموت؟ أو لا تخلو من دماء؟ أنا نفسي لا أعرف، ليست كتبى وحدها طافحة بالموت. الشوارع والساحات والبيوت التي كانت قديماً آمنة أصبحت طافحة بالموت! يعزز البعض ذلك إلى أنني في مطلع شبابي رافق زوجي الأول أرتشي كريستي إلى جبهة الحرب في فرنسا، إبان الحرب العالمية الأولى، وإنني عملت ممرضة في مستشفى كان يمتلي كل يوم بجثث وأشلاء الجنود القتلى والمجروحين فتغلغل الموت في كل خلايا روحي وجسدي، وصرت أصبه على الورق. ربما في ذلك بعض الحقيقة؛ فالحرب لا تقتل المحاربين فقط، بل الناس العزل في المدن، من لا يموت في جسده، تموت روحه ويعيش معدباً أكثر. حتى الأطفال تزحف إلى قلوبهم ديدان جثث الحرب وتتنفسها؛ فيعيشون مروعين مزعزعين وقد يتتجوا حروباً أخرى، أو يموتون في سلام مرير. أشباح الطفولة تلاحقنا إلى الشيخوخة، وتنزل معنا إلى القبر! لكنني بعد كل رواية تدور حول جريمة قتل أرسل فيها القاتل لينال جزاءه أحس بالأمان كأنني بذلك أحقق بنفسي العدالة والسلام المفقودين في عالمنا، وأتحث على ملاحقة القتلة والأشرار أينما كانوا، ومهما كانوا! ليس في أعماقي نزعة عدوانية أو فطرة شر كما روج البعض، على العكس أحس أن لدى نزعة خير جارفة، وتطلع للأمان والمحبة والتزام بالعمل على طرد الخوف من قلوب البشر، هذا ما أتشده وأدعو إليه. ربما أنا من خلال الكتابة المضنية المدمرة أقول ذلك لنفسي أولاً، ثمة أطباء نفسانيون حاولوا تحليل روائيتي وشخصيتي، هذا من حقهم؛ فقط ينبغي لهم أن يعرفوا أن روح المبدع هي كما البحر، يبدو ساكناً ناعماً، لكن أعماقه تضطرب بتيارات وسورات عميقة جارفة، وأسراب هائلة من الحيتان وال코اسج والكائنات الحية المتصارعة! لا أدرى من أين تلقيت تلك الإشارات الغامضة الملحة تدعوني للذهاب إلى العراق! هل لامست

قلبي نسمات من الإنجيل والكتب المقدسة؟ إذ تشير إلى بابل، وأور حيث ولد إبراهيم الخليل أبو الأنبياء، وملهم التوحيد الإلهي؟ لا أعتقد إنني لبيت رسالة دينية محضة، أن أكون حاجة وأنا شابة، فذلك إقرار بالشيخوخة قبل الأوان! وأنا لست شديدة التدين، وإن كان لدى من الأيمان ما يكفي لتحقيق رضا الله عنِّي، ومنحِّي بيته صغيراً في الجنة، وربما سكرتيرة طيبة غير ثثارة، وآللة صغيرة أكتب بها روایات عن الحب، فأنا أعتقد حتى الجنة لا تطاق دون روایات مسلية. ربما تلقيت نداء الشرق من الشمس المفقودة هنا في جزر الضباب؟ لا شك أن الدفء والنور هو حاجة ملحة هنا وفي كل مكان، الشتاء والخريف يتখمان الجزر البريطانية بالبرد والظلام، ولكن هل على الإنجليز أن يهجروا بلادهم قاصدين البلدان المشمسة؟ لا طبعاً! لذلك، وجدوا الحل، نقلوا صوف الخراف إلى جلودهم عبر ملابس سميكَة، وحصلوا على النور من إشعال شجر الغابات. لكن الصوف الكثير أفقدتهم أناقتهم، ودخان المواقد أتلف عيونهم وجعلهم لا يستطيعون القراءة جيداً، إلا إذا كانت الأوراق التي بين أيديهم نقوداً أو شهادات أسهم في الشركات! وأنا لا تشغلي هكذا أوراق أبداً! لذلك حرست أن لا أجعل الجريمة تسجل ضد مجهول! قال بعضهم إنني قررت السفر لأبتعد عن المكان الذي حدث فيه افتراقِي عن زوجي أرتشيلد كريستي الذي ما زلت وابتي نحمل اسمه. هذا لا يخلو من الصحة، فجراح الحب أليمة، وتبقى تنز ندماً ووجعاً في القلب، . وحجارة المكان تضرينا بها كل لحظة، ويعذنا عنها أولى خطى النساء! لا أنكر إنني كلما تذكرت ما حدث لي مع زوجي لا أستطيع مواصلة الغوص في التفاصيل الجارحة، فقط أقول ليس أسامحه الله، وأتمنى له السعادة مع امرأة أخرى! كما إنني اعترف إنه لم يكن قاسياً دائماً، وأنا لم أكن رقيقة معه دائماً! ومن دفع ثمن سوء تعاملنا مع بعضنا هي ابنتنا الوحيدة روزالييندا العافلة الطيبة! فقداني لووالدي بنفس عام انفصالي عن زوجي؛ جعل جراحِي عميقَة جداً ونازفة، وصرت أشعر إنني وحيدة ومهجورة بشكل لا أمل معه!

أي شاعر جذبني من بيتي في لندن ليجعل وجهتي أور في جنوب العراق؟ أهو وجه النبي الأول إبراهيم الخليل؟ أم وجه آخر له سمات الأنبياء؟

رحلتي إلى الشرق أكبر من مجرد محاولة نسيان حب فاشر، أو نسيان غياب والدتي، أصفيت للنداء منتشرة، الأمل يمنعني جسدي خفة الأثير، متلهفة لمعرفة سره، ما هو في الحقيقة؟ ومن أين يأتي؟ أهو يعني تطلعى للمعرفة حيث بلاد ما بين النهرين كما حدثنا عنها التاريخ حوت حضارة جميلة، صنعها بشر امتازوا بذكاء مبكر ويقظة وحب للتناسق والجمال؟ هل يعني الإيمان والسكينة حيث هناك مهبط الرسالات السماوية الكبرى؟ أهو حلم أهوج عابر للأحلام الأخرى التي طالما راودتني وألهبت قلبي، وأنعتبني ثم تكشفت عن هباء؟ أهو مزحة ثقيلة من الأقدار المتصارعة حولي، أهو فطنة عظيمة؟ أم غباء يعتري الإنسان حين يعتقد إنه ذكي ملهم؟ ويظل قلبي يهفو لنور عظيم لا أعرف كنهه، إن كان بشرياً أرضياً، أم خيالياً سماوياً؟ لكنه لا يكف يرهقني! كنت في خلوتي مع فنجان قهوة الصباحي أسأل نفسي، ماذا؟ هل ثمة رسالة سماوية جديدة ت يريد السماء أن تضعها على كاهل امرأة؟ وأية امرأة؟ أنا أجاثا كريستي الحالمة بكتابه روايات مثيرة، كيف أخوض بمراسلات مع السماء، وتقليل أشياءها المقدسة الحساسة وجمع الحواريين والأتباع والفقراء والمساكين والمرضى حولي وأنا لا أستطيع تنظيم رسائلني الشخصية، ولا مداراة أمرجة صديقاتي أو أقاربى وجيранى؟ أن أتولى بريد السماء وبريد الأرض تلك مهمة لست قادرة عليها! أتوقف في سري عند كلمات لصديقة لي هنا في لندن كانت تقول؛ ربما أنت تقتفين خطى الإنجليزية جير ترود بيل التي تحولت من آثارية عليها أن تستخرج الملوك القدماء من باطن الأرض وتضعهم في المتاحف، إلى صانعة ملوك جدد من لحم ودم تضعهم على عروش قلقة تحت التاج البريطاني الذي لم يعد يتسع لمزيد من الملوك والدرر الحقيقة والمزيفة! وأهز رأسي ضاحكة من ذلك، ويعود

صوت رحيلي إلى الشرق يتواصل موسيقى عذبة هائمة، تقول لي بنغماتها الغامضة: اذهب إلى هناك، هي انهضي، لا تتأخر، احزمي حقائبك الآن، اركبي قطار الشرق السريع، تمعتي بمناظر الغابات والوديان والجبال والمدن الحالمة، وستصلين إلى شيء كبير عظيم! ما هو هذا الشيء؟ لا تستعجلني! ستصلين أور وترفين، كما تشوقين الناس لنهاية روایتك وتماطلينهم، هاهي الأقدار تلعب معك بالأحداث يا أحلاط، لتشوّفك وتبقيك في لهفة، ولن تقول لك لماذا عليك الذهاب إلى أور، إلا في أور نفسها! يبدو إنني توقعت كل شيء إلا حقيقة ما سيحدث في أور حين أصلها وهكذا مهما يكون مؤلف الروايات بارعا إلا أن الأقدار التي تكتب رواية حياته هي دائمًا أكثر براعة منه، وأشد حزماً وحسماً ولن تقول نهاية حكايته إلا أخيراً. هل مع نهاية حياته؟ أم قبلها ولو بقليل، عادة تأتي نهاية المبدع مفاجأة له قبل غيره! لكنني أخيراً قلت لنفسي، رحلتني تطلع لحب كبير تصنعه الشمس المشرقة، والسماء الزرقاء الصافية، والأفق الذي يقف عليه أمل عظيم كما يقف طير هائل على قوس فرح!

كان ذلك عام 1928، تركت وراءي ابنتي الحبيبة لدى أقارب زوجي وأصدقاء لي، أغفلت بيتي الجميل الهادئ، وركبت القطار من محطة فكتوريا في لندن وجعلت وجهتي الشرق! من الجانب الآسيوي من تركيا. استقلت قطار الشرق السريع الجميل الفاخر، قصدت حلب، أزمعت أن أقضى فيها بضعة أيام؛ لما قرأت وسمعت عن أجواءها الساحرة، وأطعمتها الشهية. كانت تجلس بجانبي امرأة تقارب الأربعين، هي التي بدأت الحديث معي، عرفتني بنفسها: عائشة السلام، حسناء عراقية ناعمة قوية الشخصية؛ زوجة رجل دبلوماسي يعمل في سفارة بلده في لندن، عادت إلى بغداد لوحدها لترى أمها المريضة، تكلم الإنجلizية بطلاقة؛ متابعة لجوانب كثيرة من الحياة الثقافية في لندن؛ حريصة على مشاهدة المسرحيات والحفلات الموسيقية. احتفت بي كثيراً حين عرفت إني كاتبة، طبعاً لم أتوقع إنها كانت قرأت روایتي الوحيدة،

عندما حدثتها عنها؛ أبدت رغبتها في قراءتها، وعدتها بإرسالها لها؛ فأنا لم أكن أحمل أية نسخة منها! راحت طيلة الطريق تحدثني عن بلدتها المدللة بحبه حد التقديس، تراه مهد الحضارات، ومستقبله سيكون بما يليق ب الماضي! كنت أقارن في سري بين كلامها الواائق المعتر كثيرا، وما حدثني به موظفون إنجليز في وزارة الخارجية حين قابلتهم في لندن أريد نصيحتهم لسفرتي! هم يرون العراق إحدى مستعمراتهم، وكفى! لكن أحدهم تبسط معني في الحديث على فنجان من القهوة، قال لي وهو يضحك، لقد كان رجالنا هناك خباء حقا، رسموا خارطته ووضعوا بين أنهارها وجبالها ومفاصل عظامها، متفجرات تكفي لجعلهم يحتاجوننا دائمًا، وقد يجعل مستقبل هذه البلاد على المدى البعيد عسيراً وتعيساً! قال إن المسز بيل لم تكن بعيدة عن هذه الطبخة المسمومة. ذلك آلمني حقا، وجعلني أشعر بالخجل أن حكومة بلادي بهذه القسوة واللؤم، وجعل صورة المسز بيل تهتز في قلبي، كنت أتابع فصول حياتها وأخبارها بتقدير وحزن، أناقش صديقتي حولها، هي تعتبرها صاحبة رسالة عظيمة، ساعدت شعوب الشرق في الخروج من ظلمات العثمانيين، إلى نور الحضارة والمدنية. قلت لها: لكنها نقلتهم لهيمنة أخرى أشد مكرًا، وترد: هيمنة الغرب تحمل لهم النور والتطور المادي، وسيستردون أرادتهم الوطنية منها حتما، فيجدونها قد صقلت ونضجت وقاربت العالم المتحضر! لا أخوض كثيرا في السياسية، أنا كاتبة روايات بوليسية، أنظر لشخصية المسز بيل كشخصية رواية جذابة، نجحت وتألقت ثم فشلت، وسقطت، ماتت بصورة غامضة، ربما انتحرت. دفت في أرض غريبة. كثير من سكانها يكرهونها، ولا أدرى إن كانوا قد ابقوها على قبرها بينهم! هي رحلة حزينة ومثيرة وتصلح لرواية، أبحث فيها عن سر موتها مثلا، لا أدرى إن كنت سأكتبها. سأزور قبرها إذا كان لا يزال موجودا، أضع عليه باقة من الزهور، فهكذا شخصيات تثير شجني، وتسحرني! وجدت لها عذرا فهي خاضعة في النهاية لارادة رؤسائها!

في فندق البارون كان جاري لورنس العرب، والملك فيصل الأول،  
وملك السويد الذي قال: في السويد حتى جمرة السيجارة مثلاجتاً

قطار الشرق السريع فندق جميل بعجلات يسير على سكة تمر بين  
جنائن وشواطئ تلعب فوقهما الشمس والغيوم بتناغم مدهش! مقاعد فاخرة  
مطعم عائم في النسيم، يقدم أشهى الأطعمة والمشروبات، نادلون يقدمون  
خدمة للركاب لا يجدونها في بيوتهم! قطار؟ أم طائر كبير جميل؟ حضن  
للذاهبين الآبيين بين أوربا وأسيا. كان حديث عائشة ممتعاً مع أكواب القهوة  
وعصائر البرتقال. لكنني ضجرت منها، وخفت أنها ستبدد وحدتي وخلوتي  
مع نفسي، تلك التي أبغضها خلال السفر، خاصة حين تفتح نافذة القطار  
على غابات وجبال ووديان خضر، وسماء زرقاء يوشحها شفق أحمر! مضيت  
أجملها واستمع لها، فأنا لا أطيق أن أجرب قلب إنسان حتى ولو على حساب  
راحتي. حين عرفت إنني سأذهب إلى بغداد؛ فرحت كثيراً، سألتني أين سأنزل  
في بغداد؟ قلت لها في فندق طبعاً قالت: ما هذا؟ ظنت أن لك أصدقاء أو  
أقارب في سفارتكم في بغداد؟ أنا لا أقبل أن تنزلي في فندق أبداً، أنت تنزلين  
عندنا في البيت، وراحت تصف بيتها الكبير المطل على النهر! كانت تقول  
ضاحكة: أنا عاشقة لوطني مولهه به، لا تصحكي مني حين ترينني أتفزّل به!  
لدينا سيارة حديثة سأطوف بك في بغداد وضواحيها، سأخذك إلى مدن أخرى  
في الجنوب والشمال وسترين العراق كم هو جميل ساحر، ونحن محقون  
بالفخر بها وحين عرفت إنني سأمكث أياماً في حلب: قالت لو لم تكن أمي  
مريضه لبقيت معك، لأريك معالم حلب الفاتنة، أنا وزوجي نحبها كثيراً، لنا  
فيها ذكريات جميلة، خشيت أن تتزعّمني وحدتي في حلب أيضاً! أعطتني  
عنوانها في بغداد، ووصفت لي كيف أصل إليهم. في محطة قطار حلب،  
 جاء رجل عراقي مع زوجته لاستقبالها بسيارة فخمة. أصررت أن توصلني  
إلى الفندق، اقترحت علي أن أنزل في فندق البارون، قالت إنه فندق رائع  
وستر تاحين فيه كثيراً! أصررت أن تنزل من السيارة معي، وتوصي صاحب

الفندق بي. نهض مرحبا بها بحرارة. قبلتني وضممتني إلى صدرها مودعة كأنها صديقة قديمة، وقفـت أرقبـها وهي تخـفي في السيـارة المنـطقة، تلك أولـى لمسـات دفـء الشـرق! بدأـت أحـس أنـي أخـرج ولو قـليـلا من بـروـدة أجـوـائـا الأورـبية. واجـهـتـي في مـمـراتـ الفـنـدقـ الـخـارـجـية رـائـحة زـهـورـ عـطـرةـ، تـذـكـرتـ إنـناـ فـيـ الـرـبيعـ!

ما زلت أذكر فندق الـبارـونـ، صـاحـبـهـ رـجـلـ أـرـمنـيـ يـدـعـىـ مـظـلـومـيـانـ، اـحـتـفـيـ بيـ كـثـيرـاـ، لـمـ تـحـدـثـ بـهـ عـائـشـةـ عـنـيـ، وـحـينـ عـرـفـ أـيـضاـ إـنـيـ أـعـدـ لـكـتابـةـ روـاـيـةـ تـدورـ أـحـدـاـثـهاـ فـيـ قـطـارـ الشـرقـ السـرـيعـ. أـعـطـانـيـ الغـرـفـةـ (203) كـهـدـيـةـ، هـيـ وـاسـعـةـ جـمـيلـةـ، كـانـتـ بـسـرـيرـيـنـ، لـكـنهـ أـحـتـسـبـهاـ لـيـ بـكـلـفـةـ سـرـيرـ وـاحـدـ، ما زـلتـ أـنـذـكـرـ خـزانـةـ الـمـلـابـسـ مـنـ الـخـشـبـ الـفـاخـرـ، وـالـمـرـأـةـ الـكـبـيرـةـ الصـقـيـلـةـ، وـالـجـدـرـانـ المـزـدـانـةـ بـتـحـفـ مـنـ الـخـزـفـ الـصـيـنـيـ الـمـلـوـنـ الـصـلـدـ بـلـوـنـ الـمـحـارـ، كـانـتـ تـطلـ شـرفـتـهـاـ عـلـىـ حـدـائقـ فـيـ ضـاحـيـةـ رـائـعـةـ. النـزلـاءـ الـأـرـسـتـقـراـطـيـوـنـ يـصـطـادـوـنـ طـيـورـاـ جـمـيلـةـ مـنـ فـصـيـلـةـ الـبـطـ مـنـ شـرـفـاتـهـ، طـافـ بـيـ السـيـدـ مـظـلـومـيـانـ فـيـ الفـنـدقـ قالـ: - انـظـريـ! كـانـ جـارـكـ هـنـاـ السـيـدـ لـورـنـسـ الـعـربـ، سـكـنـ فـيـ الـحـجـرـةـ 202ـ. وـمـنـ شـرـفةـ غـيـرـ بـعـيـدـةـ عـنـ حـجـرـتـكـ رـقـمـهاـ 215ـ، أـلـقـىـ الـمـلـكـ فـيـصـلـ الـأـولـ خطـابـهـ إـلـىـ جـمـاهـيرـ حـلـبـ الـفـرـحةـ الـمـلـوـحـةـ لـهـ مـعـلـنـاـ أـنـ سـوـرـيـاـ أـضـحـتـ مـسـتـقلـةـ عـنـ الدـوـلـةـ الـعـثـمـانـيـةـ، وـسـتـسـعـيـ جـاهـدـةـ لـلـخـلـاـصـ مـاـ يـقـيدـ اـسـتـقـلـالـهـاـ فـيـ مـعـاهـدـتـهـاـ مـعـ الـفـرـنـسـيـنـ! وـفـيـ هـذـهـ الـحـجـرـةـ نـامـ مـلـكـ السـوـيـدـ، وـقـدـ أـيـقـظـنـاـ مـرـةـ فـيـ مـنـتصفـ الـلـيـلـ يـرـيدـ أـنـ نـجـلـبـ لـهـ ثـلـجـ لـغـوـدـكـ الـأـبـسـولـوتـ الـتـيـ جـلـبـهـ مـعـهـ، كـانـ دـيمـقـراـطـيـاـ، يـبـتـسـمـ كـثـيرـاـ، فـتـجـرـأـتـ وـقـلـتـ لـهـ، حـينـ حـمـلـنـاـ حـقـائـيـكـ إـلـىـ حـجـرـتـكـ يـاـ جـلـالـةـ الـمـلـكـ كـانـتـ ثـقـيـلـةـ بـارـدـةـ، وـقـدـ ظـنـنـاـ أـنـهـاـ مـمـلـوـةـ بـثـلـجـ جـلـبـتـهـ لـنـاـ مـنـ السـوـيـدـ لـتـحـسـنـ مـنـاخـنـاـ السـاخـنـ، وـكـنـتـ فـيـ الـوـاقـعـ أـقـصـدـ السـيـاسـةـ، وـلـيـسـ جـوـ حـلـبـ الـمـعـتـدـلـ الـجـمـيلـ، لـكـنـهـ كـسـوـيـدـيـ لـاـ يـكـتـرـثـ لـلـسـيـاسـةـ، وـلـمـ تـدـخـلـ بـلـادـهـ حـرـباـ مـنـذـ أـكـثـرـ مـنـ مـائـةـ وـخـمـسـيـنـ عـامـاـ، أـطـلـقـ ضـحـكـةـ مـلـكـ دـونـ قـهـقـهـةـ، وـقـالـ:

- هي جواربي الصوفية السميكة، جلبتها تحت تأثير برد السويد، وجدت إبني هنا لا أحتج لها، احتجت الثلوج للفودكا، السويد باختصار ثلاجة كبيرة، والفودكا وحتى جمرة السيجارة فيه مثلجة!

كنت أرى الكثير من الرجال الألمان في الفندق، قرأت في الصحف الإنجليزية أن الحكومة الألمانية أرسلت الكثير من الجواسيس الألمان لمراقبة وملحقة جنرالات الإنجليز والفرنسيين لمحاولة عقد صفقات سرية متنوعة معهم. فهم بعد انهيار الدولة العثمانية؛ راحوا يتصارعون على تركته تصارع القطط على سمك تاثير من سلة باائع أعمى سقط في حفرة. كانت أياماً ممتعة قضيتها في هذا الفندق الذي بني في أحضان بساتين ما زال بعض أشجارها باسقة زاهية الخضراء، وسواقيها تحفها صفو الزهور اليانعة. آخر يوم قضيته انتهى بمائسة ظلت تلاحقني ذكرها فترة طويلة، وتشعرني بتأنيب الضمير، وأفك في الكتابة عنها لأزيحها عن قلبي. كان رئيس جرسونات مطعم الفندق الألماني باول قد وقع بحب الفتاة الألمانية "أننا"، التي كانت قد دفت جمالها الباهر تحت ثياب راهبة، متبولة صارمة، كانت معلمة في المدرسة الملحوظة بالديار الكائن قبالة الفندق، وكان باول يرسل لها مع تلميذها الطفل ابن مظلوميان رسائل غرامية يدسها في سندي وجاته المدرسية التي يدها له كل صباح، ويوصيه أن لا يأكلها قبل أن تفتحها الراهبة، وتتلئ صلواتها عليها، كانت الراهبة تقرأ أغلب رسائله الغرامية المتسللة لستين دون أن ترد ولو على رسالة واحدة منها! حدث لمرات أن أكل الطفل وهو جائع رسائل باول الغرامية المدسوسة داخل السنديوجة حين لم يجد المعلمة الراهبة لتصل إلى عليها. وقد بشني باول حزنه وشكواه؛ فنصحته بالكف عن كتابة الرسائل وترك "أننا" الجميلة لعشيقها الرباني. سأله ماذا تقول لمظلوميان لو أن طفله غص، أو مات وهو يتطلع إلى رسائلك الغرامية؟ ما هذا الذي تفعله يا باول؟ قلت له: من الصعب بل من المستحيل لك أن تنفع في منافسة مع الله على قلب

راهبة، خاصة وفي المعركة السيد المسيح المدجج بروح القدس، وصلبانه الذهبية، وألاف الكهنة! أما وجدت غير الراهبة لتعشقها يا باول؟ لو كنت عشقت عروس البحر وكانت أقرب إليك! راح يهز رأسه بشكل حيرني. بعد ساعات من حديثي معه نزل إلى سرداد الفندق، وأطلق رصاصة على رأسه من مسدس اشتراه من ضابط ألماني ينزل في الفندق. قالوا لي أنهم حين أعلموا الراهبة (أننا) بانتحاره لم تنطق بكلمة، هزت رأسها، ثم رسمت علامة الصليب على صدرها الناهد الجميل، وهذا كل شيء! لكنني بقيت واجمة لا أستطيع النطق، شعرت كأنني ساهمت في قتل بنصيحتي الخرقاء! غادرت حلب وأنا أحلم بالعودة إليها، يصعب على من عاش بها ولو لأيام أن ينساها، نكتها، نورها السماوي، وجوه أهلها، أطعمتها الشهية اللذينة والزهيدة، مدينة تبقى في القلب. مكتبة الرمحى أحمد

كيف أنسى عائشة الحالمة بوطن جميل، وكلمتها: إذا كان لابد من الكراهيّة، لتكن أقل ما يمكن، هي كالسم في الدواء؛ إذا زادت قتلت صاحبها!

رحت أحلم ببغداد فهي كانت في يوم ما عاصمة الدنيا، ومنبع الأحلام ولملعب ألف ليلة وليلة! ركبت باص شركة النقل الكبيرة التي يمتلكها الأسترالي المستر نيرن، وأطلق عليها اسمه، كان يطوف على الركاب متقدماً أماكنهم، لكنه كان يعجز عن منحهم مقاعدهم التي في بطاقاتهم، فشمرة ركاب متندزوون وأغنياء يجلسون في أية مقاعد تحلو لهم وهي عادة لغيرهم، ولا يستطيع أحد زحزحتهم عنها، كان معهم حراسهم المسلحون، وكان الركاب البسطاء يفضلون الصمت وعدم المطالبة بمقاعدهم؛ فكل ما يريدونه أن يسير الباص ويصلون مقاصدهم. رأيت في التزاحم على مقاعد الباص صورة رمزية لما يجري من صراعات في هذه البلدان الواقعة في قبضة الاستعماريين الإنجليزي والفرنسي، "المهم أن يسير الباص ونصل"، هذا ما قاله أحد

الر Kapoor ملخصا كل فلسفته في الحياة، لا يهمه أين يكون مكانه، ومن يتزعزع منه دون وجه حق. احترموا على ما يبذلوه وضععي كأجنبية؛ فلم يطلب أحد مني ترك مقعدي الذي كان متميزا بكونه بجانب النافذة، وغير بعيد عن الزجاجة الواسعة لمقدمة السيارة! كنت أشعر بالطمأنينة؛ إذ أجد أن الشرق آمن نسبياً، إلى حد يستوعب شابة إنجليزية حسناء وحيدة، يمنحها حرية التنقل، مع عطف ورعاية ولو عفوية، بينما حكومتها تحتل أجزاء كبيرة من بلادهم، وقتلت الكثيرين من أبنائهم، وما تزال تشن حروبا هنا وهناك عليهم، والأسوأ عندهم أنها تقف بجانب اليهود ضدتهم في فلسطين. كنت أسأل نفسي كيف يقولون عن الناس هنا أنهم يكرهوننا، وهم متواشرون، مهووسون بالجنس يفترسون المرأة كما يفترسون الخراف، وجدتهم لطيفين وديعين، عاملوني بعفة وشرف، فتبعد خوفي منهم. هذا لا يعني أن أرضهم تخلي من المجرمين والمتعطشين للدماء! في بغداد نزلت في فندق تايكرس بالاس، زرت السفارة البريطانية، وطلبت نصحهم في سفري إلى أوروبا، وعدوني بدراسة طلبي بتأنٍ؛ وعلى الانتظار! اتصلت بعائشة تلفونيا، جاءتني مع شقيقها إلى الفندق؛ كانت غاضبة عليّ أنني نزلت في الفندق، ولم أتصل بها حال قدومي لتأخذني إلى بيتها! لكنني طلبت منها أن ترك مسألة نومي وعزلتي لمزاجي! عادت إلى ابتسامتها وتدعقيها في الحديث. أخذت تربيني جوانب من بيتهما الفخم في الأعظمية على دجلة، نخيل حدائقها، وزهورها، كانت فرحة أن أمها قد تحسنت صحتها، وهي الآن في بيتها الآخر تحت رعاية طبيب يهودي وخدم مدربين. عملت لي أفضل الأكلات العراقية كما قالت: الدولمة والباجة والكبة، ما أن أنهي من طبق حتى تملأ لي طبقاً آخر. بشمت ولازمني إسهام لأيام. ذلك لم يفقدني ثقتي بالمطبخ البغدادي، جعلني أحبه وأحذر منه! تونقت صداقتي بعائشة. قالت لي: أنا وزوجي سأمنا الحياة في لندن رغم جمالها وغناها وفخامتها، الحياة في بلادنا على بساطتها يا أجياثاً يجعلنا سعداء أكثر، هنا جذورنا وذكرياتنا، وقد أدينا واجبنا نحو وطننا هناك، وهذا

يكفي. زوجي سيتقاعد، وأنا أزمع أن افتح صالونا ثقافيا وأطمح أن أنقل  
تقاليد من الثقافة الأوربية لوطنى الذى خضع طويلا للعثمانيين، امتصوا دمائنا  
باسم الخلافة الإسلامية. آن لوطننا أن ينهض بعيدا عن الانقسامات المذهبية  
والعرقية! وقفـت أنا ملهاـ كأنـي أراهاـ لأولـ مرـة، سـمراءـ، بـعيـنـ عـسـليـتينـ وـشـعـرـ  
نـاعـمـ فـاحـمـ، رـشـيقـةـ فـارـعـةـ، بـدـتـ لـيـ أمـيرـةـ عـرـبـيـةـ حـكـيـمـةـ. وجـدتـنـيـ سـعـيـدةـ  
بـصـدـاقـهـاـ وـلـمـ نـفـسـيـ أـنـيـ ضـجـرـتـ مـنـ ثـرـثـرـتـهـ مـعـيـ فـيـ القـطـارـ. قـدـرـتـ  
هـمـوـمـهـاـ وـأـمـالـهـاـ وـوـعـدـتـهـاـ أـنـيـ سـأـكـونـ عـلـىـ تـوـاصـلـ مـعـهـاـ دـائـمـاـ. كـانـتـ تـأـتـيـنـيـ  
بـسـيـارـةـ يـقـودـهـاـ سـائـقـ كـهـلـ يـماـزـحـنـيـ بـبعـضـ الـكـلـمـاتـ الإـنـجـلـيـزـيـةـ. صـرـتـ أـنـاـ  
أـطـلـبـ أـكـلـاتـهـاـ дـسـمـةـ فـأـسـطـيـبـهـاـ وـمـعـدـتـيـ لـمـ تـعـدـ تـنـوـءـ بـهـاـ خـاصـةـ حـينـ اـحـتـسـيـ  
أـقـدـاحـ الشـايـ الأـسـوـدـ المـرـ! ثـمـةـ مـوـظـفـونـ فـيـ سـفـارـتـنـاـ بـيـغـدـادـ نـصـحـونـيـ بـعـدـ  
الـسـفـرـ إـلـىـ أـورـالـآنـ، قـالـوـاـ إـنـ الـبـعـثـةـ الـآـثـارـيـةـ الإـنـجـلـيـزـيـةـ التـيـ تـعـلـمـ هـنـاكـ بـقـيـادـةـ  
الـدـكـتـورـ لـوـمـبـارـدـ وـوـليـ هـيـ الـآنـ يـإـجـازـةـ فـيـ إـنـجـلـتـرـاـ، وـلـاـ يـعـرـفـونـ مـتـىـ تـعـودـ،  
وـأـشـهـرـ الـحـرـ الـلـاهـبـ فـيـ الـجـنـوبـ؛ قـدـ لـاـ تـشـجـعـهـمـ عـلـىـ الـقـدـومـ مـبـكـرـينـ، وـلـاـ  
تـزـالـ أـلـجـوـاءـ هـنـاكـ مـشـحـونـةـ ضـدـنـاـ بـعـدـ ثـوـرـةـ الـعـرـاقـيـنـ هـنـاكـ عـلـىـ الإـنـجـلـيـزـ!ـ إـذـاـ  
كـانـتـ أـورـ تـهـمـكـ إـلـىـ هـذـاـ الحـدـ؛ تـعـالـيـ فـيـ الـعـامـ الـقـادـمـ!ـ قـضـيـتـ أـيـامـ جـمـيلـةـ  
فـيـ بـغـدـادـ، سـأـلـتـ عـائـشـةـ إـنـ كـانـ مـاـ يـزـالـ قـبـرـ الـمـسـزـ بـيـلـ مـوـجـودـاـ فـيـ بـغـدـادـ،  
بـقـيـتـ عـلـىـ حـبـيـ وـتـقـدـيرـيـ لـهـاـ رـغـمـ مـاـ سـمـعـتـهـ عـنـ نـشـاطـهـ الـاسـتـعـمـارـيـ. قـالـتـ  
عـائـشـةـ، وـلـمـاـذـاـ لـاـ يـكـونـ مـوـجـودـاـ؟ـ نـظـرـتـ إـلـىـ بـقـلـقـ، أـتـعـقـدـيـنـ أـنـ كـرـهـ بـعـضـ  
الـعـرـاقـيـنـ لـهـاـ أـوـ لـغـيرـهـاـ سـيـدـعـوـهـمـ لـإـزـالـةـ قـبـورـهـمـ؟ـ نـحنـ نـحـترـمـ قـبـورـ الـمـوـتـىـ،ـ  
مـهـمـاـ كـانـوـاـ، لـاـ نـنـظـرـ لـدـيـنـهـمـ أـوـ حـيـاتـهـمـ السـابـقـةـ!ـ عـائـشـةـ تـتـحدـثـ بـصـرـاحـةـ عـنـ  
تـقـدـيرـهـاـ لـلـإـنـجـلـيـزـ، لـكـنـهاـ تـشـيرـ إـلـىـ مـاـ قـامـوـاـ بـهـ فـيـ بـلـادـهـاـ بـوـضـوحـ، وـتـحـدـدـ ماـ  
هـوـ جـيدـ، وـمـاـ هـوـ سـيـئـ؟ـ طـلـبـتـ مـنـهـاـ أـنـ تـأـخـذـنـيـ إـلـىـ الـقـبـرـ، قـالـتـ يـسـرـنـيـ ذـلـكـ،ـ  
وـهـمـ هـنـاـ يـسـمـونـهـاـ الـخـاتـونـ، وـيـعـرـفـونـ أـنـهـاـ بـمـثـابـةـ الـقـابـلـةـ التـيـ أـخـرـجـتـ الـعـرـاقـ  
مـنـ رـحـمـ الدـوـلـةـ الـعـثـمـانـيـةـ، بـعـدـ أـنـ أـضـحـتـ جـثـةـ هـامـدـةـ. قـالـتـ مـنـ الصـعـبـ أـنـ  
تـخـرـجـ طـفـلـاـ مـعـافـيـ كـامـلـ الـأـوـصـافـ مـنـ رـحـمـ جـثـةـ، الـمـسـزـ بـيـلـ أـخـرـجـتـهـ، وـلـكـ

ليس دون تشوهات! قالت إنهم يقولون أنها نذرت نفسها للسياسة بعد أن فجعت بمقتل حبيبها الضابط في الجيش البريطاني! أخذنا أنا وإياها نقطف باقة من ورود الجوري الحمراء الكبيرة لنضعها على قبرها، حديقة عائشة واسعة كثيفة زاخرة بالنخيل والأعناب والرمان، مشبعة بماء دجلة الغزير وهوائي النقي! اتصلت بأحد معارفها، قالت ما أعرفه أن قبرها هو في مقبرة الأرمن الأرثوذوكس في الباب الشرقي، لكنني أردت أن أتأكد، خشية أن تكون غربتي في لندن قد هزت ذاكرتي! سألتني ما رأيك أن نخرج على مقبرة الجنود والضباط الإنجليز وهي غير بعيدة عنا، وعلى طريقنا! رحبت بفكرتها. وأعددنا سوية باقة ورد كبيرة أخرى منوعة لهم! قالت: ربما يقول البعض أنهم رجال احتلوا بلادي، لكنني أنظر الآن لهم على أنهم شبان غرباء، ربما جاءوا إلى هنا رغمما عنهم، ودفنوا في أرضنا، وحدثهم تحزني، أتصور أبني بينهم! عائشة دون أبناء، تقدمت في السن! ذلك يشعرني بالحب أكثر من الكراهية، يا أجياثا: "إذا كان لابد من الكراهية، لتكن أقل ما يمكن، هي كالسم في الدواء؛ إذا زادت قتلت صاحبها!" حين يعشش الحقد في صدورنا لن نتقدم خطوة واحدة في هذه الحياة!، في الطريق ونحن في سيارتها الفارهة: قالت أنا أعي ما فعله الإنجليز ببلادنا دون تشنج، أنتدهم أنهم اتبعوا سياسة "فرق تسد"، كبلوا العراق باتفاقات جائرة، واستحوذوا على الحصة الأكبر من ثرواته، "رائحة النفط أسكرتهم وأفقدتهم صوابهم! رغم سعادتي باستقرار بلدي، لكنني أحس تحت هذا السطح الهدئ ثمة نذر شر قادم، أخشى أن نفقد فجأة الأمان والسلام؛ وهما أهم ما نحتاجه لبناء وطننا. دخلنا مقبرة الجنود البريطانيين في الرصافة كانت منظمة ونظيفة، قبور بشواهد رخامية تحمل أسماء ضباط وجنود وتاريخ مقتلهم، تتخللها مساحات خضراء من العشب الريان والمقصوص، صفوف زهور وأشجار يوكالبتوس وارفة، عمال وحراس يدورون بينها محافظين على رونقها الجميل والمهيب. وضفت باقة الزهور، وسمعت عائشة تتم بآدعيه بلغتها، وفي عينيها ندى حزن، هذه المرأة

تشدني كثيراً بتسامحها وعمقها ومرونة شخصيتها، هي تكره الاستعمار، لكنها تتآلم لضحاياه من الجانبيين! مكثناً لحوالي نصف ساعة صامتين! بدأنا نسير لنخرج من صمت القبور، على الممر قطعت عائشة الصمت قائلة بصوت خافت:

- أكثر هؤلاء الجنود والضباط الإنجليز قتلوا في ما سميت بثورة العشرين، يجلها كثير من العراقيين ولا يعرفون أن الإقطاعيين قد أشعلاها حين عرفوا أن الإنجليز يريدون إعادة توزيع أراضيهم والحد من الملكيات الكبيرة، سارع رجال الدين لتأييدها لأنهم لا يريدون دولة مركزية راسخة تحول دون جباitemهم الخمس من الفلاحين الفقراء، والتحكم بمصائرهم، بارك الإيرانيون تمردتهم لأنهم لا يريدون العراق قوياً بجوارهم يحول دون مد نفوذهم إلى شواطئ البحر المتوسط. ولا يهمهم في سبيل ذلك أن يقتلوا الشيعة العراقيين الفقراء. خسر الجيش البريطاني الكثيرين من جنوده، ترین بعض قبورهم أمامك الآن، أما قبور الفلاحين العراقيين الذين ماتوا وهم لا يعلمون أنهم حاربوا أن أجل جلادיהם من الإقطاعيين، ورجال الدين، والإيرانيين؛ فقد ذرتها الرياح، لا أحد أهتم بها، تخلي عنهم محظوظهم!

سكت ببرهة تطوف نظراتها الحزينة في الأفق، قالت وهي تنهد بأسى: - إيران وراء الكثير من مصائبنا، هي ومنذ آلاف السنين بين محتلة بلادنا، أو متدخلة في شئونها عبر عملاء لها من أهل البلد!

قلت لها: أنا عادة لا أهتم بالسياسة ولكن يبدو لامناص لي إذا أردت العيش في بلد أن أعرف تاريخه وهمومه الكبيرة. تحدثت مع حراس المقبرة، هم يتلقون رواتبهم من السفارة البريطانية، قال أحدهم، لا يأتيانا سوى زوار قليلين، من إنجلترا أو الهند، حيث بعض الجنود من السيخ، وفي فترات متباعدة جداً. اكتشفت أن مرأى القبور المهجورة من أهلها وأحبتها وفي أرض أخرى، هو من أشد المشاهد حزناً في الدنيا! كم احتقرت أطماء البشر،

أولئك الذين يحتلون بلاد غيرهم، وينكثون بوعودهم، وأولئك الذين يخدعون أبناء وطنهم بأكاذيبهم، لقد جرعني رحلتي إلى الشرق الكثير من المعرفة، والحزان والأفراح أيضا! ونحن في طريقنا إلى قبر المسز بيل، نظرت عائشة في وجهي مبتسمة بحزن قاتلة:

- كانت المسز بيل صاحبة الكلمة الحاسمة لدى الحاكم البريطاني للعراق، قدمت له خدمات كبيرة، لكن كبوتها كانت أنها لم تكن تدرك خطراً إيرانياً على العراق، فنصحتهم بعدم الالتفات لمساعي الإيرانيين مع رجال الدين والإقطاعيين في العراق لتفجير ثورة بناء وطني تجبرهم على الرحيل مخلين العراق لنفوذها، فجعلت قيادة الجيش البريطاني تتراخي ولا تستعد لمجابهة المؤامرة! استغفت الإدارة البريطانية عن خدمات المسز بيل، عقاباً لها على غفلتها القاتلة، عاملتها بجفاء وإهمال، لكن الملك فيصل الأول أراد مواساتها فأوكل إليها إدارة الآثار العامة، فأسست المتحف العراقي وتعاقدت مع بعثات جديدة للتنقيب، حين تذهبين إلى أوروبا ستردين بعضهم! ماتت قبل أن تأتي يا أجايا بثلاث سنوات، قالوا إنها كانت تعاني من بقايا إصابة بالكولييرا، وقيل أنها توفيت لأخذها خطأ جرعة كبيرة من العجوب المنومة، أعتقد أنها انتحرت، كآبة من يخيب مشروعه الكبير بحسن نية أو بغباء!

كانت المقبرة مهدمة ملحقة بكنيسة قديمة في الباب الشرقي وقفـت عند قبر المسز بـيل، وضـعت عليه باقة الورد الحمراء، رسمـت عـلامـة الصـلـيب عـدة مـرات، وتمـمت عـائـشـة بـكلـمـاتـ منـ القـرـآنـ، وخرـجـناـ واجـمـتـينـ! كـنـتـ حـزـينـةـ لـوـ مـتـ هـنـاـ، فـسيـكـونـ قـبـرـيـ كـهـذاـ القـبـرـ المـهـدـمـ المـنـخـسـفـ وـقـدـ لاـ يـجـدـ مـنـ يـزـورـهـ!

قطـعـتـ عـائـشـةـ صـمـتـنـاـ قـالـتـ:

- لو أنها كانت حية لشبكت يدها بيدك، وحملـتـ كـاميـرـتهاـ وـذـهـبـتـ معـكـ إلىـ أـورـاـ، ولـحـدـثـكـ بـالـكـثـيرـ عـنـ أـورـاـ، هيـ مـلـمـةـ بـتـارـيـخـ العـرـاقـ وـالـمـنـطـقـةـ بشـكـلـ جـيدـاـ!

ظل وضعى في بغداد قلقاً ومشوشًا، عائشة بأريحيتها الحاضرة دائمًا؛ عرضت أن تأخذني بسيارتها إلى أور. لكن شيئاً ما غامضها في أعماقى قال لي؛ لم يحن وقت ذهابك إلى هناك! تعالى في العام القادم! أعلمك عائشة بقرارى الرجوع إلى لندن، حاولت استباقائي، قالت صادقة "صرت أختالي" وأنها كانت تود مرافقتى في طريق العودة، ولكنها مضطربة للبقاء بجانب والدتها؛ خشية أن تتلاشى صحتها، وقد تأتي إلى لندن في وقت قريب لتصفية موجودات بيتها هناك. أكدنا ضرورة تواصلنا! اعتبرت رحلتي هذه أشبه برحلة تدريرية، يبدو أن طريق الهدف الكبير لا تكون فيه الخطوة الأولى إلا كمحاولة!

هل شدني إليها ذلك الكوكب الذي كنت أراه في ليالي  
الربع الخالي؟ أم أن روحي كانت هنا تحت هذا الماء الشاسع  
منذ بدء الكون؟

أعود أسأل نفسي؛ لماذا أنا ولفريد ثيسجر المتحضر، المواطن الإنجليزي، مالك بيت فخم في حي راق في لندن، حيث هنا في هذه المنطقة البدائية شبه المتوجهة؟ أهي الرغبة في تعذيب الذات وتدميرها؟ هل أنا أكره نفسي إلى هذا الحد لأرضى لها هذه الإهانات في العيش الرديء والخطر الداهم؟ كنت منذ مطلع شبابي في وضع جيد وكفاءة لوظائف راقية تمكنتني من عيش رغيد، ومكانة عالية. كثيرون من رجال السياسة والحكم في بلدى والعالم يعرفونني ويريدون ودي، وقربى منهم! عندما دعيت لحضور حفل تنصيب الإمبراطور هيلاسيلاسي؛ عرض كثيرون على مناصب عالية في أثيوبيا، وفي دول أخرى في أفريقيا وأوروبا. لو كنت قبلت أبسطها لعشت حياة رغيدة، ولحظيت بالثروة والوجاهة، وحياة زاخرة باللهو والمتعة والشهرة! ولمرت على سريري نساء جميلات كثيرات. أحياناً؛ ولو للحظات؛ أقول لنفسي: أن أكون قد أحببت فتاة جميلة ذكية صعبة المنال؛ فذلك أمر مفهوم

وشائع. وأن أكون قد أحبتها عبر صورة فقط، وهي مجهولة فقد يكون ذلك أيضاً مفهوماً ويحدث ولو على نطاق محدود. ولكن أن أكون أحبت فتاة قد لا يكون لها وجود، أو قد يكون لها وجود، ثم انتقل لمكان آخر بعيد تكتنفه الأسرار والطلاسم، فهذا صعب جداً والبحث فيه شاق ومرير، خاصةً إذا كان مكان نشأتها، وسكنها المحتمل منعزل ومنبؤذ، وأهله قد انقسموا حولي بين محب وكاره! أهكذا هي التضحية من أجل الحب! أما كان من الممكن جعلها أخف وأفضل؟ وأعود أفكِر بالتعاليم الشرقية التي ترى أن عظمة الحب تقاس بحجم الألم الذي يسبقه أو يرافقه، ثم الحرمان النهائي من ثمرته، وفي منحه كل هذا العناء والسعى الطويل الصبور دون نيل متعه ومسراته! ذلك هناء وسعادة تفوقان أية متعة أو لذة! كيف دخلت هذه الأفكار خلايا جسدي وكانت وجданني؟ أحبت فاطمة ورأيت وجهها، ذلك الكوكب الذي علي أن أتبعه حتى آخر الدنيا، مؤمناً كما المتبعد أنها طموحي الأعلى، وإن علي أن أعيش بين أهلها وقومها زماناً مهما طال حتى أجدها؟ هل شدني إليها ذلك الكوكب الذي كنت أراه في ليالي الربع الخالي؟ أم أن روحي كانت هنا تحت هذا الماء الشاسع منذ بدء الكون؟ فهو ميلاد جديد؟ أم شبح انتحار كامن في أعماقي، لا أحسه أو أعيه وأنا واقع تحت تأثيره يسوقني كما تسوق الريح فراشة إلى النار؟ أحياناً أرى أعماقي امتداداً لهذه المساحات الهائلة من الماء والغموض والتوجس والمحيرة والضحك، فيها نفس ما في هذه التجاويف الغائرة من اسماك وطيور وثعابين وزنابق وقصب، روحي وكل هذا الغمر من الماء سر واحد يمتد تحت السماء يريد أن ينكشف ويضاء بنور الشمس والحب معاً! أحياناً تهب عليه رياح الكراهية، أحياناً رياح الخوف واليأس، ثم أرى فاطمة تلوح لي فيشتد وجيب قلبي، فأوْفق أنها ستوصلي إلى روحي الغارقة تحت كل هذه المياه الراكدة، ولكن من وضع روحي هناك؟ أنا أم هي؟ أكانت روحي هنا تحت هذا الماء الشاسع منذ بدء الكون؟ رغم كل المنفصالات والأخطار، وما يؤرقني من نفسي

ومن الناس! استقل القارب وحدي، لأتتجول في أرجاء الأهوار غير مكترث  
لتحذيرات مساعدي ياسين وعمار وغيرهما خشية التيه على هذه المساحات  
المائية الشاسعة التي يفقد فيها المرء الاتجاهات فتغيب عنه الضفاف! أترك  
القارب ينساب دونما هدف أو غاية أعرف أن في أعماقى أمل بلقاء فاطمة،  
تقابلي على مشحوفها هي أيضاً مثلّي تبحث عن أملها المنشود، الرجل  
الذي يحبها وبرهانه على الحب تحمل الأهوال من أجلها، تحتضننا ظلال  
القصب للحظات، دموعنا تتعلق بضوء القمر لا تهبط إلى الماء المتوقف  
وجلا، تعود إلى القلب كما نبعت منه! يلفنا الصمت، نتلذّشى في النور البهي،  
لا عناق ولا كلام ولا افتراق، كل حلمنا أن نلتقي ونقترب بقوّة نبني معاً بيته  
من القصب والبردي بهندسة سومرية، نعيش فيه حياتنا البدائية، نقطات على  
السمك والطير ولبن الجاموس والرز، لا يدخل بيته راديو ولا جريدة ولا  
كتاب قديم أو حديث، حتى صورتها سأطويها، ما حاجتنا للصورة إذا حضر  
الأصل؟ نسمع موسيقى السماء والشمس وغابات القصب، لا أشارك في  
تلك الجرائم الكبرى التي تصنعها الدول الطامعة الكبرى وبينها دولتنا، ولا  
من أولئك الرحالة المستشرقين اللذين أولعوا بتقصي عاهات الشرق وعيوبه،  
لم يروا منه سوى بيوت الله والمعتقد، وحانات الخمور ومعارض البغاء  
والرقيق، وحمامات النساء والكتابة عنها للاتجار بها في الغرب؟ هذا الحب  
بقدر ما هو يسعدني ويفتح قلبي على آفاق من الحلم والتطلع للبعيد فإنه  
يملأني بالشجن إنني اخترت تعذيب نفسي وإيلامها، فكنت أتساءل بأية مياه  
خضت؟ مياه أوهام؟ أم أحلام؟ أم مياه وجود وحقيقة؟ أم لا هذا ولا ذاك،  
اقتلت شجرة حياتي، وغرستها في هذا المستنقع، هل ستتمد جذورها؟ أم  
أنها ستتفسخ؟ ماذا فعلت بنفسي؟ لا ستزهر وتثمر، لا تقلق ولا تيأس لا تدع  
 وجهها، وشعاع جمالها يغيب عنك؟ هل الحلم كثير على الدنيا، هل سيُنقلها  
أو يعوق مسیرتها ودورانها؟ هذه حكاية العمر الذي مهما طال؛ يظل اقصر  
من حكاية عجوز لطفل سريع النوم!

بعضهم يعتقد أنها الآن الملكة الحقيقية لبريطانيا العظمى، ربما لو كانت هي الملكة كان وصولي إليها أسهل من رحلتي هذه!

ووجدت أن أكثر عرب الأهوار؛ لا يعرفون عنها شيئاً! بعضهم، لم يسمعوا بها، لم يروا صورتها! الرجل هنا منغمس بهمومه وكدحه اليومي، وشقائه ومرضه، كيف يفكر بها أو بحكايتها؟ وجدت صورها في صرائف قليلة أصحابها محظوظون أن لهم أبناء أو أقارب سافروا إلى المدن فجلبواها كهدايا ثمينة، في لحظة نشوة أو حنين غامرة. أسألهما عنها متضمنا البراءة والغفلة: "من هي؟ بنت من؟ أين تسكن؟" يكتفون بالقول "إنها متأنا، من المعدان" وكفى! بذلك يعيدونني إلى نفس المتابهة، جاعلين من أنفسهم كلهم ضحايا مثلها، وسياجا لها أيضا! لجأت إلى حيلة أو لعبة؛ ظلتتها بارعة وموفقة، جلبت عدة نسخ من صورتها، أهديتها البعض من أزورهم في الأهوار، علقوها في صرائفهم، ذلك سيجعل صورتها في صريفتي عادية كما صورتها في صرائفهم، ويفدوا حديثي معهم حولها طبيعيا، وقد أصل إلى معلومات جديدة عنها، كما إن ذلك سيمكنتني من مطالعة وجهها الحبيب حينما حللت بينهم. ولكن حتى الآن لم اسمع من أحاديثهم سوى حكايتها المكررة نفسها، مع بعض التفاصيل تختفي أو تأتي بشكل مختلف قليلا. بقيت في مكاني لم أخطو نحوها أية خطوة جديدة! ثمة رجل كهل صار الملامح قال "إنها ليست أجمل نسائنا، لدينا أجمل منها بكثير، لو نزع عن ثياب حلب الجواميس، ولو تبرجن مثل بنات المدن ليهرن رجال ونساء المدن! جلس أمامي على منحدر باحة معشبة أمام صريفته يدخن ويحدثني عن رحلة المرأة في حياتها على الماء: "المرأة عندنا متيبة حد الموت؛ فهي ترافق الجاموسة من الصباح حتى المساء، الجاموسة لا تسمح أن تحلبها سوى المرأة التي اعتادت عليها أو صادقتها؛ لذلك تظل المرأة خادمة لها حتى الموت، ولو مرضت أو رحلت متزوجة، أو ماتت يجب أن ترتدي ثيابها المرأة أو الرجل الذي يريد حلب الجاموسة لتشم رائحة صديقتها القديمة وتدر حليبيها. الجاموسة ألوفة وفيه

وشبه مقدسة هنا فهي مصدر عيشنا وعصب حياتنا، وقد تساوي قيمتها المرأة نفسها، وربما تفوقها لدى بعضاً، لذلك قد تفني المرأة حياتها في خدمة جاموس العائلة. نعم يا صاحب المرأة عندنا مرهقة متفانية، دعها ترتاح شهراً واحداً، وخذ لها صورة؛ ستتجد أنها أجمل من بنت المعيد! كان الرجل محقاً في كلامه،رأيت في الهرور فتيات جميلات جداً، يقبعن تحت ثيابهن السود الرثة المهللة، وطبقات الأوساخ المكونة من رذاذ حليب الجاموس ودهنه. وغبار وطلع البردي والأوحال.لماذا لا أتزوج أية فتاة جميلة هنا، اسميها فاطمة، وتنتهي رحلة بحثي الطويلة؟. لكن الأمر مع قلبي ليس بهذه البساطة! كثيرات منهن ينزلن لبيع الروبة والزبدة في المدينة، أطباق خشبية مدورة يحملنها فوق عمامة سوداء على رؤوسهن بطوابق متعددة قد تصل إلى عشرة طوابق أو أكثر، تصوري يا عزيزتي أجايا فتاة جميلة فارعة القوم تمشي في شوارع مدن غريبة، وهي تحمل على رأسها عمارة خشبية من عشرة طوابق ليست مسكونة بالبشر المزعجين لغير انهم بموسيقاهم الصاخبة كما في لندن، بل باللين اللذيد كامل الدسم! بعضهن شقراوات بعيون خضر وشعر ذهبي كأنهن أوربيات، حتى لأقول في نفسي أن جداتهن جهن من إنجلترا وأوروبا على أجنحة الإوز العراقي الذي يأتي لشواطئ أوروبا من الأهوار ليسير على الماء بخياله العروس التي فازت بحبها الجميل من بين عشرات المتنافسات عليه، ثم يعود لدفء الأهوار! أحدهم وكان كهلاً تحدث عنها بفخر، قال وهو يشير إلى صورتها المعلقة فوقه في مضيقه:

- الإنجليز قصفونا بمدافعهم، ونحن قصفناهم بهاتين العينين الجميلتين، الضابط الجريح بعينيها قبل قدميها لتقبل به زوجاً، وما أن تزوجها حتى طار بها إلى لندن وحين شاهدتها الإنجليز بهروا بجمالها فتوجوها ملكة عليهم!

ابتسمت في سري، وكانت مناسبة لحديث واستفسارات، لم أخرج سوى بنفس ما لدى من حكايات عنها! بعض الرجال يرى بنت المعيد تاج

الأهوار، ودرة مجدها العظيم، وكونها قابلت الإنجليزي، أغواها أو أغوته، فتلک مأثرة كبرى لها، سالت أحدهم:

- این هي الآن؟

فاتجهت إلى الأنظار بين مستریب، وبين غاضب: قال أحدهم بنزق:

- كيف لا تعرف!

ثم أجابني بثقة ونبرة غضب:

- انها هناك طبعاً، في لندن تحكم العالم من أمريكا إلى الهند!

لم أخر بشيء، أخذت رأسی وسكت، قلت في نفسي ليتها في قصر بكنکهام ربما كان وصولي إليها سيكون أسهل من رحلتي الطويلة هذه إليها دون جدوی، يا لورطة هذا الحب المرهق لروحي ويدني!

يرتجف قلبي عند أصوات محرکات لقارب أو طائرة ويتحقق فرحاً لسماعي صوت اصطدام أجنحة بطة تمرح على ماء الہور، سمكة صغيرة تقفز لتقضم شعاع الشمس، ضرع جاموسة يدر الحليب بسعاء في وعاء صبية جميلة حتى يفيض وهي ذاهلة تفكّر بحبيبياً! أنت تعرفي أكثر مني يا عزيزتي أجاثا، أن الإنسان هنا تجراً وصرخ بوجه السماء، لماذا نموت؟ وجلاجمش لم يأس حتى اليوم من بحثه عن الخلود! وأنا هنا أبحث عن الفنان في الحب، ذلك أسهل من الخلود، ولا يقل جمالاً وعظمة عنه! بل إن الحب والفنان فيه هو الخلود، سأظل أبحث عن فاطمة هنا والتي ربما لا وجود لها، وهذا هو خلودي كله!

لهنيهة ظل ماكس يتسمع أصوات متشابكة مختلطة تأتي من جهة النهر، عليها أجاثا عادت يحف بها منقذوها، شرطة أو رجال طيبون. نهض إلى الشرفة، تطلع إلى الشاطئ، لا شيء سوى الصياديں والقوارب التي تنقل العابرين، هل غفلت عن أجاثا ومحنتها وغرقت في ما كتبه هذا المعتوه وثيسجر في بحثه عن حبيبه الوهمية؟ أم إنني كنت أبحث عن أجاثا بين كلماته المتداقة بشهية رجل لديه الوقت للركض خلف غرام وهيا م لا يعرف هل هو

حقيقي أم وهمي؟ ولكن علي لكي أعرف مصير أجاثا أن أتأمل وأدرس كل شيء، وقائع حدثت أمس أو اليوم، إشارات ودعوات ثيسجر، وعلى أن أملأ الفراغات بينها لأجعلها متناسقة، متسلسلة واضحة قد تفضي كما المعادلة الرياضية المعقدة إلى نتيجتها الصحيحة، من حسن حظي إنني درست علم الآثار والذي من أهم دروسه ما يسمى بفن ملأ الفجوات، حين يصادفنا لوح قديم عند التنقيب وقد سقطت عنه حروف وكلمات أو سطور؛ علينا أن نشغل خيالنا لنملأ هذه الفجوات هي طبعاً لن تكون نفس الكلمات التي خطها الكاتب القديم ولكنها قد توصل لنا بشكل عام ما أراد قوله، علي أن أملأ فجوات كثيرة هنا وهناك في طريق بحثي عن أجاثا سواء في ما كتبه ثيسجر أو في ما كتبته هي أو في ما خطته الظروف لنا على هذه الأرض الغريبة! وعاد يقرأ: رغم أن الكثيرين من عرب الأهوار لم يستسيغوا وجودي بينهم لكنني لا أستطيع إلا أن أراهم بطبيعتهم الهدائة المنسرحة مع الماء والطير والقصب الأخضر، لا يميلون للحروب أو الصراعات الدموية، وهم رغم انفعالاتهم السطحية الغاضبة، أميل للمسالمة والسكنينة، ما عثروا عليه من أسلحة الإنجليز بعد سحق ثورة الإقطاعيين ورجال الدين لم يستعملوه، أو يحتفظوا به حتى ولو لصيد الطير أو السمك. أعطوه أو باعوه لأبناء القبائل العربية أطراف الهور أو في المدن، لم يأخذوا من الإنجليز إلا ما سمعوه أو حفظوه من أسمائهم ليستعملوها لشيء غريب، ولا يخلو من طرافة، ويصب في تعليقهم بالحياة رغم أنهم يعيشون مع الكثير من أسباب الموت، وويلاته. وجدت لديهم طريقة غريبة لمراؤحة الموت، والهروب اليائس منه، فهم يسمون أبناءهم بأسماء قبيحة أو بشعة، ذلك باعتقادهم يجعل ملائكة الموت يتخطاهم؛ ولا يقتطف أرواحهم لكي لا تتلوث يده بأسمائهم! فهم يسمون بعض أبنائهم: جريذى، جحيش، كلب أحدthem سمى ابنه أو ابنته "بلاسم"، أي بلا اسم، الرجل والمرأة الذين لا اسم لهما، فلا يعرفهما الموت ولا يهتدى إليهما، بعضهم سمي أبناءهم بأسماء الإنجليز فهي في اعتقادهم نجسة قبيحة

لا يقربها الموت، وجدت رجالاً بأسماء قادة إنجليز سمعوا بهم خلال الحرب معهم، (جون) (كوكز) (شرشول) من شرشل! وبنات بأسماء (دكسن)، (موده) من (مود) (جورج) من (جورج)، فكتوره (من فكتوريا) هنا صارت الأسماء الإنجليزية دروعاً ينجو بها أصحابها من الموت، ويعيشون طويلاً، لو صحت نظرتهم، لحمت الإنجليز أسماؤهم من الموت! لا أدرى كيف حصلت بنت المعيدي في اللوحة العظيمة على اسم فاطمة وهو اسم بنت نبي المسلمين، وهي تحظى بإجلال المسلمين بمختلف مذاهبهم، أغلب الظن أنها منحت هذا الاسم تقديراً لجمالها الفائق الذي كان واضحاً منذ ولادتها!

**قالوا: سنسلاح جلده لنخرج منه الضابط الإنجليزي الذي أفلت منه  
بنت المعيدي وجاء بیبحث عنها، لیستعيدها، أو لینتقم!**

أرقب قرص الشمس يهبط في الماء البعيد، صفحة واسعة من المدى توهج نحاساً لاهباً، الكون يلم أطرافه ليأوي لنفسه، ولقلبي معاً، وفاطمة هناك في لجة النور البهي! عمارة وياسين بجانبي صامتان وقد استغرقهما جلال المنظر. يحترمان صمتى، وحزنى المفاجئ، هما يصران على مرافقتي خوفاً علىي، يعدان معي عشاءنا من لحم الطيور والسمك المشوي على طريقة المسكوف والتي يقال أنها طريقة السومريين في شيء السمك. أحياناً يصران على المبيت معي في الصريفة. هما ازدادا قلقاً علىي بعد توادر تهديدات لقتلي، كثراً أعدائي هنا وشكلوا حلفاً، ضدّي شمل الحلاقين المتضررين من طباعي، و"الموامنة" الذين يقولون أنهم أحفاد الرسول ويعنون الأطفال من الذهاب إلى المدارس، والرجال من العمل في دوائر الدولة أو الجيش، ويأتون للأهوار يختارون البط والأسماك والفتيات الجميلات، وما لديهم من نقود قليلة باسم الخامس الإلهي، انضم إليهم أدعياء الوطنية، وأخذوا يروجون إني جاسوس، أحصي حركاتهم وسكناتهم للسفارة البريطانية! وحين أبقى وحدني ويجن الليل، يتتبّني أرق، وشهاد ممتع لذذ، أحس بروحـي انفعالات الأهوار

ونبضها وحركتها الداخلية العارمة تحت السكون المغمور بضوء القمر! أسمع أصواتا تقترب وتتأتى، حشود بشر يأتون من أعماق التاريخ يمشون فوق الماء بقوة السحر أو بمعجزات قديسين، يطرونون بابي ثم تشتتهم الريح، والصمت المفاجئ، يتضاعد أنين القصب، نقيق ضفادع، أزيز بعوض ونغمات جنادب وطيور تتحادث في ما بينهما في الظلام وقد تلاقى كل ذلك بموسيقى رطبة، دافئة باردة منعشة كنسيم الصباح، وتعود خطى البشر فوق الماء، خطى مؤمنين وملحدين وحائزين بينهما، وأتيه بعيدا عن الإله، ويقر في نفسي خاطر سعيد، أن كل هذا الصخب الكوني المهيب يزف لي الآن فاطمة، ستدق باب الصريفة المخلع برفق؛ وستدخل بثوب الزفاف الأبيض الهاف وترتمي في أحضاني، بلهفة حنونة دافئة. أصحو فأجد إبني وحدي على فراش في سرير الجريد، أخلد للصمت وأروح أسأل نفسي، لماذا لم أكن أنا أول من رآها؟ لماذا سبقني إليها ضابط متعرج؟ كنت انحني عابدا خاضعا لجمالها وليس كما فعل وجعل جمالها يخضع لقوته وجبروت دولته؟ لا خصوصا حقيقة إلا لقوه الجمال! كثيرون لم يعبدوا الإله إلا بعد أن أدركوا جمال صنعه . حتى خوفهم من الموت كان تطلاعا لجمال الوجود وبقائه وضرورة خلوده.

كلما زرت البصرة، ونزلت فندقا، معلقة في صدارته الداخلية صورة فاطمة، أسأل صاحب الفندق أو مديره، لمن هذه الصورة؟ و يأتي الجواب: "بنت المعیدي" ، مع ضحكة قصيرة تحمل معنى الغرام أو خيبيه، ثم تتواتي أسئلتي، من هي؟ أين هي الآن؟ لماذا؟ كيف؟ وتهال الحكايات! وقد وجدت أن حكايات كثيرة عنها في البصرة، كل يضيف لها ويحذف منها حسب خياله ومزاجه، وقد خرجت بمحصيلة وسعت متأهتي، وزادتني حيرة من أي الأبواب أدخل إلى قلعتها الحصينة! مدير فندق يطل على العشار كان قد قارب السبعين حدثني: كان القطار القادم من بغداد إلى البصرة أو العكس يتوقف لساعات في محطة تدعى السدة، قريبا من البصرة، حيث تسكن جماعة كبيرة من مربى الجاموس، فكانت فتيات منهم يتقدمن إلى نوافذ القطار أو يصعدن إلى عرباته

يعن للمسافرين القيمر واللبن الذين اشتهرا بجودتهم ونظافتهم في هذه المنطقة. لمح ضابط انجليزي فتاة تبيع القيمر فافتتن بجمالها؛ فسقط هو والقطار كما قال في بحر جبها العميق، فلم يتحرك هو وقطاره إلا وأقنعها بخداعه ومكره لتهرب معه! وتتكرر الحكاية فتقول أنها التقت الانجليزي خارج منطقة سكنها، وبالتحديد عند شاطئ العشار وهي تحمل فوق رأسها عمارة اللبن والقيمر المكونة من عدة طوابق، وإن الإنجليزي كان ضابطاً في البحرية البريطانية، وإنه كان يرتدي بزته الصاحبة بأمواج البحر وزرقته، حين رآها اعتقاد إنه يدخل مع سفينته لجة البحر، فتمايل وسقط أرضاً، وإنها ألت طوابق اللبن والقيمر عن رأسها وراحت ترش الماء على وجهه ليقيق، وشغفت به أيضاً، ولم تمض سوى دقائق حتى أصبحا عاشقين، كيف تفاهما؟ يقولون أن الإنجليزي يعرف قليلاً من العربية، ثم هل يحتاج الحب لغة غير لغة العيون واختلاج الملامح؟ الحكاية تقول أنهما هربا إلى لندن، وعلى الفور وكالعادة يرسل الضابط صورتها لأهلها من هناك! في حكاية أخرى تقول أن أهلها رفضوا زواجهما منه، فقرر أن يحصل على صورتها كتعويض آخر وحزين طبعاً، فيرسمها من مخيلته، الحكاية تمنح الضابط مرة أخرى قدرات عظيمة تفوق دافنشي الذي رسم الموناليزا بسبعين سنة بينما الضابط رسم حبيته في سبع ساعات! وسواء كان من رسمها ضابط أو دافنشي نفسه، فهي كما يقول مدير الفندق الآن فاتنة الأفندق، والأبصار، تضيء بوجهها الفنادق والمcafهي، والمدن وتبدد الظلمة إذا انتفأت الفوانيس، أو نصب الزيت، أو انقطعت الكهرباء! لم يضجر ماكس لهذه التفاصيل المملة أو المتفرعة كثيراً، وتتوقع أن أجاثا أيضاً لا تشيح عنها بل على العكس هي تؤكد أن الرواية يجب أن تتضمن أدق تفاصيل الأشياء، فالحياة نفسها كذلك! كل الحكايات تأسى لها في غربتها بل أن أحدها تشنط في الخيال فتقول أن بنت المعيد تعود كل عام من غربتها في أوروبا مع الطيور المهاجرة إلى الأهوار، لترى أهلها ومرابع طفولتها دون أن يروها فتنكأ جراحهم، وإن بعضهم تعرف عليها من

عيونها الجميلة الباكيتين دائمًا، وإن أحد الصيادين بعد أن أطلق خراطيش بندقيته على سرب من الطيور سمع من بينها صرخة أدمية تقول، "أنا ابتكم جئت لأراكم؛ كيف تقتلوني؟ ومنذ ذلك اليوم انقطعت عن المجيء، هنا يختلط الحقيقي بالوهمي إلى حد يتعبني ويفزعني كثيراً"!

كادت تصيبني بالإحباط واليأس حكاية رواها لي مسافر معه في القطار من الناصرية إلى البصرة عرفت أنه موظف في المكتبة العامة الوحيدة في البصرة، يعمل مفهراً ومجلداً:

- هي معبدة الكثريين في مناطقنا، يحبها القراء كثيراً، وضعوا صورها على جدران بيوتهم الطينية، أو الصفيح، وفي محفوظات جلدية متهرئة تحوي دراهمهم القليلة، وفي قلائد صغيرة لتكون قريبة من قلوبهم، هي حلم الكثريين، وبينس الوقت هي ليست لأحد، وهي شيء، ولا شيء، بحثت عن حقيقتها، وبحكم عمله في المكتبة راجعت الكثير من المصادر فوجدت إشارة تقول أن ثمة رسام ألماني يدعى هوينر كان قد جاء سائحاً إلى البصرة فرسمها، وباعها لأحد الناشرين في بيروت، ومنه انتقلت إلى سوق الصور!

مضت أشهر طويلة على وجودي في الهرور، صحوت صباحاً على صوت مجذاف مرافقي الأمين عمارة، يخطب الماء بعصبية واضحة، دخل صريفتي صامتاً، قلقاً، لا يستقر، دعوه للجلوس، ظل يخرج إلى باب الصريفة؛ يطل برأسه إلى الفضاء المتوجه بشمس شتائية ندية ثم يعود، سأله ما بك؟ دهشت إذ رأيته يهز رأسه وقد لاحت سحابة غم على وجهه، سأله: ماذا هناك؟ لم يجب وبقيت أتطلع إليه، جلس القرفصاء وراح يخط على الأرض بعد منكس الرأس. بعد صمت؛ قال:

- أحاديث الناس هنا صارت تلاحقنا غريبة غامضة، لا أدرى ماذا يريدون، بعضهم يقول إنك الضابط الذي هربت منه بنت المعیدي، وقد جاء إلى الهرور يبحث عنها!

توجس قلبي، قلت:

- ألم يكن أهلها قد رأوا ذلك الضابط؟ ألا يعرفونه؟
- بعضهم يقول أنك الضابط نفسه، وهم رأوك رأي العين، ومتاكدون أنك هو نفسه، بينما آخرون يقولون إنك مرسل من قبله، هنا الأوهام يا عم ثيسجر أقوى من الحقائق!

وأخيراً عرفوا إني جئت أبحث عن ابنتهم، وابتدعوا لي تفاصيل قصة حب لي معها لم تكن تخطر بيالي ولا في الحياة نفسها لو سمحت لنا بأن نعيشها معاً! راح عمارة يسرد لي حكاياتهم التي يتداولونها عنني، قالوا إني كنت ضابطاً في الجيش الإنجليزي في الهند، (قذفتني محيلتهم إلى الهند وأعادتنى) وإنني عملت في قاعدة الشعيبة في البصرة، في تلك الأثناء خرج أحد ضباطي من الكركة الهنود مع ثلاثة من جنوده بدورية، فالتقى بفاطمة التي كانت عائلتها قدمت من الأهوار، واستوطنت قريباً من شط العرب وراحت تبيع الروبة والقيمر في البصرة، فوقع في غرامها على الفور، وصار يتغيب عن الشكنة، هائماً بها يساعدها في بيع الروبة بوقوفه بجانبها يؤدي أغان وحركات بهلوانية هندية، فأستدعيته (أنا الضابط كما أدعوا) وأجريت تحقيقاً معه، وأمرت بإعادته إلى الهند ونزع رتبته. لكن الضابط الهندي راح يستعطفني قائلاً لو رأيت جمالها لعذرني، وعفوت عنني، فوافقت على مقترنه بأن يجعلني أرها، فرتب لي موعداً معها في بستان على شط العرب، وإنني ما أن رأيتها حتى سقطت مغشياً على، ما جعل الهندي يجلب أعشاشاً ويعصرها في انفي حتى أفاق، وإنني كما شط بهم خيالهم المائي، قد ساومته أن يترك الفتاة لي مقابل الإشارات أن تخرجه من قلبها، وتضعني مكانه، فوافقت على مضض، وإنني قصدت أهلها لخطبتها؛ فرفضوا، رغم إني عرضت عليهم الكثير من المال والهدايا، ووسطت إليهم رجال دين من أحفاد الرسول. فأصرروا على الرفض، وإنهم لكي يتخلصوا من إزعاجي لهم وللفتاة عادوا برحلهم وجوابيسهم إلى

الأهوار! هكذا جرت حكاياتهم الملفقة! صمت عمار، أخذت نظراته تهيم في الأفق، بقيت متوجسا للحظات ثم فجأة شعرت بالفرح، فأقاوين لهم هذه تعني، إن من أبحث عنها موجودة، وليس غائبة، وهي هنا في الهور، وليس في لندن، وإنها ليست عجوزاً ما دام عاشقها الضابط بعمري أو يشبهني! لكن فرحتي انكشفت، حين عاد عمارة يتحدث:

- لكنهم حسب قولهم اكتشفوا إنك مازلت تلاحقهم، وبذلك لا حل أمامهم سوى قتلك ليتخلصوا من مضائقتك لهم! القضية كما ترى يا عم ثيسجر قضية شرف وسمعة عشائر لا تغسل العار والحيف إلا بالدم! رغم سخف حكاياتهم وتهافتها لكنها أقلقتني كثيراً! الناس هنا لا يتسامحون بقضايا النساء؟ وكنت مدركاً لهذه الحقيقة في بحثي الصامت عنها. ترى كيف اختلقو هذه الحكاية التي تعني الحكم عليّ بالموت! إطلاق لجحافل من الأشباح تلاحقني إلى كل مكان، ت يريد أن تغور بي في مكان لا يعثر فيه على عظامي حتى ماكس نفسه. تلك الليلة بقيت أتقلب أرقاً، موقناً أنهم سيقتلونني، كنت أتذكر طبيعة الكثيرين من المسالمة، وطيبتهم، لكنني أجد أنني متهم بقضية تمس شرفهم وسمعتهم. تخيلت أحدهم يكمن بين القصب ويصوب إليّ بندقيته، التي ربما تكون نهبت من معدات الجيش الإنجليزي! ثم يعود الأمل فجأة إلى قلبي أنني سأجد فاطمة وسأعرف كيف أقنع أهلها بالموافقة على زواجي منها. وسيتم ذلك بيسر فأنا لست كالضابط يريد انتزاعها منهم وأخذها إلى لندن، أنا سأبقيها في أحضانهم، وسأعيش معها في الهور. لو كنت أنا من رأك يا فاطمة في جمالك البكر كنت أتيتك بهيئة شحاذ لا بهيئة ضابط، كنت استمليت لي بلغتك لا بلغتي، سجدة عند قدميك، مديراً ظهري لباراج دولتنا المسلطة فوهات مدافعتها إلى بلادك، في الحب لا أحتاج لمدافع، ولا حتى رصاصة واحدة، على العكس أطرد رائحة البارود، وأتيك بزهرة فواحة مبللة بدموعي، أراك في قلبي نهاراً تنهضين، فتلهم الشمس على شرك، وتأنين في

الليل فينكفي القمر على لؤلؤ ثغرك، آه يا فاطمة هل كان يجب أن أولد قبل ثلاثة أو خمسين سنة؟ هل بكرت أنت بالخروج من الرحم مثل حمامه اعتقدت أن وهج البرق والرعد الليلي هو نور الصباح؛ فخرجت من العش لتلقفك، صاعقة العساكر؟ لكنني سأجذك، أنت الآن تأتين كل ليلة لتطوفي هذه البقاع المائية بحثاً عن ذكريات طفولتك وصباك، المزهرة مع براعم القصب، ولمعان الشمس على الموج، أنا هنا، أنصب لك كمين الحب، أجمل كمين في الدنيا وأكثرها شرعية وصدقًا بين ملايين الكمائن التي دمرت هذا العالم، وحالت دون لقائنا في الوقت المناسب، ستنلتقي يا فاطمة، لن فقد الأمل مصير البشرية أن تعود عائلة واحدة! ربما ستقولين يا أجاثا وما الفرق بينك وبين الضابط،؟ هو جاءها بالسلاح وأنت جئت بها بالكلام المعسول وأدويتك المسكنة، وأنا أيضاً أفكر كذلك، لا دليل لدي غير شعوري بصدق نواياي، أقول أنهم محقون حين يقولون: سنسليخ جلده لنخرج منه الضابط الإنجليزي الذي أفلت منه ابتنا، وجاء يبحث عنها ليستعيدها، وينتقم! وأتلمس نفسي قائلاً، هل أنا كذلك حقاً وقد عرفوني بفطرتهم الذكية، هل هم يعرفونني أكثر مما أعرف نفسي؟ من حسن الحظ كان لدينا في اليوم التالي عملية ختان في قرية مجاورة لطفلبي شيخ متوفى. حكيت له بما سمعته من عماره، أطلق ضحكة قال: - هذا تحريف، لا صحة لهذا الكلام، حكاية بنت المعیدي انقضت من زمان العصمي، أي ضابط إنجليزي يأتي للبحث عنها؟ هنا رجال يقضون وقتهم، عطالة، وبطالة، لا يجدون ما يعملونه سوى الشرارة بهكذا حكاية عفا عليها الزمن، اطمئن لا أحد يجرأ على لمسك وأنا هنا! وأمسك شاربه على عادة العرب حين يعدون أو يعطون كلام شرف! وبقدر ما شعرت بالطمأنينة لكنني أصبحت بخيئة أمل أن فاطمة حكاية خرفين عاطلين، ألا يشملني ذلك؟ وإن رحلتي هي أيضاً حكاية من زمن العصمي، أي حب هذا! لكن ما أن خرجت من مضيق القرية وخرجت ثلاثة توعدنا

بينهم الصبيان المختونان يلوحان يمسكان باليد الأخرى ثيابهما من بين أفالخاذهما لكي لا تمس جروهما، حتى دب في قلبي الأمل من جديد! في الطريق المائي الطويل رحت أفك أن فاطمة الجميلة موجودة حقاً وهي محاصرة سجينه عند أهلها خشية أن تختطف وساكون أنا المنقذ، وفتى الأحلام المنتظر! أخذت أحث ياسين أن يتوجل بمشحوفنا في أعماق الهر، لنصل إلى الصرائف البعيدة فلا بد أنها قد لاذت بالأماكن النائية، ويعود قلبي لتوجسه، وخوفه. صرت ولا أيام طويلة فريسة حلم يسقط خائباً متلاشياً تارة، ثم ينهض فجأة قوياً جارفاً! كان السمك يتقافز أمامنا في الهواء كما الطيور، وأحياناً يلقي نفسه في قارينا وأحضاننا فكان ياسين يقول ضاحكاً: السمك يقدم نفسه لنا بطيبة خاطر، ثم يضيف، جدي يقول عن هكذا سمك، هو عاشق يطير إلى الحبيب ناسيماً الجمر الذي يتنتظره، ولا أدرى أضحك في سري أم أبكي وأنا أقول إنه يتحدثعني! صرت أستمتع بحكاية الحب التي صنعواها لي، متصوراً حركات الهندي كأنه يعبر عن أحزاني بطريقة بهلوانية، راحت مخيلتي تتدرب على حزن العشاق على الطريقة الهندية المشبعة بالروحانية والمرح! اكتشفت أن فاطمة ستكون بسيطة ساذجة بل فجة وجاهلة، وهذا أمر بدعي، وماذا أنتظرك منها وهي التي نشأت حيث لا مدرسة ولا حضارة؟ هل أنتظرك بشهادات علياً؟ لكن يمكنني أن أنتظرك أنها ذكية متفتحة ذات فطرة ناضجة وعميقة، وكم يكون بين الأميات من مفاجآت، فتيات ذوات خبرة روحية عميقة يتفوقن على صاحبات الشهادات العالية اللواتي يمكن أن تجد بينهن بليدات ثقيلات يصعب معاشرتهن! هكذا رحت أؤمل نفسي أنها ستكون بسلقتها وبساطتها غاية في اللطف والتهذيب أو حتى إذا لم تكن كذلك على أن أبدل جهداً معها، عينها تشعان ذكاء وقدرة على الارتفاع! أحببت هذا المكان وهؤلاء الناس وعلى أن أتحمل صعابهم وأستمتع معهم بجمال الدنيا، والتي مفاتحها عندهم البساطة، ثم البساطة!!

ها قد عدت ثانية إلى أور، هل لأبحث عن عظامي؟ أريد شرائطها من الله؟ أم لأهبهما لقدرها كيف يشاء؟

بعد عامين تقريباً عدت إلى بغداد، في طريقي توقفت في اسطنبول، بهرتني من جديد، مساجدها وأبنيتها الجميلة وأسوقها ومطاعمها وحماماتها الساخنة، لكنني لم أبق فيها سوى يومين، شيء ما في أعماقي كان يقول لي دائماً: هنا إلى العراق! إلى أوراً في حلب استقبلني مظلوميان بلهفة وسألني: هل كتبت يا أجياث عن فندق البارون في روایتك؟ قلت له، من أجلك لم أكتب عنه، لو ذكرت أن حادثة انتحار فظيعة قد حدثت فيه فسوف يخاف الناس أن ينزلوا فيه! في الواقع كنت معذبة من أجل باول، رئيس الجرسونات المتحجر وأشعر نحوه بذنب ودين، أن أكتب عن انتحاره من أجل جبه الرهيب للراهبة. يبدو إنني لا أستطيع أن أكتب عمما يقع للناس حقاً، أو حتى ما يقع لي شخصياً، لا أستطيع أن أكتب إلا من الخيال، تصورات أو تهيئات تورقني فأجسدها وأمضي بها حتى النهاية. أما ما حدث فعلاً فأتركه كما هو في الواقع، ولقدره الخاص، لا يحق لي التدخل فيه ولو بكلمة واحدة! ظل مظلوميان يهز رأسه وقد أصيب بخيئة أمل، لكنه لم يقلل من حفاوته بي! كانت ذكرى باول لا تبرح ذاكرتي خاصة عندما يقدمون في المطعم أطباقاً ارتبطت باسمه. سألت عن الراهبة التي انتحر من أجلها! قالوا إنها زادت من مسوح الراهبة حتى اختفت آخر لمحـة من جسدها الجميل الفتان! وصارت تمنع الأطفال أن يأكلوا سندويقاتهم قبل أن تفتحها لهم. يبدو إنها تبحث عن رسائل غرامية بين شرائح اللحم والطماطم لعاشق جديد ينتحر من أجلها، تقدمه قرباناً من أجل الرب! عجيبة هذه الراهبة، هي جميلة حقاً كما رأيتها مصادفة لمرتين، كم صار الأطفال يتطلعون من الرسائل الغرامية مع سندويقاتهم بسبب جمالها المثير رغم الرهبة؟ هي تعتقد أن الطريق إلى الرب لا يفتح لمن يتذوق الحب الإنساني حلالاً أو حراماً! وهو حكر على من يرتدون مسوح الراهبان. لكنني كنت كلما تذكرت تلك المأساة التي سجلت

باسمها، أتساءل: أما كانت ستكون أقرب إلى الله؛ لو أجبت، ولو مرة واحدة على رسائل عاشقها المخبئه في سندويجات تلميذها الطفل؟ ربما حالت دون انتشاره! عاشق يحب حد الانتحار، هذه إشارة على أنه سيكون زوجاً سيئاً، لكن ليس بالضرورة إنه سيكون مصلياً سيئاً لو علمته المواظبة على دخول الكنيسة! ولو أهدته مرة زجاجة من نبيذ الدير في عيد الميلاد! ولكن هذه الراهبة على ما يبدو لا تجيد فن الدعاية والإعلان للكنيسة! مكثت في حلب ثلاثة أيام، كنت متلهفة للوصول إلى العراق، أشعر في أعماقي أن شيئاً كبيراً عظيماً يتظرني هناك، حتى في بغداد لم امكث أكثر من يومين، قضيت منها ليلة في بيت عائشة، ونعمت بحنانها وأكلاتها الطيبة، وعرفت إنها قطعت شوطاً في إقامة صالونها الثقافي، صار يتردد عليه كثير من الشعراء والمثقفين. وعدتها بأنني سأكون من رواده، إذا أقمت في بغداد! طمئنت نفسي؛ عائشة وبضعة نساء هنا مستنيرات جريئات، هن الأمل في تحرر المرأة في العراق ونهضتها! وثبتت وجودي لدى السفارة البريطانية، وتلقيت نصائحهم، قالوا أنهم سيتصلون ببعثة التنصيب البريطانية في أوّل لترتيب استقبالي، ويساعدونني على إنجاز المهمة التي جئت من أجلها. ما هي المهمة التي جئت من أجلها؟ أنا نفسي لا أدرى ما هي! أيستحق الوقوف على أطلال مدينة انقرضت قبل آلاف السنين، كل هذه الرحلة الطويلة المضنية الخطرة؟ يبدو لي إن هناك شيئاً كبيراً سألقاه، تحس به أعماقي بشكل غامض ولا أعرفه! وكيف أعرفه وكل شيء حتى خطوة قصيرة واحدة، هي في عالم الغيب؟ قاومت دعوة عائشة في البقاء عندها، رفضت استعدادها لأنخذني بنفسها بسيارتها إلى أوّل، أو تدع سائقهم الأمين يوصلني بسيارتهم إلى هناك! شعرت إنني بحاجة إلى خلوة مطلقة مع نفسي وأنا في طريقي إلى أوّل، لأقلب أفكاري وأحلامي وأخيالي! عاصفة من غبار أحمر تجتاح بغداد، والمنطقة كلها، كنا في شهر آذار، تبدل الطقس المفاجئ يصيب الجسد بالإعياء والكسيل ونزلات البرد المفاجئة، وكنت أشعر بنحول ومزاج يتردد بين الكسل والنشاط، خفت العاصفة قليلاً،

ووجدت سيارة تغامر في السير في هذه الأجواء إذا ضاعت الأجرة، دفعت، السائق رجل مسن طيب، توثق منه موظف في السفارة البريطانية جاء لتدعيه والاطمئنان علىي، لم أمانع وقد أجرت السيارة كاملة، أن يحمل معي ركابا آخرين خاصة وهم عائلة، تحدثوا معي بالإشارات وألقوا علي الكثير من معجناتهم المحشوة بالتمر والمطيبة بالقرفة واليانسون. بددوا خلوتي التي تخليت عن رفقة عائشة من أجلها. قطعت السيارة مئات الكيلومترات إلى الناصرية جنوب البلاد، عادت العاصفة الجافة للاشتداد، السائق يطلق صوته بين فينة وأخرى رافعا رأسه إلى السماء. فهمت من لهجته المتولدة إنه يدعوه الله أن ينزل المطر، وينظر إلى بإشراق كأنه يقول: ما الذي أتى بك من بلدك بعيد إلى هنا؟ كانت الريح تهيل علينا طحينا أحمر كأنه غبار دم جاف. أوصلني السائق إلى بيت الدكتور لومبارد وولي في ضاحية من المدينة هي الأقرب لأور. حين نزلت من السيار، لم أكن أرى حتى يدي، عجبت كيف استطاع هذا السائق المنهك قطع كل هذا الطريق الطويل المتعرج غير المبلط وكثير الحفر، وسيارته عتيقة مضعضعة، وكيف لم يخرج عنه، وحدوده تتدخل مع الصحراء؟ وجدت السيدة كاترين زوجة الدكتور وولي متوعكة، رحبت بي وأصرت أن اسكن معهم، ولم تسمح لي بالنزول في الفندق، قالت في الأقل أبق هنا أياما ريثما تتعرفي على المدينة واعتذر عن مرافقتني والاعتناء بي كما يجب في جولة كانت قد وعدتني بها في مراسلتها لي، أوكلت مهمة مرافقتني إلى عالم الآثار البريطاني البروفيسور ماكس مالوان الذي رحب بال مهمة، كان لطيفا، ودوداً! استمرت العاصفة خمسة أيام لازمت خلالها البيت، وقضينا الوقت الطويل في تبادل الأحاديث عن نشاط فرقهم للتنقيب، ومنجزاتهم ومشاريعهم، وعن أحوال الناس هنا، وقلما تطرقنا إلى حياتنا في إنجلترا! توارت العاصفة وصحا الجو؛ خرجت مع ماكس لجولة في المدينة. حدثني أن من عادته، أن لا يحل في مكان حتى يروح ينشئ في تاريخه قال: هذه المدينة بناها على ضفتي الفرات الشيخ ناصر السعدون

في القرن التاسع عشر وفق تصميم مسبق حديث، وضعه مهندس بلجيكي جمع فيه بين شكل المدينة الأوربية والنمط الشرقي، تبعد عن أور بحوالي 15 كيلو متراً لكتنا نستطيع أن نعتبرها امتداداً لها وتشكل روحها العريقة. أعجبتني كثيراً فهي مضيئة مفتوحة على الشمس وهواء النهر. نظيفة وأنية، رغم الفقر والعوز الذي يلوح على وجوه الناس؛ لكن عيونهم تشعل ذكاء وحماسة للحياة. النساء يتلفعن بشباب سود، قال ماكس أنه تمسك بحزن أبيدي في هذه الأرض الجميلة التي كانت دائماً ساحة حروب وقتل وفيضانات وأوبئة وهجرات أليمة، تفقد فيها المرأة مرغمة زوجها أو ابنها أو عائلتها كلها. رجال العشائر يتفهمون عملنا ويحترمونا ويشعروننا بالأمان. ذهبنا إلى أوروبا بسيارة تدعى للضحك، عرفت من ماكس أن صاحبها حصل على ماكنته من مخلفات الجيش البريطاني، وركب له حدادون الهيكل والمقاعد بطريقة بدائية، كانت متينة ونظيفة وصالحة للاستعمال، صاحبها حسين تجاوز الأربعين نابت اللحية ويستعملها للأجرة، وماكس يتعامل معه بسخاء وودة. ويأتمنه كثيراً وأخيراً وطأت قدماي تراب أور وتنفست هوائها الذي اشتقت سنين كثيرة لأن أملاً صدري منه افتح قلبي لها، لم أكن أصدق أنني الآن أسير على أرضاها. هي متوجهة، تضاحك السماء. فيها عدت أواجه الأسئلة التي كانت تنهمر على في لندن، وتلاحقني مسابقة قطار الشرق السريع، لماذا جئت إلى هنا؟ عم ابحث؟ لماذا قطعت هذه الرحلة الطويلة الخطيرة إلى هنا؟ هل أنا مجرد واهمة قلقة تائهة دون هدف أو شعور بجدوى الأشياء والمساعي؟ هل جئت أبحث عن خطى إبراهيم أبي الأنبياء، وأولى أنوار التوحيد الإلهي، وعن سكينة الروح وطمأنيتها، أم أن روحي ليست معي وهي هامة في هذه الصحراء الشاسعة وجئت لأتحققها أرجوها أن تعود لتسكن جسدي، وأعود بها إلى لندن؟ أم أنني أبحث عن روح أخرى تألفني وترضى بي كما أنا؟ أغلب ظني إنني أبحث عن شيء آخر لا أعرفه! حين أوقفني ماكس على الحفر العميقية التي غاروا إليها منقبين عن الأشياء القديمة، ولاحت لي

عظام البشر الزائلين؟ اعتبرتني قشعريرة؛ هل جئت من لندن لأرى هذه العظام؟  
أبحث فيها عن أهلي وأحبتني الموتى، وما زالوا أحياء في قلبي؟ أم جئت أبحث  
عن عظامي؟ أريد شرائهما من الله، أم لأهبهما لقدرٍ يعيثها كيف يشاء؟ ما هذه  
الكوابيس؟ قلت لأمكث هنا فترة وأرى! كان قلبي يخفق، وأور التي جتها من  
بعيد؛ صارت أبعد من ذي قبل؛ فإن لا تفهم شيئاً أو مدينة؛ تبتعد عنك حتماً!  
ومع ذلك ظل قلبي يخفق لها وعلى أرضها بفرح ونشوة! ربما لأن ماكس  
قد غمرني بحنان هادئ صامت، ورفقته ممتعة، أشعرتني بالطمأنينة. شكرت  
العاصفة الترابية، وتوعك السيدة كاترين، وكل فايروسات العالم، وتمنيت في  
سري أن يستمر توعكها (فقط أن لا تموت) لكي لا تتزعني من رفقة ماكس.

يا للمقادير! كنت وحبيبي في مدينة واحدة، ولم نلتقي في بلاد  
بعيدة، خلف بحار، وسنوات ضائعة، التقينا

افتادني ماكس إلى الإيوان الرئيسي للمقبرة الملكية المقدسة، وراح  
يحدثني بصوته الهدئ العميق: كيف أن بعثهم بقيادة الدكتور ليونارد وولي،  
عثرت على القيثارة الذهبية تحت أمتار كثيرة من تربة متراكمة حفروها بصبر  
وأناء، هي قيثارة الملكة بو-آبي وتسمي خطأ الملكة شبعاد، كانت معها  
قيثارتان أقل حجماً عزفت عليها وصفاتها الترنيمات الجنائزية الأخيرة للعائلة  
المالكة وهي تموت ببطء مع حاشيتها، ليلحقوا بالملك الذي مات قبلهم  
وعليهم أن يموتوا معه قبل أوانهم، هكذا يقتضي الوفاء السومري الملكي!  
قال ماكس: كان ملك العراقيين آنذاك موسيقاراً يعزف على ثمانية آلات بينها  
قيثارة بثلاثين وترًا، ويشرف بنفسه على أول معهد للموسيقى في العالم، وحتى  
في مدارسهم العادية هناك درس إضافي للموسيقى، وكان الطالب الذي لا  
يجيد العزف يتأخر نجاحه ويزدرى من زملائه الذين يعودون الموسيقى الشرط  
الأول لنقاء الروح! قال هنا مركز مملكة أور، قلب العالم آنذاك، هنا ولد  
إبراهيم الخليل، ومن هنا انطلق جل جامش بحثاً عن عشبة الخلود حتى وصل

إلى جبال الأرز في لبنان، والى شطآن دلمون البحرين حسب رواية أخرى، وعاد خائباً حيث لا مفر من الموت! ماكس يحدثني عن أشياء كنت قد قرأتُ كثيراً عنها وألهبت خيالي. حين اسمع حديثه الآن عنها بصوته المتأني الصبور أحس بنكهة جديدة للكلمات ومعنى آخر لها، قال هنا عثرنا على الخنجر الذهبي الملكي،رأيته فيما بعد، خنجر ذهبي يلمع تحت الغبار، صار منبع إلهامي، يوحى لي بالكثير في روایتي التي كان قدرى أنها تدور حول الجريمة! استيقظت مبكرة ورحت أنتمي أمام نافذة الحجرة؛ بينما شمس الفجر تصعد متوججة ومع نورها الساطع الغامر وجدتني أكتشف لماذا أتيت أور، لقد جئت لأنقذ بماكس مالوان عالم الآثار، الشاب الجميل، هل هذا معقول؟ هي بشري بمستوى الحلم الذي أنهكتني طويلاً، ولكن كيف أتجرا على جبه، وأنا في التاسعة والثلاثين من عمري، وهو في السادسة والعشرين؟ ألا أبدو كأنني غرت به؟ أو مارست اغتصاباً؟ لا! هو في سن الرشد منذ سنوات طويلة، وأضاف لعمره كما قال لي آلاف السنين من عمر الإنسانية التي ينقب في تاريخها! ولم يدر شيءٌ مني نحوه سوى كلمات صادقة دون آية نية إغواء، وابتسمت له من القلب، بل أحس وكأن روحي فيها ترتجف على شفتي! هل هذا اغتصاب؟ ومع ذلك لم أقل له حتى الآن: أحبك، وهو لم يقل شيئاً، رغم إنني أحس أن عينيه تقولان أشياء كثيرة، أسمع القيثارة الذهبية تعزف لحناً جديداً لنا وحدهما، للحب هذه المرة، وليس للموت الذي ظلت تعزفه تحت التراب آلاف السنين! أسأل نفسي ربما كنا أنا وماكس في لندن في وقت واحد، في نفس اللحظة وفي نفس الشارع، لا يبعد أحدهما عن الآخر سوى أمتار ولكننا لم نلتقي، فصل بيننا جدار أو سيارة عابرة، وربما التقينا وجهًا لوجه ولم يكتثر أحدنا للأخر، ربما من أحدنا بالأخر غريبين طبعاً، من يدري؟ ثم تختتم علينا أن نقضي سنة أو سنوات من أعمارنا، فنقطع آلاف الكيلومترات، لنأتي هنا إلى أور ونلتقي، كم هي الحياة لاعبة ماكرة غريبة تأبى إلا أن تحشر نفسها في أسطورة؟ ولكن أليست الأسطورة غائرة في

لحمна الإنساني تلعب بنا كما الأحلام أو حكايات أطيااف السماء؟ وجدتني  
كلما تطلعت إلى وجه ماكس الجميل أغدو على يقين إنني جئت من أجله!  
وسمعته يكمل حديثه عن جلجامش: سدورى صاحبة العانة قالت له: إنك لن  
تجد عشبة الخلود، لكنك وجدت عشبة الحب التي هي نفسها عشبة الخلود!  
هل كان يقول أنت جئت من لندن، من أجل حجة، فقطفتى الحب! هاهي  
تلك الزهرة يفوح عطرها في جوانحى كاللهب! كدت أقبله وأرتمي بأحضانه،  
لكتنى تمسكت، وكنا بين القبور! عدنا إلى البيت نسير على التراب الهش  
صامتين، كنت من سعادتي أطير! وجدتني أقول لنفسي ها أنا أعرف الآن أن  
المهمة التي جئت من أجلها بسيطة، ليست كبيرة أو خطيرة كالمهمة التي  
جاءت من أجلها المسرز بيل، هي شغلتها السلطة، ثمة نساء إنجليزيات جئن  
مع رجال شركات النفط، يبحثن عن الثروة، وأنا سأبقى بين الأطلال المهدمة  
أساعد ماكس يستخرج ذاكرة البشر من تحت التراب، وسأكتب ما يعن لي،  
هذا كل شيء. الآن عرفت طريقي، عبرت كل طرق العالم إليه.

يبدو إن الحب العظيم يرهقنا في البداية، يتلاطم ضريته أو تكاليفه  
مقدما، ثم أخيراً يمنحك السعادة، ضحكت من خواطري المنهالة سريعاً في  
ذهني، قطع ماكس الصمت: أمل أن يستقر الجو، ويبقى صاحباً، أريد أن  
أخذك غداً إلى مدينة (نفر)، فهي فاتيكان العراق القديم لا تكتمل صورته  
لديك ما لم تجوسني ذاكرتها! أوصلني إلى بيت لومبارد، وذهب هو إلى  
بيته، المجاور له، وكما أيام المراهقة شعرت إنه أخذ قلبي معه، فوقفت على  
البابأتامله حتى دخل البيت، ولكنه لم يلتفت وراءه، ولم يرني إلا أدرى ما  
الذي شغل ماكس، قال سنجل سفرتنا إلى نفر، لكننا تواعدنا على نزهة مع  
الغروب بين أطلال أور. كانت من أجمل ساعات حياتي، جلسنا طويلاً، نسينا  
أنفسنا حتى حل الغروب، وطلع القمر وبدأت أحس بجسدي يذوب في نوره  
وهوالته فشعرت بدوران لذذ. كان ماكس قد قرب شفتيه من فمي بقبلة خفيفة،  
ثم حين وجدني متلهفة له راح يقبلني بقوة، استرخينا بشدة، نقلني لحضرته

ندية وارفة، كأن هذه الخرائب عادت لحياتها الزاهية. لم يسألني ماكس لماذا افترقت عن زوجي. أنا الذي حدثه؟ كنت قد أحبيته وأخلصت له وأزمعت أن أبقى معه مدى العمر، لا أفارقه يوماً وحين اقتضت خدمته العسكرية إبان الحرب العالمية أن يذهب إلى باريس لحقت به وعملت ممرضة في المستشفى الميداني، كنت لأيام عديدة لا أذوق طعم النوم العميق أو الراحة لما يتكدس أمام وداخل المستشفى من أكواخ الجرحى والجثث القادمة من جبهات القتال! ما جعلني افترق عنه هو افتقادي الصحبة الحنونة الدافئة معه. أرادني أن أكون مجرد زوجة مضمونة جاهزة، بعد العمل، أبقى في البيت، أعد طعامه وشرابه وثيابه وأنجب؛ بينما هو يقضي وقته في البارات مع عشيقاته وأصدقائه وموائد قمار ولهو، قررت أن اقطع هكذا لعبة سمنجة تعيسة! وأترك بسرعة هكذا حياة له وحده، أصغرى ماكس لي، ولم يقل سوى جملة واحدة صادقة "أنت محق يا أجياثا لم تظلميه، ولم تظلمي نفسك!" حدثني هو عن حياته؛ لم يكن ذا تجارب كثيرة، ولم ألح عليه في آية أسئلة لا بسيطة ولا محرجة، قبلت به كما رأيته، والحب الحقيقي أن تقبل شريكك ولا تحاول أن تعيد صنعه، فتلك قسوة أنت وهو في غنى عنها! أتركها للحياة. وجدنا أنفسنا في عنق حار بين خرائب أور الخالية المهجورة، بعد أن سرت منتشرة بجانبه ممسكة بيده شعرت أن أطيات نساء ورجال تخرج من حجارة جدران الماضي السحيق وتلوح لنا ببحبور!

كان العراقيون القدماء يعاقبون اللصوص والمختلسين ومفتاحي النساء والأطفال بالاعترافات البطيئة في أحواض المياه المسکرة، قبل أن ينزلوا عليهم الموت والعار الأبدى!

ركبنا سيارة حسين وأنا ابتسم، كيف لسيارة كهذه أن تسير بنا قرابة 300 كيلو متراً إلى مدينة نفر. ضحك ماكس وكأنه أدرك سر ابتسامتي قائلاً: لا تقلقي، حسين سائق ماهر يعتمد عليه! كان ماكس قد اعتاد التعامل مع حسين

وغيره من الرجال العراقيين العاملين في الحفر أو النقل والحراسة. وخبر طبائعهم، وطراحت عملهم. وينبغي أن أجاريء، ما دمت قد جئت إلى هنا؛ لا معنى لأية اشتراطات! صعدت بنا السيارة شمالاً. كان حسين مؤدباً ولطيفاً، يحدث ماكس عن بعض معالم الطريق ويورد حكايات وطرائف عنها، وعن سكانها. ماكس مع دراساته لأصول اللغة العربية في لندن صار هنا يجيدها وبلهجات أهلها، يحرص أن يترجم لي ما يجده مثيراً لاهتمامي. الطريق ترابية غير معبدة، ولا ممهدة وكثيرة المنعطفات، اهتزاز السيارة وصعودها ونزلوها المفاجئ جعلني أترنح، كنت سعيدة، فهذه لحظات مناسبة لأن يضع ماكس بها يده على ظهري أو كتفي ليسندني. دقات حنانه والهواء والشمس الناعمة، والسماء الزرقاء الصافية كلها تمتد في قلبي! قمة سعادتي! استرخنا في بلدة صغيرة تدعى عفج، أكلنا اللحم المشوي على الجمر مع أرغفة الخبز الساخنة. واصلنا رحلتنا،رأينا من بعيد برجاً كابياً، أمسك ماكس يدي: انظري تلك هي زقورة (نفر)! كنا بعيدين عنها كثيراً، 20 كيلو متراً تقريباً! قامة مارد محترق ينهض فجأة من عمق الصحراء! مصارعاً ليفلت من الأرض وينطلق ملتحقاً بزمنه الذي فارقه مرغماً. وصلنا (نفر) قال ماكس: نحن الآن على مسافة تقارب 180 كم من بغداد، جهة جنوبها الغربي قليلاً! وقف ملقياً نظرة إلى الأفق صامتاً كأنه يستعيد ذكريات عمله لفترة قصيرة هنا، هي العاصمة الدينية المجلة لدى السومريين والبابليين! لم يبقوا آلهتهم محلقة في السماء؛ أسكنوها هذا البرج العظيم، وحده يليق بها، تنزل الآلهة لتجول في الأسواق، وتدخل البيوت لترى أن كانت أئداء الأمهات تدر حليباً لأطفالهن، وإن كن هن يجدن طعاماً واحتراماً من أزواجهن . آلة مخلصة غير كسولة مدربة على أداء وظائفها في خدمة البشر لا في خدمة السماء، التي لا تحتاج البشر، أشار ماكس إلى بناء طويل منحن مقوس قليلاً: هذا من بقايا سورها، كانت مدورة، تقع على الفرات إلا أنها لم تكن منفتحة عليه خشية أن يتسلل إليها الغزاة منه، الآن انسحب الفرات عنها بمسافة طويلة، فأضحت الأرض يابسة مفتة. سور

هائل، ينم عن أهمية المدينة، وخطورة أعدائها! مشينا فيها نتعثر بكسر الأجر واللبنات التي تناشرت بعد أن تهدمت مبانيها بثقلآلاف السنين. أجهز على ما تبقى من آجرها أناس من هذا الزمن ليبنوا بها بيوتهم! كان البرج مهشماً متآكلًا، آيلاً للسقوط، ثمة قوة ما تبقيه واقفاً متربعاً كتمل يتلامس بقوّة لا تخلي من مرح آسر. أشعل ماكس غليونه، ينظر بألفة صديق لقاعدته الدائرية المتهدمة وقد بدت كهضبة. قال: كان ارتفاعه أكثر من سبعين متراً لم يتبق منه، إلا ما يقارب الخمسين متراً، ومع ذلك هو مثير حقاً، كان يسكن فيه الإله إيليل الذي كان يعد رئيس آلهة السماء كلها، واعتبروه آنذاك الأب الأعظم، وفيه معبده وحجرات الكهنة وحاشيّتهم المترفة، ولكرهتها الناطقين باسمه، الكلمة الحاسمة على بابل وأور والمدن والدولات الأخرى! يمنحون الشرعية لمن يشاءون، ويحجّبونها عنمن يشاءون، فما كان يتوج ملك، أو ينصب حاكم، في أية مدينة ما لم يحظ برعايتهم ويركتهم، يأتيهم الملوك والوزراء حاملين الهدايا والنذور لينصبواهم على عروشهم وكراسيّهم ويرشوا الماء المقدس على تيجانهم وصولجاناتهم، ويسمحون لهم بالبقاء أطول فترة في الحكم، أو يورثوه لأبنائهم! توقف ماكس، ليصافح حراساً، أشيب، قارب السبعين كان يعرفه، تقدم منه مرحباً ثم انصرف بتهدیب. عاد للكلام: هنا يا أجياث تجدين أوضح صورة على دور رجال الدين في صنع الحكم وتحريكيّهم كالدمى! أين يمكن لسائحة أن تجد عالم آثار بمنزلة وخبرة ماكس يكون دليلاً سياحياً لها؟ ما استخر جنا من هنا كنوزاً ومجوهرات وحلبي وتيجان تكفي لمتحف كبير. القلائد والأكاليل مصاغة كأعلى آيات الإبداع والإلهام، معجزات رقيقة حقاً! وعدني أن نذهب إلى المتحف الوطني في بغداد، لنراها معاً، وأشار إلى أدراج وسلام مهدمة: من هنا يصعد الكهنة إلى حجراتهم المطلة على السماء، متعالية على الناس! صارت هذه الأماكن لفترات طويلة ملادزاً للصوص وقطاع الطرق، واليوم يقصدها فقراء معدمون ينشونها حالمين أن أسلافهم تركوا لهم شيئاً من كنوزهم. هنا المركز التعليمي الكبير للسوريين،

يقصده طلابهم من شتى مدنهم لتعلم أصول لغتهم كما ينبغي أن تكون في المكاتب الرسمية. عاد ماكس يشعل غليونه، نسيه في غمرة شروحة وتلويحاته كأنه يخاطب إله وكهنة (نفر) الآن، قال: سميـت (نفر) تعنى (ضمادة الجروح) ربما لأن مجلس كهنتها كان يحل المشاكل التي تتعرض لها مدن العراق ويلئـم جراحاتها! وسمـيت أبـيدـو، أي الأـبـدية والـخلـود، لأن كهنتـها ما كانوا ليتصـورـا أنـ مدـيـنة بـهـذـهـ العـظـمةـ والـجـبـرـوتـ يـمـكـنـ أنـ تـبـلـىـ بـضـرـبـاتـ الزـمـنـ! ضـحـكـ قـائـلاـ وـسـمـوـهـاـ أـيـضاـ أـرـيدـوـ أيـ حـوضـ التـطـهـيرـ، يـؤـتـىـ بـالـفـاسـدـينـ منـ الـوزـراءـ وـالـموـظـفـينـ الـمـخـلـسـينـ لـلـمـالـ الـعـامـ وـالـمـرـتـشـينـ، وـمـنـ يـتـهـكـونـ أـعـراضـ النـاسـ، فـيـضـعـونـهـمـ عـرـاءـ فـيـ أحـواـضـ مـاءـ فـيـ مـادـةـ مـسـكـرـةـ، لـيـسـتـمـعـ القـضـاءـ لـاعـتـرافـهـمـ الـبـطـيـئـةـ، بـالـخـدـرـ وـالـمـرـحـ يـلـزـمـونـهـمـ بـإـعادـةـ مـاـ سـرـقـوهـ لـخـزـينـةـ الـدـولـةـ، وـيـعـذـرـونـ لـلـفـتـيـاتـ وـالـغـلـمـانـ الـذـيـنـ اـغـتـصـبـوـهـمـ مـسـتـغـلـيـنـ مـنـاصـبـهـمـ، وـيـعـوـضـونـهـمـ! وـإـذـاـ كـانـتـ جـرـائـمـهـمـ كـبـيرـةـ، يـحـكـمـ عـلـيـهـمـ بـالـعـارـ الـأـبـديـ، وـيـعـدـمـونـ! صـعدـنـاـ درـجـاتـ مـنـ البرـجـ، أـطـلـلـنـاـ عـلـىـ فـضـاءـ فـسـيـعـ وـقـرـىـ وـبـسـاتـينـ، وـأـرـضـ قـاحـلةـ، نـزـلتـ بـحـذـرـ وـهـدوـءـ مـمـسـكـةـ بـيـدـ ماـكـسـ، مـطـمـئـنـةـ تـمـلـأـنـيـ نـشـوةـ الـماـضـيـ وـالـحـبـ مـعـاـ. سـرـنـاـ فـيـ دـرـوبـ مـسـتـقـيمـةـ وـمـلـتوـيـةـ، أـدـهـشـنـيـ ماـكـسـ أـنـهـ يـعـرـفـهـاـ كـانـهـ كـانـ قـدـ سـارـ فـيـهـاـ قـبـلـ أـرـبـعـةـ آـلـافـ عـامـ، يـؤـشـرـ بـثـقـةـ وـدـرـايـةـ عـلـىـ بـعـضـ الـمـوـاـقـعـ، هـنـاـ كـانـتـ أـوـلـ مـكـتـبـةـ، وـجـدـنـاـ فـيـهـاـ أـقـدـمـ الـقـوـانـينـ وـبـيـنـهـاـ لـائـحةـ عـنـ حـقـوقـ الـإـنـسـانـ، وـنـظـرـيـاتـ وـخـرـائـطـ فـيـ عـلـمـ الـفـلـكـ، تـقـوـيـمـ زـرـاعـيـ، مـلـاحـمـ وـقـصـائـدـ مـدـهـشـةـ، وـجـدـنـاـ مـخـطـطـ مـلـعـبـ كـرـةـ الـقـدـمـ وـقـوـاعـدـ لـعـبـهـاـ! هـنـاـ اـفـتـحـ أحدـ أـنـصـارـ جـلـجـامـشـ صـيـدـلـيـةـ مـتـنـظـراـ أـنـ يـكـوـنـ أـوـلـ دـوـاءـ بـيـعـهـ فـيـهـاـ هوـ عـشـبـ الـخـلـوـدـ! وـبـعـدـ أـنـ عـادـ جـلـجـامـشـ مـنـ لـبـانـ أوـ الـبـحـرـيـنـ، خـالـ الـوـفـاضـ، بـدـأـتـ الصـيـدـلـيـةـ تـبـيـعـ زـهـورـاتـ تـطـرـدـ الـغـازـاتـ، صـدـمـةـ حـتـمـيـةـ الـمـوـتـ، وـالـإـفـلاـسـ مـنـ الـخـلـوـدـ، أـصـابـتـ الـكـثـيـرـيـنـ بـالـهـبـابـ الـقـوـلـوـنـ! ضـحـكـتـ مـعـهـ سـعـيـدةـ وـقـدـ سـرـنـيـ إنـ لـدـيـهـ رـوـحـ النـكـتـةـ! نـفـثـ دـخـانـ غـلـيـونـهـ قـائـلاـ، قـبـلـ أـنـ أـتـيـ إـلـىـ هـنـاـ مـاـ كـنـتـ أـنـصـورـ أـنـ سـكـانـ هـذـهـ الـأـرـضـ قـدـ أـنـجـزـواـ ذـلـكـ قـبـلـ خـمـسـةـ آـلـافـ سـنـةـ، مـاـ هـذـاـ الـانـكـفـاءـ

الرھیب والسلوٽ فی الظلام بعد ذلک؟ سأله: هل هو الطوفان؟ لا، لا! قالها بسرعة وتأکید هذا حدث عابر وقد هول كثیراً! استدار مظللاً عينيه بکفه مصعداً بصره إلى أعلى البرج، من هناك كما تقول الألواح المكتشفة صدرت الإشارة بالطوفان، وإلى أتونوبشت المسمى نوح بناء سفينته! هل توجد لديكم أدلة قاطعة على حدوث الطوفان؟ ابتسם قائلاً: ليس بالشكل الذي تصوره الألواح القديمة والكتب المقدسة طبعاً، هذه أرض كثيرة الفيضانات، وتهطل عليها أمطار غزيرة أحياناً، ولا يستبعد أن غمراً مائياً هائلاً قد حدث، دمر مدناً وقرى و مواقع كثيرة، ومن الطبيعي أن يلجم الناس إلى سفينه، وملاح. مخيلة الناس تنسج أكثر مما نسج الماء! أعجبني في ماكس إنه عقلاني رغم إنه يستمتع بالأسطورة والخرافة، يضحك منها كطفل يعيد سرد حكاية الجدة لنفسه، أو يعيد تركيب دميته! عند عودتنا إلى السيارة ألقى ماكس نظرة شاملة إليها كأنه يودعها قال لقد ظلت (نفر) مأهولة بالناس لسيطرتها الدينية القديمة في نفوسهم رهبة وخشية، ثم ماتت وانقض الناس عنها عند دخول المسلمين أرضها، اعتبروا معبدها وطقوسها ضرباً من الوثنية، من حسن الحظ إنهم لم يدمروها، اكتفوا بإدارة ظهورهم لها! عدنا إلى الديوانية، بتنا ليتلتنا في فندق فقير رث، حيث لا يوجد غيره، وفي الصباح قمنا بجولة قصيرة في المدينة، لم نجد شيئاً مميزاً سوى أن أسواقها كانت تضج براحلة الرز العنبر، رائحة فاغمة عطرة لم أشم مثيلها حتى في أسواق التوابل التركية والهنديّة، أما مذاقه وطعمه فلا رز يضاهيه أكلته في حياتي! قال حسين إنهم يصدرون الكثير منه إلى بلاد الإنجليز، لكنني لم أكن رأيته هناك!

لم يفلت النهران في العراق يوماً من باب المعبد الكبير في نفر،  
يمران عبره، الكهنة يتاجرون بما يهبان من سمك وقمح ولبن،  
ويلقون فيهما نفایاتهم وأشباههم!

قال حسين؛ سألهني كثيراً يا ماكس، عن طقوسنا الدينية، الآن جاء وقتها،

فهي في ذروتها هذه الأيام! ما رأيك؟ نظر ماكس كأنه يسألني هل أنت متبعة هل أنت بمزاج لذلك؟ وافقته على الفور هي رحلة شاقة، لكن لا بد من العودة إلى الناصرية؛ فقط علينا أن نغير في طريقنا. راحت السيارة تنهب الطريق، لاحت لنا من بعيد قبة كبيرة كأنها جبل من الذهب يشع تحت الشمس، تقدمها مناراتان. قال حسين وصلنا النجف، ذاك هو مرقد الإمام علي! ظل يشع أمامنا بقوة كلما اقتربنا منه. أوقف حسين سيارته قرب السوق الرئيس القديم، وسرنا نحو المسجد الكبير الذي ضم الضريح. صرنا على الفور قبلة أنظار الناس وفضولهم، راحوا يتفحصوننا بنظرات مستطلعة نهمة لا تخلي من استنكار وغضب، بدا لي إن بعضهم يوشك أن يتلمسنا ليرى أن كنا كائنات غريبة قادمة من كوكب آخر. قال حسين قبل فترة ليست بالطويلة كان من النادر أن يسمحوا للأجانب بدخول المرقد. الآن صاروا أقل تشدداً، لكنهم لا يتسامحون مع من لا يراعي تقاليدهم، استطاع حسين أن يستعير لي عباءة من أحد البيوت القرية، تسللت بالعباءة السوداء، همس لماكس كأنه يفضي بسر موجهها نظراته لي وكأنه يريد أن يسمعني ذلك تحذير: المتدينون يعتبرون وجه المرأة عورة، وعيوب يجب أن يستر، فما بالك بسيقانها وشعرها! سور المرقد بجدران ضخمة. دخلنا من باب عريض شاهق الارتفاع مقوس بشكل فخم ومقرنص بزخارف، وجدت أنني يجب أن أتخلى عن حذائي وأودهعه عند رجل يحتفظ بصفوف كثيرة من الأحذية، وأدخل حافية. صرنا وسط ساحة كبيرة، فيها مئات الرجال والنساء بعضهم وقوف خاشعين وبعضهم منكفئون على الأرض أو على الجدران العالية من الإعياء بعضهم يأتون سيراً على الأقدام من أماكن بعيدة، وبعضهم مرضى ميؤوس منهم، جاءوا يرجون الشفاء! صفوف طويلة من الرجال والنساء والأطفال بملابس بالية وسخنة يعتصرهم الجوع، ومع ذلك جاءوا باكين شاعرين بالذنب يتهللون بأدعيةهم وطلب شفاعة إمامهم ليكون شفيعهم في خلاصهم من مرض أو محنـة، وإذا لم يكن مفر من الموت؛ يدخلهم

الجنة، فهو شفيع موثوق مرجعي دائم عندهم! ثمة حمام وعصافير يبحث عن فئات أي شيء يأكله! قال لنا حسين هم يقطعنون من خبزهم وكساءهم لكي يأتوا ببعض النقود يلقونها من شباك الضريح أو يعطونها لرجال على رؤوسهم عمامات خضر لكي يساعدونهم في إتمام زيارتهم، كان القاشاني الذي يكسو الجدران مزيناً بزخرف زهور وحروف جميلة. عرفنا أنهم ينونون إعادة أكساء قباب المسجد بالمزيد من الذهب والفضة فشمه تبرعات كبيرة تأتي من الشيعة في إيران والهند والباكستان. دخلنا ردهة الضريح الكبيرة المفروشة بالسجاد التبريري العريق، والقبر محاط بهيكل كبير مشبك من الفضة اللامعة المسربلة بحرير أخضر مشرشب. ثمة زائرون وبعضهم فاقد البصر يمسكون بالشبابيك باكين متسللين! رجال بملابس دينية يتحركون بين الزائرين يتناولون من أيديهم القطع النقدية أو الحلبي الذهبية. تغدinya في مطعم قريب، ماكس يفضل أكل المشويات في هذه المطاعم لأنه يستطيع التأكد من نظافتها، قال حسين أرأيت الأشرطة الخضر المعقودة على جوانب الضريح؟ هي لزوار لديهم مشاكل أو علل صعبة آملين أن يحلوها إمامهم! حين يأتون بعد أيام لا يجدونها عادة، إذ يكون الرجال القيمون هنا قد حلواها وباعوها لغيرهم، لكنهم يعودون فرحين معتقدين أن مشاكلهم قد حللت! نظرنا أنا وماكس إلى بعضنا قال ماكس هذه لعبة بعض رجال الدين حتى في زمن السومريين والبابليين! وقد شاعت في الكنائس أيضاً! انتقلنا إلى مقهى، جلب لنا حسين حلوى الجزر المطبوخ بالسكر والتوابل المعطرة، قال لي ماكس ونحن نغادر المكان متوجهين إلى السيارة، في كل حفرياتنا هنا نكتشف أن الكهنة دائماً هم الأسياد، الناس يكدون ويتعبون ليقدموا لهم ثمار عرقهم، فيعدونهم برضاء الآلهة وبركاتهم، كل التراب الذي نقينا فيه يكاد يكون عظام الملوك والكهنة وال فلاحين والفقراء معاً، صرت مقتناً أكثر، رغم أن المال والسلطة، وكل شيء سيصير رماداً، لكن الكهنة في كل العصور قبل غيرهم يصررون على جشعهم وطمعهم!

- ولكنكم وجدتم قوانين وعجلات وقيثارات وألواح شعر وملامح وخوابي  
خمور في معابدهم!
- أطلق ضحكة فرحة كطفل:  
ـ كهنة ذلك الزمان لم يجدوا تعارضاً بين تقدم الحياة، والعبادة، لذلك بنيت حضارة، ومضى الإنسان صاعداً مراقي النور والمعرفة!  
ـ لكن لم يمض كل شيء بهدوء وسلام وعلى ما يرام دائماً.  
ـ نعم، والناس آنذاك لم يكونوا تعساء كما هم اليوم!  
ـ كانت السماء مقسمة كالأرض على عدة آلهة يدخلون في مسابقة يومية كل يريد أن يمنح رعاياه ما يشده إليه، تعرفين كان هناك إله للنطر وإله الحرب وإله للحب وحتى إله للخمر والخصب، وربما حتى إله للنفايات؛  
ـ إبراهيم الخليل صمم السماء بمهندسته البارعة: إله واحد أعظم، يقابلها على الأرض ملك واحد مطلق السلطة! منذ ذلك الحين صار الحاكم هو الوجه الثاني للإله فعم الاستبداد والتطرف!  
ـ سكت برها، وأشعل غليونه:  
ـ أتعتقدin إننا نحفر في الأرض فقط؟ لا يا عزيزتي، نحن نحفر في السماء أيضاً!  
ـ وأين وجدت الله؟  
ـ نظر في وجهي، أطلق ضحكة قصيرة خافية سريعة:  
ـ كيف عرفت إنني كتبت في يومياتي، "ينبغي أن لا نبحث عن الله في السماء، بل على الأرض، وتحتها وفي عظام البشر المتسخة، وأحلامهم المحطمـة، وإذا لم نجده هنا؛ فيجب أن نجده هناك، إنه حاجة قصوى!"  
ـ قلت متصنعة الغضب وأنا أضحك في سري:  
ـ لا تنس يا ماكس إنني جئت إلى هنا من أجل إبراهيم الخليل!  
ـ أنا أيضاً أجل أولئك الباحثين عن النور، شقوا طرقاً في الصخر والنار، لكتني أتوقف أمام ظاهرة ميلاد الدين كسلطة. لا روحًا منعشة تواسي

الإنسان في وجوده الصعب والمؤلم.

أخذت يده، ضممتها في يدي، فاستسلمت لي دافئة كطير صغير، رمقي  
بحنو، ولو لم نكن في هذا المكان، لتعانقنا طويلاً! عدت أردد في سري، أنا  
جئت إلى هنا من أجلك يا ماكس!

رحت أسرح بصري مع الأفق المتوجّه بشمس ساطعة بقوّة. وجدنا ثمة  
أشخاصاً وقفوا يتأملون السيارة وكأنها حيوان غريب، هم محقوّن، بعضهم  
لأول مرّة في حياته يرى سيارة، فالسيارات ليست كثيرة، بل هي نادرة. مررنا  
بمقبرة هائلة أشار حسين قائلاً:

- هذه أكبر مقبرة في العالم كل يوم يدفن بها المئات، الشيعة يحرّصون  
على أن يدفنوا إلى جانب إمامهم، فيطمئنون داخل قبورهم! الموتى في  
أماكن بعيدة، يدفنونهم هناك بشكل مؤقت كأمانة، ريشما ينقلونهم إلى هذه  
المقبرة ولو بعد سنين طويلة، الإيرانيون والهنود يرسلون جثامين موتاهم  
إلي هنا، وكم جاءت إلينا معها من أوبئة وأمراض، أمرنا الله!

استقرت السيارة على طريق كربلاء، قال ماكس:

- اسم كربلاء، غير غريب علي فهو يعني في البابلية (قرب الإله)، كانت قرية  
بابلية، ثم أصبحت بلدة مسيحية فيها أديرة وبساتين كروم ومعاصر خمور،  
وعرفت بمقتبرتها الكبيرة، لكن كل ذلك تغير إلى شيء آخر تماماً!  
في مركز المدينة حيث ضريحي الحسين والعباس، واجهتنا جمهرة  
هائلة من رجال ونساء ي يكون وينحبون يحيطون بصفوف طويلة من شبان  
بشّاب سود وصدور عارية يلطمونها بشدة ويرددون الأهازيج الحزينة، آخرون  
يضربون ظهورهم بحزم كبيرة من السلال الفولاذية، حتى تورم وتتفجر  
دماء! بعضهم يضربون رؤوسهم بسلاسل الفولاذية، لا يستطيعونها وتسلّل الدماء منها  
على ثياب بيضاء هي أكفانهم كما شرح لنا حسين:

- إنها أكثر المناسبات حزناً هنا، أنا شيعي أحب الحسين وأجله كثيراً، لكتني  
لا أستطيع مشاركتهم اللطم وضرب أجسامهم بالزناجيل والسكاكين! هذه

طقوس جلبها لنا الصفويون!

قال ماكس:

- والصفويون أخذوها عن فرق مسيحية مهووسة في إسبانيا كانت تصعد  
الجبال العالية إلى كنائس وأديرة زحفا على ركبهم حتى تسلخ ويتسلط  
لحمها بين الصخور والأشواك!

انتابني الخوف من مرأى الدماء والصرخات الحادة الفظيعة قال  
حسين:

- وصلنا متأخرین، لم نشهد المعركة الأخيرة التي قتل فيها الحسين،  
ويعيدون تمثيلها كل عام، يأتون ب رجال بنفس ملابسهم القديمة ولحائهم  
وسيوفهم وخيوطهم، وتجري المعركة، فيرسخونها في أذهان الناس جيلا  
بعد جيل، فلا تنسى، ولا تغفر!

أضاف بنبرة متحججة مكبوبة:

- ما يؤلمني ليس ما يسيل من دم هنا، بل ما سيسل من دم إذا بقينا متفرقين  
شيعة وسنة! أنتما إنجلزيان، أقول لكم أن حكومتكم بدوا من أن تساعد  
الشيعة والسنة على التقارب والتفاهم، عملت على تباعدكم وفرقتمهم  
أكثر!

كان ماكس يصغي له مبتسمًا ويترجم لي، قلت لماكس:  
- أنت لم تخطئ باختيارك حسين مساعدًا لك!

هز ماكس رأسه موافقا، شعرت أنا بالحزن أن يختلف أبناء البلد الواحد  
ويتباعدون على قضايا حدثت قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام، وأن لا  
يفهم الإنجلizer رعاة هذه الدولة أن عليهم مثلما حرروهم من العثمانيين أن  
يساعدوهم للتحرر من النزعات الطائفية والتوحد في وطنتهم!

هز ماكس رأسه بحزن، وقلق واضحين. قال:

- لقد بنى الإنجليز لل العراقيين دولة، لكن هذا ليس كل شيء، هم لم يدركوا  
أن النهرين في العراق لم يفلت يوما من باب المعبد الكبير في نفر، يمران

عبره، الكهنة يتاجرون بما يهبان من سمك وقمح ولبن، ويلقون فيهم نفایاتهم وأشباههم!

توجس قلبي، هل سيكون مستقبل العراق كما تعلم به صديقتي عائشة؟ وكما يريده حسين هذا الرجل الطيب؟ لم أجد ما أقوله فلذت بالصمت! وعندما رأيت نساء يأتين بأطفالهن لرجال، كالحي الوجوه، بآيديهم سكاكين لشج رؤوسهم ومبركتهم كما شرح حسين؛ لم أستطع أن أحتمل منظرهم، فجذبت ماكس وسرنا باتجاه السيارة، واجهتنا سحب دخان وروائح قوية لرز ودسم ثقيل، كانوا يطهون بقدور كبيرة، كأنها قوارب مدورة، قال حسين، هذا الطعام التقليدي للمناسبة، اللحم المهروس مع الحمص، وفي قدور أخرى الرز الفاخر، سأل حسين: ما رأيكم أن تتذوقوا شيئاً منه؟ كانت شهيتني قد انسدت فعلاً من رائحة الدم البشري المسفوح، خاصة دم الأطفال، فانسحبنا مسرعين. بقينا في السيارة صامتين، سيطر الوجوم علينا، لكن حسين ظل مستشاراً قال:

- رجال دين هددوني لأنني أرسلت ابني إلى المدرسة، قالوا إذا أرسلت ابتك سنتقتها، الإقطاعيون هددوا الفلاحين بالطرد من أراضيهم، إذا أرسلوا أبناءهم للمدارس، هم لا يريدون لأبناء الفلاحين أن يكونوا أطباء ومهندسين وضباطاً، كيف يخضع فلاح للإقطاعي إذا صار ابنه ضابطاً أو معلماً؟ الظلم الذي يقع علينا هو من مراجعنا وساستنا، وبكل خبث يلقونه على الآخرين!

لم يعلق ماكس بشيء، اكتفي بالنظر إلىي، قال حسين، علينا أن نسرع قبل الظلام وينفس الوقت نسير بهدوء وحذر على طريق غير معبد، ثم أخلد للسکينة، قدرت إنه كان في كرب وهم ثقيلين، ويبحث عن يشه شکواه، ووجد في ماكس وبي من يصفعي له.

رحت أتأمل الطريق، الأرض قاحلة يحتضنها نهران عظيمان، وينبغي أن تمرع بالنبات؛ لكنها الآن صحراء قاحلة، ومع ذلك كأنني أقرأ على ترابها

المتصاعد مع الرياح الكثير من الكلمات ممزوجة بالدماء التي سالت عليها في معارك قديمة شتى، وعسى أن تنسى. شعرت بالتعب، عانيت من اهتزاز السيارة وكثرة انعطاف الطريق الموحش، حسين يسابق الشمس قبل أن تغرب، ويحل الظلام، ولا مصباح في شوارع المدن. ومصباح السيارة كما أعلمنا حسين عاطل. دخلنا الناصرية كالمنتصرين، توافت السيارة بنا عند باب بيت لومبارد مع آخر خيوط الغروب!

**قالوا لي إن الذي خطفها من الإنجليزي هو صوت المغني الريفي الجميل، وأين أنت من مكرفون الإذاعة؟**

وأعود للسفر إلى بغداد، صرت أشتاق لسليم حتى لو لم يحدثني بجديد عنها، ألوذ به وأجد شيئاً من الحماية والأمان، فرغم إني من دولة تستعمر هذا البلد لكنني أبداً لا أجده نفسي مرتبطاً بها أو بأجهزتها أو فكرها الاستعماري، وما ترددت على سفارتها إلا لصداقة شخصية تربطني بكلون! شدني سليم بطبيته وخبرته وصدقه، لم يكن يتذمر من لقاءاتي معه حتى وهو منهك محبط من العمل أو هموم السياسة، ما زال يهتم بها كثيراً رغم إنها أفقرته وجابت له نسمة الكثرين كما حدثني، جلسنا في البار البسيط المفضل لديه، بداية كورنيش النهر، فجأة راح يضحك:

- اسمع آخر أخبار محبوبتك، قصة طريفة، من الواضح أنها مختلفة لكن من الممتع سمعها!

- لا أخفى عليك، صرت أحياناً أركن إلى أنها مجرد حلم جميل، علي أن أعيشها سعيداً في قلبي، لكنني في أحياناً أخرى أعود لأقول لنفسي بل هي حقيقة ويجب أن أواصل البحث عنها، بل ثمة حالة غريبة أخذت تعترني هذه الأيام، صرت أتطلع في وجوه نساء الهرور أبحث عنها، وأقول لنفسي، إنها هنا بينهن، لماذا أبحث عنها بعيداً؟!

- لا فرق بين الحلم والواقع سوى كأس عرق واحد، شرط أن يكون من

طلب لي أطباق مزة وعصير فاكهة، تجرع كأس العرق دفعة واحدة، أخذ يحدثني ضاحكاً:

- قبل شهر تقريباً، جاءني رجل يعمل معي مخبراً في الجريدة، وبعد نفسه خبيراً ملماً بالنشاط الفني في بغداد، كان يعرف إنني مهتم بأخبار بنت المعيدي؛ أتقصد أية معلومات عنها، كنت أعرف أن هؤلاء المخبرين، وأنا واحد منهم، يكتبون أغلب أخبارهم في الحانات حين يبلغ بهم السكر حد التعتعة، وحتى أخبار صححوهم تأتي عادة مختلفة مبالغ فيها. صاحبي هذا يقضى لياليه وأوقاته متنقلًا بين السينمات والبارات والملاهي الليلية، وبيوت المومسات. لكنني رحت أصغي له بلهفة آملاً خيراً! قال: تأكد لي أخيراً أن بنت المعيدي قد اختطفت من ضابط إنجليزي واتخذها زوجة له رغم إرادتها، لكنه لم يطر بها إلى لندن كما يشيعون، جلبها لعيش معه في الجبانية القاعدة الجوية العسكرية الغربية بغداد، حيث يعمل أمراً للطيارين. أسكنها بيته فخماً بني على الطريقة الإنجليزية. ظلت تكرهه مزمعة الهرب منه في أقرب فرصة، متظاهرة أنها صارت تحبه ليأمن جانبهما. كانت تعشق المغني الريفي الشهير حضيري أبو عزيز، أغرتت بصوته الجميل عندما سمعته من كرامافونات المقاهي حين كانت تمر بجانبهما وهي تبيع اللبن في الناصرية، وفي البصرة، ثم من الراديو حين صار في بيته الكبير الأنثيق. وجدت أن صوته يعيدها إلى شواطئ الأهوار، استطاعت التسلل من بوابة القاعدة. ووصلت الطريق العام، حملتها سيارة عابرة. في بغداد راحت تسأل من هذا وذاك، حتى وصلت دار الإذاعة. لازمت مدخلها طويلاً، التقت بحضيري، فبهر بجمالها، قرر أن يودع حياة الأعزب اللاهي والتنقل بين أحضان عشيقاته الكثيرات اللواتي هن عادة من راقصات الملاهي وغوانبي بغداد المتهتكات، ويركن إليها فهي في جمالها وجهاً لها تفوق كل من رأى من فتيات أتين من سوريا ولبنان

و مصر! ازدلت قناعة أن ما يتحدث به هو من خياله الخصب في تلقيق الأخبار، والتي كانت جريتنا تنشرها له لقاء دريمات قليلة؛ لأنها متقنة السبك. وهذا حالنا نحن الكتاب والمخبرين، فلماذا أحاسبه بصرامة؟ مضيت أصغي له، وأوجه له العديد من الأسئلة بكل جدية واهتمام فحتى إذا لم تكن بنت المعيدي حقيقة وقد صارت قريبة منا إلى هذه الدرجة فالقصة كانت جذابة مغربية. طلبت منه أن يرتب لي لقاء مع حضيري. قال إن هذا المطرب المشهور، لا وقت لديه للقاء الصحفيين، ولقاوه صعب جداً، أعرف أن المخبر يهول الأمر ليفوز بمكافأة جيدة. أعطيته بعض المال كمقدمة أتعاب! رتب لي وبسرعة موعداً معه. كنت أعرف أن ما نريد الوصول إليه ليس هنا، فهو موضوع حساس ويعد تدخلاً في حياته الخاصة، اتفقنا أن نقول له أننا نريد لقاء حول أغانيه المثيرة التي يجلس الناس أمام الراديوهات ساعات كل يوم جمعه يتظرونها، ما سرها؟ وما هذه المعجزة التي اسمها صوت حضيري؟ ثم ندس بين الأسئلة سؤالاً قد يوصلنا إلى حقيقة القضية! قابلناه في مقهى صغير مقابل دار الإذاعة، طرحنا عليه الكثير من الأسئلة الفنية للتلموية، ثم أخيراً طرحت عليه السؤال المفتاح الذي جئنا من أجله:

- هناك رسائل تصلكنا إلى الجريدة من معجبات تسأل إن كنت متزوجاً، بينما رسالة من سيدة حسناء ثرية جداً، معجبة بك، لذا نريد أن نعرف متى يا فناننا الكبير تودع فترة عزوبتك الطويلة وتدخل القفص الذهبي؟
- أبدى تعاليماً وعجرفة:
- ألا تعرفان أن الوصي عبد الإله يغار مني لكثرة ما لدى من معجبات؟
- أسألاً الوصي عن أخباري الغرامية، فهو سيجيب نيابة عنني؟
- ومن يستطيع الوصول للوصي غيرك؟ ثم نحن نسأل عن زوجة، لا عن معجبات!
- أنا لا أتزوج! سأبقى محاطاً بالمعجبات الكثيرات، بدونهن لا أستطيع

أن أغني وأنظم أغاني واضح إلحادي، منهن أستمد إلهامي، وإليهن فقط  
أوجه أغنياتي، ولا أتصور الناس حول الراديو سوى أنهم جاءوا لزفافي  
إلى حبيبتي!

توقف قليلا ثم قال:

- ولكن من هي هذه المعجبة الغنية الحسناء؟

- إنها بنت المعيدى، المنتشرة صورها في كل المقاهي والفنادق فهى كانت زوجة تاجر كبير مسن في بغداد، توفى وترك لها كل ثروته الكبيرة، أطلق ضحكة:

- هذه زوجنى الناس منها ظلما عدة مرات، بل كانت مرات طلاقى منها أكثر من مرات زواجى، لو حصلت على بنت المعيدى زوجة لتوقفت عن الغناء وجلست أمامها أعبدها، وأغنى لها فقط!

عاد يلح علينا:

- هاتوا لي عنوانها، لا أريد لمعجبة تحلم بي ولا تستطيع أن تصلك إلى، هذه قسوة وأنا معروف عنى حناني وعطفي على حبيبتي!

تأكد لنا أنه لا علاقة له ببنت المعيدى! وإنها ما زالت حلما مفتوحا لكل رجل، أو إنها حلم، ويأس يستطيع أن يحل في قلب أي إنسان! شكرت سليم على ما يتحمله من متاعب لأجله، قلت له إنني كنت أسمع من بعض أهل الأهوار؛ أنها هي الآن زوجة حضيري، وقد بحث عمارة في ذلك كثيرا، سأل من أشخاص على صلة حميمة بالمعنى من أهل الناصرية، وفي العمارة والبصرة، وقد تأكد لنا أن لا صحة لذلك، وإن حضيري يتنقل بين عشيقات كثيرات. وإن ما جعلهم يعتقدون باقترانه بها؛ هو أنهم وجدوا أن لا شيء يليق بجمال وجهها سوى جمال أغاني هذا المطرب الريفي الجنوبي يحمل صوته رائحة أهوارها وزهورها ونسائها. ذلك جعلني استمع له ومثلهم صرت أحب صوته وأغانيه، شرح لي عمارة بعض مقاطعها، فوجدتها ممتعة زاخرة بالصور الساحرة، وجدت أن محبوبي تحدثني من داخلها!

قالت العرافية: أنت لم تخلق لامرأة، ولم تخلق لك امرأة! هل  
أصدقها؟ أم أظل سائرا نحو ذلك الوجه الجميل؟

عند عودتنا من الناصرية؛ انعطفنا في طريق مائي طويل لم يسبق لنا  
ولوجه، سألني ياسين:

- أتريد أن تقرأ لك العرافية مكية حظك!

كنت أسمع عن العرافات والعرفانيين هنا، فأبراهيم امتداداً لكهنة السومريين  
والبابليين، ويزيدني قناعة بأن أصل عرب الأهوار، سومريون، قلت:  
- ذلك جميل!

خطر لي أنها ودون سؤال مني؛ ستحدث عن فاطمة، فهي عرافية كما  
يقال! كان ياسين يقود المشحوف بحذر خشية أن يجتمع داخل أكمة قصب؛  
فتجر حنا أوراقها الحادة:

- مكية قبل أن تصير كاهنة كانت أعظم وأشهر عاشقة في الأهوار قاطبة!

- لماذا لم تحدثني عنها قبل الآن؟

- كنت أظنك ستسخر مني!

- وكيف أستخف بعاشقة شهيرة، وحفيدة كهنة!

عاد يبتسم مسيطراً على المشحوف بأنه فارس على مهرة؛ طاوته بعد  
عناد، فوجده إلى مسلك يخلو من الموج، شمس الضحى تكاد تجعل الماء  
ذهباءً، مضى يتحدث:

- حكايتها غريبة وعجيبة، وكانت كما حدثني أبي؛ الشاغل الأكبر لأهل  
الأهوار كلها من الأعلى حتى جزر مجنون، لكنهم بعد ما حدث لها من  
تحول، سكتوا عنها، بل صاروا يخشون ذكرها!

توقف متلفتاً حيث لاح غير بعيد قارب بخاري كبير، إذا مر بنا فستجعل  
الأمواج الهائجة التي يخلفها وراءه قارينا يتآرجح، وربما ينقلب، لهذا عليه أن  
يبعد عن مساره! ما قاله عن سكوت الناس عنها جعلني أعرف سر جهلي بها،  
رغم اجتهادي في التقصي عن اهتمامات الناس، قال:

- مكية ابنة شيخ عشيرة، جميلة جداً، أجمل فتاة على الصفاف، (خنق قلبي)، هل هي بنت المعيدي؟ لكن لسانه مضى في منعرج آخر) هي ليست من عرب الأهوار بل من العرب الأقحاح. أحبها شاب جميل وشجاع يدعى ساجر، ابن شيخ عشيرة أيضاً، بادله الحب ولكن المصيبة، هي أن لعشيرة ساجر مع عشيرتها عداوة قديمة وشديدة، فشلت كل محاولات الصلح بين العشيرتين؛ دبرتها مكية بهدوء ومن وراء ستار، طال انتظارها سنوات، وسنوات. كانت مكية ترفض كل من يتقدم لخطبتها رغم أن بعضهم أبناء شيوخ وأمراء. وكان ساجر يرفض الزواج من غيرها رغم أنهم عرضوا عليه فتيات جميلات وبنات شيوخ وأمراء. صار جمالها يذوي ويلاشى صابرة متظاهرة أن يصلح الله قلوب المتعادين من العشيرتين ويحل السلام ويتوسّج جبهما بالزواج السعيد، ويعيشان في رغد وهناء بعيد عن أحقاد العشائر التي لا تنتهي إلا لتببدأ! ولكن العداوة ظلت تختر الأكباد، ولا تخلف سوى العذاب والشقاء للجميع! في فجر يوم ربيعي رائق، ركبت مكية واثنان من أعز صديقاتها خيولهن وذهبت إلى ساجر، الذي كان يتظاهر ملهوفاً، كانت الفتاتان هما الشاهدان على زواجهما! عاشا متخفين في الأهوار هائتين بجههما وقد انتصر أخيراً! اشتغلت القبائل كلها استنكاراً وغضباً على هذا التحدى، وصارت تطارد الحبيبين تريدهما. فهكذا انتهاك لعرف العشائر يعني بنظرهم فناء حياتهم! فتصور يا عم ولفريد ما سيحدث! اجتمعـت ثمانـي عشـائر وقررت قـتل سـاجر! هـيأـوا ثـلـاثـة من الرـجـال الرـمـاـة المـتـمـرـسـين بالـقـتـل غـيـلة، والـتـصـوـيـب الـذـي لا يـخـطـئ. أعـطـوهـم بـنـادـق وـرـصـاص جـمـعـوه بـيـنـهـم، خـلـطـوه بـكـيس وـخـضـوه كـمـا الـلـبـن حـتـى يـرـوـبـ، لـكـي يـتـوـزـع دـمـه عـلـيـهـم فـيـضـيـعـ الثـأـرـ. كان محـورـ المـتـحـالـفـينـ منـ العـشـائـرـ هـمـ أـفـرـادـ عـائـلـتـهـاـ فـهـمـ لـاـ يـنـسـونـ لـهـاـ غـدـرـتـ بـهـمـ، وـخـدـعـهـمـ، إـذـ اـقـرـنـتـ بـحـبـيهـاـ غـيـرـ مـكـتـرـثـةـ بـمـاـ لـحـقـ بـهـمـ مـنـ عـارـ وـأـذـىـ! وـقـدـ أـزـمـعـواـ عـلـىـ قـتـلـهـاـ وـلـكـنـ بـعـدـ أـنـ يـتـهـوـاـ مـنـ سـاجـرـ أـوـلـاـ. قـتـلـوـاـ

ساجرا فجرا في نفس الوقت والمكان الذي تزوج فيه مكية! وبينما عجز أبوه وأخوته عن الأخذ بثأره، قررت مكية أن تقف وحدها في وجه ثمانى عشائر، فانبرت بكل عزيمة وإصرار تقاتلهم متوقعة في أية لحظة أن تنازل أباها وأخوتها في معركة مفاجئة أيضا! فتصور يا عم ولفريد كم هذه المرأة رهيبة عجيبة! كانت تتنقل وتتحفى في مكان لا يعرفه حتى الشيطان من زوايا غابات القصب والبردي! تصوّر امرأة وحيدة إلا من بندقية حبيبها القتيل، تشن الحرب على أهلها المتحالفين مع ثمانى عشائر، تكمن في الأهوار الشاسعة، ثم تشن هجومها على أهلها في الضفة اليابسة. تحولت مكية إلى شبح أسود يختفي في ظلام الظهر، يتنقل بين مغاور الخنازير المتوحشة، والثعابين السامة، ولا يظهر إلا حين توّمض فوهة بندقيتها بالنار لتصرع رجلا من هذه العشيرة أو تلك! كانت تصوب بدقة وأحكام ولا تقتل إلا في القلب، لأنما ت يريد أن تقول سأنقل نار قلبي إلى قلبك، وأريك لظاهما! مدركة أن ما لديها من رصاص هو قليل محدود، وينبغي أن لا تطلقه عبثا، ظهرت ذات يوم في مضيف شيخ عشيرة شبحا كما اعتادت أن تظهر، كانت قد قتلت أحد رجاله لتحداته، وجاءته اليوم قائلة: - اعترف لك أن شظية من رصاصك أفقدتني إحدى عيني، ولكنني بهذه العين الواحدة سأصر عكم جميعا! واختفت كما ظهرت! بدأت الإشاعات تسري أن مكية التي صارت بعين واحدة إذا صوبتها إلى رجل أو شيخ تصرعه؛ فيسقط مشلولا على الفور، صارت عينها أقوى من بندقيتها! قالوا أنها صارت بقدرات إلهية خارقة بمجرد أن تفك بعقاب أحد ينزل عليه العقاب دون أن تتحرك من مكانها! وأنها صارت تتبنّى بكل شيء قبل حدوثه، وأخذت نبؤاتها ترى إليهم مع تقلبات الرياح، تتحدث عن قرب موت شيخ عشيرة، وباء، أحزان تحل فجأة، مداهمات حكومية، مولد طفل لعاشر، مرض هذا، شفاء آخر، غرق بيوت وصراائف، قوارب صيادين، نزول نياذك، أو هطول أمطار، فتحقق كلها وكما تصفها تماما،

صاروا يخافون عقلها المخترق لحجب الغيب، كما يخافون عينها الوحيدة التي تشنل من سلطتها عليه. وجدوا شبحها يداهمهم وهم في بيوتهم في البر أو طافية على الماء، تأتיהם رسائلها متنبئة بمصائرهم، ترسمها وتصنعها بقوة السحر. صاروا يتسللون عفوهها عنهم، ينحدرون عند ذكر اسمها، يرتجون رحمتها ونصائحها، وأخذوا يسمونها العرافة المقدسة، وأخيراً استقر في نفوسهم أنها فعلاً تتلقى وحيها إليها، وما العجب أن يكون العاشق المفجوع نبياً؟ هكذا سمعتهم في صبای يقولون! فتصور يا عم ولفريد كيف انقلبوا في نظرتهم إليها! كيف لا يخاف الناس وشيخ العشائر منها، ألقوا بنادقهم على الأرض، واحنوا رؤوسهم لها، وراحوا يسعون للتفاوض معها يرجونها أن ترحمهم من عينها الواحدة، ومن ذهنها المتوقد بالنحس والبشائر المخيفة، حتى ما كانت تعدهم به من خير صار يقلّفهم أن لا يتحقق، أو يزول بسرعة، كل هذا مقابل أن يتنازلوا لها عن الدماء التي سالت منهم معتبرين أن الأمر كان قدرًا عليها، وعليهم. فهي ما قتلت إلا انتقاماً لرجل أحبته، بل هم عرضوا عليها أن يتوجوها شيخة أو أميرة عليهم لكنها قالت لرسلهم: لا أريد أن أكون أميرة أو ملكة، أنا الآن عرافة، دعوني أتنبأ بمصائركم أو أخمن نوایاكم أو أعرف حقيقتكم، تلك أعظم هبة منحتها لي السماء، تعبت من القتال وال الحرب، أريد أن أستريح وحتى الموت اتركوني وحدي أعيش بسلام مع ذكريات من أحبني وأحبيته! أعطوهما الأمان، لكنهم ظلوا يتهيّبون لقاءها، يرسلون وسطاءهم إليها حاملين هداياهم فتردها لهم، دون أن تدخل عليهم بتنبؤاتها ومشورتها، يقولون إن عينها الوحيدة تزداد حدة كلما تقدمت بالعمر، قد لا ترى ما حولها لكنها ترى البعيد البعيد، وراء الأفق، فتخرق الغيب وتعرف المصائر الناس. مات أبوها وأخوتها ولم تحضر جنازاتهم، وخيم الحزن على الجميع أمداً طويلاً، والحزن يا عم ولفريد هنا في البر وعلى الماء ثقيل رهيب كأنه ظلام ما قبل الحياة!

(توجس قليبي مرة أخرى أن مكية هي بنت المعيدى ولكن بقואم وطبيعة أخرى أيضا) هذه الحكاية جعلتني أنسى إنني أطوف على مشحوف فوق الماء وأتصورني كائناً مسحوراً بين الأشباح والطواطم والسحراء القدماء، ماذا يجري هنا في هذه الأهوار مفتوحة أو معزولة غافلة لها براءة الماء، وصمت السماء؟ شبحها وسطوتها؟ كنت يقطاً منتاشياً في آن واحد، ما رواه ياسين، سمعه من أبيه أو جده ومن كبار أهل الهرور، مكية قدمت من الباذية القرية، روح هائمة جارحة في هذه المجاهل، ستقولين يا عزيزتي أجاثا! "أسأة عاشرها غيرها في أماكن أخرى" نعم ولكنها هنا لها نكهة أخرى! لها رائحة البردي وزنابق الماء وعشبه العطري. سار بنا المشحوف فترة صامتين، وصلنا الطوف القصبي الذي يحمل بيته الصغير كأنه عشن سر فوق برج عال لمعبد مجهول هكذا خيل إلي! وجدناها جالسة أمام صريفتها. لوح لها ياسين وأخذت اللوح معه، وهي تنظر إلينا ساهمة جامدة! كانت الشمس قد صعدت عالياً مقتربة بنا من الظهريرة، ناعمة دافئة منعشة في ربيع سخيف في صفوه وعيشه، والماء عاد ساكناً إلا من تقافز اسماك صغيرة، ونقيق ضفادع تقافز على الطين. سرب طيور تتنظم في تشكيل غريب على الماء يمر غير مكترث بنا. أوقف ياسين المشحوف عند منحدر كوهها، نهضت واقتربت سمعت صوتها، حزيناً خافتًا ترحب بنا! تجاوزت الثمانين، وجه اسمر صغير دقيق الملامح ملأته التجاعيد وثمة وشم أحضر باهت ينحدر من جبهتها ويمتد بين الحاجبين لينزل إلى صدرها، لكنها بدت لي جميلة رغم أنها بعين واحدة. حقاً يا أجاثا، المرأة هي الكائن الوحيد في الكون، تظل جميلة حتى لو كانت بعين واحدة! ومهما كانت ملامحها وسنها! (المرأة يا عزيزتي أجاثا وليس مجاملة لك، جميلة فقط لكونها امرأة! فكيف إذا كانت كاتبة؟) أما إذا كانت محبة عاشقة فجملتها الكاسح لا تزال منه عواصف الدنيا كلها! بيدها سبحة طويلة تسقط حباتها وتتمتم، أصرت أن تدخلنا كوهها، وتجلسني على كومة فرش رثة غير مبوطة، متراكمة فوق بعضها، بدت لي كأنها كرسى الاعتراف،

رغم إبني كما يفترض لا حاجة لأن أعترف لعراقة! جلبت لنا طاسة كبيرة من اللبن، قائلة: جلبوه أحفاد أخي قبل قليل اسرني أنها غير مهجورة من عائلتها، وثمة من يرعاها! قال لها ياسين نريدك أن تري طالع عمنا الإنجليزي! خشيت أن يقول "إنه مخبول مثلك"، نظرت إليّ تأملني صامتة مبسمة كاشفة عن فم بلا أسنان، كانت الزاوية معتمة لو لا بصيص ضوء يتسلل من شقوق وفجوات في جوانب الكوخ القصبي، ربما هو استمرار للطقوس القديم الذي كانت تمارسه الكاهنة السومرية في زاوية من المعبد، كنت أستطيع أن أرى وجهها وقد بدأ يعبس ويغيم وراء صمت تأملي مفاجئ، لاحت لي أنها تتواصل مع قوة أو كائنات غائبة بعيدة وجاء صوتها بلغة واضحة سليمة؛ مهيبا في ارتجاجه وخشوعه:

- إيه يا بني، أنت جبت الدنيا شرقاً وغرباً، عشت أهواً، وسوف تعيش أهواً، أنت جئت هنا تبحث عن شيء ما لن تجده هنا، ولا في أي مكان آخر، راح تجوب العالم تبحث عنه ولا تجده، لأنك لا تعرف ما هو، ومن لا يعرف ما يريد، يظل يدور حول العالم، وهو يدور حول نفسه فقط! راح تعيش عمراً طويلاً، تضرب بإيدك باب المية سنة وما ينفتح! صمت فجأة، تساءلت مع نفسي هل سمعت أو عرفت بشكل ما إبني أبحث عن بنت من هذه الأرض؟ لا أعتقد ذلك، فهي منعزلة عن الجميع كما قال ياسين، أردت أن أسألها عنها، تحرجت، بل خفت أن تنكر وجودها أيضاً، وتطفي حلمي، لكنني سألتها:

- ما هو هذا الشيء الذي لا أعرفه، أهو امرأة؟

- أنت لم تخلق لامرأة، ولم تخلق امرأة لك!

لم أحر كلاماً، أخذني ذهول، فوجئت أن ياسين، وقد أدرك ما يجول بخاطري يسألها:

- هل تعرفين يا مكية بنت المعیدي؟

رفعت رأسها ساهمة العينين، أطلقت ضحكة قصيرة جافة:

- وكيف لا أعرفها؟ هي أنا، وكل بنات العرب المهجورات المعدبات!  
مرة أخرى تدفعني هذه العجوز إلى ضياع آخر! أربكتني وشغلتني بما  
قالته عن وضعي الحالي ومصيري. انكمشت مكية بهدوء، وراحت في شرود  
ووهن واضحين. نهضنا أنا وياسين، تناولت يدها الجافة ناتنة العروق رأيت  
على ظاهرها وشما لعين كبيرة، قبلتها، واستللت من محفظتي ديناراً، وهو  
مبلغ يعد كبيراً هنا، وقدمنه لها، ضحكت، قالت:

- أنا لا أخذ مالاً من أحد، عندي مال يكفيوني، أخذت حصتي من ميراث  
والدي أغنان وأرض، خل المال معك ينفعك فأنت تعيش في الغربة!  
خرجنا، وأنا أشد ذهولاً، كيف الهرور يقدم لي كل يوم شيئاً غريباً! طيلة  
طريقنا الطويل أفكر في ما قالته "أنت لم تخلق لامرأة، ولم تخلق لك امرأة"  
أهي مجرد نبوءة لعراقة كبيرة؟ أم هي حقيقة؟ ألم يكن هذا هو إحساسي قبل  
أن تقلب فاطمة وجهتي من الصحراء إلى الماء، لكتني قررت أن أنسى ما  
قالته، ألم يقتلك نفسي على فراشي في الصريفة ورحت في نوم عميق!

مرة أرى ثيسجر خائنا، ومرة أراه بريئاً، أتعس انصياع للمحنّة، أن  
نفقد قدرتنا إلى الحكم بصواباً!

أتى لي عمارة برجل مسن، تجاوز الثمانين، يمشي بخطى واهنة، من  
الغريب إنني لمحت على وجهه ملامح العاشقين رغم شيخوخته، قال عمارة  
مبتسماً، هذا الرجل كان زوج بنت المعيدي، وما زال يبكي عليها كل يوم،  
كان مفاجأة كبيرة لي، جلست قبالتها، قال:

- لا تصدق كل الحكايات التي يتداولها الناس عن بنت المعيدي، فهي لم  
يعشقها ضابط إنجليزي، ولا تركي ولا ألماني، لم يعشقها أحد سواي، ولم  
تحب هي أحداً غيري، لم يخطفها أحد سوى الموت، أحبتها وأحببتهي منذ  
الطفلة، فهي ابنة عمي، أصيّبت بالسل وهي شابة فاتنة الجمال، أخذتها  
إلى البصرة للعلاج، فأعاقت الأطباء، أحدهم فتن بجمالها، هو طبيب

أجنبي، لا أعرف من أية بلاد، ولا من أي دين أو ملة، لكنني اطمأننت له. كنت أراه ينظر إليها وثمة دموع في عينيه، طلب مني أن أسمح له ليرسمها بنفسه. لم يقل لي أنه يش من علاجها، لكنني أيقنت بذلك من إصراره على رسماها، والحصول على صورتها! عجز عن إنقاذ جسدها فأراد إنقاذه روحها مخلدة في صورة وجهها الجميل! صورة من قماش أو ورق، بديلاً عنها، أو تذكراً منها، وإذا شعرت إنني سأفقدها، وسحقني الحزن، وافتقت أن يرسمها. صار يجلس قبالتها في حجرة المستشفى لساعات معه عدة الرسم وبهذه الفرشاة؛ تتحرك بقوة وسرعة وعيناه لا تفارقان وجهها الغارق بشحوب السل، في الصورة صارت معافاة متوردة الوجه!

- هل أعطاك الصورة؟

هز رأسه نافيا:

- انتهى من رسم صورتها قبل موتها بثلاثة أيام! أو صتنى أن أغرق جثمانها في مياه الهرولتبقى مع الطيور والأسماك والقصب! بقيت صافنا، أحدق في وجهه، لا أريد أن أصدقه، لا أريد تصوّر فاطمة قد توارت تحت مياه الأهوار. لذلك حين جاءني ياسين بعد أيام بخبر يقول أن هذا الرجل مجنون يحظى بفترات صحو ثم لا يثبت أن يعود لجنونه، صدقت على الفور. أضاف ياسين إنه في الحقيقة شقيق زوج بنت المعبدى، الذي بعد أن انتزعها الإنجليزي منه؛ انتحر! وهو الذي أوصى أن يغرق جثمانه في مياه الهرول، وفي الموضع الذي كان يلتقيان فيه أيام شبابهما! عالم غريب حقاً؛ صار يتبعني في ملاحقة تفاصيله ويزجي في متأهات لا أخرج من واحدة منها، حتى أدخل أخرى! سرعان ما أفيق منها لأعود إلى حلمي أن فاطمة حية وما تزال شابة يانعة وأنها تنتظرني، وسألقها هنا ذات يوم! كيف أحدثك يا عزيزتي أجاثا عن رحلتي بحثاً عنها، وعن حقيقتها، ومعاناتي من أجلها، وكيف يبدو لي من غير الممكن الوصول إليها إلا إذا وقعت معجزة، وأين أنا من المعجزات؟ قلت لك إنني خضت هذه المغامرة كأنني غائب عن نفسي،

منوم تحت تأثير سحر غامض لا أعرف كنهه. أهو الشرق كله، أم نظرتي أنا إليه؟ كلهم يقولون أن فتاة أحلامي سبقني إليها إنجلizi من أبناء جلدتي! لماذا قدرنا أن نبحث عن أحلامنا هنا وتحت الشمس الساطعة ولا نجدها، وغيرنا يبحث في الظلام ويجد ضالته؟ كنت أتذكر إنك وجدت حلمك على هذه الأرض المشرقة فوجدته، بزواجهk السعيد من ماكس، أنا حبيبي من أهل هذه البلاد، ومع ذلك لا أريد أن أفقد الأمل، من يبحث عن الحب سيجد، حتى إذا لم يجده، يكون قد وجده في البحث الجميل، هكذا كل نضال صحيح! مضى ماكس يلتهم السطور بقلبه قبل عينيه، كان قد هيمن عليه هاجس أن ثيسجر يحاول أغراء أجاثا لرفقته في رحلاته، وإيقاعها في حبائله، لكنه حين وجده يقول لأجاثا إنها وجدت حلمها بزواجهها السعيد منه أخذ يغير رأيه "كنت قاربت الصواب حين قلت لا يمكن ليثيسجر أن يكون أبله خائناً فيعشق أجاثا المخلصة لحبنا وبيتها الزوجي، أو يتصور أجاثا صبية مراهقة غبية دون تجربة ولا خبرة ولا ذكاء لتطاويعه! وقد صبح توعي، كيف شط بي خيالي لأنشك بأجاثا المخلصة الحكيمة؟ أجاثا تعرف أكثر مني خبايا النفس البشرية، وما يعتمل في أعماقها من نزوات واندفاعات، ولا يمكن أن تفسر كلماته إلا بما تحمل من معاني حقاً وتعد ذلك في صلب اشغالاتها بإبداعها وضروراته الثقيلة والملحة! ربما هو بريء وصادق وفي تواصل جاد معها محاولاً إعطاءها موضوع رواية هامة، يراها أعمق وأجدى وأهم من الروايات البوليسية التي اعتادت كتابتها، اختفت أجاثا ظهرت أشياء كثيرة عند أجاثا وعندني وعند أصدقائنا! ثيسجر ينقب في الماء، وأنا أنقب في التراب، كلانا يجد أشياء غريبة، هل ما نفعله نحن الإنجليز في هذه البلاد شيء حسن؟ هل سيرضى عنه الناس هنا؟ كلمات الراهب بهنام ما تزال تلاحمي؟ حانت منه نظرة إلى الصورة الفوتوغرافية، فأشاح عنها متوجساً لكن ماكس المضطرب المشوش يعود ليقول هاماً لنفسه: ماذا يعتقد نفسه هذا المجنون؟ إنه يحاول أن يحفر بأصابعه الرخوة صخرة صلدة! أ يريد أن يبني سعادته على

حطامي؟ أم تراني مخطئ؟ أنا في مزاج لا أستطيع معه التخلص من شوكوكى وترددى في الحكم على الأشياء. أتعس ما تصيبنا به المحنـة أنها تفقدنا صوابنا وقدرتنا على الحكم والقرار! هذه الرسالة رغم تشعباتها أشبه بجرعة مخدر لي. كم أتمنى أن تعود أجاـنا وتلـيـي رغبـتهـ وتكـتبـ روـاـيـتـهـ، إذ تـأـكـدـ صـدـقـهـ، فهو عـاشـقـ كـبـيرـ جـمـيلـ، كـلـاـنـاـ يـبـحـثـ عـنـ حـبـيـبـتـهـ، هو يـبـحـثـ عـنـهاـ فـيـ الأـدـغالـ، وـأـنـاـ أـبـحـثـ عـنـهاـ فـيـ مـدـيـنـةـ مـكـتـظـةـ بـالـبـيـوـتـ وـالـسـحـرـ وـالـغـمـوـضـ، أـجاـناـ كـانـتـ حـقـيقـةـ كـبـرـىـ ثـمـ اـخـتـفـتـ، وـفـاطـمـةـ هـيـ الـآنـ وـهـمـ، وـقـدـ تـصـيـرـ حـقـيقـةـ! هلـ سـيـلـقـىـ ثـبـسـجـرـ حـبـيـبـتـهـ فـيـ نـفـسـ الـلحـظـةـ الـتـيـ أـلـقـىـ فـيـهـ أـجاـناـ؟ كـمـ سـيـكـونـ ذـلـكـ مـدـهـشـاـ وـعـظـيمـاـ! وـخـالـدـ، لـمـاـذـاـ لـمـ يـأـتـيـ بـشـيـءـ؟ أـعـطـيـهـ العـذـرـ، هوـ لـاـ يـقـرـأـ الـأـورـاقـ فـقـطـ بـلـ يـفـكـرـ وـيـحلـلـ وـيـسـتـنـجـ وـيـنـاقـشـ زـمـلـاءـ وـرـؤـسـائـهـ، وـلـاـ بـدـ أـنـ يـأـتـيـ. أـنـهـ شـابـ طـيـبـ يـحـبـنـاـ، لـمـ أـكـنـ أـتـصـورـ أـنـ صـبـيـاـ فـيـ مـدـيـنـةـ نـائـيـةـ اـسـتـطـفـنـاـ وـتـرـاسـلـنـاـ مـعـهـ بـوـدـ فـتـرـةـ قـصـيـرـةـ ثـمـ انـقـطـعـنـاـ يـظـلـ يـكـنـ لـنـاـ كـلـ هـذـاـ الـحـبـ! يـاـ لـهـذـهـ السـاعـاتـ القـاسـيـةـ المـرـيـرـةـ كـمـ أـنـهـكـتـ أـعـصـابـيـ، يـجـلـسـ سـاعـةـ، تـهـدـأـ أـنـفـاسـهـ صـارـ يـجـدـ مـتـعـةـ وـسـلـوـىـ فـيـ مـاـ يـقـرـأـ: فـيـ يـوـمـ كـنـاـ قـدـ وـصـلـنـاـ أـنـاـ وـالـنـوـتـيـ يـاـسـيـنـ إـلـىـ النـاـصـرـيـةـ مـتـأـخـرـينـ لـيـلـاـ، فـرـسـوـنـاـ بـمـشـحـوـفـنـاـ قـرـيـباـ مـنـ بـيـتـ أـحـدـ الـمـزـارـعـينـ، اـسـتـضـافـنـاـ فـيـ بـيـتـهـ حـيـثـ قـدـمـ لـنـاـ العـشـاءـ فـيـ حـجـرـةـ الـضـيـوـفـ الـكـبـيـرـةـ، ثـمـ اـقـتـادـنـاـ أـنـاـ وـيـاـسـيـنـ إـلـىـ حـجـرـةـ لـلـنـوـمـ، وـعـنـدـمـاـ أـخـذـ الـخـادـمـ يـنـزـلـ لـنـاـ الـفـراـشـ مـنـ مـحـمـلـ خـشـبـيـ كـبـيرـ مـزـوـقـ، طـالـعـنـيـ فـجـأـةـ وـكـمـ الـحـلـمـ صـورـةـ فـاطـمـةـ مـلـصـقـةـ عـلـىـ وـاجـهـةـ الـمـحـمـلـ الـذـيـ نـضـدـتـ عـلـيـهـ الـفـرـشـ، سـرـنـيـ النـوـمـ قـرـيـباـ مـنـهـ، فـيـ الصـبـاحـ سـأـلـتـ الرـجـلـ: هلـ تـعـرـفـ شـيـئـاـ عـنـ بـنـتـ الـمـعـيـدـيـ؟ ضـحـكـ وـاخـتـفـىـ ثـمـ عـادـ تـبـعـهـ عـجـوزـ قـالـ إنـهـاـ وـالـدـتـهـ وـهـيـ تـعـرـفـهـاـ دـهـشـتـ، وـتـصـاعـدـ الـأـمـلـ، تـحـدـثـتـ الـعـجـوزـ: -

وـكـيـفـ لـاـ نـعـرـفـهـاـ؟ كـانـتـ صـدـيقـتـيـ، كـنـاـ مـعاـ نـلـعـبـ قـدـامـ بـيـوتـنـاـ، وـنـتـزاـورـ، اـخـتـفـهـاـ ضـابـطـ تـرـكـيـ بـعـدـ أـنـ رـفـضـ وـالـدـهـاـ الـمـزـارـعـ أـنـ يـزـوـجـهـاـ لـهـ، أـخـذـهـاـ إـلـىـ إـسـطـنـبـولـ وـمـنـ هـنـاكـ جـاءـتـ الصـورـةـ لـوـالـدـيـهـاـ الـذـيـنـ فـقـدـاـ بـصـرـهـماـ، بـكـاءـ وـحـزـنـاـ عـلـيـهـاـ، فـصـرـنـاـ نـحـنـ نـصـفـ صـورـتـهـاـ لـهـمـاـ وـبـيـكـيـانـ!

هذه المرة ضابط عثماني! وهل انتهينا من الضابط الإنجليزي؟ بقدر ما أدهشتني رواية العجوز وأنشئت آمالٍ، أصابتني بالحزن والإحباط، هي إذن بعمر هذه العجوز التي قاربت التسعين، هل من المعقول إني كنت أبحث عن عجوز عمرها تسعون عاماً، حبيبة لي؟ كم هي ضلالات الحب قاسية وأليمة؟ تذكرت ما حدثني به سليم البكري أن أحد المثقفين حل حل حكاية فاطمة ليقول إنها عشتار، أجمل جميلات وادي الرافدين التي فارقت بيتها الأرضي وهاجرت إلى السماء بحثاً عن حبيبها تموز الذي هو شقيقها وزوجها أيضاً! فصارت كوكب الزهرة، بذلك جعل عمر حبيبتي آلاف السنين، وأبعدها عنى مسافة ملايين السنين الضوئية! هذا هو الزمن يبعد عنا دائماً من نحبه، يتلعله في أعماقه أو يضنه كوكباً في السماء! فلا نجد من أحبتنا سوى الظلال! إلى متى تتکاثر حكايات فاطمة، حكاية تأخذني وأخرى تأتي بي؟ واحدة تصعد بي إلى السماء، أخرى تلقيني على الأرض، هل الحب يقتضي كل هذه الرحلة الطويلة المضنية؟ أي عذاب واشتياق ورحيل أزلي؟ ذهاب وإياب في العشق لا بد منه!

وماذا يجدي كل ما حصلت عليه هنا؟ إذا كنت قد فقدت أعز ما لدى هناك؟

رغم استمتاع ماكس بما يأتي به ثيسجر من حكايات، واستبعاد احتمال أن يكون هو وراء اختفاء أجاثا، لكنه ظل متوتراً قلقاً، صار يفكر بخالد، لماذا لم يأته لحد الآن، لماذا لم يعطه رسالة ثيسجر؟ هو يستطيع أن يدرسها بهدوء وتأن دون انفعال مسبق. هل هو مجرد تأخير أم تخل عن القضية، وقد وجدها مستحيلة أو صعبة جداً؟ صمت بغداد الكبيرة ورجالها؛ يكاد يتلعله كما ابتلع أجاثا! كان خالد على الضفة الثانية من النهر، منكباً على أوراق ورسائل أجاثا يقرأ ويعيد القراءة ويتأمل، عازماً في نفسه، سأبدل أي جهد مهما كان شacula، حتى لو اقتضى الأمر أن أشق إليها نفقاً سرياً تحت

الأرض! وكلمات أجاثا تلاحق أمامه تقربه وتبعده عنها دون أن يفقد الأمل في الوصول إليها: كانت هناك في البيت مفاجأة أليمة تنتظرنـي! حسنا فعلت كاترين، لم تبلغني بالخبر السعيد في الليل، ما كنت طبعاً سأستطيع النوم رغم تعبي الشديد من الرحلة الطويلة إلى نفر، ووقفنا على الطقوس الدموية! ما كنا نستطيع السفر إلى بغداد في ليلة مظلمة. صباحاً بعد تناولنا الفطور؛ قالت كاترين أن السفارـة البريطانية في بغداد أبلغـت لومبارد ببرقـية أن ابنتـي روزلانـد مريضـة في لندن، وفي حالة حرجة، ويطلبـون حضورـي! كانت صدمة قاسـية، جلست في حجرـتي وحدي صامتـة، أخذـت ألوـم نفسيـ، لماذا تركـتها وجئت إلى هنا؟ ما هذه القلقـ والتشـرد الروحيـ الذي أعيشـه؟ كان وجهـ ماكسـ يطلـ على فأـحسـ بالطمـأنينةـ قليـلاـ، لكنـنيـ أـسـأـلـ نـفـسيـ؛ أمـاـ كانـ يـمـكـنـ أنـ أـلـقـاهـ فيـ لـنـدـنـ دونـ فـرـاقـ اـبـتـيـ؟ اـمـرـأـ إـنـجـلـيـزـةـ لاـ تـلـقـيـ حـبـبـهاـ الإـنـجـلـيـزـيـ إـلـاـ فيـ هـذـهـ الأرضـ البعـيـدةـ! يـبـدوـ إنـ الـأـمـرـ ماـ كـانـ ليـحـدـثـ إـلـاـ هـكـذاـ، جـتـ إلىـ هـنـاـ وـحدـثـ ماـ حدـثـ، وـمـاـ يـفـيدـ اللـوـمـ؟ وـرـحـتـ أـبـتـهـلـ إـلـىـ السـمـاءـ منـ أـجـلـ شـفـاءـ اـبـتـيـ. هيـ سـتـشـفـيـ بـدـعـائـيـ لـهـاـ منـ مـحـرـابـ الشـرـقـ الـقـرـيـبـ للـعـرـشـ الإـلـهـيـ دـائـماـ، هـكـذاـ فـكـرـتـ فـيـ هـلـعـيـ! جـتـ حاجـةـ إـلـىـ إـبـراهـيمـ الـخـلـيلـ، ثـمـ صـرـتـ عـاشـقةـ، وـمـاـ المـانـعـ أـنـ أـكـونـ حاجـةـ وـعـاشـقةـ بـنـفـسـ الـوقـتـ؟ أـنـاـ الـمـسـكـيـنـةـ الـحـزـينـةـ الـقادـمةـ بـحـثـاـ عـنـ الـقـدـاسـةـ وـالـحـبـ مـعـاـ، وـقـدـ وـجـدـتـهـمـاـ هـنـاـ، هـلـ هـذـاـ كـثـيرـ عـلـيـ؟ لـمـ أـعـدـ مـهـجـورـةـ كـمـاـ كـنـتـ؛ فـهـنـاـ مـعـيـ اللهـ، وـإـبـراهـيمـ الـخـلـيلـ، وـحـبـبـيـ ماـكـسـ! كـيفـ لـاـ أـسـتـطـعـ الـوـقـوفـ بـجـانـبـ اـبـتـيـ حتـىـ تـشـفـيـ؟ سـأـرـاهـاـ، سـأـرـاهـاـ حـتـمـاـ، وـإـذـاـ كـانـ اللهـ يـرـيدـ أـنـ يـبـتـلـيـ كـمـاـ يـبـتـلـيـ مـحـبـيـهـ عـادـةـ، فـأـنـاـ رـاضـيـةـ بـحـكـمـهـ. رـبـيـ دـعـنـيـ أـرـاهـاـ مـرـةـ أـخـيـرـةـ قـبـلـ اـفـرـاقـاـنـاـ الـأـبـدـيـ، رـبـيـ اـشـفـيـ اـبـتـيـ الصـغـيـرـةـ الـجـمـيـلـةـ الـتـيـ حـرـمتـ حـنـانـ الـأـبـ وـهـيـ فـيـ لـفـافـهـاـ، وـلـاـ تـحـرـمـهـاـ حـنـانـ الـأـمـ حـيـنـ أـخـذـتـ تـنـفـتـحـ، رـحـتـ أـدـعـوـ وـأـصـلـيـ وـلـاـ اـشـعـرـ بـدـمـوـعـيـ تـسـيلـ غـزـيرـةـ، قـرـرتـ حـيـنـ أـلـقـاهـاـ؛ أـضـمـهـاـ إـلـىـ صـدـرـيـ وـأـكـونـ لـهـاـ الـأـمـ وـالـأـبـ وـلـنـ أـفـارـقـهـاـ أـبـدـاـ، جـاءـتـ كـاتـرـينـ وـأـخـرـجـتـنـيـ مـنـ الـحـجـرـةـ. مـهـوـنـةـ عـلـيـ. ذـهـبـنـاـ إـلـىـ ماـكـسـ فـيـ بـيـتـهـ، وـعـرـفـ بـالـخـبـرـ، نـهـضـ مـنـ

المائدة ولم يكمل فطوره، أرسل في طلب حسين قائلًا: يجب أن نسافر الآن! أصر على مرافقي إلى بغداد. قال أنا مستعد أن أذهب معك إلى لندن! شكرته، موافقة أن يذهب معي إلى بغداد! شعرت بحاجتي الشديدة إليه، معه أستطيع مواجهة محتسي. ثم ما هو محزن وقع لابتي، ولا يريدون أن يعلمني به دفعة واحدة، هكذا مضت ظنوني ومخاوفي! أخذ حسين يطمئني على طريقة العراقيين، في التهوي من الأمور، "ساعات قليلة وتكونين في بغداد، ومن هناك سيكون الطريق سهلاً وأمناً! وستجدين ابنتك قد شفيت قبل وصولك!" زوجته تحمل طفلاً على صدرها رفعت رأسها إلى السماء، وراحت تدعوا لها مغفرة العينين، شعرت بالراحة لوجود هؤلاء الطيبين من حولي! عندما تركنا الناصرية وراءنا، التفت ماكس إلى:

- ما رأيك أن نطلب من حسين عند مرورنا بالحلة، التوقف بنا ساعة لا أكثر في الحلة، أريك أطلال جنائن بابل المعلقة؟ قلت له دعني أفكراً كنت أعرف أن ماكس بأحدائقه التاريخية التي لا يمل منها؛ يريد صرف ذهني عن التفكير بابتي ووضعها المجهول لي، لكنني كنت قلقة جداً، والوضع لا يتحمل أي تأخير، رغم أن مواعيد الرحلات وانطلاق القطار إلى أوروبا، قد يضيع على ساعات وربما أيام. ولكن لا ينبغي أن يكون ثمة تأخير من جانبي، فابتني الآن بأمس الحاجة لأن أصلها ولو لساعة واحدة قبلًا. عدت ألموم نفس على فراها، وأقر بأنانيتي. تركتها من أجل نزوة مهما كانت سامة؛ فهي لا تخلو من طيش ورعونة! وأعود للأمل والتفاؤل، ابتي ستتعافي، حتماً، وأنا وماكس قد حسمنا أمرنا حبيبين وشدت قلبينا اشرافة نور كبرى! كل شيء طيب، كل شيء على ما يرام، لم القلق والحزن؟ قطع ماكس حيرتي حول بابل، أمسك بيدي:

- غيرت رأيي، فجنائن بابل هي في خيالك خضراء مزهرة تتدفق من درجاتها العليا شلالات الماء، والعطور. لا أريدك ترينها الآن كومة حجارة وتراب، والطريق الملكي الطويل المحاط بالتماثيل والرسوم المدهشة الملونة،

سترلينه خرائب مهدمة، أستاذ التنقيب قال لي وأنا طالب: "ليس المهم أن نعرف من بنى بابل، المهم أن نعرف من هدم بابل، وظل يلاحقها كلما نهضت هدمها". أخيرا سرق منقبون أجانب الكثير من تماثيل ورسومات شارع الموكب العظيم انعطف بنا حسين بنا في سيارته وهو يقول ضاحكا، يريد تبديد جو الوجوم الذي لازمني:

- سأدعوك على حسابي لأكلة سمك مشوي، مسكون، فأهل الحلة يجيدونه!

نزلنا إلى مقهى على ضفة النهر، مقاعده جميلة منسقة مصنوعة من جريد التخلي، عليها بسط بدوية صوفية ملونة! وقف بنا حسين عند حوض تسبح فيه أسماك الشبوط والبني، اخترنا منها ثلاثة سمك مكتنرات، وضعوا السمك مستنودا بأعواد صلبة أمام شعلة الجمر الكبير المتوجهة، جلسنا على مقعد طويل يطل على شط الحلة يجري أمامنا رائقا! بدا ماكس متربدا، فهو يريد أن يحدثني ليسري عني، بنفس الوقت لا يريد أن يتحدث بأمور تبدو غريبة عما أنا فيه، اكتفى بالقول:

- بابل هي (باب إيل) تعني في السومرية، (باب الإله)، وهي فعلاً كانت محطة نزول الآلهة إلى الأرض، ومنها تفرقوا إلى شتى أصقاع الدنيا، كل له إله، وكل إله ثلة من البشر!

كانت رحلتنا إلى بغداد مريحة رغم الهموم، خفف من ثقلها علي، حرص ماكس وحسين على إحاطتي باهتمامهما نزلنا في فندق ميخائيل زيا في شارع الرشيد، كان ميخائيل بشوشة طيبا، يعامل نزلائه وكأنهم ضيوف في بيته، وقد خصنا برعاية لطيفة يقظة: كعاشقين في بلاد الغربة! هو يعرف ماكس منذ فترة، بينهما صدقة ومودة. وضع ابتي كان يشغلني ويبدد فرحي برفقة ماكس، لم أستطع أن استغني عن لقاء عائشة. جاءتني إلى الفندق، قلقت معه، ثم راحت تهدئي "ربما هو مجرد نزلة برد، دلال واستياق بنت لأمها، هي قد تعافت الآن"، وعزت الصمت حولها لصعوبة الاتصالات "لو أردت

أنا مستعدة لمرافقتك إلى لندن" شكرتها ودعوتها أن تهتم بأمها، ضحكتا، هنا الأم تحتاج ابنتها، وهناك البنت تحتاج أمها، لعبة الدنيا، حدثتها عن حبي لماكس، فرحت كثيراً، أصرت أن تدعونا إلى بيتها لكنني اعتذرت ببحثي عن فرصة قريبة للسفر، جمعتهما معاً على مائدة شاي في الفندق، قالت أنت محظوظة به فهو مع الدكتور لمبارد يمتعان هنا بسمعة رائعة. حدثتها عن جولاتنا في أوروبا وكربلاء. أعادوا في السفارة التأكيد أن ابتي مريضة وإن علي أن أحضر على الفور، مرة أخرى انتابني قلق شديد، لم استطع النوم، انتاب ماكس أرق معي، كنا ننتظر الصباح لأعود إلى لندن، ودعني في محطة الباصات الكبيرة، أوصى بي سائق شركة نيرن. كنت غائبة عن نفسي وأنا أودعه، أخشى أن يكون قد وقع الأسوأ لروزلند!

حببيتك في قبضة أرواح منحدرة من حضارات قديمة، في جزيرة  
تجذب بمنغناطيسها مسامير السفن التي تقصدتها؛ فتتخلع  
وتتلافقها الأمواج!

كان عمارة وباسين يدهشاني بذكائهما، كنت أقول دائمًا لو كانت قد توفرت لهما مدرسة، لكانا من المتفوقين، ولم أكن بحاجة لسؤالهما عن سبب عدم التحاقهما بالمدرسة فالسبب واضح؛ الفقر والجهل المتمسك بنفسه، والمدرسة بعيدة في الجانب الآخر من الشاطئ! أصوات الھور تأخذني من جسدي، ومن الأرض لتلقيني في فضاء شاسع متوجّح بالنور والعطر، أحس بجهات الدنيا كلها قريبة مني. صباحاً تهب الطيور بأغاريدها، والبط بصيحاته ورفيف أجنته، يسقط النعاس عن ريشة الملون، قفزات السمك تتولى على الماء، أصوات السمك كأصوات البشر فيها الكثير من الوهم والغموض، من قال إن السمك لا يتكلم أو يعني؟ كأنه يؤدي لحن الجنائزى منادياً صيادي؟ ليأخذوه إلى النار! خوار الجواميس، ونداءات النساء حولها، هياج الأطفال ناهضين من النوم، يتشارون أحلامهم بكاءً أو كلمات، عند الضحى وارتفاع

قرص الشمس في سماء زرقاء صافية، تتردد أصوات المجاذيف وهتف النساء والرجال، العمل العمل، أي كسل أو ركون لراحة أكثر مما يجب، يعني الجوع والموت. عصراً تطلق أصوات الشبان بالغناء الجميل، الحزين دائمًا، نداءات عشق غير متحققة، أحسها كما لدي، كأنهم يغدون لي معهم أيضًا، أنا الغريب بينهم لي حصة في غنائهم! للشيخ نبرات غناء حزينة آسرة، وداع العمر وتشييع الأماني المقهورة، والاعتراف بالعجز بعد طول مكابرة. غناء شجي يجرح القلب؛ يمتد مع جريان الماء من بداية الغروب حتى متصف المساء؛ الهور كله يعني، الماء والقصب والطير والظلام، غناء وأنغام لا حصر لتنوعها، القصب والضفادع وحتى البعض، يعني مع أصوات هؤلاء الشبان العاشقين الحزاني، لم أسمع أصواتاً أجمل من أصوات هؤلاء الشبان المحلقين بين الماء والهواء. موسيقى تصاعد من ماء الهور مع عطر العشب وترافقه ريش الطيور المتعانقة في لحظات عشق أو فراق، كلما أصغيت لقلب الهور؛ أجده إنني قد التقيت فاطمة في هذا الجسد الكوني النادر المنعزل بعيداً عن صخب العالم ولهاه، فلا أجده إن علي أن أندم أو أرى خطأ في قراري بالمجيء إلى هنا! في هكذا جو تنتعش الأسطورة وتنمو مع جذور القصب، المتجدد دائمًا، تحدث معي ياسين، قائلًا: أنه وعمارة سمعاً من كثيرين من أهل الهور، أن بنت المعيدي تعيش أسيرة في جزيرة غامضة غريبة في الهور تدعى الحفيف بـ يقولون أن الجزيرة مسكونة من أرواح منحدرة من السومريين والبابليين جاءوها بعد انهيار مدنهم ومعابدهم وأبرا جهم السماوية، وانخساف عالمهم السفلي وفرار أرواح الموتى منه! يخاف الكثيرون أن يقتربوا منها، تحتها جبل من المغناطيس، يجذب مسامير السفن التي تقصدتها فتخلع وتتلقفهم الأمواج! فيجيء حرس ورجال الجن من الجزيرة ويلقوا القبض على الوافدين المتطفلين، يسلخون جلودهم ويشونهم على نار هادئة ويأكلونهم! قال حين سمع شعب هذه الجزيرة بجمال بنت المعيدي أرادوها أن تكون زوجة لملكهم السومري الذي يدعونه الآن بملك الجن، فتصير ملكة عليهم،

خاصة وإن الملك فقد زوجتيه قبل عامين حين استدعيت إلى البرج السماوي. قامت جماعة من أشباحهم باختطاف بنت المعيدي، وقدموها للملك فانبهر بها وبنى لها قصراً من نحاس يتوهج كل ليلة فيضيء أطراف الهور! قال ياسين، وكان يثق بقوتي، بل ويعتقد أن لدى قدرات خارقة:

— ما رأيك يا عم ثيسجر؟ أنت إنجليزي وتملك خبرة وسلاحاً يفل سحر القدماء، إذا أردت نحن معك، نقصد معاً الجزيرة، تدخل قصر الملك السومري القديم، وتخلص بنت المعيدي من قبضته. بالتأكيد، هي ستكون شاكرة لك أنك خلصتها من ملك الجن السومري الوحش هذا وسترد لك الجميل بأن تكون زوجتك وحبيبك مخلصة لك مدى العمر!

أيده عماره، قائلاً أنا مستعد للمغامرة من أجلك يا عم ولفريد حتى لو أردت أن نهبط العالم السفلي! ضحكت، إذا كانت حبيبي بنت المعيدي هي الآن في أحضان ملك الجن السومري، فإن ذلك يعني اليأس بعينه، وإن علي أن أنساها تماماً، وكفاني أن هذا الحب قد وصل درجة المستحيل! قلت:

— لا أريد أن أعرضكم لرحلة محفوفة بالمخاطر، ولا تؤدي إلى نتيجة! كنت مذ قررت العيش في عالم الشرق المليء بالسحر والخيال والأوهام أن لا أدخل على أرضية معركة أو صراعاً يدخل فيه السحرة والشياطين والملائكة طرفاً، ولا يتورعون عن غرس سيوفهم في قلوبنا، وتطبيق الأعيب علينا نحن البشر الضعفاء!

ولم أستغرب هكذا حكايات عنها، وكما قال لي سليم البكري، "بقدر ما هي حلم، هي في الوقت نفسه دلالة، ومنظومة إشارات على ماض وحاضر ومستقبل" الآن أكتشف أنها خارطة أعماقي، فمن خلالها عرفت نفسي أيضاً! وعرفت أن الحب كل حب في الدنيا تحيطه كل هذه الألاعيب والأخطار لكنها تختفي عادة خلف كأس نبيذ في بار فخم أو وضيع، رقصة حالمه، حكايات الأصدقاء والجيران، ثم موسيقى ناعمة! تعالى يا عزيزتي أجاثا لجولة جديدة في الأهوار، لترى أعماقها، ما تحت الماء وما خلف أدغالها

وأفقها البعيد، السحر الذي يحيل ورقة البردي إلى جناح طائرة، وأصوات الجواميس والكلاب إلى حوارات بين النجوم والأقمار!

كان ماكس يقرأ الرسالة وهو مستلق على ظهره. أطلق زفرا، أنظر كيف هذا اللعين يغازلها؟ وجد ماكس نفسه يتقبل أن تكون أجاثا رافقت ولفريد في رحلة إلى عرب الأهوار لدراسة حياتهم أو لكتابة رواية عنهم، "أحبها إلى حد أتقبل زواجها من آخر وسعادتها معه، فقط أن لا تموت أو تتعرض لأذى!" قال لنفسه كما الهذيان؛ "هكذا حب تعلمه من الموت، كنت أراه يطل على بعظامه وتكتشيرته المروعة في آلاف القبور التي فتحتها! هل أصحابي وأصدقائي في أوروبا وصلوا إلى هذه القناعة أم لا زالوا لا يحبون إلا لحظة وجودهم مع الشريك في الفراش؟" مضى يقرأ، يلتهم كلماتها كأنه يقرأ كتاباً لا علاقة له بمؤلفه، لم يره، ولم يسمع عنه شيئاً الآن وهو في هذه المحنة يحتاج لحكاية تشده وتنقله لعالم آخر، ينسى تقلباته في مشاعره إزاء ثيسيجر مثل طفل تماماً! امتدت يده بحركة لا شعورية إلى صورة ثيسيجر، وسحبها لأنها وخزته!

هل يمكن لقصة حب أن تمر دون أن تمر بقصة البلد كلها،  
والأمريكان دائمًا على الأبواب!

جئت إلى بغداد، لأسافر منها إلى لندن، أريد أن ألتقي ببعضًا من الأقارب والأصدقاء هناك، وأتزود بأدوية وأدوات أفضل للختان، ومستلزمات طبية أخرى فقد حولني سكان الهاور إلى طبيب لهم. أحياناً الناس يصنعون الطبيب، ويهجرون طبيباً صنعته الجامعة! يجب أن أكون حذراً، خطأ بسيط مني قد يجعلني أموت مع المريض أو قبله، فهنا يعدون الطبيب دواءه سبب الموت، لا المرض! كنت في لهفة للقاء سليم البكري، علني أجدر لديه شيئاً جديداً عن محبوبتي التي صار يفرجني أن أسمع أن بعض المثقفين هنا يسمونها موناليزا العراق! تواعدنا للقاء في مقهىانا قرب سوق الصفافير، حين أخترقه

أسمع الناس يتحدثون بالصراخ في وجوه بعضهم لكي يسمعوا بعضهم بعضاً، وسط ضجيج، وأصوات الطرق المتصاعدة من دكاين النحاسين، وهم يدقون صفاتهم المعدنية لكي يخرجوا منها مناسف الرز الكبيرة، ودلال القهوة، وصوانى الشاي الجميلة! لكن المقهى الذي نجلس فيه رغم قربه من هذا السوق هادئ بعض الشيء. خطير لي قبل لقائه أن أزور كولن في مقره في السفاره البريطانية، علني احصل منه على خبر أو معلومة يسر بها سليم. كنت أعرف إن كولن كعادته سيضحك من تعليقي بفاطمة، وسيسألني ممازحاً: "هل ما زلت عاشقاً لبائعة اللبن أيها الرحالة العظيم ثيسجر؟" صرت أستقل مداعباته وممازحته الس媢جة هذه، لكن لي معه ذكريات في لندن مذكناً في مدرسة واحدة وبين عائلتينا صلات قديمة، ثم إنني أحتاجه هنا. أعرف أنه يحبني ويرعايني من بعيد، مع ذلك كان يؤلمني إنه لم يفهم سر هذا الحب الذي اجتاح كيانى، قال لي: حتى السفير عرف بقضية هذا الحب وضحك كثيراً، من يدري قد تصل أخبار قصتك الغرامية إلى الملكة، وإلى مجلس اللوردات البريطاني! قلت له "ولم لا يضحكون على هوامهم أو عشقهم لقطعى أوصال البلدان التي يسوقها سوء حظها لتقع في قبضتهم؟" هل تقطع الذبائح أرقى وأفضل من حب لفتاة جميلة مجهرة؟" ويروح يضحك "لسانك طويل يائسجر أتمنى أن تستطيع به إقناع أهل محبوبتك لتتزوجها" ومع ذلك كان يقبل علي مشفقاً حنوناً، "هل ما زال صديقك يريد أخبار سياسية، مقابل أخبار غرامية؟" قلت له باستخفاف متعمداً:

– هو لا يريد أخباركم، يقول إنها مخللات تالفة! ويقول أنكم لا تكفون عن الخبث والتضليل، لماذا أنت كذلك، العراقيون أناس طيبون لا يستحقون أن تقسو عليهم!

ويكتفي بالضحك قائلاً:

– أنت محق سيصيرون أهل زوجتك قريباً!

كنا في نهاية كانون الثاني وكانت بغداد قد استعادت لتوها هدوئها

ورونقها الجميل؛ رغم بعض المظاهر العسكرية، بعد أيام مظاهرات صاحبة دامية سقط بها مئات القتلى والجرحى اندلعت احتجاجا على معاهدات كانت تجري مباحثات حولها في ميناء بورتسموث بين الحكومة البريطانية والحكومة العراقية بدلاً لالمعاهدة المعقودة مع بريطانيا عام 1930 والتي تنظم الوجود البريطاني في العراق. عندما تذكرها كولن انطفات ضحكاته على وجهه الممتليء الأشقر وصار عصبيا مستشارا:

- أنظر هؤلاء الشيوعيون دمى السوفيت، يسموننا بالإمبرياليين مصاصي دم الشعوب، ولكن عندما تحالف ستالين سرا مع هتلر غضوا الطرف عن جرائم هتلر! وعندما تحالف ستالين مع تشرشل وروزفلت ضد هتلر في الحرب، صاروا يسموننا "عالم الأحرار" "منقذو البشرية" ونوري السعيد الذين كانوا يدعونه عميل الإنجليز صاروا يلقبونه بـ"القائد الوطني"، وـ"أب الأحرار"! هؤلاء جروا الناس هذه الأيام للتظاهر من أجل إطلاق سراح زعيمهم المعتوه "فهد" متذرعين بضرورة إسقاط المعاهدة الجديدة، فكان أن أضاعوها، بغيتهم! نسوا أنهم بذلك أبقوا على معاهدة 1930، التي هي بالطبع أقل نفعا لل العراقيين بكثير!

سكت برهة، ظل يدخن ويسرح بنظراته عبر النافذة إلى النهر:- صديقك سليم انقطع عن زيارتي منذ فترة. قال لي في آخر مرة إنه يخشى أن يتهم ب العلاقة له معنا بينما هو ليس سوى مخبر صحفي، نحلة تدور هنا وهناك لجمع الأخبار، هو إنسان طيب، بلغه سلامي ولا تنس أن تقول له أن معلوماتنا تقول أن الأميركيان قطعوا شوطاً في ترتيب أوضاعهم في العراق، وهم بعد أن اخترقوا تنظيمات العسكر والأحزاب التي تدعي الثورية لترتيب انقلاب عسكري، كانوا علاقات وطيدة مع الأحزاب الدينية، لديهم الآن علاقات متينة مع أحزاب دينية سياسية في أوساط السنة والشيعة، وأقاموا مع المرابط العلية صلات سرية بمساعدة حكومات في المنطقة صديقة لهم خاصة عبر حكومة الشاه في إيران! قل لصاحبك أن

ثمة قوى كثيرة الآن مستعدة لتحطيم العراق بحجة إبعاده عن بريطانيا،  
هنيئاً لهم بالأمرikan، غداً سيترحمون على الإنجليز!  
وحدثني انزلق معه ومع البكري في هراء السياسة، قلت:  
ولماذا لا تعلمون الحكومة العراقية بذلك مباشرة؟  
قال محتداً وغاضباً:

- أخبرناهم نوري السعيد لا يريد أن يصدق أن ضباطه يتآمرون عليه.  
الوصي يعني الآن من كابة السلطة، لم يعد يتحمل أعباءها، يتمنى أن  
يسلمها لمن يأتي ينشدها، ويلجأ مع الملك الصغير والعائلة كلها للبلد  
بعيد. هو يقول أن العراقيين لا يحبون من يريد لهم الخير، يعبدون من  
يريد بهم شرّاً، هكذا سمعت نخسي في هذا المزاج أن يفرط بحياته وحياة  
الملك، بل بالبلاد كلها، أنها لحظة تاريخية حرجة جداً يا ثيسجر!  
حين حدثت سليم بذلك تصورت إنه سيضحك لكن ملامحه جمدت  
واعتراه وجوم قال:

- هذا ما توصلت أنا إليه باستنتاجي، لأول مرة لا أريد أن أبقى مخبراً،  
أفكّر أن أكتب المقال أيضاً، لكنهم هنا في الجريدة رفضوا أولى مقالاتي،  
سكرتير الجريدة قال لي لو حذرنا ضباطنا من التسلل الأميركي بينهم؛  
اعتقدوا إننا نشكّك بوطنيتهم، قلت له أنا أيضاً لا أشكّك بوطنية ضباطنا،  
لكنني أشكّ بكمائهم وحصانتهم السياسية، فكثير منهم كما نعرف  
منهمكون بالشراب وليلي الغولي، وأحلام السلطة، زعيم حزيناً كامل  
الجادرجي له تجربة سيئة مع العسّكر في انقلاب بكر صدقي، لكنني لا  
أستبعد أنه سيتحالف معهم مرة أخرى رغم قناعته أنهم أعداء الديموقراطية  
ويتسمون بالعنجهية، وكل منهم مشروع دكتاتور، الجادرجي يخاف  
أن يتخلّف عن ركبهم؛ فيضيّع بين الأقدام، ها أنت ترى أن المصلحة  
الشخصية تقتضي في أحيان كثيرة أن يضع الرجال مبادئهم وراء ظهورهم!  
سكت برهة، راح يطلق دخان سيجارته كأنما من أحشائه:

- رجال الدين بدأوا يتحركون وقد أوزعوا لأتباعهم برفع صورهم ونشر خطبهم، الأميركيان يعملون بشكل حثيث، وخبيث، يهينون الشيعة ضد السنة، والسنة ضد الشيعة، وزعماء الأكراد يريدون إقامة دولة لهم حتى ولو على أنقاض العراق كله، والآن لهم مع كل هؤلاء مراسلات ووعود، ولكن هل سيفلحون؟ لا أدرى! أعتقد أن الأميركيان لا يمتلكون دماء أو ذكاء الإنجليز! لكنهم بالتأكيد سينقلون قطار العراق إلى سكتهم؟ إلى أين؟ بالتأكيد إلى الهاوية!
- أعتقد أن الإنجليز أفضل؟  
ضحك بمرارة واضحة:
- وهل هناك فرق بين لص قاتل وآخر؟  
ران علينا صمت ثقيل، قال مستدركاً:
- بعض اللصوص لا يكتفون بالسرقة، يقتلون ضحاياهم! ولكن تبا للسياسة.  
قل لي أين وصلت في بحثك عن بنت المعيدي؟ هل ثم أثر يدل عليها؟
- لو كنت وجدتها أو أثراً يدل عليها لمشيت في الشوارع أصبح كأر خمديس:  
ووجدتها وجدتها!
- لا عليك! حتى إذا لم تجدها، يكفيك سعادة أنك بحثت عنها، كما قلت أنا أشاركك همومك في هذا الحب، أنت هنا بريطاني تبحث عن الحب، عكس أولئك الذين يبحثون عندهنا عن النفط أو النفوذ أو سرقة الآثار، وأنا مستمتع معك في هذه الحكاية الغريبة التي قلما يوجد زماننا القاحل بمثلها، في البداية حسبتك تعيش أعيجاباً، أو هوى عابراً، لكنني وقد لمست ثباتك واستغراقك في هذا الهوى الغريب؛ أيقنت أنك تعيش حباً حقيقياً.
- قلت بقلب واجف:  
-
- لست مخيراً، لأن ما حدث لي قدر أعمى، مصير أسطوري لم أفعله، بل لا أعرف كنهه أبداً!

- أنت أحبيت من الصورة، مثل كثرين أحبوها ممثلات ونساء مشهورات من صورهن، هناك من أحبوها من الصوت، لكل المغنيات والمغنين عشاق وعاشقات يحلمون بهم، ويتابعون حياتهم بنبضات قلوبهم، وقديما قال شاعر أعمى يدعى بشار ابن برد عاش في البصرة، وقتل فيها:  
(يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا!) في حالتك نستطيع أن نصوغ الشعر هكذا: والعين تعشق دون الأذن أحيانا  
أضاف سليم بصوت اعتراه حزن مbaght:

- على ذكر اتصالات الأمريكية برجال الدين، صرت أرى في هذه الأيام أن صور بنت المعیدي، أخذت تختفي من بعض المقاهي وتظهر مكانها صور رجال دين وأئمة؛ بينما التصوير محروم في الإسلام! وتصوير النبي أو آل بيته أشد تحريما، وفيه إثم كبير!

يؤلمني أن تختفي صورة فاطمة من المقاهي والأماكن العامة، كما لا أطيق أن ينافسني عليها أحد:

- لقد لاحظت ذلك أنا أيضا في الناصرية والعمار!  
رأيته يهز رأسه بأسى ويروح في سهوم عميق!

**كل أمجادنا الشخصية، ماذا تعني إزاء فقد أبنائنا، وإلقاء صخور من الآلام على قلوبهم الصغيرة؟**

في الطريق بدأت استعيد وجه ماكس، تذكرت أن عينيه كانتا نديتين محاولا حجب دموعه، وإنني بكيت دون أن اشعر، تبيّنت ذلك من رطوبة على وجهي أحسست بها حين لامستها نسمات تتدفق من نافذة السيارة عندما تحركت! كيف اختلطت عندي الأحزان، حزني وقلقي الشديد على ابتي، وأساي لفارق ماكس، بكيت، بينما الباص ينهب لا مباليا صحراء بادية الشام! وتنفتح قبة برقاية من نور الشمس حولها وداخلها زرقة السماء، ويهفو قلبي فجأة لأمل وفرح عظيم، ذاكرة التاريخ تذوب في الفضاء كما في

عقلی. أحزان البشر منذ بدء التكوين إلى اليوم، أین ذهبت؟ ستدھب أحزاني ومخاوفي معها أيضاً ذات يوم، لم العذاب؟ ستشفى ابتي، وسألتني ماكس من جديد، وسنكون عائلة سعيدة. رحت أتأمل الطريق، لا شيء الآن بعد هذه الإشراقة المفاجئة سوى كثبان وصحراء على الجانبين، تقطّعها أحياناً قافلة بدو على الجمال يسيرون وراء الماء والعشب، قرويون يسوقون بغالهم ليبيعوا محاصيلهم لأهل المدن. كل يمضي في طريقه، وأنا ماضية في طريقي إلى لندن، وهناك سأرى أي طريق آخر يتظرني. عدت أفكر في روایاتي؛ ما كتبت، وما سأكتب، لدى الكثير، فقط أريد سلامـة ابتي، الاستقرار والحب، وراحة البال! لم أبق في حلب سوى ساعات، وأسفت إني لا أستطيع قضاء ولو ليلة واحدة في البارون. كنت متوجّلة وفي لهفة لأنّا نتناول قطار الشرق السريع، أريد أن أصل لندن بسرعة، أن أضم روزالندا إلى صدري. طيلة الطريق وأنا أعاود لوم نفسي، كيف تركتها لوحدها هناك، وهي ما تزال صبية صغيرة يافعة؟ أقنعت نفسي أنها مع من تبقى من عائلتي، ومع صديقاتي، يغمرونها بحنانهم ورعايتهم. لكن البنت تشعر بالوحدة دون أمها، حتى لو اجتمعت الدنيا حولها، الآن فقط أدرك هذه البديهيـة التي تعرفها القـطط أيضاً؟ يا لللـباء، قررت أن أعدب نفسي، أصلبها، لماذا كنت طائشة قاسية القـلب إلى هذا الحد؟ انصـعت لأـحلامي وأـوهامي وجـنوني ولم أـفكـر بها وهي التي فقدـت أباها بطلاقيـ منـه، وـها أنا أـتخـلى عنـها أيضـاً، بماـذا أـقـنـعت نـفـسي لـفـراقـها؟ بـحـلم الصـحرـاء؟ بـتنـسـم نـورـ منـ السـمـاء مـرـ على قـلـبـ أـبـ الأـنبـيـاء؟ بـحـلم كـتابـة روـايـاتـ في الصـحرـاء؟ بـشهـوـاتـي بـقطـارـ الشـرقـ السـريعـ، ضـفـافـ الـبوـسـفـورـ، وـادـيـ الرـافـدـيـنـ، وـالـنـيـلـ، وجـاذـيـةـ مصرـ التي لاـ تقـاـوـمـ، وـغـيرـهاـ منـ الأـحـلـامـ؟ ماـذاـ يـمـثـلـ كلـ هـذـاـ؟ كلـ أـمـجـادـناـ الشـخـصـيـةـ ماـذاـ تعـنـيـ إـزـاءـ فـقـدـ أـبـنـائـناـ وـإـلـقاءـ صـخـورـ منـ الـآـلـامـ عـلـىـ قـلـوبـهـمـ الصـغـيـرـةـ؟ أـزـمـعـتـ إـذـاـ وـجـدـتـهاـ مـيـةـ أـنـ اـنـتـحـرـ! هـذـهـ المـرـةـ لـنـ تـفـشـلـ مـحاـولـتـيـ فـيـ الـانـتـحـارـ كـمـاـ فـشـلـتـ مـحاـولـتـيـ السـابـقـةـ قـبـلـ أـعـوـامـ! سـأـفـعـلـهاـ بـشـكـلـ مـتـقـنـ! أـكـثـرـ اـتـقـانـاـ مـنـ كـتـابـةـ أـيـةـ روـايـةـ! ستـكـونـ هيـ روـايـتـيـ الدـمـوـيـةـ الـأـخـيـرـةـ!

الانتحار أبسط عقوبة لمن ترك ابنته الصغيرة نائمة في سريرها وتخرج بحثاً عن الأوهام والوعود الخلابة! كل الروايات التي أحلم أو أخطط لكتابتها لا تساوي قبلة منها، ضمة لها إلى صدري، كم نحن معشر الكتاب سخافاء ومعتهوين نحطم حياتنا وحياة أبنائنا من أجل كتب لا يقرأها أحد، أو يمسحون بها الأرض حين يندلق عليها طعامهم وشرابهم! الآن فقط أكتشف كم أحب ابنتي، الآن فقط، وهي الآن في أحضان المرض الذي لا يحدثوني عنه بوضوح حتى صرت أتخيله الموت نفسه! دخل القطار محطة الأخيرة في لندن وحين نزلت منه كانت المفاجأة السعيدة العظيمة، ابتي رزولندا تمسك بيدها صديقتي الحنونة الوفية مارغريت، ضممتها إلى صدري معاً، ما أجمل الأمومة والصدقة في شهقة واحدة، ورحت أتمتم، أهذى كالمحومة والمجنونة: لن أفارقك يا ابتي بعد الآن، ليأت إلينا الأنبياء والقديسون! لن نذهب إليهم، ليس لأننا لا نحتاجهم، بل لأنهم الأقوياء القادرون المريدون! لن أغادر بيتي يا ابتي بعد الآن، الحلم هنا والسعادة والروايات هنا، وليست هناك! لكنني ما أن مررت أيام وتعافت ابتي وأغدقـتـ عـلـهـاـ الكـثـيرـ منـ حـنـانـيـ وصارـتـ تـمـرحـ بـعـيدـاـ عـنـيـ حتـىـ صـرـتـ أـفـكـرـ بـمـاـكـسـ؛ـ هلـ ماـ حـدـثـ بـيـنـنـاـ كانـ فـورـةـ عـاطـفـةـ جـيـاشـةـ عـابـرـةـ؟ـ هلـ أـخـذـتـنـيـ إـلـيـ الـهـالـةـ الـنـورـانـيـةـ فـيـ اـرـضـ النـبـيـ الـأـوـلـ،ـ وـالـشـمـسـ الـمـشـرـقـةـ؟ـ أـمـ هـيـ عـاطـفـةـ عـمـيقـةـ هـادـئـةـ وـتـفـكـيرـ رـصـينـ مـتـزـنـ.ـ هلـ سـتـلـاشـىـ مشـاعـرـيـ نـحـوـهـ عـنـدـ أـوـلـ عـقـبـةـ أـوـ تـحدـ أـوـ حتـىـ إـغـراءـ جـدـيدـ؟ـ قـلـتـ لـأـدـعـ الـأـيـامـ الـتـيـ أـعـيـشـهـاـ بـعـيدـاـ عـنـهـ تـكـشـفـ ذـلـكـ!ـ بـقـيـتـ فـيـ لـنـدـنـ هـادـئـةـ،ـ مـسـتـرـخـيـةـ أـقـرـأـ وـأـفـكـرـ بـحـبـكـةـ لـرـوـاـيـةـ جـدـيـدةـ مـعـ مـاـ لـدـيـ مـنـ حـبـكـاتـ وـمـوـضـوـعـاتـ اـغـتـنـتـ كـثـيرـاـ فـيـ رـحـلـتـيـ الـأـخـيـرـةـ!ـ قـلـتـ سـأـمـكـثـ هـنـاـ فـرـةـ لـتـكـنـ أـشـهـرـاـ،ـ سـنـةـ،ـ أـكـثـرـ.ـ هـذـاـ يـعـنـيـ إـنـنـيـ قـدـ تـخـلـيـتـ عـنـ قـرـارـيـ بـعـدـ فـرـاقـ اـبـتـيـ،ـ وـالـبقاءـ بـجـانـبـهـاـ طـوـيـلاـ وـحتـىـ تـفـارـقـيـ هـيـ.ـ صـرـتـ مـبـلـلـةـ مـشـوـشـةـ الـذـهـنـ لـكـنـنـيـ سـأـلـتـ نـفـسـيـ،ـ كـمـ سـيـدـوـمـ أـحـدـنـاـ لـلـآـخـرـ،ـ وـكـمـ بـقـيـتـ أـنـاـ لـوـالـدـتـيـ،ـ وـكـمـ سـتـبـقـيـ اـبـتـيـ لـيـ؟ـ تـلـكـ سـنـةـ الـحـيـاـةـ يـفـتـرـقـ الـآـبـاءـ عـنـ أـبـنـائـهـمـ،ـ وـالـأـبـنـاءـ عـنـ آـبـائـهـمـ،ـ مـرـةـ بـالـحـاجـةـ



صباحا جميلا في الحديقة المجاورة لبيتنا في لندن ثم عدت إلى البيت بمزاج مرهق أقرب للإحباط. شعرت فجأة أن الرواية التي كتبت نصفها تقريبا، مملة ولا تستحقمواصلة العمل بها، "ابحثي عن موضوع آخر، لرواية جديدة تماماً" صوت يكفي لإسقاط العمل، إجهاض داخلي. صرت محبطة، فاقدة الثقة بنفسى! قررت أن أتوقف عن كل شيء، وأصعد القطار، واذهب إلى العراق، ألقى نفسى في أحضان ماكس أعب من محبته، واستعيد ثقتي بنفسي وبموهبتى وبالحياة، ولروزندا هنا رب يحميها! ها قد عدت مرة أخرى للقلق والرحيل، أين وعودي؟ وأين قسمى بأن أنصرف كلياً لابتى، ولحياتى البسيطة هنا؟! فتحت البريد وكانت المفاجأة السعيدة، رسالة من ماكس. ليست كرسائله المترعة بالعواطف، كانت مكوني من سطرين "أنا قادم لنجري إجراءات زواجنا، لم أعد أطيق صبراً، هل ما زلت على قرارك؟ أم أن برد لندن جعل عزيمتك تفتر؟" وهرعت إلى روزندا أقبلها، أضمها إلى صدرى، أخذتها في رقصة سعيدة، الفرح يجعلنى أطير بين حجرات البيت. كتبت برقية لماكس "تعال أنا بانتظارك، لا تجعل الشمس تحرق وجهك أكثر فلا أتعرف عليك!" وهرعت إلى منضدة الكتابة وشرعت بكتابة رواية جديدة كانت أفكارها تدور في رأسي من فترة "جريمة في قطار الشرق السريع" ألهمنى إياها إطلالة ساحرة من نافذة القطار المتوجه من اسطنبول إلى حلب، كأنني رأيت رجلاً يقفز من سطح القطار ويتوارى بين منحدرات الجبال، شيء لا وجود له، لكننى تصورته قاتلاً، ترك خلفه في القطار جثة أو جسداً يتزلف ويئن، كتمتها في نفسي، وظللت تراودنى كحلم، وكذكرى، ومرة كابوساً يجثم على صدرى؛ وعلى أن أزيحه بالكتابة! بعد أن فرغت من كتابة صفحاتها الأولى وهي الأصعب عندي عادة في آية رواية أكتبها، جلست وحدى في مكتبى الصغير، تحيطنى مجلدات مسرحيات شكسبير وروايات ديكنز والكثير من دواوين الشعراء الإنجليز، ويعاودنى نفس الخاطر الذى اعتراني وأنا في أور، يا لهذا الحب الغريب، ناداني من بعيد، بقعة منيرة في الشرق، فقطعت إليه الطريق

الطوبل المزدحم بالمخاطر، أحقا حدث هذا؟ أم هو مجرد حكاية سحرية سمعتها من أمي وأنا أغطس في أمواج النوم الدافئة في شتاء لندن؟ جعلت قلبي آنذاك يذوب ويتلاشى في أحلام البراري البعيدة؟ خاطر صار يكرر حضوره في ذهني، يعتريني كرعشة الحلم، حتى وأنا أعد فنجان قهوتي، أو أطفئ نور الحجرة لنظام أنا وابتي في فراش واحد! "ربما كنا أنا وماكس في لندن في وقت واحد، في نفس الشارع، لا يبعد أحدهما عن الآخر سوى أمتار، ولكننا لم نلتقي، فصل بيننا جدار أو سيارة عابرة، وربما التقينا وجهاً لوجه ولم يكتثر أحدهما للأخر، كغريبين، ثم تهتم علينا أن تقضي سنة أو سنوات من عمرانا، فنقطع آلاف الكيلومترات، لنتذهب إلى هناك في أوروبا ولنلتقي، ونصبح حبيبين! كم هي الحياة لاعبة ماكرة غريبة تأبى إلا أن تسكن أسطورة، لتكون لؤلؤة، أو قوقة فاسدة، الأسطورة غائرة في لحمنا مهما تجاهلناها". استقبلت ماكس في محطة القطار أنا وروزلندا فقط، ربما أردت أن أقول له هذه عائلتنا، لا أحد معنا، ونأمل أن لا يكون أحد ضدنا. ضم ماكس روزلندا إلى صدره قبل أن يعاني، قالت عيناه الدامعتان بصمت: هي ستكون ابنتنا معا، هي كل ذريتنا، لا ترهقني نفسك بالتفكير بالإنجاب، كأنني لم أكن في سن اليأس! أقمنا حفل زواج بسيط هادئ ضم أفراد من عائلتنا وبعضاً من أصدقائنا معا، لم نقض شهر عسل تقليدي هنا أو هناك، عشنا أياماً جميلة في لندن

وللكرد حكاياتهم عنها، ألقوا على كاهلها مع طائر القبج،  
تحقيق حلمهم القومي!

تحدث سليم بهدوئه المفعم بنبرة حنان تطمئنني كثيراً:

- خلال فترة وجودك في الأهوار، واصلت بحثي عنها، سؤال لهذا وذاك، مراجعة لبعض المصادر في العربية، والإنجليزية مقدراً إنك في الهرور لا تستطيع الحصول عليها، وجدت بعض الشيوخ والتراثيين لا يعرفون عنها أكثر مما يعرفه الناس العاديين، ليس لقصورهم، بل لأن حماس الشبان

في البحث عنها كمعشوقة يزيد محاولاتهم المحمومة للوصول إليها، فهي حلمهم، وذكرى حزينة لدى بعض الشيوخ! ثمة سباق محموم بين القوميات والطوائف، كل ي يريد أن ينسبها لقوميته أو طائفته، وهذا طبيعي فالحس الوطني رغم ما تسمع من صراخه يتلاشى فجأة أمام نزعه القومية والطائفية! والكل هنا يبحث عما يميزه على الآخر، ويدخل في سباق معه، وليت كل السباقات حول الجمال والحب! زرت رجلاً كردياً مسنًا في بيته ببغداد في أمر خاص،رأيت صورة بنت المعیدي في صالونه، سألته عنها، فوجئت به يقول:

- ولم العجب؟ إنها كردية، أنظر إليها: شقراء ريانة ارتوت من ينابيع العجال، وهوائلها النقى، تغدت على لبن ماعزه وعسله وتينه. البيئة الجنوبية الحارة الرطبة لا يمكن أن تنجب هذا الجسد الأشقر الملحف الجميل، هي من نسل عريق سبق لنسائه أن استلبن أفتدة وعقول ملوك ورجال الجنوب وأجبرنهم على الزواج منهن! لمن بنى نبوخذ نصر الجنائن المعلقة؟ هو بناها لابنة أحد ملوك الميديين التي تزوجها وجلبها إلى بابل، ثم أصيّبت بمرض الحنين إلى وطنها الجبلي؟ والبنت معروفة، اسمها كجي كافروش وتعني ابنة التبان أيضًا، سرد لي نفس قصتها مع الضابط إنجليزي، ولكن باختلاف قد يكون جوهرياً! رآها وصوّر جباتها في نزهة قرب شلالات أزمر في السليمانية، فسحر بجمالها وتقدم إلى والدها لخطبتها يرافقه بعض من وجهاء وشيوخ الأكراد ولكن والدها رفض تزويجها للضابط الأجنبي غير المسلم، وهو سير حل بها إلى بلده حتماً. ولكي يدرأ عن نفسه وابنته سطوة الضابط الإنجليزي، استجار بالشيخ محمود الحميد الذي كان قد ثار على الإنجليز مطالبًا بأن يتوج ملكاً على السليمانية مثلما توج فيصل الأول ملكاً على العراق! حين عرف الحميد أن الضابط هو ابن شقيق شرشل؛ قرر أن يحول الحب إلى سياسة، فراح يساومه أن يسعى أولاً لدى عمه شرشل بصفته وزير المستعمرات البريطانية ليقدم

للاكراد تعهداً بأن تعود بريطانيا للالتزام بمعاهدة سيفر التي تملصت منها وخالفتهم مراجعة عن وعدها بمنع الكرد وطنهم القومي! فوافق الضابط العاشق الولهان وسافر إلى لندن، وأخذت البرقيات والمكالمات تتوارد على دائرة البريد في السليمانية؛ مؤكدة أنه استطاع إقناع عمه تشرشل الذي يحبه كثيراً جداً؛ أن يقدم هذا التعهد مع اعتذار للأكراد عن خذلانه لهم وحرمانهم من حقوقهم. شرع الأكراد يجمعون التبرعات ويستنفرون الصاغة ليصنعوا أكبر تاج من الذهب والجواهر لهذه الفتاة الجميلة التي ستحقق بالحب دولة كردستان الكبرى بعد أن عجزت عن إقامتها آلاف البنادق، بكل ما أسللت من دماء وما أزهقت من أرواح من العرب والأكراد والتركمان والآشوريين! لكن العقيد بكر صدقى وهو من أصل كردي وسبق أن قاد حملة عسكرية دموية لإخمام ثورتهم تقرباً للحكومة العربية في بغداد، كان قد سمع كثيراً عن جمال هذه الفتاة، فقرر أن يتزعها من عائلتها لنفسه، ويحطط اتفاقية الحفيد مع ابن شقيق شرشل. كان في ذلك الوقت رئيساً لأركان الجيش وممسكاً بعصب الدولة، وعلى صلة وثيقة بهتلر و دائم التردد على برلين، وقد تناجم معه الملك غازي في ذلك لكرهه الإنجليز! فكر صدقى إنه بهذه الضربة المحكمة يسحب العراق من يد بريطانيا، ويحتمي بألمانيا التي ستتصير هي العظمى! وسيطر على الكرد ويكون جيشاً منهم يزيح به الملك غازي ومعاونيه العرب ويعلن نفسه رئيساً على العراق كله متحالفاً مع هتلر! لم يجد صعوبة في خطف الفتاة في وضح النهار والطيران بها إلى ألمانيا! تزوجها هناك قسراً، وأراد البقاء معها هناك لقضاء شهر العسل، لكنها قلبت العسل إلى خل بمحاولاتها العديدة الانتحار، فينقذها أطباء هتلر. وهذا هو سر النظرة الحزينة الآسية في عينيها الجميلتين، وإن الذي رسم صورتها هو الفنان الذي رسم بورتريهات هتلر وغوبيلز وهمлер. ويمضي الكرد بحكاياتهم فيقولون أن الموناليزا الكردية لم تكف عن محاولة الانتحار

وكان آخرها في الطائرة العائدة بها من برلين إلى بغداد، عندما غافت زوجها صدقي والمضيفين وفتحت باب الطائرة وألقت نفسها. لكنها لم تسقط على الأرض بل تلقفها سرب من طيور القبج كان متوجهًا إلى أرض كردستان موطنها الرسمي، والذي وعدوه بوضع صورته على عملتهم عند الاستقلال، فحملتها بكل حنان وأمان وألقاها فوق بيت أهلها. حين فطن بكر صدقي إلى غيابها مد رأسه من باب الطائرة يأمرها بالعودة إلى عصمتها الزوجية، لكنها لوحظت له ساخرة منه، ثم باغته الربيع وصفعته بقوة وألقت به في البحر، فتلقيفته كواسج وتماسيخ ما أن التهمته حتى تقيأته لأنها وجدت لحمه متعفناً ومتفسخاً! هذه هي الحكاية الكردية وهي رغم ما فيها من مبالغات وشطحات تشير إلى آلام الأكراد الطويلة، وطموحاتهم المشروعة، وغير المشروعة!

قلت ضاحكاً:

بعد أن انتهي من تعلم السير على الماء، سأتعلم تسلق الجبال، وادهب للبحث عنها هناك!

ورحنا نضحك ونواصل أحاديث شتى!

نتخاذل قرارنا ثم ننقضه، كثبان في الصحراء تلمها رياح،  
وتذروها رياح!

مرة أخرى أترك ابتي في لندن، وأسافر! أقنعت نفسي أنها قد كبرت، وأنها صارت تعي ما يحدث لها، ولنا بوضوح. وأنها اعتادت فراقني، وإنني سأتركها في رعاية بعض من عائلتنا وأصدقاء طيبين حنونين قدامى وجدد. أفراد من عائلة ماكس غمروها بحنانهم ورعايتهم، وأبدوا استعدادهم لتقديمها بين فترى وأخرى، واستقبالها في بيوتهم متى ما أرادت! وجدت من الأفضل أن تبقى في لندن تترعرع وتواصل دراستها التي نشأت عليها، وإنها قد تعرض لهزات ونكبات لو قطعت دراستها وجاءت معنا إلى الشرق. هكذا

أقعت نفسي بفراقتها، تذكرت ما كنت قد اتخذته من قرار عند مرضها، يبدو إننا نجد لكل قرار أسبابه، كثبان في الصحراء تلمها، رياح وتذروها رياح. عجلنا أنا وماكس في السفر، ربما لكي لا أتراجع. عشنا شهر عسل جميل هانئ مختلف في سوريا بأحضان قرية عين العروس التي تقع على ضفاف نهير صغير في ريف حلب. لا فكاك لي من الإقامة في فندق البارون. قضينا فيه ليتين، تمعنا بأطعمة الشهية، وحدثت ماكس عن ذكرياتي فيه. في جو القرية الهدىء أكملت رواية "جريمة في قطار الشرق السريع"، كانت فرحة ماكس بها أكثر من فرحتي، فأنا ما أنتهي من رواية حتى تعربيني كآبة خاصة، يمكن أن أسماها كآبة الإنجاز، مزيج من قلق على نجاح العمل، وقلق على العمل الآتي، هل سيأتي؟

انتقلنا إلى العراق، وبقينا على تواصل مستمر مع روزلinda، كان ماكس يتبعها كأب، أتوقع بثقة أنه لم يأس يوماً إنه لم يكن له أبناء من صلبه. لم يفكر طيلة حياتنا معاً بشيء له وحده، ولم يفك بشيء لي وحدي، دائمًا نفكر بكل شيء لنا جميعاً نحن الثلاثة دون أن تغيب الإنسانية والعمل من أجلها عن اهتمامنا. هكذا مضى مركب حياتنا في بحر الدنيا الهائج بالحروب التي أخذت ماكس مني لسنوات. كانت الحرب كابوساً طويلاً كاد يحطماني أو يصيبني بالجنون، كم هي الحروب قدرة! بعد عودته استعدت طاقتني على التفاؤل والأمل، خبرتي تقول لا شيء يقتل الإنسان والكاتب خاصة كما يلأس والقنوط، لذلك بقيت أكافح اليأس كمرض وبيل فتاك! ودائماً كنت أنسحح الكتاب الشباب أن لا يأسوا مهما صادفهم من ظلم أو قسوة أو إنكار، في النهاية سينجحون ويتصرون، ويأتي من ناصبهم العداء، والإعاقه يخطب ودهم! كان ماكس يحثني على البقاء في البيت الجميل البسيط المطل على الفرات في الناصرية وأنصرف للكتابة. لكنني ما أن انتهي من الشوط الذي أضعه أمامي للكتابة، حتى أجد أية وسيلة نقل للالتحاق به بين حفر الأرض الأثرية؛ فيستقبلني بابتساماته وسحاباته من دخان غليونه! أخذ يعلمني كيف

اعتنى بعض اللقى والأثار التي يعشرون عليها ثم بعد أن نتهي كنا نجلس سوية ليونارد وزوجته الجميلة الطيبة كاترين وماكس وأنا وأحياناً، ينضم إلينا أعضاء من فريق التنقيب إنجلز، وهولنديون مع بعض الموظفين أو العمال العراقيين. حفلات شاي وحلوى وأحاديث شيقة تشدقنا وتكون منا أسرة عالمية واحدة تبحث عن تاريخها، فأنا حقاً أرى أن تاريخ الإنسان واحد، لكنه موزع في أماكن شتى من الأرض! عندما تبين في العمق نتواء خوابي أو ألواح أثرية، ينزل ماكس ومعاونوه الخبراء ليتولوا إخراجها من تحت طبقات تراب آلاف السنين بكل رهافة وصبر وأناه، كنت أتلتففها من أيديهم المتلهفة المرتجفة أحياناً، ألفها على الفور بقطع قماش حريرية مبللة بالماء، كي امنع ملامستها الهواء الذي يجعلها تهشم. أنتظر حتى تتکيف مع جو هذا الزمن. تخيلها تلهمت كما الأطفال الجدد، وقد وصلت من رحلة طويلة استغرقت آلاف السنين، ثم أنظفها، وأحفظها، لتفهرس. اشعر إن عملي يشبه مساعدة القابلة التي تتلفف المواليد الجدد من الأرحام، الفرق أن مواليتنا من جوف صحراء تفتت عليها آلاف السنين، عاشت حياتها بجرأة وانقضت، وقد جاءت لحياة أخرى، رغم أنها على أي حال! كنت أحس بنشوة إبني أشاركهم عملهم في صنع حياة جديدة لما طواه الزمن وغادر الحياة منذ أمد بعيد! شعرت بأهمية أكبر لعملي معهم حين جاءني ماكس إلى خيمتي، كنت أكتب في روایتي "جريمة قتل في وادي الرافدين" كان شاحباً منفعلاً. قال لدينا أمر هام، يا أجاثا، نريد رأيك! وتبنته، كانت ثمة سرقة للقى أثرية، وهذا أمر في غاية الخطورة! يعادل جريمة القتل، وربما أكثر لدى بعضهم! كان ماكس ومعاونوه يحفرون بموضع في المقبرة الملكية في أور حين لاحت لهم عصابة ذهبية على جبين جمجمة، لكنها توالت فجأة حين انهالت عليها كومة كبيرة من التراب. أوعزوا للعمال بإزالتها، ومضوا لاستراحة قصيرة، لكن حين عاد لمبارد وماكس ومن معهما، بعد إزالة التراب، لم يجدوا العصابة الذهبية، وما كان متوقعاً وجوده معها من حلٍ ثمينة جداً. لقد

حدثت سرقة! لم يكن بحثهم وتحقيقهم مع العمال والخبراء الآخرين مجديا، فاضطر لومبارد وماكس لاستدعاء الشرطة. أخذ مدير شرطة الناصرية وهو من أهل المنطقة، يحقق مع العمال العراقيين فقط، بكل فظاظة وقسوة، ثم أتى بالقرآن، اقسموا جميعهم ببراءتهم. كنت وأنا أسمع ما يدور، أقدح ذهني الروائي البوليسى بقوة وعجاله، وجدت ذهني يشير إلى جون توماس المنقب الإنجليزي المشرف المباشر على الحفر. الذي كان واقفاً معنا ضاماً يديه إلى صدره، يرقب بصمت آلام عماله، وهم يواجهون المحقق الشرس. في اللحظة التي ملت بها على ماكس هامسة له بشكوكى بجون توماس، تقدم أحد العمال وقد اخترق خوفه من فقد عمله. ليقول إنه رأى جون توماس يتزعزع العصابة الذهبية من الجمجمة مع المجوهرات الأخرى ويخفىها في ثيابه! اتجهت الأنوار إلى جون؛ فتوارى داخل الخيمة، لكنهم لحقوا به؛ فانهار، وسلمهم المسروقات بصمت! كانت الجمجمة لأميرة سوميرية، وكانت تحمل مع عصابتها الذهبية قلائد رائعة تمثل في تشكيلها وما تحوي من أحجار كريمة إحدى ذرى الفن العراقي القديم! وهكذا تحمل أكثر من 168 عاملاً عراقياً بريئاً، التحقيق القاسي والإهانات من مدير الشرطة، فقط لأن الشك لم يكن يقف على قبعة رجل إنجليزي! بعد ما حدث؛ شعرت أن عملي معهم سوف لن يتوقف عند حد لف مواليد القبور بالمناديل المبللة!

هي حسناء آشورية، حفيدة ملكة، زجت آلاف وآلاف الشباب  
في حروب كثيرة، لم تكتثر لآلام بنات جنسها، ألقت  
عليهن حزام العفة!

والآن اسمع يا ثيسجر حكاية الأشوريين عن محبوتك، فهم يقولون أن اسمها شميرام، جمال وفتنة، وجه أشقر مستدير، صدر ناهد، قوام فارع، نظرة قوية جذابة، شعر كثيف ينسدل على الظهر عباءة من ذهب أبنوسى، هذه الفتاة تبادلت الحب مع الضابط الإنجليزي ولبرت، ابن أخي تشرشل أيضاً، برضاهما،

وبهياهمها وابهارها! كانت ابنة رئيس قبيلة آشورية كبيرة تعاون مع الإنجليز عند دخولهم البلاد، فائلاً؛ "وقفنا معهم لا عن خوف ولا خنوع، بل لقناعتنا أن بلادنا خضعت أربعة قرون للعثمانيين الأجلاف؛ أذلوها وأكلوا لحمها، ولكي تلحق بركب العالم يجب أن تحالف مع دولة قوية متحضر مثل بريطانيا!" فشكل جيشاً من الشباب الآثوري سمي بالليفي، وعمل تحت إمرة الإنجليز مختصاً في إخماد أي تمرد يواجههم! التقى الضابط ولبرت قائد جيش الليفي شميرام في بيت أبيها الكبير، تقدمت له بصينية الشاي؛ فذهل لجمالها وغاب عن وعيه. لم يفق إلا حين رفع قس القوش كأس الشاي وقد برد أمامه، ووضع بدلاً منه كأساً كبيراً من نبيذ الدير المعتق. أصبت شميرام بدور خفيف لذيد؛ جعلها تأوي إلى حجرتها وترقص لوحدها الليل تحرق رسائل الحب الكثيرة التي تلقتها من شبان القوش والقرى المجاورة وترقص على ضوئها! تخلصت تماماً من حيرتها وترددها حيال أي منهم تختاره بعلا لها. وعكس ما لقيه حب فاطمة من عقبات لقي حب شميرام وزواجهها كل ترحيب وحفاوة من أهلها وعشيرتها، لم يطلب والدها شيئاً له أو لابنته سوى أن يأخذ الضابط من عمه شرشل ورقة تعهد بها بريطانيا بأن لا تسمح بتكرار المذابح الفظيعة التي طالت الآشوريين على مر القرون الأخيرة. وأن يسمح لهم بممارسة ديانتهم بكل حرية وأمان! تم حفل الزواج في قصر منيف في الموصل بكل مظاهر الأبهة والبهجة. بعد أن قضى الضابط مدة خدمته العسكرية في الموصل، رحل معها إلى إنجلترا. هناك تطوع رسام العائلة المالكة البريطانية، فرسمها بشكل نصفي بوضعيتين؛ مرة حاسرة الرأس، وفي الأخرى تحت غطاء الرأس الآشوري الشهير، وقد علقت صورتها الأصلية في متحف الفن البريطاني العظيم. طبعت في لندن آلاف النسخ منها. أرسلت إلى العراق وببلاد الشام. اعتمدت في كنائس كلوحات لمريم العذراء. مضى مؤكدين أنها حفيدة زعيمهم الأعظم يديجون المقالات والمباحث حولها، مؤكدين أنها حفيدة زعيمهم الأعظم آشور بانيبال، وإن جدتها الأولى ملكتهم الشهيرة سمير أميس، المؤتمنة على

مكتبة الصخرية العظيمة، أول مكتبة في العالم، أصغر كتاب فيها وزنه نصف طن، لكنه حين يدخل الذهن يصير أخف من ريشة عصفوراً جدتها التهمت كل هذه الكتب، وأورثت روحها لحفيدتها شميرام، مع نبوءة تقول: "ثمة قدر غريب سيدخل على أهل هذه البلاد؛ كما يدخل الثعبان أكمة ورد، فيفرغهم زماناً طويلاً يتطاحنون ويتشاحنون ويفني بعضهم بعضاً، حتى تولد لنا حفيدة اسمها شميرام فتجمعهم حول وجهها الجميل؛ كما تجمع الشمس البشرية حولها" يقول البكري، نبوءة رهيبة، لا أدرى أن كانوا يقصدون بها عصرنا! وجدت موجز حياة شميرام في كتاب قديم بمكتبة أنسستاس الكرملي، وهو مؤرخ مسيحي كبير يسجله الكثيرون! استنسختها لك، خذها! شرعت بقراءتها؛ بينما هو ظل بجانبي تقرقر نارجيلته مثل طير مخنوق في قفص: "يحكى أن سيولاً عارمة اجتاحت نهر دجلة شمالاً، وألقت بأسماكه وضفادعه على جانبيه، فجأة ظهرت وسط النهر سماتان تدفعان أمامهما بيضة كبيرة، وتلقاها على الشاطئ، وعلى الفور هبطت من السماء حمامنة بيضاء كبيرة، واحتضنت البيضة، حتى فقتت، فخرجت منها طفلة فاتحة رائعة، فجاءتها أسراب حمام، أخذت ترف عليها بأجنحتها وتصد عنها حر النهار، وبرد الليل. وتأتي لها بعذائها مما لدى الرعاة من جبن وحليب، فعاشت الطفلة هائلة سعيدة! تنبه الراعي أميس إلى أن جبنة صار يثقب، وحليمه في الخالية صار يتناقص. كمن يرقب مخزنه الصغير؛ فشاهد الحمام تمتنق الجبن، وتحمل بمناقيرها الحليب، وتطير. تبعها فوجدها تحط عند منحدر صخري معشوشب منزو. دخله فوجد طفلة لم تبلغ العام من عمرها، بهرء جمالها، فأخذتها إلى كوخه، وأسماها سميراً وأي الحمامنة، وعندما ألحقها باسمه صار اسمها "سمير أميس" أي "حمامنة الراعي أميس"، لكنه قرر بيعها ليسدد ما عليه من ديون! ذهب بها إلى ساحة نينوى حيث يجتمع كل عام شبان وشابات ورجال قادمون من نواحي المملكة ليتلقى الشاب عروسته والرجل صبية ليربيها إلى أن تبلغ سن الزواج فيتزوجها أو يقدمها عروسًا لأحد أبنائه، شاهد سيمرا المشرف على خيول

الملك، سمير أميس وكان عقيما فخفق قلبه للصبية فاشترتها، أعجبت زوجته الصبية وفرحت بها وأخذت ترعاها ابنة لها، كبرت وبرزت أنوثتها، رأها أوانس مستشار الملك، دهش لجمالها فانتزعها من بيت المشرف غير مكترث لأنمه وزوجته لفقدتها! تزوجها وهي صبية صغيرة، كانت فائقة الذكاء، تقدم له النصح والمشورة في الأمور الخطيرة فنجح في عمله مع الملك الآشوري الذي كعادته كان يعد لحرب جديدة فأمره أن يأتي معه لإدارة المعارك، وحيث أن أوانس لا يقوى على فراق سمير أميس؛ فأخذها معه، تفتحت مواهبها في ساحة الحرب، فأخذت تتبع المعارك وتقدم الرأي والنصح، صار الجيش يكسب المعارك ويمضي قدما، أعجب الملك كثيرا بجمالها وفطنتها، عرض على أوانس أن يعطيه ابنته ويتنازل له عن سمير، رفض أوانس ذلك؛ فهدده الملك باقتلاع عينيه، فاضطر للاستسلام ثم انتحر ندما وحزنا! وقعت أميس في هوس الحروب أيضا، غير مكتيرة لموت آلاف الجنود أو غيابهم عن زوجتهم معتمدة على ما أسمته حزام العفة! قال المنجمون لها؛ أنها ستقتل يدها من أحبها وأحبته، لم تكترث لذلك، لكن ذلك حدث فعلا فبعدما قتل زوجها الملك نينوس عدوه مضى في دهليز قصره ليبلغها بانتصاره، فلم تتبينه في الظلام، حسبته عدوا، فقتلته طعنا بالخنجر!

ضحك سليم قائلا:

– إذا كانت حبيبتك هي محبوبتك، وتحمل روحها، فالويل لك منها!

وجهها الجميل متاهة، ولا طريق لنا فيه إلا الحب، فهل هو آمن؟  
أخذ ماكس يتململ، ترك الفراش وذهب إلى الشرفة قلقا، قافزا بيصره النهر إلى المجهول البعيد، حاول من بعيد أن يرى برج القشلة، هل ما يزال اللقلق هناك؟ قال دعبول أجياثا لا يمكن أن تضيع ما دام اللقلق هناك، هل صرت يا ماكس تؤمن بالخرافات؟ يكاد لا يرى شيئا حوله. عاد خوفه يستعر، لماذا لم يطل المحقق خالد عليه؟ ها قد انقضى النهار، أنا التهمت الكثير من

أوراق ثيسجر، ألم يفرغ هو من أوراق أجاثا؟ هي ليست كثيرة، أين هما الوصي ونوري السعيد الذين قيل لي أنهما يتبعان بنفسهما قضية اختفاء أجاثا؟ أين هو بهجت العطية المعروف كما قيل ببطشه بالخصوم السياسيين؟ أين براunteه أمام المجرمين العاديين ممن يخطفون ويقتلون؟ أين السفارة البريطانية؟ أين هو ريتشارد والمستر بينج بونج؟ لم أتلقي أي اتصال منهم حتى ولو فقط على سبيل التهدئة وإراحة قلبي، وصرت أحس بوجبيه في رأسي! نزل إلى صالة الفندق؛ هل عاد جبرائيل وصاحبه أم ما زالا معتقلين رهن التحقيق والاتهام؟ ثمة صمت حولهما، كلما سأل العامل الجديد الذي جلس وراء طاولة الاستعلامات هز رأسه نافيا علمه بشيء، حاول أن يأكل شيئاً وجد شهيته مقلفة، تناول قدح عصير فقط، دخن المزيد من التبغ المعطر، ولم يجد مناصاً من العودة إلى حجرته والغرق بأوراق ثيسجر!

- كلهم يا ثيسجر ادعوا أن بنت المعيدى ابنته، لم يبق سوى الدليم؛ لم أسمع حتى الآن إذا كانوا هم أيضاً يقولون أن هذه الصورة لبنت منهم، أو من البدو جيرانهم، من يدرى ربما سأسمع قريباً أنها من الصحراء، متاجاهلين أن الفتاة متوردة الخدين ناعمة الملامح؛ تشي بترف ورفاهية المدن أو الشواطئ، غير المتوفّر في خيام البدو المتنقلة من هجير إلى زمهرير! ثمة من يقول أنه رأى صورتها في تركيا وبلغاريا وارمينيا وبلاط السوفيت، ولكن حتى الآن لم يظهر رسام يقول: أنا رسمتها! ربما لو أعلنا عن جائزة لظهور ألف رسام متشرد يدعي أنه هو الذي رسمها، وباعها في حينها بقنية نيزد رديء! ولكن دعني أقول الآن لك شيئاً، قبل أن أنساه، فقد قصدت رسامين عراقيين بعضهم عاد من إيطاليا وأمريكا، بعد أن أنهوا بعثاتهم الدراسية، سألهما عن الصورة وصاحبها، بعضهم هز كفيه ضاحكاً، أحدهم قال أنها صورة شعبية بدائية لا قيمة لها، آخر قال هي من إنجاز أحد الرسامين الأوربيين الذين جاءوا بلادنا مستطعلين مجذوبيين للنور والدفء، أحدهم قال أنها كما قال الملك غازي؛ العبد

القادر رسام، الذي كان فناناً كبيراً، ولد في مدينة العماره أواخر القرن التاسع عشر، وكان من رعيل الضباط الذين درسوا في الإستانة، وانفتحوا على أنوار النهضة الأوربية، واطلعوا على أفنان الرسم العالمي، وعندما دخل الإنجليز العراق، وانحل الجيش العثماني، عاش متخفيًا من الإنجليز، وانصرف للرسم وعاش كالمتبدى في دكان فقير ببغداد يرسم لوحاته الرائعة. ترى هل إن عبد القادر هو من عاش قصة الحب معها؟ أم إنه أراد أن يرسم ضحية جميلة تكون رمزاً لانتهاكات الإنجليز في العراق. هذه الصورة يا ثيسجر، تثير الذكريات والمواجع، معها تخوض رملاً آخر، ربما ممزوجة بالدماء والدموع، لا تستطيع أن تجزم هل هي بنت المعيدي، أم التركمانى، أم الكردي، أم الآشوري، والأسهل أن تجاري من يقول أنها روح العراق الجميلة وقد انتهكت وضاعت تحت الأقدام! أو أن تقول أنها الجمال المطلق وقد تناهبت النزوات والشهوات عاليها وسافلها! البحث عنها يا صديقي يدخلك في متأهات كثيرة ربما أهونها لغز العراق الذي يبدو جميلاً وبسيطاً، لكنه في أعماقه شبكة احتمالات وعقد محيرة، بعضهم أراده مزرعة له، أو بئر بترويل أو طريق إلى الهند فضاع فيه وغاص في أوحاله! أنت لم تبحث فيه سوى عن وجه جميل، وقد أصبحت يا ثيسجر لا طريق لنا إلى الإنسان أو البلدان إلا الحب!

سألته بقلق حقيقي:

- هل هو آمن؟

- من يحب لا يفكر بالعقوبة!

صمت سليم البكري قليلاً، حك صلعته الوردية، وعب الكثير من دخانه مستحيثاً ذاكرته:

- يبدو أن الناس في منطقتنا وجدوا فيها روحًا هائمة، معدبة، عرفت يا ثيسجر أن أنها موجودة لدى الفلسطينيين والسورين واللبنانيين، ولا أدرى

إذا كانت موجودة لدى المصريين! وكلهم يقولون أنها ابنتهم. حكايات الفلسطينيين كثيرة حولها، فبعضهم يقول أنها ابنة فلاخ في حيفا، رأها الضابط الإنجليزي وهي تخطر في العقل تجمع التفاح في سلة تحتضنها إلى صدرها؛ فرأى التفاح يغار من خديها ونهديها فيسقط على الأرض، فافتتن بها! وآخرون يقولون أنها ابنة صياد سمك في عكا وإن الضابط الإنجليزي رأها وهي تتمشى مع صواريخها على شاطئ البحر فأغرم بها، (الأغنية تقول أن البحر ينسى إنه بحر، وينحنى لها ليغسل قدميها) بعد أن عجز عن إقناع والدها بالموافقة على زواجه منها، رغم وساطات كثيرة قام بها وجهاء ورجال دين، ورغم الليرات الذهبية، والثياب الحريرية التي حاول إغراءهم بها، اختطفها وأخفاها في حي يهودي، ولم يفلح أهلها في الوصول إليها، لكنه باعها لشري يهودي، ثم احتمى بشكبة إنجليزية، وإن كثيرين قتلوا من أجل استعادتها دون جدوى، وما تزال الحرب قائمة إلى الآن! آخرون يقولون أن الشري اليهودي العجوز اشتراها من والدها بمال كثير خسره على موائد القمار والخمر وبيوت الغانيات! أهل غزة رغم سمرتهم الداكنة، ينسبونها لهم أيضاً، وهي الشقراء متوردة الخدين. في حلب يقولون، أنها لفتاة سورية عربية جميلة من الإسكندرية، بزغت كالنجمة أواخر العهد العثماني، تداول الناس أخبار حسنها وجمالها، فسعى ضابط عثماني كبير كان حاكماً للمنطقة للوصول إليها فاستدعى والدها الفلاح الفقير إلى مقره وعرض عليه أن يعطيه قطعة أرض كبيرة إذا وافق على زواجه منها، لكنه رفض، فأوعز الضابط لرجاله باختطافها وإخفائها في بيته الكبير في أعلى قلعة له في الإسكندرية، أصيب والدها بالعمى لكترة ما بكيا عليها، ولم يريا الصورة التي أرسلها لهما الأغا، وظل وجه ابنتهما قمراً في ظلامهما، حتى ماتا بعد سنوات قليلة. آخرون يقولون أنها لفتاة جميلة من دمشق كانت تقف إلى والدها الحلوي في محله، فكانت تبيع كل يوم الكثير من أطباق البلاوة والزلابية، ولسوء

حظها دخل المحل ضابط فرنسي كان خارجاً لتوه من الجامع الأموي بعد أن ردد أمام قبر صلاح الدين الأيوبي ما كان قد قاله قائده قبل سنوات "ها قد عدنا يا صلاح الدين" متقدماً لهزيمتهم في الحروب الصليبية، وما أن وقع بصر الضابط على الفتاة حتى قرر أن لا يغادر المحل إلا ويأخذها معه وكانتها علبة حلوى! لكن الوالد رفض تزويجه لها، بل طلب من المترجم أن ينقل له قوله (قمر السماء أقرب إليك من قمر بيتي ومدينتي) لكن الضابط ظل يسعى مستخدماً سطوه كمحتل حتى انتزعها منه، وهرب بها إلى باريس قبل أن تنتهي خدمته في الجيش، وفي باريس أتى برسام إيطالي فرسمها بدقة وإنقاذه ولم يكن هدفه أن يرسلها إلى والدها الذي أتعبه كثيراً برفضه له، بل أراد أن يتبااهي ويفاخر بها حيثما حل في بيوت أصدقائه أو حفلاته التي أخذ يقيمها في قصر كبير غير بعيد عن قصر فرساي قائلاً: "لدي موناليزا حية فاتنة أجمل بكثير من موناليزا الإيطالية!" لكن الصورة انتقلت مع كثير من المسافرين إلى سوريا. الحكايات تتفق أن الصورة هي لرسام مجهول من الفرنج وقد أراد بها مغتصب الفتاة التخفيف من تأنيب الضمير، وإن الصورة ظهرت واشتهرت وانتشرت، بينما اختفت الفتاة تماماً، فأصبحت الصورة بديلاً وتعويضاً عنها! سكت

البكري لحظة ثم قال مع زفراً دخان كثيف:

ـ يخيل إلي؛ أن من يغتصبنا دائماً يهيناً كتعويض صورة الحياة، لا الحياة نفسها، ولا حتى جزءاً منها، أو هو يهيناً صورة أنفسنا، لا أنفسنا ذاتها، نعم

ـ هنا الخلل في علاقتنا مع الآخر، وهنا مصدر الحزن العميق!

ـ ضحك قائلًا:

ـ أتريد أن تبدأ رحلة لتبحث عنها في الشرق الأوسط كله؟ لهذا تحتاج ألف عام! خير لك وأنت ذاهب إلى لندن أن تبحث عنها هناك.

ـ ليتك يا أجياثاً تدخلين حلبة البحث معنا، لتكشفين ولو برواية بوليسية سرها الغريب الغامض!

# ذاكرة الطين أقوى من ذاكرتنا، والإيمان كالحب هو أن لا تسأل لماذا؟ وكيف؟ الأسئلة تربك خفقات القلب!

كان لومبارد كثیر الصمت والشروع كأنه يعيش مع موته ما قبل التاريخ؛ يحاورهم يسألهم أين أو دعوا أشياءهم الجميلة النفيضة، وعلى أية ألواح طينية أو صخور نقشوا أشعارهم وأناشيدهم وألحانهم. قال لي في لحظة تجل؛ كم أتمنى لو أصل إلى النوتات الموسيقية للسومريين والبابليين. مجتمع كانت لديه كل هذه الآلات الموسيقية والأناشيد والترتيل، لا بد أن لديه ألحاناً عظيمة، ولا يمكن أن يكونوا قد عزفوها كلها ارتجالاً. لو عثروا على مدوناتهم تكون قد وهبنا أسماعنا وقلوبنا نفس النسوة والسمو الذي كان يكتنفهم وهم في معابدهم وخلواتهم الروحية والعاطفية يستمعون لتلك الألحان والأغاني العظيمة. كان يشم من الهواء رائحة تلك العهود القديمة، ومن السكون والحجر ألحانها وأصواتها، كان يقول نحن نحتاجها اليوم في عالمنا المنهمك بالمادة وصراع الدول! لم يكن لومبارد وماكس ينظران للعراق كإحدى مستعمرات بلدهما، كانوا في المحصلة العامة ينظران إليه كذلك، هو امتلك حضارة البداية والتأسيس، وبريطانيا امتلكت حضارة القمة، والنهاية الظافرة، وكان هذا يشعرني بالطمأنينة على أن حضارة العالم هي ملك الجميع، ومسؤولية الجميع، عليهم بناءها معاً، والحافظ عليها معاً! لومبارد يقول: جل جامش نبي الجسد، بحث عن الخلود المادي لأحسائه، ليقي ملكاً على الأبدية؛ فرده الأرض والسماء خائباً. وجاء ببعضه كلمات مفعمة من صاحبة الحانة! إبراهيم الخليل نبي الروح بحث عن خلود سماوي ولم يرده الله! فأدرك أن لا حياة سعيدة دون توازن الروح والجسد! تلقى ما تلقى وانبعث بعده موكب من الأنبياء والقديسين يعوضون الإنسان عن فناء الجسد بخلود الروح! كان يعجبني في لومبارد إنه كان يعرف عما يبحث في التراب، الروح هذه التي كلما فقدناها صرعنا الجسد بافتراقه عن نفوسنا، فيفني احتجاجاً! صمت برهة راح ينظر إلى الأفق المتوج بغروب شمس حزينة فوق أور قال

لي وهو يتسم:

- جئت أبحث عن إبراهيم الخليل، لم أجده كان قد رحل قبلى إلى فلسطين، يهوى ليستقبل من السماء ثلاثة أديان! لكتني وكما التعويض الإلهي عثرت على القيثارة الذهبية، وأنت أيضاً جئت تبحرين عن إبراهيم الخليل فلم تجده طبعاً، وكما التعويض الإلهي عثرت على ماكس، الآن كل منكما هو القيثارة الذهبية للأخر، وهكذا يبدو أن البحث عن الأنبياء مفيد جداً!
- أتمنى أن يعثر ماكس على قيثارة ذهبية تشبه قيثارتكم كلما شاخت تكون أفضل، فأنا كلما تقدمت في السن صرت أسوأ!
- ليس ماكس وحده كلنا نسمع من وقع أصابعك على الآلة الكاتبة موسيقى العالم كله! فتعيدينا معك إلى شبابنا، الكاتب لا يهرم!
- بين فترة وأخرى، لومبارد وكاترين، وماكس وأنا نتجول في أرض التنقيب، تلك الحفر المفتوحة على السماء؛ هي حدائقنا التراوية العجاف؛ نطل منها على أعماق التاريخ؛ أشجاره وزهوره الباقيه أبداً، وأتذكر إننا كنا نتحدث عما ورد في الكتب السماوية وما صاروا يجدونه في الألواح من نصوص مطابقة أو مشابهة لها، قال لومبارد:
- أستطيع أن أقول لك أن معظم القصص والحكايات، وتفسيرات الظواهر الكونية من قصة آدم وحواء، وخروجهما من الجنة، إلى سفينة نوح الواردة في الكتب المقدسةأخذت مما توارثه الأقدمون عن أساطير وحكايات ما بين النهرين وتراث الفراعنة، هذا ليس دليلاً على صحة هذه الحكايات أو خطئها، فهي كانت لدى أولئك القدماء تصورات فطرية بدائية. نحن لا ثبت ولا نفي، نقدم ما نجده لمن يبحث ويفكر!
- كنت قلقة حقاً، سألته بلهفة: هل لي صراحة هل ما وجدته من أصول الحكايات والأفكار جعل أيمانك بالإنجيل يهتز؟
- قل لي صراحة هل ما وجدته من أصول الحكايات والأفكار جعل أيمانك

ترى، سرخ بنظراته، أعاد إشعال غليونه قال وهو ينفث الدخان:  
ـ الإيمان كالحب هو أن لا تسألي لماذا؟ وكيف؟ الأسئلة تربك خفقات  
القلب! أعرف أن ذاكرة الطين أقوى من ذاكرتنا، تصدمنا تجرحنا، إنما في  
النهاية لدى روح تحتاج السكينة والرضا!

أعرف إنه وزوجته كانوا مؤمنين حربيين على صلاتهما وسلامهما  
الداخلي، وأنا وماكس كذلك، لكن بحثي في ذاكرة البشر فراعنة أو سومريين  
جعلني أفكر أعمق، أو لأقل مزعزعة الفكر:

ـ لكنك وماكس قلتـما أنكمـا وجدتمـا الكثـير من جذور السمـاء في الأرضـ،  
على حقيقـتها!

ـ نـعمـ، المـنقـبـ كالـطـبـيبـ، هـذا يـشـرـحـ الجـسـدـ، وـذـاكـ يـشـرـحـ الحـضـارـةـ الـقـدـيمـةـ،  
كـلاـهـمـاـ غـيرـ مـسـئـولـينـ عـمـاـ يـعـدـانـ مـنـ حـقـائـقـ مـهـمـاـ كـانـتـ قـاسـيةـ.

تطرقت معه إلى ما قاله الراهب بهنام. قال لا بد للعراقيين أن يتولوا  
بأنفسهم التنقيب عن تاريخهم، سمعت أنهم أرسلوا طلابا إلى أمريكا  
وبريطانيا لدراسة التنقيب، واللغة السومرية والبابلية، مفارقة طريفة أن يتعلموا  
لغة أسلافهم من الآخرين، المهم أن يمسكوا تاريخهم بأيديهم!

استخرـجـناـ آلـافـ الـأـلـوـاحـ الـطـيـنـيـةـ، كانـ يـؤـلـمـنـاـ عـدـمـ وجودـ مـخـازـنـ مـلـائـمةـ  
لـحـفـظـهـاـ، أـخـذـتـ الـفـرـقـ الـأـجـنـيـةـ حـصـتـهـاـ مـنـ هـذـهـ الـأـلـوـاحـ وـالـلـقـيـ الثـمـيـنـيـ! عـرـضـواـ  
بعـضـهـاـ فـيـ الـمـتـحـفـ الـوـطـنـيـ، بـنـيـةـ قـدـيمـةـ صـغـيرـةـ فـيـ الرـصـافـةـ، أـلـقـواـ حـمـولةـ  
شـاحـنـاتـ كـبـيرـةـ مـنـ الـأـلـوـاحـ الـهـامـةـ فـيـ سـاحـةـ وـاسـعـةـ فـيـ الـكـرـخـ مـخـصـصـةـ لـبـنـاءـ  
مـتـحـفـ وـطـنـيـ كـبـيرـ، لـاـ نـدـريـ كـمـ سـتـبـقـىـ هـذـهـ الـأـلـوـاحـ تـحـتـ هـجـيرـ الشـمـسـ،  
وـالـمـطـرـ فـالـكـثـيرـ مـنـهـاـ أـخـذـ يـفـسـخـ وـيـفـتـتـ! مـاـ يـجـعـلـ اـسـتـخـرـاجـنـاـ لـهـاـ مـنـ باـطـنـ  
الـأـرـضـ جـنـيـةـ عـلـيـهـاـ! هـذـهـ الـأـلـوـاحـ مـكـتـوبـةـ بـالـخـطـ الـمـسـمـارـيـ، أـوـ بـالـلـغـةـ الـبـابـلـيـةـ،  
تحـويـ الـكـثـيرـ مـنـ الـمـعـلـومـاتـ عـنـ الـعـهـودـ الـقـدـيمـةـ، وـبعـضـهـاـ مجـرـدـ عـقـودـ بـيـنـ  
الـأـفـرـادـ، فـيـ ذـلـكـ الزـمـنـ الـبـعـيدـ كـانـ اـسـتـئـجـارـ خـادـمـةـ أـوـ فـلـاحـ يـقـتضـيـ كـتـابـةـ عـقدـ  
بـثـلـاثـ نـسـخـ، اـثـنـانـ لـمـتـعـاقـدـينـ، وـالـآـخـرـ يـوـدـعـ لـدـىـ الـمـعـبدـ. كـانـ درـجـةـ تنـظـيمـ

الحياة واحترام حقوق الإنسان آنذاك، تدهشنا حقا! خزنوأ آثارا هامة في بيت الآثاريين، الذي نسكنه كلما قدمنا إلى بغداد، فأجدد فيه إلهامي وأتمنى لو أعيش عزلة طويلة فيه أختلي مع شخصيات الماضي أحاورها وأسبر غورها وأكتب عنها. حقا إن عمرا واحدا لا يكفي للروائي، ليته يعيش أضعاف عمره ليكتب؛ فهو كلما تقدم في العمر ينضج أكثر، لكن من يحصد نضجه في النهاية هو دود القبور! قضيت وماكس سنتين قرب أور، كانت فترة خصب روائي لي كتبت، رواية "جريمة في شارع الرشيد"، "جريمة في كركوك"، "جريمة قتل في وادي الرافدين"، وغيرها. أعددت خططا لروايات أخرى. كان ماكس يساعدني في مراسلاتي مع ناشري كتبى ويبذل جهدا للحد من جشعهم وألاعيتهم ليضمن حقوقنا المادية، وإخراج الكتاب بأفضل رونق، وتحقيق أوسع انتشار له. كان إقبال القراء على روائيتي في مختلف أنحاء العالم بعد ترجمتها قد منحنا أنا وماكس سعادة حقيقة غامرة! لكنه بنفس الوقت جعلني أكثر شعورا بالمسؤولية إزاء ما أكتب، وأكثر اهتماما بتقنيتي الروائية، واختيار موضوعاتها وشخصوصها!

سألوني كثيرا لماذا كل شخص روائي هم من الإنجليز والأجانب المقيمين في العراق أو في غيرها من البلدان، لماذا لا يكون ثمة أبطال روائياتي من أهل البلد؟ الأمر لا يتعلق فقط بأنني أتحاشى التورط بمواقف قد تحرجني ك أجنبية، بل لأنني أعرف أكثر دوافع وطبعات أبناء جلدتي الذين أعيش معهم في البلد الغريب، وجدت البعض من هؤلاء ما أن ابتعد عن سلطة بلده وقوانينها الصارمة، ورقابة مجتمعه؛ حتى تفجرت في أعماقه نزعات بدائية ومتوجهة، فتهالك على الملذات، واستغرق بحثا عن الثروة، وسيطرت عليه نزعة العدوان والجريمة. ذلك دعاني لتناولهم في روائيتي. لكن هذا لا يمنع إذا وجدت حبكة أو مواضيع وشخصيات محلية أن أغامر بالتعبير عنها في رواية. على كل حال أنا أعول على الإلهام كثيرا، وذكريات طفولتي وصباي!

حتى لو وصلت إليها؛ ستتجدها عجوزا هرمة، هذا إذا لم تقف على  
قبرها

تلاحق لهاث ماكس، لكنه واصل القراءة، معتقدا أنه في صفحة الأخيرة أو قريبا منها سيعثر على مفتاح باب قد يفضي إلى أجاثا! قال لي سليم البكري:  
- لم لا تخثار فتاة أخرى غير حبيبك الخيالية هذه، لتكون من المعدان، المهم أن تكون موجودة الآن، ومن الممكن الوصول إليها، فكما صرت تعرف ثمة بين المعدان جميلات كثيرات، ولا بد أن أهلها سيفافقون على زواجك منها؛ ما دمت تنوي الاستقرار بينهم. فقط اسلم، ولو شكلياً!  
أفقت من شرودي لأقول له:

- لا يهمني أن أكون في أي دين، أو حتى دون دين، لكنني أنا لا أبحث عن جسد فتاة أحلامي، بل عن روحها، يكفيوني الآن أن قلبي يهيم معها أينما تكون، وكيفما تكون!

- كيف تحتمل الوحدة والوحشة؟ دعني أسألك بصراحة كيف تقضي حاجتك الجنسية؟ فأنا أكبر منك بسنوات، ولا أطيق أن لا أمارس الجنس مرة كل أسبوع!

اعتقد إن سليم يمارس الجنس مع موسمات، فهو أعزب مzman كما عرفت، رحت أفكر بوضعيه:

- مذ جئت العراق، لم أقرب امرأة، لا في الأهوار، ولا في غيرها!

- لا ألومك على ذلك، يجب أن تكون حذرا، فالذين يكرهونك هنا كثيرون، ولكن ينبغي أن تعرف أن ثمة فتيات من المعدان حين يذهبن إلى المدينة لبيع الروبه يخضن مغامرة عابرة مع رجل يعرف كيف يستدرجهن بالكلام المعسول أو بالنقود! هذا بالطبع لا يعني أن كل فتاة من المعدان تبيع الروبه يمكن أن تناولها بسهولة! ولكن لا تشل نفسك عن مغامرة مع امرأة حقيقة قائمة خارج أحلامك! لماذا هذا التبتل والرهبة يا ثيسجر؟ حتى الرجل العراقي المتدين لا يتحفظ مثلك؟ الأولي حسب ما أعرف يعد

الجنس أمراً أساسياً في حياته!

بقيت صامتاً، ما ي قوله صحيح. سمعت من عمارة وياسين أحاديث كثيرة عن نساء يمكن نيلهن بقليل من النقود، وهما كما عرفت منها لهما مغامراتهما، ومعرفتهما بالنساء ودروبيهن، لكنني أبدًا لم أسخرهما لهكذا أشياء. كنت صادقاً بما قلته للبكري، لم أقرب امرأة لا في الأهوار ولا في غيرها من الأماكن، رغم حاجتي العميقية الجنس. أهوا الخوف في هذا البلد الذي ينظرون فيه إلى الأجنبي بريبة وتوجس، ويتظرون أية زلة منه لينهالوا عليه بسكاكينهم! فكيف إذا كان إنجليزياً لهم معه ثارات وحسابات قديمة؟ أم إنني عقدت كل أحلام الحب ورغباتي على فاطمة، وجعلتها تملأ كياني، ولكن إلى متى؟ وحتى الآن ليس هناك أي بارقة أمل في العثور عليها، وإذا وجدتها، قد تكون أضحت عجوزاً، أو قبراً دارساً، وإذا ما زالت حية وبعمر مناسب، لا ضمان إنني سأحصل عليها، قلت:

— لم أفقد الأمل بالعثور على فاطمة! قلبي يحوم حولها ويراهما! أعرف إنني أشط بعيداً في الخيال أو الوهم، لكنني مطمئن، سعيد بأحلامي وأوهامي! أطلق سليم ضحكته المعهودة:

— لا تتصورني وأنا أساعدك في البحث عنها، إنني مقتنع أنك ستتجدها، أنت حتى لو وصلت إليها ستتجدها عجوزاً هرمة، هذا إذا لم تقف على قبرها، يا رجل عش حياتك هنا! تتمتع من النساء الشرقيات! فهن بطعم آخر. غير ما خبرت في أوروبا، وعاد يضحك!

— جئت يا سليم لأجد عنك الأمل لا الإحباط، حين سأعود إلى لندن يائساً من فاطمة سأطيه في حي سوها، وأغرق في ملاهيءه ومواخيره!

— وستجلس في الحانة تشرب كأسك، وتندب حظك ندماً أنك فارقت الأهوار، ولم تدق طعم شفاه امرأة منها، اختفت فقط بدخان روث البقر ولسع البعض.

أخذ صوته لهجة جادة:

- ومع ذلك يا ثيسجر سأبقى أجاريك في جنونك، وأبحث معك عن فاطمة، فأنا السكير الذي لا يضيع امرأة في أية سانحة، لدلي توق لحب عظيم كحبك، أنا معجب بك يا ثيسجر، وسأبقى معك حتى تجدها، أو تجد طريقة للخلاص منها وأوهامها!

في جولاتي في الهرور أرى ثمة شبان مشوقي القوام بثياب رثة، وفتيات جميلات بثياب سود مهلهلة، تظهر على ما يبين من أجسادهن طبقات أو ساخن من فضلات الجاموس ودهنه، وغبار القصب متقاربين في مشاحيفهم، أو يخوضون نصف عراة، وراء أكمات القصب يتبادلون كما الطيور نداءات الحب بالغناء، ثم بالنظرات والهمسات واللمسات حتى يغرقون في حمى شهوتهم الساخنة. عناقات حارة، ومضاجعات في الظلال الداكنة، ووراء ق amatات القصب، فورات شوق ولهفة قد تنتهي إلى زواج سريع أو إلى فشل بطيء ممض، ربما تكون نهايته قتل الفتاة غسلا للعار! ولكن بعد الحب أو قبله لهن جولات عمل وكدح شاقاً مع شروق الشمس تنقسم النساء إلى فريقين أو أكثر، نساء ينهضن مع الشمس يعملن خبز الرز، والحليب، الفطور الصباحي للعائلة كبيرة وصغيرةها. عرب الهرور لا يجدون عادة أرغفة خبز الحنطة الساخنة الشقراء الفواحة المتطايرة كأجنحة النسور من التنور الطيني في بيوت العرب أبناء القبائل الساكنين حول الأهوار. هنا يشونون خبز الرز على جمر من روث الجاموس المجفف يسمونه المطال، ثم يضعون على وجه الرغيف الأبيض الجمر أيضاً ليستوي وينضج، كان هذا يجعلني أتفزز، لكنني شيئاً فشيئاً تعودت عليه، وصرت أستسيغ رائحته لتي هي مزيج من عطر القصب والبردي، وعصائر بطن الجاموسة. تظل المرأة تعمل بدأب طيلة النهار، ترقب الجاموس كأنهم أفراد من العائلة. تركب المشحوف لتجلب علفهم من غابات القصب والبردي، ولتصطاد في طريقها سمكة أو طيراً، تطعم أفراد العائلة المتزايدة والتي أفواهها دائماً مفتوحة جائعة، الأم أو الأخت تشبعهم عادة وتنسى نفسها، تدور مع قرص الشمس من بزوغها حتى

غروبها؛ لتلقي جسدها المرهق على فراشها المهترئ مع منتصف الليل، بينما الرجال يجلسون في المضائق أو على الشطآن مسترخين يثثرون، يدخلون ويتصاحكون ويهزجون. ثمة فريق آخر من الفتيات ينشغلن بحلب الجواميس وتحضير الروبه والزبدة، ينزلن بها إلى المدن لبيعها! بعضهن شقراوات بعيون خضر وشعر ذهبي، يجلسن بشبابهن السود مقرففات في الأسواق، أو يدرن به بين البيوت فلا يسلمن من تحرش رجال أعزب ملوحا لها بنقوده، بعضهن يستجنن لإغراء المال ورائحة الرجل، لكن الكثيرات يرفضن ويشرن بقوة وشراسة. هن عموماً متمسكات بعفتهن وسمعتهن، الفتاة تعرف لو أن أهلها وجدوا أنها حامل دون زواج؛ فلا عقوبة لديهم لها سوى أن يضعوها أمام أجمعه من القصب ويرمونها بالرصاص. تصوري يا أجاثا حتى الأم لا تلتفت وراءها لتحمل ابنتها القتيلة وتواريها التراب أو الماء، هي توافق مع الأب والأخوة لترك جثتها طعاماً للأسماك والطيور الجارحة!

كنت أنظر وجه التمثال القديم بنفس سائل التجميل الذي أنظر به وجهي، وأقول في نفسي: إن الجمال الحقيقي هو ما يتبقى لنا بعد أن يصفي الزمن حسابه معنا

رجعت أنا وماكس إلى لندن، أردت أن أكون إلى جانب روزلندا فترة كافية، كانت تحرز تقدماً في دراستها؛ متفهمة غيابي عنها. أنا لا أطيق جو لندن ولا باريس أو روما، يمكن أن استمتع بهكذا أجواء لفترة، وسرعان ما يعتريني السأم والنفور. أحب الريف الإنجليزي، حيث ولدت ونشأت، أجده فيه سكريبيتي وهدوئي وتأملاتي المتأنية، وأواصل الكتابة، يقولون إنني غزيرة الإنتاج، في الواقع أنا فقط أكتب بانتظام، وأطوع مزاجي لكتابتي، لا كتابتي لمزاجي!

عدت مع ماكس إلى العراق عام 1947، في البداية كان ماكس مساعداً للآثارى الكبير كامل تومبسون مؤلف معجم النبات لدى الآشوريين، ومنه

عرفت أهمية زهرة البابونج التي كان يقدسها الأشوريون. حفروا صورتها على جدارياتهم الضخمة، كان يضع زهرة منها في عروة سترته كتعويذة، وكانت أنا أضع ملعة من مسحوقها الجاف في قوري الشاي كل مساء؛ فهي مجزبة في تطهير المعدة، وتهذئة الأعصاب! ترأس ماكس بتمويل من إحدى الجامعات الأمريكية، بعثة تنقيب في شمال العراق، بلاد الأشوريين تحوي الكثير من تراثهم ممتزجاً بتراث البابليين والأكديين رغم ما دارت بينهم من صراعات، تناوبوا بها النصر والهزيمة! بين هذه الجبال، وفي هذه السهول الخضراء صنعوا فصولاً مشرقة من تاريخ البشرية، كان برج (أربيلو) يعني في اللغة البابلية، الآلهة الأربع (يسمونها اليوم أربيل، وينزل إليها الأكراد في هذه الأيام من عزلتهم الطويلة في أعلى الجبال) وقد نقلت إليه آيقونة عشتار من بابل ليحف بها الكهنة في المعبد المقدس العالي على قمة الهضبة، فكان بمثابة سفارة العراقيين لدى السماء! شمال العراق كان عاصمة نصف العالم، فقد امتدت إمبراطورية نينوى إلى آخر انهار الهند، ورمال الأهرامات في مصر! حكموه بمزاوجة بين السيف والكتاب! حين اعتمدوا الكتاب تقدموا ونشروا الخير والأمان والجمال، وحين أوغلوا بالسيف كبوا؛ فكانت عشرتهم القاتلة! رحنا ننقب في آثار نمرود ونينوى. استأجرنا قطعة أرض من عجوز تدعى "نائلة"، كان لنا حق الحفر في باطنها شرط عدم أحداث تغييرات أساسية، وجدنا تحت هذه الأرض تحفًا رائعة لا تقدر بثمن، وكنا نضحك "هذه التحف لو بيعت تجلب ملايين الدنانير، حصلنا عليها لقاء سبعة دنانير شهرياً، حين نسلّمها للعجزة نائلة تقبلها وتضعها على جبهتها شاكرة الله على نعمته، وتسألنا بقلق، هل ستبقون السنة القادمة؟ نعم يا نائلة؛ كيف لا تبقى وتحت أرضك المهجورة والتي كان يرعى بها الماعز، وتبول عليها الحمير، ثروات الدنيا من الذهب والمجوهرات النادرة وما هو أهم منها؛ التاريخ والأساطير وملحمة جلجامش نفسها؟ كنا بعد الاستدلال على المكان الذي تتوقع أن تتحفه بقايا عهد ما، وهو غالباً ما يكون مرتفعاً مقبباً، تراكم فيه متهدماً

الأذمنة، نبدأ الحفر ببطء يبعث على الملل ويأدوه بسيطة تتطلب الصبر والدقة. كان من المفضل أن يقوم بذلك عمال من أهل الشرقاط فهم بالفطرة يمتلكون مهارة التقليب والبحث ويمتازون بالصبر والمرح والذكاء، وقد ظلوا يرافقوننا في عملنا محرزين معهم أفضل النتائج، وقد تعلمت التعامل معهم ومع آخرين من قرى قريبة، وشعرت نحوهم بالود والتفهم فحظيت بحبهم، وكانت أفرح حين يناديوني أحدهم بلهجته المحببة "يا عمتي" أو "يا أمي"! كنت أعيد تركيب حطام جرار الخمر والعسل والماء لتعود كما كانت. اعتني كثيراً بوجوه التمايل الصغيرة والمتوسطة المصنوعة من العاج أو الرخام الصلد، وأقوم بتنظيفها بدقة وعناية، كان أعظم ما استخرج في نمرود تمثال لأمير آشوري من العاج، كان جميلاً سميته موناليزا نمرود، كانت ابتسامته مرحة ساخرة عكس ابتسامة الموناليزا الغامضة، يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، تحفة هائلة، كنت أنظر وجهه بنفس سائل التجميل الذي أنظر به وجهي، وأحنو عليه كأنه طفلي، أناجييه، وأقول في نفسي إن الجمال الحقيقي هو ما يتبقى لنا بعد أن يصفى الزمن حسابه معنا! كان ماكس يضحك قائلاً:

— لم أرك تعنين بشرتك يوماً، ولم تستعملني هذا المستحضر الذي جلبه من لندن، والآن تستعملينه لوجه الأمير الصغير!  
وكنت أقول له ضاحكة دون أن أفضي له بفكري الحزينة عن الجمال:  
— أنت أمير يا ماكس، ولا أثير غيرتك إلا مع أمير!

الحب ليس حرباً بين شريكين، إنه حرب بينهما وبين الموت، هو الحرب الوحيدة التي لا يخرج فيها أي طرف مهزوماً أبداً

هنا المرأة قوية، تشعر بالمسؤولية اتجاه زوجها وأبنائها، لها الكلمة العليا في العائلة، مسيطرة على الرجل والأبناء، لها عرش بسيط حقيقي، تبتسم بهدوء أو تطلق ضحكة مجلجلة، لا تهتم بزينة أو تبرج؛ بعقل واقعي، وعاطفة جياشة. حين تعود من بيع اللبن والقيمر لا تكف عن الحركة في

الصريفة، تنجز أشغال عيشهم اليومي ولا تخلد للنوم حتى توفر الخبز للعائلة من تنور قرب بيتها القصبي. ترفو أسمال أطفالها، ترعى المريض منهم، تناقش زوجها أو أخوتها أو أبيها في مشكلاتهم، تقول رأيها بجرأة طالما لا يخرج عن تقاليد وأصول العشيرة أو الدين. بعد هذه الأعباء الكثيرة هل انتهى عمل وواجب المرأة نحو الرجال أو العائلة؟ لا، على المرأة أن تتقدم لنجدة وإنقاذ العائلة في شأنين خطيرين، فعندما يحين موعد زواج شقيقها تكون عادة هي الثمن أو المقابل الذي يدفعه لأهل العروس، أي تحول فجأة إلى مهر، فيكون الزواج الواحد عادة زوجين، زواجهما وزواج شقيقها معا، والشاب الذي لا شقيقة له قد لا يتزوج أبدا، إما إذا تورط والدها أو شقيقها وقتل أحدها؛ فتكون هي نصف الثمن الذي ينبغي أن يدفع تعويضا لأهل القتيل. إذ الديمة أو التعويض المقابل يكون امرأتين. وهي لكتة كدحها وعنائها تذوى وتموت في ريعان شبابها. بذلك تكون هي صانعة الحياة في الهرور، وضحيتها! كل ذلك يجعلني أنظر إليها بإجلال ولا أفكر فيها متعة عابرة لي بغض النظر عن العقاب، فأنا لو أردت امرأة عابرة لحصلت عليها، فياسين وعمارة طيبان لا يتوانيان عن مساعدتي في لقاء امرأة بعد أن أحباني ووثقابي، وفي مساراتي الطويلة بين تجمعات الناس في الأهوار صادفت الكثير من نظرات النساء الراغبات أو المنجدبات واللواتي أرسلن لي عبر عيونهن الواسعات الشهوانيات نداءات لم تكن عصية على الفهم! كنت أستطيع أن أقصد مواخير وبيوت اللذة الموجودة في البصرة، لكنني لم أفكر بالمتع الصغيرة العابرة، أحبت أهل الهرور بعمق، واحترمتهم، وتنميت لو استطع أن أقدم لهم شيئاً كبيراً يسعدهم، أو يغير حياتهم، لكن هذا فوق طاقتني. ظلت فاطمة حلمي وأملي، حزمة النور الذي يجذبني إلى الأعلى، لذا لا أريد لروحي أو جسدي أن يهبطا دونها إلى الأرض مهما ضجت الشهوات في جسدي! أنا فرح يا أجالاً أنتي بعد أن نثرت شطراً من عمري في الصحراء، أثير الآن الشطر الآخر من العمر فوق ماء الأهوار الذي ضم

حيبيتي يوماً، روى جسدها وربما يضم روحها أو ذكرياتها وما سيتبقى منها في زمن قادم أو قد يكون زمن مضى ولا أدرى! أحياناً أتصور نفسي ميتاً يشر بنفسه رماده، نصف في البداء، والنصف الآخر فوق الماء، ومشيعوه ينظرون إليه متضاحكين، فيقشعر بدني. لكتني أعود لصحوتي موقناً إنني أبحث عن الجمال يحدوني أمل عظيم! أحدق في صورتها، يزداد سحرها وتأثيرها المسكر، تنهض بقوامها الفارع، عينان تلمان نور الأفق، صدر يزخر بالحنان، خصر أهيـف ممتلئ، انخفاضة تحت البطن، قوس زهر، يدان لا تكفان عن صنع الفرح إذ أمنحـها أو تمنـحـني طعاماً أو شراباً أو كتاباً! حين أكون معها أختفي عن كل شيء حتى عن نفسي، لا أجـدنـي ولا أجـدـها، هل أكون قد ذبت فيها؟ أين هي؟ هل ذابت فيـ؟ رحـناـ معاـ، موجـةـ فيـ الـبـحـرـ، أغـنيةـ شـجـيـةـ فيـ الـرـبـيعـ، وأـقـولـ فيـ نـفـسـيـ، الـحـبـ السـعـيدـ الـوـحـيـدـ هوـ حـيـنـ لا تـجـدـ المـحـبـوبـ، وـلاـ يـجـدـكـ، تـظـلـانـ لـعـبـةـ وـهـمـ وـأـحـلـامـ تـتـكـرـرـ، فـلـاـ نـصـدـقـ حـيـاةـ وـلـاـ مـوـتـأـ، بـدـاـيـةـ وـحـسـبـ، أـيـتـهاـ الفـاتـنـةـ مـضـيـ العـمـرـ خـلـفـكـ، لـاـ نـدـمـ وـلـاـ حـسـابـ، كـلـ ماـ يـتـبـقـيـ فـيـ القـلـبـ فـيـ هـذـاـ المـسـارـ اـنـتـصـارـ. قالـ ليـ شـيخـ منـ عـرـبـ الـهـوـرـ فـيـ مـضـيـهـ بـعـدـ أـنـ سـقـانـيـ آخـرـ فـنـجـانـ مـنـ القـهـوةـ لـدـيـهـ: الـحـبـ لـيـسـ حـرـباـ بـيـنـ شـرـيـكـيـنـ، إـنـهـ حـرـبـ بـيـنـهـماـ وـبـيـنـ المـوـتـ، هـوـ الـحـرـبـ الـوـحـيـدـةـ النـيـ لـاـ يـخـرـجـ فـيـهاـ أـيـ طـرـفـ مـهـزـوـمـاـ أـبـداـ! كـلـ الـطـرـفـيـنـ يـكـونـانـ مـتـصـرـيـنـ، حتـىـ لـوـ هـجـرـ اـحـدـهـمـاـ الـآخـرـ! رـبـماـ تـسـأـلـيـنـيـ: لـوـ كـنـتـ وـجـدـتـ فـاطـمـةـ؛ بـعـدـ بـحـثـكـ الطـوـيلـ، هـلـ حـقاـ إـنـكـ سـتـزـوـجـهاـ وـتـعـيـشـ مـعـهاـ الـحـيـاةـ الـبـدـائـيـةـ وـالـفـطـرـيـةـ التـيـ حـلـمـتـ بـهـاـ؟ هـلـ سـتـصـرـفـ مـعـهاـ بـغـيرـ ماـ فـعـلـ الضـابـطـ الـإـنـجـليـزـيـ؟ تـنـتـزـعـهـاـ مـنـ أـهـلـهـاـ وـأـحـبـهـاـ وـتـذـهـبـ بـهـاـ إـلـىـ بـلـادـكـ مـسـتـغـلـاـ فـقـرـهـاـ وـضـعـفـ أـهـلـهـاـ وـقـوـةـ الـإـنـجـليـزـ؟ قـدـ يـكـونـ الفـرقـ كـلـهـ إـنـكـ سـتـكـونـ مـعـهاـ وـأـهـلـهـاـ لـطـيفـاـ، أـقـلـ فـظـاظـةـ مـنـ الضـابـطـ، بـيـنـمـاـ التـيـجـةـ وـاحـدـةـ! مـاـذـاـ أـقـولـ؟ لـاـ أـرـيدـ أـنـ مـتـدـحـ نـفـسـيـ، لـكـنـ مـنـ حـقـيـ أنـ عـبـرـ عـنـ نـوـاـيـاـيـ، أـنـاـ كـنـتـ أـرـيدـ أـنـ أـعـيـشـ مـعـهاـ عـلـىـ أـرـضـهاـ وـبـيـنـ أـهـلـهـاـ وـشـعـبـهـاـ. لـاـ يـعـنـيـ هـذـاـ تـنـازـلـيـ عـنـ مـدـنـيـةـ وـعـلـمـ

أو حضارة. بل يعني إدراكي أن ما لدى منها أجعله في خدمة الناس، الحب الحقيقي سيصهرنا معاً. سأعيش معها في كوخ يطفو على الماء، أو في بيت أبنيه على الضفاف. سأضع خبراتي الطبية البسيطة في خدمة أهلها وقومها، أليس الأرض كلها بلاد الإنسان؟ حانت من ماسكس دون إرادة منه نظرة إلى الصورة، كان سوادها وبياضها لاماً واضحاً! فأشاح عنها، أخذ يشعر بالراحة، ثم يسحر ما يزال يبحث عن حب له على هذه الأرض، لم يجد حتى الآن، وأنا أشك به، كم نحن ضعفاء أبناء البشر نخشي من أدنى منافسة، سأواصل قراءة رسالته، ثمة شعور لدى أنه سيضيء طريقي في بحثي عن أجاثا! لهنئها ظل ماسكس يتسمع أصواتاً متشابكة مختلطة تأتي من جهة النهر، عليها أجاثا عادت يحف بها منقذوها، شرطة أو رجال من أهل هذه البلاد معروفيين بإكرام الضيف وحمايته. نهض إلى الشرفة، تطلع إلى الشاطئ، لا شيء سوى الصيادين والقوارب تنقل العابرين، عاد يقرأ: جعلني عمارة أرى في إحدى تجمعات المعدان غير بعيد عن الصخرين، رجلاً من المعدان قال إنه جن بنت المعيدي، كان شريداً وسخاً رث الثياب شبه عار، ظهرت عورته، يقولون إنه كان قبل سنوات قد رأى صورتها في مقهى بالناصرية، عاد إلى أهل طالباً منهم أن يجدوها وزوجونها له، سخر منه أهله وجيرانه وعشيرته، ضحكوا كثيراً عليه وأهملوه. أصيب بلوثة، هام على وجهه بين ممرات الماء ينش في عصاه في الوحل، لا يكلم أحداً، قلت في سري ماذا أختلف أنا عنه؟ كلامنا مجنون، الفرق هو بسيط لا يعرف كيف يداري جنونه، وأنا لدى القدرة على إخفائه!

أنا وماكس لم نعد نحدد عمرينا، فقد أمضا سبعة آلاف عام في  
أرض العراق القديم!

كان التاريخ يعود بين أيدينا نهراً من الغبار المعجون بنور كاشف باهر،  
نرى أنفسنا في مرآته! ماسكس يقول:

- أتعرفين يا أجاثا أنا لم أعد أعرف كم هو عمري، لقد دخلته أعمار حقب التاريخ القديم كلها!
- عمرك سبعة آلاف سنة يا ماكس يا لي من تعيسة أنام مع رجل ولد قبل ميلاد المسيح!
- وأراه يسرح في الأفق وكأنه فعلاً يحمل أحزانآلاف السنين فأقول له ضاحكة:
- وأنا يا ماكس عجوز عمرها سبعة آلاف سنة كلانا التهمنا التاريخ كله فضاعت أعمارنا القصيرة به، هذا متىهى السعادة!
- تفوقت على بعض علماء الآثار في خبراتك في الآثار، صار الاستغاء عنك في عملنا صعباً!

كلامه يفرجني، ويؤلمني بنفس الوقت، هذا يعني إنني لا أستطيع أن أكرس وقتاً أطول للكتابة، بينما كانت موضوعات وحبكات الروايات تتکاثر في ذهني مع كثرة سفراتي وجولاتي في أرض الشرق المفعمة بالإلهام والوحى! حين أخرج إلى الشوارع في المدينة، وأرى الناس لاهين أو مستغرقين، في هموم وانشغالات، أشعر بالأسى؛ أنهم يذيرون ظهورهم لماضيهم، لا يعرفون عظمة حضاراتهم الكبيرة، وكم أعطت للعالم! بل لا يعرفون قيمة أنفسهم، ولا ألومنهم، فهم لديهم من آلامهم وفقرهم وأعمالهم الشاقة ما يكفيهم! ويقول لي ماكس:

- نحن نرى الحياة هنا طيبة وسعيدة لأن لدينا من المال ما يكفينا لمعيشة مرفهة، هنا أهل البلد لا يملكون خبز يومهم، ذاهلون، يرون ما فوق الأرض، كيف تريدينهم يرون ما تحتها؟ حتى لو كان تاريخهم وذاكرتهم! كنت سعيدة باللة بينما صغيرة بسيطة اشتريتها من لندن، صورت بها مشاهد قصيرة من الموصل، ونينوى القديمة، والريف الجبلي: فلاج كلدانى يحرث أرضه ويمهدها لزراعة مقبلة، رجل آشوري كهل يقطف عناقيد العنب ويقدسها في معصرته لتغدو خموراً معتقة بنكهة فاخرة، رجال ونساء

آشوريون يغدون ويرقصون في حفلة زواج بساحة القرية، راعي كردي بشرواله الفضفاض، ولفة الرأس الكبيرة، يرتقي بماعزم منحدرات جبل إلى كوه البعيد بين الصخور وأشجار الجوز، تركمانى بزيه التقليدى يقف قرب منقلة شواء اللحم في مطعمه قريباً من جامع النبي يونس، ويحيى الناس ضاحكاً، تاجر عربي بفترته وعقاله يقف بجانب بضاعة ربما أتى بها من سوريا، بينما عماله يدخلونها إلى محله الكبير، دولاب هواء في مركز المدينة يمرح به أطفال فرحة في العيد، شيخ يزيدي يقف عند باب معبده يبتسم للرجال والنساء القادمين للصلوة، رجل عجوز منهك يبيع الحلاوة بأطباق خشبية صغيرة، شاب موصلى يسير متبحثراً معجباً بيذلته الإفرنجية الجديدة، وربطة العنق، مع نظارة غامقة!

والآن ها هي رحلتنا الطويلة قد قاربت النهاية، ماذا استطيع القول عنها؟ كانت على طولها سعيدة جداً، كأننا ولدنا وعشنا على هذه الأرض، متنا وولدنا مرات عديدة، وما زلنا نتنفس هواءهم ونشرب ماءهم سرنا طرق الحضارات وبقوة مخيلتنا، نعيش مستقبل الإنسانية، ونأمل أن يكون سعيداً، خالياً من الحروب، وكلما أحسست بالسعادة خفت أن افقد ماكس: ما زلت متألمة للحظة جعلته فيها حزيناً حين سأله:

- أتعرف ماذا أتمنى يا ماكس؟

وهز رأسه بصمت ووجل، ربما راعتة رعشة في صوتي، قلت:

- كل ما أتمناه أن أموت بين يديك، وأن تطبق جفني حين تفارقني آخر ومضة من نور الدنيا! وأن تعرف حتى إذا لم استطع أن انطق بكلمة آنذاك إني أحببتك حتى آخر نبضة في قلبي!

لأول مرة أراه غاضباً نهض دامع العينين ليقول بصوت عاتب متهدج:

- لم أكن أتصورك يا أجايا تقسين على إلى هذا الحد!

قالها كطفل غافل عن الموت! كأنه لم يعمل عشرات السنين في رماد الموتى، ويراه يتتحول في أجساد الناس إلى حياة أخرى!

لأمل لي بها؛ إلا إذا كان الزمن قد توقف معها بانتظاري!

في اليوم التالي لوصولي لندن رحت أسأل من ألقاهم وأعرف عنهم سعة اطلاعهم، فإذا كان ثمة ضابط إنجليزي قد اختطف فتاة عراقية وأتى بها إلى لندن أثناء احتلالهم لبلادها أوائل هذا القرن! كان جواب أكثرهم إنهم لم يسمعوا بشيء كهذا، بعضهم نصحتني "أنت تزوج نفسك هنا بأمر معقد وحساس قد يعرضك لمتابعة كبيرة، دعك من ديمقراطية بلدك؛ فهكذا قضايا هي من أسرار الحروب والعسكر، ووثائقها من مقدسات وزارتي الدفاع والخارجية، ولا تكشف إلا بعد نصف قرن على أقل تقدير، وأنذاك، لا يكشف منها إلا ما لا يعرض سمعة بريطانيا العظمى للخزي أو العار" لم أستبعد أن يكون ثمة شيء عنها في دوائرنا العليا، احتلال بلد؛ لا بد أن يرافقه اغتصاب وانتهاك وخطف ودمار، والأشد هو لا هو اغتصاب إرادحة الشعب نفسه. لكنني بقيت أريد أن أعرف جيء بأمرأة بهذه حقا، هل لا تزال هنا حية، كيف عاشت حياتها أو مماتها؟ هل هجرها زوجها بعد أن قضى وطره؟ هل ما زالا يعيشان معاً عجوزين، أو قبرين متجاورين؟ هل فقدا الذاكرة أم لا زالا يتذكران كل الأحزان والأفراح؟ هل لهما أبناء؟ أين هم؟ وكيف يشعرون؟ احتمالات كثيرة تبدو مثيرة ومشوقة لي حتى لو لم أكن قد جعلت نفسي طرفاً في مأساتها! طبعاً لا أمل لي بها إلا إذا كان الزمن قد توقف معها بانتظاري، وهذا مستحيل! وجدت أن التحري عن حقيقة صورة فاطمة، يعني التحري عن فاطمة نفسها، والعكس صحيح تماماً، فهما في غموضهما وسرهما صارا شيئاً واحداً! هكذا فكرت، إنها ليست سمكة صغيرة تختفي في أعماق البحر هي امرأة من بلاد الشرق وخلفها مأساة!

البحث في مضمار الفن طبعاً، أسهل من البحث دروب السياسة أو أسرار الجيش! زاد قلقني أن تكون محض خيال لرسام كرع وهو يرسمها برميلاً من البيرة، رغم أن ذلك سيخلصني من تعب وهموم البحث والمعاناة! في مخزن لبيع اللوحات القديمة لا يبعد كثيراً عن حي سوها، وجدت نسخة من

صورتها، بطباعة فاخرة وسعر زهيد، كان صاحب المخزن رجلاً مسناً أنحني ظهره وهو مازال مكتباً على أكdas الكتب واللوحات والبطاقات البريدية القديمة، لم يكن جشعاً فلم يغالي في سعرها رغم إنه لم يكن لديه سوى نسخ قليلة منها، كان لطيفاً بمزاج طيب فسألته عن حقيقة الصورة، قال: أعتقد إنها لرسام مستشرق جوال، مبتدئ أو متدرّب! بقيت أنظر إليه وقد بدأ تخيّبه أملّي فهو رجل لديه خبراته في مضمار الصور. قال: رأيت الكثير من لوحات رسامين زاروا بلدان الشرق، سوريا والعراق ومصر، ورسموا صور نساء كثیرات في شتى الأوضاع في البيوت، الصالونات، الأسواق، في الحمامات عاريّات داخل غيم من البخار، في أسرة النوم، بأحضان عشاقهن، أعتقد أن هذه اللوحة وهي جميلة دون شك هي من هذا النهر الجميل المتدافق! قد يكون هذا الرسام مفلساً فباع لوحته لإحدى شركات النشر التجاري فطبع نسخاً كثيرة صدرتها إلى بلدان الشرق، فانتشرت هناك! وجدت أجابتـه منطقية، لكنـها آلـمتنـي وحدـت من آمالـي! ومع ذلك لم استـسلم. أخذـت منه اسـم دار النـشر التي أـصدرـتها في لـندـن وـرـحتـ أـبـحـثـ عـنـهـ! اـهـتـدـيـتـ إـلـيـهـ بـعـدـ جـهـدـ، كانـ النـاـشـرـ الأولـ قدـ تـوـفـيـ. لـكـنـيـ لمـ أـعـرـفـ منـ أحدـ وـرـثـهـ وـهـوـ مدـيرـ الدـارـ، اـسـمـ الـفـنـانـ الـذـيـ رـسـمـهـاـ أوـ أـيـ شـيءـ عـنـهـ. اـكـتـفـىـ بـالـقـوـلـ "لـاـ يـوـجـدـ فـيـ سـجـلـاتـنـاـ أـيـ شـيءـ عـنـهـ"! أـعـتـقـدـ أـنـهـ رـسـامـ مجـهـولـ مـرـسـمـهـاـ فـيـ لـندـنـ، وـقـدـ رـسـمـهـاـ لـتـدـبـيرـ نـفـقـاتـ رـحـلـتـهـ إـلـىـ هـنـاكـ، ربـماـ هوـ إـيـطـالـيـ، لـوـ عـرـضـتـ عـلـيـهـ الـآنـ؛ لـمـ عـرـفـهـاـ. طـلـبـتـ مـنـهـ نـصـيـحةـ فـيـ بـحـثـيـ عـنـ حـقـيـقـةـ الصـورـةـ، فـأـخـذـ يـنـظـرـ إـلـيـ بـضـجـرـ وـاضـحـ! ثـمـ صـدـيقـ قـدـيمـ التـقـيـتـ بـهـ مـصـادـفـةـ فـيـ المـقـهىـ، حـدـثـهـ عـمـاـ يـشـغـلـنـيـ، لـمـ أـتوـسـعـ مـعـهـ بـشـيءـ عـنـ قـصـتيـ، فـهـوـ كـإـنـجـلـيـزـ بـمـنـطـقـ بـارـدـ سـيـسـخـرـ مـنـ هـذـاـ العـشـقـ الغـرـيـبـ وـيـعـدـهـ لـوـثـةـ عـقـلـيـةـ! اـقـتـادـنـيـ إـلـىـ صـدـيقـ لـهـ يـدـعـيـ هـنـريـ، وـهـوـ رـسـامـ وـمـهـمـ بـنـقـدـ وـتـارـيـخـ الـلـوـحـاتـ الشـهـيرـةـ، كـانـ مـرـسـمـهـ قـبـواـ تـحـتـ الـأـرـضـ، نـزـلـنـاـ إـلـىـ بـدـرـجـ لـوـلـبـيـ كـادـ يـخـنـقـنـيـ بـرـوـائـحـهـ وـعـتـمـتـهـ الثـقـيلـةـ، كـانـ يـرـسـمـ عـلـىـ المـصـابـحـ الـكـهـرـبـائـيـةـ. قـالـ كـالـمـعـتـدـلـ وـهـوـ يـقـفـ بـقـامـتـهـ الطـوـيـلـةـ النـحـيلـةـ وـوـجـهـ

البيضوي الأشقر كشبع:

- هذا قدرنا في لندن، لا نستمتع بالنور الطبيعي!

فتح زجاجة نبيذ، عرض أن نشاركه، تناول صديقي كأساً، تقبل هنري اعتذاري بابتسامة لا تقل غموضاً عن ابتسامته لاعجابي بصورة رآها بدائية، أخذ يشرب ويدخن، حدثه عن اهتمامي بمعرفة حقيقتها، تظاهرت أمامه بالهم الفني والتاريخي المجرد، حك رأسه قائلاً:

- هي غير معروفة هنا، ويصعب أن نجد هنا من يعتد بها!

- لكنها تمثل جرحاً لدى العراقيين!

هز كتفه ضاحكاً:

- كل الصور تمثل جرحاً لدى هذا أو ذاك من البشر!

لم يجد اهتماماً بها، شعرت إنه وجد انجذابي لها بصفحة فنية أو ذوقية لكنه أراد مجامعتي:

- أنظر! الرسام اختار أن لا يرسمها على خلفية مضيئة أو صقيقة لامعة، اختار لها خلفية داكنة معتمة، هي لوحة مغلقة!

- هو أراد أن يزيد من غموضها ويدفعها أكثر نحو المجهول، وتركها وحيدة مستوحشة لا شيء بجانبها أو حولها يدل عليها. هذا براءة آسرة! في العراق يسمونها الموناليزا!

أخذ يقهقه:

- الموناليزا شيء آخر كل مأساتها تطل من عينيها بدءاً من أن زوجها التاجر الشرى حاول ترضيتها بهذه اللوحة كي تحتمل تعلقه بعشيقتين سريتين منافستين لها. إلى كونها ما تزال تحب زوجها المتوفى؛ نادمة أنها تزوجت هذا الشرى الفاجر، ملتزمة الصمت لا تريد أن تقر بفشلها، مرة بضربة من ملاك الموت، ومرة بضربة من شيطان الخيانة، الألوان على يد رسام عقري تحكي سيرتها بصمت!

- لكن ابتسامتها أيضاً ظلت غامضة، محيرة!

- نعم، ولم يكن ذلك سهلاً، لقد استأجر دافنشي طيلة الأربع أو الخمس سنوات التي استغرقها في رسم اللوحة مهرجاً ليقوم بأعمال وحركات بهلوانية أمامها، لتظل محافظة على ابتسامتها الغامضة، في لوحتك لا ابتسامة، ولا مهرجين يمكن أن اسمعهم، صمت مطبقاً

قلت في نفسي أنا المهرج الأكبر ولا تسمعني، خرجنا من مرسمه وأنا أفكـر، ترى أي ملاك أو أي بهلوان جاء من الجنة أو الجحيم ليسلي موناليزا العراق لتحافظ على ابتسامتها الغامضة وتنسى أهلها في جنوب أو شمال بلادها، وقد انتزعت منهم، بينما الرسام يحاول أن يسابق منفاتها البارد الموحش قبل أن يتمتص كل جمالها كما يتمتص الأفعوان دم الطائر الجميل!

## طرق كثيرة إلى لندن، ولا طريق إلى محبوبتي من لندن!

زرتـه بعد يومين، أعدت عليه حديـثي عن قصة خطف الضابط الإنجليـزي لها، واهتمامـي في تقـصـي ذلك هنا في لندن، ظـلـ صـامـتاـ، بـعـدـ أنـ اـحتـسـي زـجاـجـةـ نـبـيـذـ ثـانـيـةـ، أـخـذـ يـحدـثـنيـ بـأـمـرـ غـرـيبـ:

- قـرـأتـ فـيـ صـحـيـفةـ تـهـمـ بالـجـرـائـمـ أـنـ ضـابـطاـ مـتقـاعـداـ عـجـوزـاـ كـانـ إـيـانـ الـحـرـبـ الـعـالـمـيـ الـأـولـىـ فـيـ الجـيـشـ الـبـرـيطـانـيـ فـيـ الـعـرـاقـ، وـجـدـوهـ مـقـتـولاـ فـيـ بـيـتـهـ الـكـبـيرـ بـضـاحـيـةـ فـيـ لـنـدـنـ، وـقـدـ اـنـصـرـفـ الشـكـوكـ إـلـىـ زـوـجـتـهـ، حـيـثـ هـيـ دـائـمـةـ الشـكـوكـ مـنـهـ، مـكـرـرـةـ القـوـلـ إـنـهـ لـاـ تـنسـيـ لـهـ إـنـهـ قـبـلـ خـمـسـيـنـ عـامـاـ اـنـزـعـهـاـ مـنـ زـوـجـهـاـ وـأـهـلـهـاـ فـيـ الـعـرـاقـ وـبـيـتـهـ الـدـافـئـةـ، وـأـتـيـ بـهـاـ مـنـفـيـةـ سـجـيـنـةـ فـيـ بـيـتـهـ الـبـارـدـ، أـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ هـيـ فـاطـمـةـ التـيـ حدـثـتـنـيـ عـنـهـ؟

رـغـمـ شـكـيـ فـيـ الـكـثـيرـ مـاـ يـتـحـدـثـ بـهـ، فـهـوـ يـفـرـطـ فـيـ الشـرـابـ، تـختـلطـ لـدـيهـ الـوقـائـعـ بـالـأـخـيـلـةـ وـتـأـخـذـهـ الـهـلـوـسـةـ، لـكـنـيـ حـاـوـلـتـ أـنـ أـعـرـفـ مـنـهـ الـمـزـيدـ، وـجـدـتـهـ لـاـ يـتـذـكـرـ اـسـمـ الـجـرـيـدةـ التـيـ قـرـأـ بـهـ الـخـبـرـ، ثـمـ أـخـذـ يـتـرـاجـعـ عـنـ حـكـاـيـتـهـ، فـقـدـرـتـ إـنـهـ أـسـيـرـ مـخـيـلـتـهـ الـمـكـتـظـةـ بـالـأـشـبـاحـ وـالـصـورـ الغـرـيـبـةـ!ـتـذـكـرـتـكـ يـاـ أـجـاثـاـ، قـلتـ

حتى إذا كان ما تحدث به هنري مجرد هلوسة، أليس هو ممكן الحدوث؟ أو حدث فعلًا، إلا يمكن أن يتحول عبر مخيلتك الخصبة إلى رواية بوليسية مثيرة؟ وربما لفلم يتحدث عن علاقة الشرق بالغرب؟ شعر هنري بغرقى في لجة أخرى بعيداً عنه:

- اذهب إلى باريس لترى الموناليزا، في اللوفر فقد تتسلم من يديها مفاتيح هذه الصورة!

"أفكر بذلك" قلتها، ودعنته وخرجت وقد خامرني شعور أن لا طرق لي إليها من لندن، رغم أن كل الطريق تفضي إلى لندن! بحجرتي في بيت أهلي القديم رحت أستعرض ما أعرفه عن موناليزا اللوفر، تذكرت أنها تنقلت بين قصور ملوك في أوروبا، وإن شابا فرنسيًا يعمل صانع إطارات للوحات قام بسرقتها من المتحف الوطني الفرنسي. عندما حاكموه، قال إنه وجد في اللوحة صورة حبيبته التي أحبها كثيراً، لكنها ماتت بعد فترة قصيرة، فأراد أن يستعيدها من الموت محمولة على هذه اللوحة. كان الحكم عاطفياً رومانسياً فاقتنع بعذرها، وحكمه بالسجن سنة واحدة فقط. أنا مثله الفرق بيننا أنه أحب صورة حبيبته التي غابت، وأنا أحببت صورة حبيبتي التي لم ألقها بعد! صرت وأنا أسيء في شوارع لندن أتصور إنني سألقاها على رصيف، في مخزن، في مطعم، مقهى أو حتى في بار، ألا يتحمل أنها وقد انتزعت من أرضها الدافئة الراخمة بالطيور المهاجرة والأبدة، وغابات القصب أو أية بقعة جميلة أخرى، وألقيت في لندن تحت الضباب، والدخان قد جعل منها مدمنة خمر أو مخدرات؟ أو قد أرها في قصر بكنكهام جنب الملكة كما قال لي بعض المعدان؟ قلت سأعرفها مهما تغيرت ملامحها واختلفت عن صورتها. سالمع بعينيها حزن امرأة فارقت وطنها وأهلها ومن تحب لتتزوج رغم أرادتها من لا تحب، أو أنها أحبته تحت تأثير الرهبة والمال والبزة العسكرية الخادعة. نظرة فاطمة أكثر حزناً وعمقاً من نظرة الموناليزا، سألتقط هذه النظرة في عينيها وأدرك كنهها، فهي نظرة إنسانة خائبة مثقلة بأسى المنفي الإجباري التي لا تخطئها

عين نابهة! من يفارق وطنه مرغماً سترى حتى وهو يسير متتصب القامة في شارع أو حديقة، ستفضحه رفة من عينيه، رجفة من شفتيه، شحوب مبكر على وجهه، مسامات جلده ستطلق تلك الرائحة الشبيهة برائحة غصن تفسخ بعد أن جرفته السيل بعيداً عن شجرته! كم جعلنا وجودنا صعباً في هذه الدنيا، حكاية فاطمة حتى إذا كانت مختلفة مصنوعة من الأوهام، فإن هناك في هذه العالم كل إمكانات وأسباب أن تكون واقعة وصحيحة! لست معتوها كما يقول بعض أصدقائي وقد ضيعت زمناً أركض فيه على ماء الأهوار أناجي جواميسها وطيورها وثعابينها باحثاً عن وجه جميل لفتاة مجهرة! لم أكف عن البحث، قلت كيف أغفلت مكتبة المتحف البريطاني، لأذهب هناك واقرأ شيئاً من صحف ووثائق حقبة الاحتلال الانجليز للعراق، رسائل المسز بيل، أحست بوخز قلبي. من يتحدث عنهم المتحف يكونون قد ماتوا! لا أريد أن أحتسب فاطمة بين الأموات، سأعرف تاريخها ذات يوم، أما هي نفسها؟ فعلى أن أبحث عنها في الحياة نفسها! لم تستطع لندن بكل مغرياتها أن تبني في أحضانها، كنت أردد مع نفسي "أنا الصعلوك والمتسкуك الأبدى في الصحاري والمستنقعات وأرصفة الشوارع الفقيرة، إذا لم أجد فندقاً راقياً أو لائقاً نزلت فندقاً حقيراً مزرياً، أو كوخ، كله سواء عندي، فقط أن تتوفر حشية ألقى جسدي عليها، وفي أرض أخرى دائمًا!"

رجال شركات النفط يكرهونها، يخافون أن نظرة عينيها ستتشعل  
الآبار كلها!

صعدت الطائرة المتجهة من لندن إلى بغداد، أحمل صورة فاطمة بطبعتها اللندنية الكبيرة الفاخرة، بإطاراً ذهبياً جميل. حقيبتي الكبيرة المشحونة ملأتها بأدوية وأدوات طبية كثيرة. كان يجلس بجانبي رجل إنجلزي أنيق، بدأ الحديث معي، قال إنه يعمل مهندساً في شركة النفط الإنجليزية العاملة في العراق، راح ينظر إلى اللوحة وينفث دخان غليونه، كان بدينا، قيافته مبهروجة،

فتحت المضيفة الإنجليزية الجميلة مائدة مقعده ووضعت عليها زجاجة ويiskey مع ثلج وزجاجة صودا، ملأ الكأس، وكرعه دفعه واحدة، قال:

- أينما ذهب في كركوك تواجهني هذه اللوحة، سمعت عنها الكثير، سمعت منها، وكرهتها، بعض عمال شركة النفط في كركوك يعلقونها في مطعم الشركة، هي لا تستحق هذه الهالة المثيرة التي أصفوها عليها، هم مكبوتون وجائعون جنسياً، ولا استغرب أن يجدواها مفرغة لشهواتهم!

لم استغرب تعريضه بعمال شركته، كنت أسمع عن إضراباتهم، وثوراتهم ضد شركات النفط، التي تغنم حقوقهم، وترفض زيادة أجورهم، أو تحسين ظروف عملهم. كان كثير الكلام كأنه يدراً به مع كؤوس ال威سكي التي احتسى الكثير منها، خوفه من الطيران، شعرت إنه يحط من ذوقه وبهينتي في استخفافه باللوحة، اكتفيت بالنظر إليه جانبياً بين فترة وأخرى، أطلق لسانه ساخراً من كل ما رأه من مظاهر حياة العراقيين:

- أنا لا أختلط بأي عراقي، حتى لو كان مثقفاً أو يجيد الإنجليزية، لدينا ناد جميل، مطعم وبار ومرقص، كلها على أحدث طراز إنجليزي، حي الشركة قطعة من لندن.

جرني لمناقشته، حاولت تسفيه آرائه، كنت أعرف أكثر منه مظاهر تخلف سكان البلاد، لكنني أعرف أيضاً أسباب تخلفهم، وإمكانات تطورهم، وجدت أن من العبث أقناعه بشيء، فلذت بالصمت وتركته وحده كأنه يهدي. لم يبق كلمة سيئة إلا وقالها فيهم:

- هم صراصير؛ لا يطيب لها العيش إلا في الأماكن القذرة، ستري أي مستقبل تعيس يتظرهم!

لم أعد أعيه انتباها، رجال شركات النفط يكرهون الشعوب، ينظرون لحكامها كدمى، ويدللونهم كما يدلل الأطفال الدمى، يتمتنون لو أن هذه الشعوب تصاب بالعمى والصمم، أو تموت كلها دفعه واحدة، لينهبوها ما في أرضهم من ثروات، فهم يعرفون أنهم يضمرون لهم الكره، ليس غريباً أن

الرجل يكره هذه اللوحة، فهو بشكل ما يحس أن هذين العينين الجميلتين يمكن أن تشعل آبار البترول المعدقة عليهم كل هذه الثروات، بينما أبناء البلد يتضورون جوعاً! أكثر من إشعال غليونه، المضيفة تنظر إليه مستغربة سحابة الدخان المتتصاعدة منه، أزعجني أنهم حجزوا مقعدي في صف يسمح فيه بالتدخين، فاللتقيت هذا الرجل الثرثار، عاد صوته يجرح اللوحة:

- عرف إنها مجرد إعلان تجاري، صورة رسمها فنان إنجليزي يعيش في الهند، بورتريه لفتاة مشتهاة من النبيال، ربما كانت عاهرة أو موديل مؤجر لا أكثر، ليست قدسية كما يتحدثون عنها، ليست فتاة مظلومة مغتصبة كما يريدون أن يلطفخوا سمعة ضباطنا البواسل الذين بنوا لهم دولة وجيشاً ودستوراً ومدارس ومستشفيات، ولو لاهم لظل العراق إسطولاً لخيل العثمانيين!

قلت محاولاً إغاظته:

- هي لدى العراقيين رمز لانتهاك جمال بلادهم من قبل المحتلين! أطلق ضاحكة حانقة، راح يربت على كرشه، منقلاً ربطه العنق العريضة على جانبيه:

- كيف وأنت رجل إنجليزي متحضر، يعرف أخلاق شعبه، وحضارتهم، تصدق كلامهم؟ قلت لك إنها إعلان تجاري كان يلصق على جوانب صناديق الشاي، مع نسخة أخرى صقيقة توضع كهدية داخلها، عندما بدأت الشركات الإنجليزية تعرف العراقيين بالشاي الهندي والسيلاني، بعد أن كانوا يشربون نقيع أوراق الشجر من السوق الأسنة!

- ليكن، أعلاناً أو غير ذلك، حولها العراقيون إلى شعار لمقاومتهم محتلي بلادهم، شعب يحارب ويقاوم بالجمال، ويوجه فتاة حسناء، له مستقبل عظيم وليس تعيساً كما تقول!

ظل يز مجر، أدرت له كتفي، وتجاهلت محاولاتي جري لمواصلة الحديث معه، وجدتني مصرأً أن لا أجعل حلمي الذي تمثله هذه اللوحة يتلاشى من

قلبي! أو قلوب الناس هنا، لست ضد الحقيقة ولا أريد تجاهلها، ولكن دائماً  
ثمة وجه آخر لها يحاول هذا الرجل سحقه.

## حلم جميل وكبير، يكفي ليس لشخص واحد بل لأناس كثيرين!

توقف ماكس عن القراءة، وضع الأوراق على المنضدة؛ قريباً من الآلة الكاتبة، خرج إلى الشرفة، راح يتطلع إلى النهر، كأنه يحترق ويذهب ليبتعد به، يرنو إليه يجري وقد غمره نور باهر، وقوارب العابرين والصيادين تقاطر هادئة متهملة تبعث منها صيحات ونداءات وأغنية تعلو مثقلة بحزن صار يقبض صدره. ماذا جرى لأجاث؟ ماذا جرى لي؟ وماذا جرى للسلطة في هذه البلاد؟ حتى الآن وقد مررت كل هذه الساعات الطويلة لم تأتني بشيء عن مساعدتها في التحري والتحقيق. قالوا إنهم سيفعلون المستحيل للوصول إليها. وحتى الآن لا شيء سوى الصمت. مطبق أكثر وحشة من صمت المقابر القديمة! أين خالد؟ أحيا أملاً في قلبي ثم غاب، أخشى أن أكون قد خدعت به، ماذا يجري لنا في هذه البلاد؟ عاد مرتعش اليدين. جذب الكرسي الذي تجلس عليه أجاث، أشعل المصباح المنضدي المتوج بمظلة حريرية وردية مطرزة بزهور زرقاء، جانباً، وعاد للقراءة: بعد عودتي من لندن، قررت البقاء في بغداد أياماً قبل أن أواصل رحلتي إلى الأهوار. سارعت للاتصال بSlim البكري لأحدثه بما توصلت إليه عن فاطمة في لندن، وحكاية الإعلان التجاري، واعدنني في بار "البلاد الخمسة". بار صغير معتم في زقاق يتفرع من شارع الرشيد، صار Slim يكثر من الشراب وينتفت دخانه من أعماقه كأنه يستعجل موته، كان مرهقاً وحزيناً لكنه قام لي باشا، وعانقني فرحاً بعودتي قال مازحاً:

- من الواضح إنك لم تجد بنت المعيدي، أو وجدتها أصبحت إنجليزية كباقي الإنجلiziات؛ فطار غرامك الغريب من قلبك!

- لينتني وجدتها على أية هيئة، المهم أن تكون حية معافاة!  
حدثه بما لدى عن رحلتي، فاطمة غير موجودة في لندن، صار واجما،  
يكتفي بهز رأسه أو النظر إلى مستغربا قال:  
- لا أبرئ الإنجلizer، ولا أي محتل من أية جريمة يتحدث بها الناس عنه،  
ولكن حكاية بنت المعيدي أكبر من كل تفاصيلها، عدم استطاعتك العثور  
عليها حتى في لندن؛ يعني أنها حلم جميل وكبير، يكفي ليس لشخص  
واحد بل لأناس كثيرين، وإنها نبوءة قد تؤشر لنا على ما سيحدث أيضا.  
صمت برهة ثم قال، وثمة رعشة في صوته:

- في هذه الأيام وجدت أن صورة بنت المعيدي، قد اختفت من بعض  
المقاهي، بدأت تظهر مكانها صور كبيرة ملونة لطفل يكفي تسيل على  
خده دموع وعلى وجهه تقطيب خوف وفزع، إلى جانبه صور رجال دين،  
سكت وسرح بيصره بعيدا.

عرجت على ما سمعته من الإنجلizer المهندس في شركة النفط، فقد  
ظل يحز في نفسي، فوجئت أنه لا يستبعد أن تكون الصورة أعلانا تجاريا:  
- خلال بعثي في غيابك سمعت شيئاً من هذا القبيل، صاحب دار النشر  
الإنجلizer الذي طبع الصورة، جاء مع تاجر عراقي إلى بغداد يحمل  
كميات كبيرة منها، بيعت كلها خلال أسبوع. ذلك شجعه على طباعة  
أعداد كبيرة أخرى مسرباً حكاية الضابط الإنجلizer، فالوطنية سوق  
أيضاً، ثم لم تلبث الحكايات أن توالت وتکاثرت؛ تركمانية وكردية  
وآشورية وغيرها، لم يكف التاجر الإنجلizer ذلك، راح يضرب على  
أوتار قلوب الرجال العراقيين الظائمين للحب والجنس فاستعان بعراقيين  
تحذوا عن شبق بنت المعيدي ومفاتن جسدها تحت ثيابها، مخترقين  
المحظور، قاتلين أنها المرأة النموذجية للفراش، وإنها هي نفسها الأنثى  
المليئة التي قصدتها كتاب "رجوع الشيخ إلى صباح"، وهو كتاب قديم  
مشهور في الشرق مثل كتاب ألف ليلة وليلة، ويبحث في أسرار الجنس،

وطرائق الجماع، وخصائص النساء، الشبقات الساخنات والباردات، فباع عشرات آلاف النسخ الأخرى، مكوناً ثروة كبيرة، فافتتح مكتباً تجاريًا له مستعيناً بإدارة شركة لنج للملاحة وأخذ يشتري الحنطة والرز الفاخر والتمر والجلود بأبخس الأثمان ويصدرها إلى إنجلترا ويستورد الجوخ الإنجليزي والويسكي الاسكتلندي! فتصور أية صفقات وثروات هائلة تحققت بفضل جداول بنت المعيد!

شعرت إني حزين ومحبط حقاً، لا ريب هو قد لحظ ذلك، قال:

- لا ينبغي أن ينال هذا من حلمك، فأنت في قلبك وخيالك فتاة جميلة على هذه الأرض، مطابقة لفتاة الصورة، استمر في حلمك لا تدع أحد يحطم حلمك، ولا حلمي معك!

المحقق خالد، يعاكس التيار في بلد يراد فيه حتى للنهر أن يمتلئ  
بماء السياسة الأحمر والأصفر!

كلما توغل خالد في قراءة أوراق أجاثا يحس بالأمل أنه يقترب من أولى خطوات الطريق إليها، إنها هنا في بغداد لم تبرحها، كيف تغادرها، وهي المحبة المتعلقة بها كثيراً؟ ثمة صوت ينادي، يا خالد ألا يمكن أن تكون بغداد قتلتها كما قتلت الكثيرين من محبيها؟ لسع قلبه، ولكن بغداد لم تقتل محبيها، هم قتلوها! هي رحمتهم في النهاية، ثمة من غفلت عنهم، ثمة من نجوا بأعجوبة، لا تظلم بغداد فهي ليست قاسية إلى هذا الحد، ومهما قست فهي لا تقتل ضيوفها، لا بغداد قاتلة، تمزق عشاقها إرباً وتمسح بهم الأرض، أنت لا تعرفها مصاصة دماء! ورغم ما تناهبت رأسه من أصوات، فرغ من قراءة أوراق أجاثا في المقهى، أزمع أن يقرأها ثانية وثالثة فهو قد شعر أن فيها سر اختفائها بل خيل إليه وهو يسرح بنظراته مع أمواج النهر أن أجاثا تومئ إليه من خلال الكلمات المتدافعه مع النهر، لكنه قرر أن يعود لدائرةه ليرى ماذا تحقق هناك، أمعتض وأحس بشيء من الإحباط، حين تذكر أن بهجت

العطية مهما أعطى لمرؤوسه من حرية الحركة في التحقيق أو المتابعة فهو في النهاية سرعان ما يجرهم إليه كما يجر الفارس لجام حصانه، هو يرى نفسه ليس مديرًا للأمن العام بقدر ما هو مديرًا (الشعبة الخاصة) المعنية بلاحقة المعارضين السياسيين خاصة الشيوعيين، العطية مهما قال عن قضية أجاثا، هو ما يزال يعتقد أنها مؤامرة شيوعية، سوفيتية لتمرير أنف بريطانيا وحكومته الموالية لها في التراب! وجد خالد في الحجرة المخصصة له في دائرة التحريات الجنائية أربعة رجال بثياب رسمية ومدنية، استقبلوه بترحيب، لكنهم عادوا لصمتهم يقلبون أوراقهم يكتبون أو يتبادلون الكلام، سأله دون أن يقصد أحدًا بعينه:

- هل من جديد في قضية أجاثا!

رد أحدهم على الطريقة العراقية:

- صاموط، لا موطن!

تذكر إن معنى هذه الكلمات صمت وموت، ولا يقولها محقق جنائي إلا حين يكون على حافة اليأس نافضاً يده من القضية. وهذا بالنسبة له أقطع ما يمكن أن يسمعه في قضية أجاثا، وقد أصر في نفسه أن لا تصل إليه قضية أجاثا! قلب بضعة أوراق وضعت على منضدته، كانت كلها تدعوه إلى اليأس، كل التحريات لم تفض إلى شيء، ربما هذه المرأة قد انتحرت، يقال أنها كانت لها سوابق ذهول ومحاولات انتحار في لندن، لتنظر، أو صينا فلاحين وصيادين ونوتين في مناطق جنوب بغداد من النهر بمراقبة الشواطئ، وإنذارنا على الفور عند عثورهم على جثة ما! لم يجد خالد ملذاً له سوى أوراقها فتحتها وعاد يقرأ:

استوقفني مقطع يلامس العقل والقلب كما يلامس كف عجوز رحيمة رأس طفل، السيدة سدورى صاحبة حانة على الطريق وراء جبال الأرز إذا كانت في لبنان، وأمام قوارب صيادين وأكواخ جامعي اللؤلؤ إذا كانت في البحرين، تحدث جلجامش قائلة:

إلى أين تسعى يا جلجامش؟  
 إن الحياة التي تبغي لن تجد!  
 لما خلقت الآلهة البشر؛ قدرت الموت عليهم! واستأثرت هي بالحياة!  
 أما أنت يا جلجامش فاجعل كرشك مملوءاً!  
 وكن مرحباً مبهجاً ليل نهار  
 وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك!  
 وارقص والعب ليل نهار  
 واجعل ثيابك نظيفة زاهية  
 واغسل رأسك، واستحم في الماء!  
 ودلل الطفل الذي يمسك بيده.  
 وافرح الزوجة التي بين أحضانك  
 وهذا هو نصيب البشر!

ماذا تريد حضارتنا الصاخبة؟ ماذا يرد الإنسان اللاهث خلف المال  
 والسلطة، أو المناصب الرفيعة، أكثر من هذه النصيحة البسيطة والصحيحة  
 المرسلة إليه منذ ستة آلاف سنة لكنها لم تصل إليه حتى اليوم! أين الخل؟  
 هل هو في البريد؟ الذي يجلبه لنا الموتى الطيبون قاطعين إلينا آلاف السنين؟  
 أم هو في المرسل إليه الذي أينما يكون، يخاف أن يعطي عنوانه لأحد؟ أو  
 يخاف أن يفتح الرسالة إذا وصلته؟ كم مرت على الناس في هذه البلدان من  
 بيلات وكوارث، شتتهم وفرقتهم أيضاً. غاب كثير من العقل والإلهام تحت  
 التراب، أحد أهداف أو آمال رحلتنا إلى سوريا أن نجد نص ملحمة جلجامش  
 كاملة، لي كل الثقة أن ماكس سيجد الطريق لمجرفته المرهفة البارعة لتصل  
 إلى ذلك الكنز الشعري العظيم الذي لا يعادله كل ما وجدنا من ذهب وجواهر  
 وأحجار كريمة! كان ماكس يقول: الذهب يظل بريقه البليد مختبئاً وراء زجاج  
 المتاحف، بينما النص الشعر والأدبي حين يصل عقول وأرواح الناس يشع  
 جمال الحياة وعدالتها وقوتها!

ربما سأواصل كتابة ما سيتحقق من تجربتنا، لكنني آمل أن أجد بعض إجابات أو حتى تساؤلات جديدة عما فاتني الوقوف عنده، أو ظل عصيا على مدارك في محاولتي الكتابة عنه!

إذا لم تجد حبيبك في المكان الذي هفا إليه قلبك، لن تجدها في المكان الذي أشار إليه غيرك!

كان سليم يحتسي شرابه بهدوء ويدخن، وكنت أكتفي باحتساء عصير الليمون محتملاً جو البار الخانق، الصاخب، مستمتعاً بكلامه وجلوسي معه، قال:

- صرت أكثر قناعة أنها حلم، مهما قيل في أصلها أو فصلها أو ما جرى لها، ليس حلمك وحدك بل حلم الكثيرين هنا، وإذا كنت مجنوناً كما تقول عن نفسك فكل هذه الملائين مجانيين أيضاً. اسع وراءها، انتظرها ما تشاء، ولكن عش حياتك العادية، تزوج أو عاشر نساء فهذا لن يتعارض مع حلمك بها، لا تحرم نفسك من المتع ولا تحرم نفسك من حاجاتها الطبيعية، فهذا لن يطفي حلمك بها، على العكس سيزيده اشتغالاً!

أحسست بضحكه مريحة تعبير فمي قلت:

- أنا أتغذى من حلمي، ذلك يكفيني!.

هز رأسه دون أن أفهم إن كان يوافقني. عدت أقول له: كلمة كنت قد سمعتها من رجل في دمشق لمتصوف عربي قديم "إذا لم تجد محبوبتك في المكان الذي هفا إليه قلبك، لن تجدها في المكان الذي أشار إليه غيرك" راح يضحك قائلاً:

- سنضمك إلى رتل المتصوفة الذين ملئوا بغداد دموعاً وحرسات على أحبتهم الذين لا وجود لهم على الإطلاق!

- أعرف يا سليم إنني أسير في حلم مجھول كالنفق الطويل المفتوح إلى السماء فقط، سأعود إلى الأهوار، أركض فوق الماء وراء السراب، هل

رأيت إنسانا ييده كأس الماء، لكنه يصر على البقاء ظمئاً بانتظار كأس من السراب؟ هو أنا، أحياناً يا سليم أجلس وحدي مرتعشاً من حمى مفاجئة تعتريني ولا تتركني حتى استحمد بعرقي .رفع سليم كأسه قائلاً:-

سأشرب نخبك! أستغرب يا ثيسجر وأنت في هذه الروح الهائمة ولا تقرب الخمرا!

- أنا أصنع خمرتي في أعماقي!

- وأنت تحلم من أعماقك! عشيق الأحلام، لا تكلف سوى قليلاً من الدموع، وبضعة ليالي سهاد.

ووجدت أن بحثي عن فاطمة قد أخذ مني كل طاقتني، دون أن أصل إلى نتيجة مفرحة أو حسنة، لم يحدث أن استنزفت بهذا القدر، لكن توقي لهذا الجمال والإيحاء كما قال سليم سوف لن ينتهي، عدت إلى الفندق، وضعت صورتها أمامي ورحت أحدها:

- أتعبتي يا فاطمة، بحثت عنك كثيراً، أين أنت؟ رأيت شفتيها تتحركان، وجهها يغيم خلف سحابة حزن، لا أدرى! شعرت إنني غفوت في حضنها بعمق ولوقت طويل، استيقظت صباحاً وأنا أحس ببهجة وتوقد عظيم لصبح بغداد الجميل. لمحت على المنضدة مغلفاً فيه قميص وربطة عنق حريرية كنت قد جلبتها هدية لسليم، ونسيت أن أحملها إليه في لقائنا أمس!

كلما حللت في بغداد أرتاد مقاه في علاوي الحلة، المنطقة الشعبية، التي يتجمع فيها عادة الكثير من الرجال القادمين من الجنوب، ومقاه في شارع الرشيد وباب المعظم، أشرب الشاي على الطريقة العراقية؛ أسود مغلياً مع الهمال، أستمع لأحاديث الناس، أو أنطلع إلى وجوههم، وأستمع لأغانיהם وموسيقاهم من الراديو. أرى فاطمة في عيونهم كثيرة الحركة فأحس قربها مني ومنهم، وإنها كانت موجود وهولاء الناس شهود على ذلك، قررت أن أستمتع بالتسكع في بغداد منحت نفسى إجازة من الركض في الأهوار، لختان

وتطيب قروح جلدية عضالية، وأمراض مزمنة! وجدت صورتها تختفي من مقاه كثيرة، لتحول مكانها صور كبيرة ملونة لطفل جميل حزين تسيل على خده دموع صافية كاللؤلؤ، ذلك ما حدثني عنه سليم! تساءلت في نفسي أما كان بالإمكان الإبقاء على صورة فاطمة مع صورة الطفل؟ بدا لي وربما لرواد المقاهي أيضاً، أن الطفل يبكي أشياء لا ترى ولا تحس، لأول وهلة عندما رأيت صورته لم أجده تناقضاً بينه وفاطمة، كأنه شقيقها أو ابن شقيقها الصغير، وهو يبكي لفراقتها، (لم أجراً على تصوره ابنها) فكرت إنه يمثل البراءة، حزن الطفولة إلى جانب الحزن الأنثوي. أرى رجال كثيرون يتأملون صورته بوجوم ودهشة، لم أتوقف كثيراً أن بعض الرجال كانوا ينظرون إليه باشتئاء (هنا ثمة رجال شاذون جنسياً)! بدأ الناس كعادتهم ينسجون حوله الحكايات، وصاروا يسمونه (البيتيم)، أحدهم يقول إنه طفل فقد والده شهيداً في المظاهرات الأخيرة ضد حكومة عملاء الإنجلiz. آخر يقول إنه طفل فلسطيني شرير يبكي باحشاً عن أهله الذين بدأ تشريدهم من بلادهم. آخر يقول هو ملاك يتجلّى على هيئة طفل يبكي لكثرة شرور ورذائل البشر، وابتعادهم عن طريق الله، لا بد من ظهور المنقذ، المهدي المنتظر قريباً. حكايات كثيرة أهالوها على رأس هذا الطفل، تذكرت ما قاله لي سليم، مخيلة العراقيين خصبة جداً في نسج الحكايات، مستعينين عليها بالصور، صور أخرى، أحزان أخرى، هموم وتاريخ آخر، ولا أحد يسبّهم في تمزيقها وتحطيم أسطورتها! لا بد من عودتي إلى الأهوار، فإذا كان أملّي في العثور عليها قد تضاءل هنا، فهو هناك سيشتعل ويتتصاعد! والناس الذين أحببتم وأحبوني هناك كثيرون ويتظرون قدوسي، ويحتاجونني، وما جلبته من ومستلزمات طبية بسيطة تناديني للذهاب بها إليهم، فهم بأمس الحاجة لها. بعضهم يقصد المدن القريبة بحثاً عن دواء، أكثرتهم لا يستطيعون، يسكتون على المرض ويتعايشون معه يتحدثون عنه كأليف أو صديق، لهم، حتى يفاجئهم بالموت، هم معنوي يبحثون عن فاطمة!

الحب هو ان لا نتملّك المحبوب، بل أن يتملّكتنا! حد أن نبتعد عنه  
بسلام؛ إذا وجد سعادته مع آخر!

رجعت إلى الهرور بلهفتي الأولى، حدثني عمارة وباسين أن الناس في الأهوار في فترة غيابي التي طالت لشهرين تقريباً صاروا يسألون عنني ويدركونني بالخير، بعضهم قال "لقد أخطأنا بحقه كان يساعدنا كثيراً، ولم نعرف قيمته إلا بعد أن فقدناه" كانوا يتصورون إبني هجرت الهرور نهائياً، وإنني لن أعود! كانوا يفرحون حين يقول لهم إنك ستعود بل ستجلب معك أدوية جديدة لهم، قلت في نفسي أنهم تصالحوا معي وأنا في لندن، ولو لقيت فاطمة في لندن، لتصالحت مع الموت والأقدار كلها!

فعلاً وجدتهم بعد عودتي يرحبون بي بطلاقة وعمق، شعرت إنهم صاروا يفهمونني ويثقون بي أكثر، وجدت في هذا عزائي وسعادتي حقاً، كنت أفرح حين أجد دواء بسيطاً يعيد العافية والبسمة لطفل أو عجوز، أحس أن هذا جزء من الحلم الذي حدثني عنه سليم.

كنت أستقل زورقاً بخارياً يقوده رجل قارب الأربعين. نعبر الطريق المائي الطويل بين بلدة المجر وناحية الفهود على مشارف الهرور. رذاذ الماء المعطر بعبير القصب والزنابق، أتعش جسدي المرهق وفتح خلاياه! أنا الذي بدأت الحديث مع السائق وكعادتي في إدارة دفة الحديث نحوها قلت متصنعاً العفوية، هل حقاً بنت المعيدي هي من سكان الهرور؟ انطلق يتحدث بحماسة، من الواضح إنه أيضاً عاشق لها، هي المعشوقة العظيمة الوحيدة التي لا يغار عشاقها من بعضهم البعض، يحسون أنهم كلهم فانون في حبها المستحيل، يتسلون ويفرحون في تبادل حكاياتها المختلفة عنها! قال: "هي معiedية أصيلة من منطقة الجبايش، لها اسم آخر غير فاطمة، لن أنطقه، لو جرى على لسانك لأذابني على الفور، وأعادني ماء إلى الماء! جمالها الفتان جعل شاباً يعمل حارساً لدى الإنجليز يعطي كل ما جمع من مال في عمله لوالدها مهراً لها. حيث اشتري به ثلاثة جواميس! تصور هذا الأب الأبله

يصادل ابنته الفاتنة الساحرة بثلاث جواميس! لو كنت حاضرا يومها الصفقة؟ لقتلت! ذهبت هذه البنت لتعيش مع زوجها في الكوت. بهر جمالها طيارا إنجليزيا في الثكنة التي يعمل فيها زوجها منظفا فراح يتقرب إليها. كانت تسأله عن طائرته: هل الطائرة طير كبير؟ هل هي من حديد أم لحم وريش؟ فيجيبها بلغتها العربية المكسرة تعالي لتريها بنفسك! ويطلق سائق الزورق الزفير بعمق: صعد بها إلى الطائرة، وطار بها إلى لندن! خاف قائد الثكنة الإنجليزي من الفضيحة، وثورة الأهالي فأقنع زوجها أن الملائكة هي التي جاءت من السماء وخطفتها؛ لأنهم تذكروا أنها ملاك هبط إلى الأرض دون علمهم فجاءوا يستردونها. فصعق زوجها وندت عنه صرخة واحدة فقط لا غير وسقط ميتا! ويلتفت السائق نحو ي ليقول: هل رأيت يا ثيسجر من هم بمثل خبث أصحابكم الإنجليز؟ ويضيف كالمعتذر عن تقصيره: كنت آنذاك لم أزل صبيا غرا في ريف الكوت، عندما حدثت هذه المصيبة. كان ذلك قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى بسنة. العراقيون والعثمانيون يساعدون الألمان يصارعون الإنجليز لمنعهم من احتلال العراق. ولم يكن أحد يستطيع أن ينقذ بنت المعيد! أفلح الطيار الإنجليزي في جعل هذه الحسناء التي لو نطق اسمها لانقلب الزورق، تنبهر بأجواء لندن، بما أغدق عليها من ملابس وأطعمة شهية وحلوى لذيدة. أدخلها مسابقة ملكة جمال إنجلترا ففازت بالتاج الذهبي. طار بها إلى البندقية لتشترك في مسابقة جمال العالم؛ فأدهشت أعضاء لجنة التحكيم، وشلت نظراتهم وأستهتم؛ فانتخبوها ملكة جمال العالم! ولمزيد من التحدى أرسل الطيار نداء من لاسلكي طائرته إلى سكان الكواكب الدائرة حول الشمس، وفي الكواكب الأخرى ليرسلوا فتياتهم الجميلات إلى لندن للدخول مع محبوته في مسابقة على تاج ملكة جمال الكون وفي حالة عدم مجيء فتياتهم الجميلات فستكون هذه الفتنة هي ملكة جمال الكون! لم يصل من هناك أي كلام، فتوجهها المحكمون في البندقية ملكة جمال الكون! كان يسير وإياها على جسر التنهدات في البندقية،

فوجع بها تصدع حاجز الجسر وتلقي نفسها في البحر! ظل مشدوها، تذكر أنها كانت منذ أيام تتحدث عن الموت وأنها تريد أن تنتحر، وحين يسألها لماذا؟ تقول لها أنها حزينة يائسة، وتعذب كلما قارنت بين أهوار أهلها في الجبايش وأهوار البندقية وتعبت من التساؤل مع نفسها، لماذا بيوت أهلي من القصب والبردي، وليس كبيوت أهل البندقية مبنية من الصخر والحجارة الملونة؟ لماذا لا تكون لدى أهلي مثل ما لدى الناس هنا أسوق ومدارس ومستشفيات؟ مياه البندقية مالحة ومتغترة، بينما مياه الهرم نقية عذبة صالحة للشرب، لماذا الناس فيها مرضى وتعساء؟ وتأخذ بالبكاء، وتقول أنها حسمت أمرها، وستنتحر قريبا للخلاص من هذه الدنيا الظالمة! يقول الطيار إنه كان يضحك في سره ويظنها تثرثر بعض سخافات النساء الجميلات، ولم يكن يصدق أنها ستنتحر لهذا السبب النافر وغير المعقول. لكنها انتحرت على كل حال، واختفت من الوجود، لأن هذه الدنيا لم تستطع أن تحتمل شدة جمالها! أشعل سيجارته وأخذ ينفث الدخان من أعماقه. قلت: ولكن هذا كله يصعب تصديقه، إنه أشبه بالخيال. نظر إلى بغضب واضح:

– ولكنك تعرف أننا هنا لا نتعاطى الحشيشة، ولا أية مخدرات! أنت زرت العالم كله، أليس في البندقية جسر يسمى جسر التنهدات؟  
قلت: نعم موجودا! قال بلهجة المتصر، وقد وجد الدليل القاطع: خلص!  
هذا يعني أن الحكاية صحيحة، فهي قد ألمت نفسها من جسر التنهدات إلى البحر وغرقت!

ليتك يا أجياثا تأتين لتطلي على هؤلاء الناس المعدبين المعزولين والمنبوذين، وهم في أحلامهم وأوهامهم ومعاناتهم، ستجدين الكثير من حكاياتهم الغريبة، ربما هي مضحكة، ولكن كم فيها من الحزن لو تأملناها بهدوء! ألم تكتفي من مجاورتك لحفر وقبور التنقيب؟ هي لم تعطك سوى أشباح القتلة والسفاحين، فصرت مرة تكتفين "جريمة في قطار الشرق السريع" ومرة "جريمة في وادي الرافدين" وأخرى "جريمة في شارع الرشيد" "جريمة

في كركوك" جريمة لا أدرى أين، حيث اختصرت الحياة كلها بالجريمة وال مجرمين، خاصة قصص هؤلاء الذين يرتكبون الجرائم ترفاً أو جشعاً أو أبهة، وليس اضطرار كال مجرمين العاديين المساكين! ومع إعجابي برواياتك وتقديرني الكبير لهم، لكنني أرى أن من الضروري أن تدخلني عالماً جديداً نظيفاً نقياً منعشاً! كانت زيارتك للأهوار قصيرة موجزة، لو أقمت فيها فترة أطول لوسيت فضاء روایتك، ليضم هذه المساحات المائية الشاسعة، وما فيها من حيوان ونبات وطيور آبدة أو وافدة! صدقيني يا عزيزتي أنا لم أر طيور أوربا، في أوربا، رأيتها هنا في الأهوار، لم أر السماء والتلجمون والقمر والشمس في أوربا، رأيتها في الربع الخالي، والخليج العربي! تعالى إلى الهور اركبي مشحوفاً بسيطاً، ستتجدين في قاع الماء الصافي الجوهرة الروائية التي تبحثين عنها، أو تتطلع سمسكة تقفز من الموج لتلقينها في أحضانك، وعلى أوراقك، فتهزئين بها العالم!

هز ماكس رأسه غضباً، بماذا يهدى مسْتَرْ ثِيسْجُرْ؟ أليس هذه وقاحة؟ كيف يتدخل في عملها وطريقة كتابتها؟ كيف يتوقع أن أجاثا ستسمح له بالتطاول على إبداعها؟ أ يريد أن يستفزها لتكتب روایته؟ أم لكي تلتفت له وتقع في غرامه. وجديده تمتد إلى صورته، سحبها من أوراقه؛ يظهر فيها ثِيسْجُرْ وبيده بندقية جاثما على أسد قتيل، وثمة كتابة: قتلت الأسد بهذه البندقية في منطقة نبور العربية في السودان عام 1938. لماذا يرسل هذه الصورة إلى أجاثا؟ هل أراد أن يظهر قوته الخارقة لها؟ أم لتبرزها في روایته؟ هل أراد شعورياً أولاً شعورياً أن يقول إنني مستعد لأن أقتل الأسد الذي معك لتكويني لي؟ أم تراني صرت شكاكاً على غير ما عهدت بنفسي وغير ما عهدت بي أجاثا، كم تغيرنا المحن حتى لننكر أنفسنا! يا للمجنون كلما رق قلبي له وفهمت همومه، أجده يشط ويخرج عن أصول التعامل بين المثقفين، والناس، أقرأ أوراقه متعلقاً بقصة، إلى أي حال من الضعف وال الحاجة وصلت؟ فجأة راح يتسائل، أيهما أفضل أن تكون قد خطفت وقتلت، أم أن تكون قد

تركته وذهبت مع ثيسجر؟ وجد نفسه أنه يحبها إلى حد تقبله زواجها من آخر سعادتها معه، فقط أن لا تموت أو تتعرض لأذى! الحب هو أن لا تملك المحبوب، بل أن يتملكنا حد أن نبتعد عنه إذا وجد سعادته مع آخر! مضى يقرأ ويلتهم الرسالة كأنه يقرأ كتاباً لا علاقة له بمؤلفه، لم يره ولم يسمع عنه شيئاً! مازال الصمت يكتنف كل شيء، فلا الشرطة، ولا السفارة يصدر منها شيء عن جري التحقيق والتحري، ولا أجاثا أطلت، أو جاء عنها نبأ، وخالد ربما ما يزال يقرأ الأوراق؛ يحلل ويفكر، ربما!

## هل ذهبت أجاثا كريستي إلى مصر؛ لتحقق في جريمة حديث في زمن الفراعنة؟

خلال انهماكه بأعمال التنقيب، كانت رواياتي نصب عيني، سواء تلك التي أعكف على كتابتها أو تلك التي أخطط لها، وأفكر بها، كثيرون في لقاءاتي معهم، أو في رسائل الإعجاب التي تصلكني مع كل بريد من قراء في شتى أنحاء العالم بينهم منقبون ومؤرخون في مصر وسوريا وفلسطين لهم رأي خلاصته: أن رواياتي تجمع بين سحر الشرق، وكنزه التي مازال كثير منها هاجعا تحت تراب الزمن، وبين طلاسم الرواية البوليسية، وذلك انطباع أعجبني حقاً وصرت أحقر صاحب عليه، وربما على أساسه كتب لي منقب الآثار السيد كيزر رئيس المعهد السويسري، تلميذ المنقب البريطاني الشهير هاورد كارتر مكتشف مقبرة توت عنخ آمون، يقول: يسرني أن أبلغك (هل يمكن أن نعدها بشري سارة، بينما هي حزينة ومثيرة للمتابعة؟)، لقد توصلنا إلى اكتشاف هام: وهو أن توت عنخ آمون، الفرعون الشاب البالغ من العمر حوالي (18) سنة، لم يتم بشكل طبيعي كما كنا نعتقد، لسنوات عديدة، لقد تسلل إليه قاتل وهو نائم في مخدعه، وضربه على رأسه بهراوة ثقيلة! هذا الكشف الباهر سيهز محافل التاريخ الفرعوني، لكنه يلقي علينا مسؤولية كبيرة، أن نعرف القاتل ودوافع جريمته ومدى ارتباطه بصراع الكهنة الديني

والسياسي، وربما علاقته بمسألة التوحيد الإلهي، ومفترق الطرق بين نظرية ت يريد وحدة الإله، وبالتالي وحدة السلطة، واليد التي تتصرف بثروات مصر الهائلة، وبين نظرية ت يريد تعدد الآلهة وبالتالي توزيع السلطة والصراع الدموي والحروب بين أقطابها على العرش والثروات والجاه، بينما الناس مبعدون مغييبون مخدرون بجرعات من الدخان المنبعث من مجامر المعابد، ومن رذاذ أفواه رجال الدين المتمرسين بالكذب والخداع! لا أحد من المؤرخين حتى الآن يريد الخوض في هذه المسألة المعقّدة الشائكة. وجئنا أن النصوص المكتوبة على البردي أو الجدران وهي قليلة ناقصة غامضة نقشت في ظل سلطة فرعونية تلوى عنق الحقائق لصالحها لا تكفي للوصول إلى نتيجة حاسمة فيها. لذلك أنا ومنقبون جادون معنّون على المخيّلة والإلهام الروحي للوصول إلى حقيقة ما حدث فعلاً في هذه الجريمة الكبيرة، والتي ما تزال حتى اليوم جريمة، وإن أضحت المجرم أو المجرمون فيها تراباً ذرته الرياح إلى النيل العظيم الذي جرى كثيراً من ذلك الزمان السحيق! نحن نتطلع إلى ذكائك وخيالك وخبرتك في كشف الجرائم الغامضة، ونتضرّر أن تأتي إلى القاهرة لتحلّي مع أصدقائك المحققين هيركيول بواروا بشاربه المعقوف كجنائي عصافور، أو المس ماربل لتكتشفوا ملابسات هذه الجريمة، بذلك تجودين على الأدب البوليسي بجوهرة روائية أخرى، وتقدين للمصرين إضاءة عميقة تكشف لهم الدسائس والمؤامرات التي لعبت بقوة وقسوة لترحّف تاريخهم، وهذا سيفيدهم كثيراً اليوم وهم في حقبة صعبة قاسية من تاريخهم، يسعدنا أن ينضم إليّنا معك أيضاً الآثاري المرموق ماكس مالوان، فأنت وهو متكملاً في البحث عما هو جوهري وأساسي في التاريخ والفكر الإنساني، فالكتابة البوليسية نوع من التنقيب عن الآثار، والتنقيب عن الآثار نوع من الكتابة البوليسية، هل أنا مصيبة يا عزيزتي أجاثا؟ انتظر رسالة منك تحمل لي بشرى قبولك وماكس العمل معنا!

لـك فائق مودتي وتقديرني!

ملاحظة: الأمانة، ونراة العمل العلمي تقتضي مني أن الفت انتباحك أو أذكرك أن ثمة أخبارا تناقلها مختصون وأثاريون عما يسمى بلعنة الفراعنة! أنا لا أميل لتصديقها وأراها محض تهيوّات أو تهويشات مغرضة، وإن كل من مرض أو مات من اكتشفوا كنوز قبر الفرعون توت عنخ آمون، تعرض لتلوث يعود للبيئة الحالية ولا علاقة له بالماضي. لكنني لا أخفى عليك أرى بنفس الوقت أن ما حدث لأستاذنا كارتير، والممول كارنافون وعشرات من الرجال المنقبين المكتشفين من مصائب وكوارث يدعوني للتوقف والتأمل في هذه الظاهرة الغريبة المحيرة، ودراستها لا كلعنة فراعنة، بل في احتمالات قوى غيبية وربانية أخرى، وعدم استبعاد خطرها نهائياً! الأمر متوكٍ لتقديرك، وأي كان قراركما أنت وماكس فإنه سيكون موضع تفهمي وتقديرني. لك وماكس مرة أخرى أطيب تمنياتي!

بقدر ما فاجأني رسالته وجدتها منطقية بشكل ما، ثمة مؤرخون أعوزتهم الأدلة المادية للكشف عن حقيقة فلجعوا إلى خيال الروائي. هذا يؤكّد مرة أخرى أن الروائي محقق جنائي وتاريخي، رغم إنه ليس قاضياً! عرضتها على ماكس واكتفى بابتسامته الهداثة المطمئنة! توقف المحقق خالد عند هذه الرسالة؟ تكون أجاها قد سافرت إلى مصر؟ ليس غريباً ولا صعباً على أجاها، أن تذهب إلى مصر اليوم، لتكشف من قتل الفرعون وهو نائم في فراشه قبل آلاف من السنين؟ مع أجاها يمكن أن تكون الجريمة بلا عقاب، ولكن لا يمكن أن تكون دون رواية! ولكن الغريب أن لا تخبر ماكس؟ أيكون هو غير موافق على هذه الرحلة فاضطرت للذهاب لوحدها؟ هل أرادت أن تعاقبه لعدم مطاعته لها في قرارها، لكنني كما لمست، أيام زيارتهما لمدينتنا إنه كان يتبعها ويصغي لها كطفل مع أمها! رحلتها إلى زمن الفراعنة احتمال ضعيف، ولكن لا ينبغي إسقاطه، فكم يكون في التحقيق الجنائي مالا نعيره اهتماماً، هو البلية كلها!

ما أن قلب خالد الأوراق حتى وجد رسالة صغيرة مكتوبة على نصف

ورقة، كيف لم يلحظها سابقاً، كانت حائلة اللون رطبة، راح يلتقط سطورها: عزيزي الدكتور كيزي

تحية طيبة.. اسمح لي أن أبدأ رسالتي بما انتهت به رسالتك، أنا يا عزيزي لا أؤمن بما يسمونها لعنة الفراعنة، ولنأخذ مثلاً بما حدث للباخرة العظيمة تيتانك، التي غرقت في الأطلسي قبل فتح قبر الفرعون بحوالي عشر سنوات. ذكروا أن ربانها قال عنها: (حتى الله نفسه لا يستطيع إغراقها) لكن ثمة من رد عليه إنه لم يكن يعلم أن على متن سفينته موبياء لكافحة فرعونية عظيمة أرسلها أحد اللوردات الإنجليز من لندن إلى متاحف في نيويورك، وهي التي ستدفع بذراعيها السحيقيتين السفينية لتصطدم بجبل الجليد، وتغرق! هكذا تحدثوا عن لعنة الفراعنة، ترى، لو كان هناك كهنة يربّون من قبورهم في مصر تيتانك وهي تغرق وفق مكيدتهم ولعنتهم، كيف يرتضي هؤلاء السحراء الأذكياء أن تغرق كاهناتهم في أعماق المحيط بدلاً من أن تكمل رحلتها إلى أمريكا لتجول بين متاحفها وشوارعها وحدائقها وتستمتع بالوجوه الجميلة التي تطل عليها؟ وربما تسحر الأمريكية وتوقعهم في حبائلها الفرعونية! ثم لو كانت هناك لعنات فرعونية تنزل على من يقلق راحة ملوك الفراعنة أو كهنتهم وحاشياتهم في قبورهم، فإنها ينبغي أن تنزل على لصوص الآثار أيضاً! أنا لا أتحدث عن أولئك الفقراء الذين دخلوا قبور الفراعنة ليتزعموا منها أكفانها و يجعلوا منها ملابس لهم ولأطفالهم العراة، أو أنهم أكلوا من خوابي العسل القديم ليجدوا في داخلها موبياء صغيرة محفوظة كالمخللات! بل عن أولئك اللصوص الأثرياء الذين سطوا على هذه القبور بكل وقاره وشرامة، فنبشوها وعاثوا في الموبياء وانتزعوا ما معها من ذهب ومجوهرات، ثم اقتلعوا أحجارها وشيدوا بها قصوراً لهم، لو كانت اللعنات قد نزلت عليهم لماذا هم وسرقاتهم في تكاثر؟ لصوص الآثار صاروا أثرياء من عظام القبور، لا ينفكون يفرغون الأهرامات والمدافن الخفية من كل محتوياتها الثمينة التي هي ملك المصريين جميعهم. لو كانت

ثمة لعنات لاختفى هؤلاء اللصوص! ثمة دليل آخر يا عزيزى كيتر يطمئنك، لو كانت ثمة لعنات يطلقها الكهنة القدماء، لماذا لا يكون للكهنة العراقيين سومريين بابليين أكديين آشوريين لعناتهم وهم كانوا دائماً يتداولون الخبرات والأخبار مع الفراعنة؟ لقد عشت وماكس هنا سنوات طويلة، رأينا وسمعنا عن لصوص آثار، وعن منقبين شرفاء، ولكن لم نسمع حتى الآن عن لعنات نزلت بمن يستحقها فعلاً، سواء كانوا أجانب أو من أهل البلد! وجدت أن العراقيين كانوا يثقون بالجسد الإنساني ويعتقدون إنه يستطيع أن ينهض من ترابه في الوقت المناسب حتى لو صار تراباً. فزودوا موتاهم بخوابي الطعام والشراب، مع حليهم ومجوهراتهم وقيثاراتهم، لكنهم لم يحتظوهن كما فعل المصريون القدماء وأتقنوه بشكل مدهش حقاً. لقد تعرضت قبور ملوكهم للنهب والسرقة في القرن الماضي. ألا يقودنا المنطق للتساؤل؛ لماذا لا ينزل الأسلاف المصريون والعراقيون، إذا شاءوا، لعناتهم على من يمس أحفادهم من الأحياء وممتلكاتهم وثرواتهم وهم كما نرى ونسمع تعرضوا على مر التاريخ للكثير من الغزوات والانتهاكات من خارج حدودهم؟ وهذه أفعى من نهب القبور، عن آية لعنة يتحدثون؟ لا أريد أن أتحدث أكثر، وقد قررت أن لا أقارب السياسة! قد تسألني: كيف تعدين الخوض في قضايا حفريات الفراعنة تدخلًا في السياسة؟ رسالتك تجيب على ذلك، ماذا لو شخصت قاتل الفرعون الصغير، كم ستتغير من أحكام ومواضيع؟ نحن اليوم في عالم حتى لو تحدثت فيه عن الذئب أو الثعلب في الغابة فإن اللصوص والمذنبين من السياسيين يعتقدون إنك تقصدتهم؟ لكي أكتب روایات مقنعة قررت أن أبعد عن الملوك والرؤساء قدديهم وحديثهم، وأكتب عن الناس العاديين؛ لذلك فأنا لا أستطيع الخوض في ما حدث للفرعون الشاب سواء كتحليل تاريخي مباشر، أو كعمل روائي، أرجو قبول اعتذارنا أنا وماكس عن عدم استطاعتنا اللحاق بكم في عملكم الرأقي والنبيل. متمنين لكم النجاح في مهمتكم الصعبة والهامة.

تأكد خالد أنها لم تذهب إلى مصر، هذا طبعا لا يعني أنها لم تغادر بغداد، لكنه عاد يؤكد لنفسه، إنها ما تزال في بغداد، حية معافاة وبخير، أكاد أشم عطرها من مكانها الحالي كما كنت أشم على مدى السنوات الماضية عطرها القديم ممزوجا بأريح القداح حين كانت تجوب وماكس دروب بساتين أيس، ونحن الصبيان نتقاذف أمامهما كالعصافير!

## منجل وأفعى موهومٌ تقطعن عضواً حساساً لدى رجل مسكون، وحلماً جميلاً في رأسي!

صحوت من نومي مبكرا، وجدت الفجر رائقا، يفتح لي حضنه، قررت أن انزل للقارب وحدي وأندفع به لأطوف بين أكمات القصب وأسراب البط والطيور الواقفة، في هذه الأيام بلغت ذروة تجمعها. تقاذف السمك يزداد؛ ربما لشعوره بخطر المناقير القادمة جائعة من سفر طويل عبر القارات، الشمس الصيفية الناعسة تنهض لتوها من الماء فلا تكون حارقة لاهبة.

قبل أن أحمل حبل القارب أقبل عمارة بمشحوفه يجذف مندفعا نحو بسرعة أقلقتني، أعرف عمارة من بعيد حين يكون وراءه شيء ما، قد لا يكون خطيرا لكنه يكفي لانشغاله وإعادتي لهموم أتمنى أن لا تكون معي وسط هذا الجو الصافي الساحر، نزل ليقول:

— لنسرع ياعم يايسجر هناك رجل ملقي على الشاطئ، ينزف بغزاره وعلى وشك الموت!

علي أن أغير وجهتي، وأتخلّى عن حلمي اللذيد في أن أكون في أعماق هذا الفجر، والنهار المتألق الخلاب. دون أن أسأله شيئا هرعت إلى حقيقة أدواتي، وهي جلدية بنية مستطيلة بجوانب صلبة، وضعفت فيها الكثير من القطن الطبيعي والمعقمات وبعض خيوط وإبر استعملها مضطرا في خيطة بعض الجروح العميقه، وجدت عمارة قد أعد القارب وأمسك بالمجذافين، ما أن جلست في القارب حتى انطلق مسرعا! وأنا صامت مذهول، كل ظني

أن الرجل أصيب بطلق ناري، الناس هنا عموماً مساملون لكن الخطر يأتيهم من سكان اليابسة وشواطئها، حيث العرب الأقحاح يسرعون إلى بنادقهم كلما تفجر بغتة عراك بينهم، يكون وراءه عادة نزاع على امرأة أو بقرة أو قطعة أرض! وقبل أن أسأله ماذا جرى للرجل، وبماذا أصيب؟ فجأة، انطلقت ضحكة عماره وهو يردد بلهجته:

- شلاجاك يامناشد ما تميز بين عيرك والحياة؟ شنوا ما تعرف عيرك؟ ما شايفه ولا مرة؟

تطلعت إليه مستفهمـا، وأخذـا يحدثنـي بما جرى لمناـشدـ: خـرجـ منـاـشدـ فـجـراـ معـ اـبـتـهـ، كـلـ فـيـ مشـحـوـفـ؛ ليـجـلـبـ حـشـائـشـ لـلـجوـامـيسـ، كـانـ منـاـشدـ عـارـياـ تـامـاـ غـائـصـاـ فـيـ مـاءـ الـهـورـ حتـىـ خـاصـرـتـهـ، وـبـيـدـهـ منـجـلـهـ الطـوـيلـ يـقـطـعـ القـصـبـ وـالـبـرـديـ بـهـمـةـ وـعـجـالـةـ، فـجـأـةـ بـرـزـ أـمـامـهـ طـرـفـ قـضـيـبـهـ فـيـ المـاءـ مـنـ بـيـنـ سـيـقـانـ الـبـرـديـ يـتـلـوـيـ مـسـتـرـخـيـاـ مـعـ الـمـوـجـ، ظـنـهـ أـفـعـىـ فـهـوـيـ عـلـيـهـ بـمـنـجـلـهـ الحـادـ فـقـطـعـهـ، انـطلـقـتـ صـرـختـهـ، وـجـاءـتـ اـبـتـهـ إـلـيـهـ، وـسـارـعـتـ لـوـضـعـهـ فـيـ الـمـشـحـوـفـ، وـهـرـعـتـ بـهـ إـلـيـ شـاطـئـ صـرـيفـتـهـ! تـصـورـ يـاـ عـمـ ثـيـسـجـرـ إـنـهـ لـمـ يـغـمـ عـلـيـهـ، بلـ ظـلـ مـمـسـكـاـ بـالـقـطـعـةـ الثـانـيـةـ مـنـ قـضـيـبـهـ، بـيـنـماـ أـنـاـ حـيـنـ سـمعـتـ بـمـاـ حـدـثـ لـهـ؛ كـادـ يـغـمـ عـلـيـهـ. جاءـواـ إـلـيـ يـطـلـبـونـ مـنـيـ أـنـ أحـضـرـكـ لـعـلـاجـهـ!

كـدتـ لـاـ اـصـدـقـ مـاـ حـدـثـ، وـجـدـتـنـيـ أـقـولـ:

- لـابـدـ أـنـ قـضـيـبـهـ كـانـ بـطـوـلـ غـيرـ اـعـتـيـادـيـ!

- نـعـمـ هـمـ يـضـرـيـونـ بـهـ المـثـلـ، "منـاـشدـ قـضـيـبـهـ كـبـيرـ، وـعـقـلـهـ صـغـيرـ"، لـذـلـكـ وـقـعـ لـهـ مـاـ وـقـعـ! زـوـجـتـاهـ الآـنـ تـولـوـلـانـ وـتـصـيـحـانـ: هـذـهـ عـيـنـ أـصـابـتـهـ، وـعـيـنـ الـحـسـودـ عـسـاـهـاـ بـالـعـمـىـ!

- لـكـنـ النـسـاءـ هـنـ اللـوـاتـيـ عـادـةـ يـخـرـجـنـ لـحـشـ الـبـرـديـ!

- منـاـشدـ مـنـ الرـجـالـ الـمـعـرـوفـينـ بـمـسـاعـدـتـهـ لـزـوـجـتـهـ فـيـ كـلـ شـيـءـ، هـوـ فـقـيرـ وـطـيـبـ حـتـىـ لـيـسـمـونـهـ بـالـأـبـلـهـ، وـلـاـ يـسـتـحـقـ مـاـ جـرـىـ لـهـ! وـجـدـتـنـيـ أـفـكـرـ مـاـ هـذـاـ الـذـيـ جـرـىـ؟ـ أـفـعـىـ مـوـهـومـةـ، وـمـنـجـلـ يـهـوـيـ؛ـ فـيـقـطـعـانـ

عضو احساس لدى رجل مسكون، ورحلة صغيرة إلى حلم جميل كنت سأعيشه صباح اليوم في أعماق الدهور، بالتقاطع أحداث الدنيا! وصلنا الرجل، وشرعت بعلاجه، لا علاج لدى أكثر من تنظيف العضو المبتور وتطهيره، وكبح النزف بلغه بالقطن والشاش. طلبت منهم أن يجعلوا نومته معكوسة، يرفع رجله من تحت ظهره على محمل خشبي. الغريب إنه ما زال ممسكا بالجزء المقطوع من قضيه لا يتخلى عنه رغم آلامه الفظيعة، وهو يقول لي متосلاً:

– مروتك خيطه، خيطه، رده لمكانه!

أفهمته إن هذا غير ممكن الآن، ربما عليه أن يتظر خمسين عاما آخر، ليصل الطب إلى طريقة تعиде له كما كان! علق عمارة "بذاك الوقت يركبوا لك اصطناعي ملون، مو مثل هذا الأجرب" هنا فقط أجهش الرجل بالبكاء وأخذ ينوح متتمما بكلام لا أفهمه! أحدهم قال له ضاحكا:

– ما تبقى منه يكفي لرجلين، لماذا تبكي؟

آخر قال:

– هو فقط صار بلا عمامة، هذا أحسن، شسو بينا أهل العمائم!

لم تخروا عملية علاجه من ضحكات وتعليقات، وممازحات من الناس الذين تجمعوا حولنا من الصرافين المجاورة. للناس هنا قدرة عجيبة على تحويل المأساة إلى ملهأة واصطياد النكتة، والتعليق النابت، بالسرعة التي يصطادون بها سمكة أو طيرا!

بقيت بين فترة وأخرى أتردد عليه، اطهر جرحه الذي كان عميقا وخطيرا فعلا، وما كنت أتصور إنني بإمكاناتي البسيطة سأشفيه وأدرا مضاعفات جرحه في هذا الجزء الحساس! لكن قضيه طبعا صار ناقص الصلاحية، ولا أدرى كيف سيعالج أمره مع زوجتيه، وإداهما كانت شابة حسناء! ظل عمارة يوافيني بأخباره، يحدثني أن مناشد فقد الكثير من هبيته بين رجال السلف، الذين يرون الرجلة في هذا العضو الذي أصبح مبتورا، رغم إنه هو الذي بتراه، وليس غيره بتراه له، لكن مناشد لم يكف عن إلقاء الذنب علي:

لِيش الحجي الإنجليزي ما خيطه؟ اشجان يضره؟ كان كسب ثواب كبير،  
بس ذوله الانجليز ما يطلع منهم خيرا!  
ولا أدرى إن كان عمارة جاداً أو إنه يمزح، أو يتهكم عليه، كالآخرين، قال  
لي أن مناشد دفن قطعة قضيبه عند الجهة اليابسة من الشاطئ، في قبر صغير،  
وإنه يتrepid عليه كثيراً ويبكي عنده، بل إنه والعهدة على عمارة، يصطحب  
زوجتي لبكيان معه عند هذا القبر الغريب، وقد أوصى أهله:  
لما أموت وتدعوني بوادي السلام؛ خلوه ويا لشتني، أريد من يشفعني  
الإمام، وأدخل الجنة، أكون مستعد، مو تنsson!

**كلمات الراهب من قلب مثقل بالأحزان وليس نذير قصاص وشوم؟**  
استوقفت خالد ورقة منفصلة تحمل تاريخ 20\_3\_1948، معونة". كلمات  
عن اللقاء بالراهب الأشوري بهنام" خارجة عن سياق مذكراتها أو يومياتها،  
كأنها فصل من رواية أو بعض من أوليات لها، وبخطها، وجد أنها تضع مصير  
أجاثا على طريق مجهول، فاس وأليم، تتصارع فيه حساسية الكرامة الوطنية  
مع الأطماء الأجنبية. عاد يقرأها: وكيف ننسى تلك الليلة في باحة دير "البتول  
الرحيمة" الكبير في قرية قرب القوش. في ضيافة صديقنا الراهب الأشوري  
بهنام. تعرفنا عليه في سهل نينوى، حيث يعتكف مع كتبه وكرمه ورعايته  
من الرهبان المنقطعين عن الحياة الدنيا على سفوح خضراء متوجهة. يتكلم  
العديد من اللغات، بينها الإنجليزية. قال لنا إنه كتب نصوصاً دينية وشعرية  
بالإنجليزية. طويل، أشقر، جسد تصافرت على نسجه التقوى والنسك والعمل  
الشاق في الأرض مع النبيذ والعسل لجعله متينا مفتولاً كأنه من خيوط الفولاذ.  
قارب الثمانين، وما يزال يمشي بخيلاء شاب! يلتهم كأس النبيذ كما الماء.  
عند اقتراب موعد مغادرتنا مواقعنا، وتهيئة للسفر إلى بغداد، دعاانا لحفلة  
وداع خاصة بنا نحن المنقبين من الأجانب. أقام لنا مائدة شواء كبيرة، جلب  
الكثير من لحم الضأن وطيور القطا والقبع رغم إنه لم يكن يتناول اللحم،

ويقتات على الخبز والجبين، طلب من الآخرين ممن لا يشربون الخمر أن يسمحوا له بوضع خالية خمر معتقة منذ ربع قرن تقريباً على المائدة، فائلاً أن فيها شيئاً من نكهة دم المسيح، وهل تنسى نكهة دم إنسان صعد الصليب من أجل الناس؟ هي هناك في أعماق سراديب الأديرة. روح هائمة تبارك العنبر والقمح واللبن وكل ما يمنع الحياة للإنسان مفترضة بالصدق والجمال. قالها كأنه يلقى علينا موعدته الأخيرة، وما حدث فيما بعد جعلني أدرك لماذا قال ذلك! تأسفت إني لا أشرب ولا أحبد لماكس أن يشرب، لكنني سمحت لماكس أن يشرب دون إفراط! نقاوة نبيذ هذا الدير، وطعمه ونكهته على ما لاحظت جعل ماكس ينظر إلي بتوسل لكي أسمح له بشرب المزيد! في مسألة الخمور من الضروري أن نعد أزواجاًنا أطفالاً ونردعهم بالقطارة! لكن ماكس تلك الليلة شرب كأسين تقريباً، فاعتبرته قد أفرط ووبخته ولو لا وجود آخرين لضربه على قفاه! كانت أمسية لطيفة، شعرنا بالنسمات الباردة لأواخر الشتاء تلسعنا؛ فانسحينا من تحت القمر المتألق حيث اصطفت مقاعdenا الخشبية في مرج من العشب والزهر المبكر، وركنا إلى شرفة محاطة بالجدران الصخرية تطل على السفوح الواسعة المزданة بالكروم وأشجار التفاح والممشمش، عاد الدفء يدب في عروقنا. وقد مضت الحفلة ممتعة سعيدة لو لا أن بهنام وقربياً من نهايتها أضحي فجأة حاداً وعصبياً، أخذ يتحدث عن التنقيب وأهدافه. لا أدرى هل لعبت الخمر القديمة القوية برأسه، أم أنه تفجر بما عاناه المسيحيون في هذه البلاد من الحيف والعزل على مدى قرون طويلة ولم يجدوا شيئاً من الإنفاق والمواصلة إلا أخيراً مع تولي الملك فيصل الأول قيادة البلاد! كان في صدره الكثير من الغضب، فراح يتحدث، موجهاً الكلام إلينا أنا وماكس دون غيرنا من المنقبين الحاضرين قال:

- سرق المتنقبون الأوربيون قبلكم الكثير من آثارنا، أستطيع القول إنهم سرقوا ذاكرتنا، وقطعوا من أرواحنا، كيف سمحت لهم التعاليم المسيحية وقيمهم الحضارية الجديدة بذلك؟

هنا تذكرت موعظته وهو يضع خاية الخمر الكبيرة على المائدة، انبرى ماكس محاولاً إيضاح الأمر وتهذته لعود لجو الحفل الجميل:

- لا أنكر إن المتنقيين الأوربيين الذين توافدوا على العراق منذ بداية القرن التسع عشر، استغلوا فساد السلطات العثمانية، وإهمالها وجهلها بقيمة كنوز الماضي فقاموا وبشكل وحشى في النبش في موقع الآثار العراقية المهمة بدءاً من أور إلى بابل وحتى نينوى، فهربوا إلى بلدانهم الكبير من آثار العراق، العظيمة والنادرة، عبر سفراهم وقنصلهم وضباط في المخابرات والنشاط العسكري، يمكن القول أن هؤلاء قطعوا من البيدر ثماره الناضجة الأولى، لكن بعثتنا جاءت، وهي تحمل في أعماقها ما يشبه الشعور بالذنب، ونزععة التكفير عن الخطيئة، الدولة الآن حريصة على حماية آثار البلاد، ساطع الحصري مدير الآثار الذي أحكم قبضته على الواقع الأثري وما يستخرج منها، كان يقول لنا كلما قابلناه، أو جاء ليتفقد عملنا:

- مهما أحكمنا الرقابة عليكم لا نستطيع ضبط كل لقية ثمينة تستخرجونها، لذا أنا أستصرخ ضمائركم أن لا تفرطوا بحق العراقيين، آثارنا هي ملك الإنسانية جميعاً، ولكن من الضروري أن تحددواكم ساهم العراقيون القدماء في حضارة الإنسان! وإذا لم تخسوا حقهم فهم أيضاً سوف لن يخسوا حكمكم، ويعطون لمتاحفكم ما تستحق! أستطيع القول أيها الراهب الطيب أن بعثتنا في القرن العشرين؛ غيرها في القرن التاسع عشر، أشاركك الرأي أن كثيرين من جاءوا في ذلك العهد كانوا لصوصاً ومهربين، كما كان بينهم جادون ومخلصون لمهنتهم وثقافتهم، ومع ذلك أقول لك بضمير نقى عمليات التنقيب اليوم تقوم على أساس علمية ومهنية وبأقل نسبة ممكنة من الخلل والفساد!

استمع بهنام لماكس متحفزاً كالذئب قال:

- ها قد انتهيت من عملكم الطويل، وصارت في أيديكم أ أدلة كثيرة عن

- الماضي، ماذا ستقولان؟ هل لديكما الجرأة لتقولا إن أرض أجدادنا هذه قد استولت عليها أقوام غريبة تعمل الآن على إجلاثنا أو إبادتنا، فاضطر الكثيرون منا إلى الهجرة بعيداً عن ديارهم وجنورهم إلى بلدان بعيدة في أمريكا وكندا وإنجلترا.
- يا صديقي، هذه قضية أخرى ليست مهمتنا، نحن لا نعمل في السياسة، ولا نتدخل في شؤون بلدانكم، عملنا ينحصر في استخراج مخلفات التاريخ، نسللها لحكومتكم ويتهي واجبنا.
- وقف بهنام كأيقونة ضخمة تطل من الماضي البعيد، كأسه الكبيرة بيده: بل هنا يبدأ واجبكم، أن تقولوا الحقيقة! ماذا وجدتم، وما هو معناه ودلالته! من يقود البعثات الآثرية؟ أليس أنتم أيها الإنجليز؟ مس بيل بعد أن انتهت من صنع ملوك الحاضر، التفتت لصنع ملوك الماضي أيضاً وعلى هواها؟ شكلت ذاكرة البلاد والناس وفق مصالح الإنجليز، هذه طعنة للتاريخ الذي ينبغي أن تظهر حقائقه كما هي!
- لا أريد مناقشة كل ما قلته يا سيدى بهنام، تفسير دلالات التاريخ هو واجبكم، ونحن ساعدناكم بوضعها تحت أيديكم، ليس من العدل أن تلقى واجبكم على كاهلنا!
- شعرنا أن الراهب قد شرب كثيراً، وصار صوته متعرضاً، بآن اثر العمر الذي قاومه طويلاً وكان متفوقاً عليه دائماً، قال خبير من بنسلفانيا:
- سيدى أشكركم على هذا النبيذ، إنه قوى، وأنت تشربه دون أن تأكل اللحم، هذا خطير يؤثر على صحتك.
- كان يريد أن يقول له أنت قد سكرت، لكن الراهب الشائر كان أذكى منه، وكان متألماً حقاً:
- على العكس، هذا النبيذ العتيق يضيف للذهني ذاكرة الماضي كلها.
- أضاف الهولندي:
- الناس هنا أحملوا تاريخهم، ونحن آخر جناه لهم، لماذا يغضبون علينا؟

أخذت يد بهنام ترتجف وهو يمسك بالكأس فتقدم مساعدته الشاب وتناول الكأس منه. كان متعباً حزيناً، أخلد للصمت، جفونه ترتعش. خيم علينا سكون متواتر. كنت حقاً متأسية ومعدبة، ولم يسبق لي أن كنت هنا كذلك، حاول رهبان شبان ترطيب الجو بإنشاد بعض الأغاني الكنسية العذبة، لكن الجو صار فاتراً. شعرنا أن الوقت قد حان لأنصرافنا. شكرنا الراهب بهنام وعائقناه، وغادرنا الدير إلى بيوتنا الصغيرة في القرية. في اليوم التالي علينا السفر قبل انتصاف النهار. ونحن في القطار متوجهين إلى بغداد، أخذت أستعيد كلام الراهب بهنام، قلت لماكس، أنه محق، كثير من حملات التنقيب التي حصلت بإجازة من السلطات العثمانية الجاهلة والفاشدة كانت أشبه بعمليات تفويض بسرقة ونهب آثار هذه البلاد. قال ماكس هو يتحدث بقضية سياسية وتاريخية كبيرة ومعقدة فوق طاقتنا، بل فوق طاقة حكام البلاد الحالين! وأيخذني صمت وشروع طويلين ثم أعود أتمنى أن أعود لأحاوره، أنا مثله أريد أن أصل إلى الحقيقة. حديثه ترك جرحافي قلبي وضميري. أحقاً نحن ضالعون في نهب آثار هذا البلد العريق؟ لماذا بقيت ساكتة؟ لماذا لم أقل له كلاماً يطمئنه ويساعده في تكوين رؤية صحيحة عن التنقيب في آثار بلاده؟ قلت لماكس كلمات الراهب: من قلب مقل بالأحزان وليس نذير قصاص وشئم! هز رأسه: ولكن هذا لا يعني أن ليس في هذه البلاد من يكرهنا، يعدنا لصوصاً، وقد يتهمونا! هل يمكن لي أن أمزج بين مهمتي الروائية، والبحث في أعماق التاريخ؟ روايتي القادمة ستتوضح لي شيئاً من خفايا التاريخ الذي صار تراباً، كما ستتوضح لي شيئاً عن خفايا نفسي التي أراها تتسع على ضفاف التاريخ دون أن تدخل إلى أعماقه! عليّ أن أخوض مغامرة الكتابة فيها سريعاً ودون تأخير، سأجلس كالتلمنيذة الصغيرة أمام القيثارة الذهبية، وأدعها تنقلني بنغماتها السرية إلى أقصى البقاء في نفسي وفي الأزمان الغابرية على هذه الأرض وأكتب روایتي. لا ينبغي لي أن أغفل شخصية المس بيل المثيرة في الرواية، لقد بنت للعراقيين متحفًا وطنياً رائعاً، هل هي صانعة ملوك أم لصة

آثار كما عمل بعضهم على تشويه صورتها؟ ما أعرفه إنها لم تحصل من كنوز العراقيين ولو على محبس ذهبي صغير، هي لم تسلم حتى على عظامها لتعود بها إلى بلادها، دفنت في هذه الأرض التي أحبتها، ومع ذلك من يدرى؟ كل شيء قابل للبحث والتحري، الرواية تصنف نفسها!

## على الطفل الباكى أن يزبح صورتها من الجدران!

في الناصرية والعمار لم أجد صورة فاطمة، في بعض المقاهي والمطاعم التي كنت أراها فيها، لكنها ما تزال في مقاه أخرى. وجدت صورة الطفل الباكى تحل مكانها أو تعلق إلى جانبها وتغدو الأكثر بروزاً وانتشاراً. بدأت هواجسي، ثمة شيء ما يعتمل في الأجواء، قلبي ينقبض، يبدو أن هناك سراً وراء ظهور صورة الطفل الباكى! هل أرادوا أن يستعملونه مكنسة يزبحون بها صورتها؟ ويبشرون بمستقبل سيحمل به اليتم والحزن والبكاء؟ فاطمة جمعت حولها رؤوس الرجال على الفتنة والجمال كما تجمع قطعة المغناطيس برادة الحديد؛ كيف يستطيعون محوها من ذاكرة كل هؤلاء الرجال؟ ولكن من هم الذين يريدون إخفاءها، وطردها من حياة الناس وأحلامهم؟ كلما قضيت شهوراً في الأهوار وزرت بغداد وعدت إلى الناصرية وجلست في مقهى يطل على مرسى القوارب، أو في البصرة بمقهى على شط العرب، أو في وسط المدينة، أجدهم قد وضعوا إلى جانب صور الطفل الباكى صوراً متنوعة لرجال دين ب مختلف السحنات والهيئات! هل هم يريدون القول أن رجال الدين يمثلون العدالة والقوة وإنهم يرعون اليتيم والمسكين؟ وهم أب لمن فقد أباً؟ في صدارة مقهى كبير واسع في الناصرية يطل على النهر، كان ثمة حشد كبير من الصور، يطل منها أشخاص كثيرون بوجوه سمراء ممتلئة، وعيون واسعة تبرق، تحفها لحى بارزة مشذبة، تعلوها عمامات سود وخضراء، يتقدمهم رجل بملابس خضر قشيبة، على رأسه عمامة سوداء، جالساً على بساط وثير، بجسد ضخم قوي، ووسامة، وقد رضى أمامه أسد كبير رشيق قوي ينظر متربها

مثله، لكنه كان مستكينا خاضعا له تماما، ذلك يزيد من قوة الرجل وجبروته، كان يضع يده على سيف ضخم طويل، نصل السيف يلمع وينتهي بشفرتين مهينا للانقضاض. وجوه أخرى بنفس ملامحه ومهابته، وسطوته، على خيول مطهمة يحملون سيفا، ورماحا، تخيلتهم قادمين لتوهم من صحراء زمان بعيد بعد أن خاضوا حروبا طويلة، وقد حف بهم رجال من العصر الحالي لأنهم يستقبلونهم وقد دعواهم لحروب جديدة، لا أدرى مع من، ولا لماذا، كانت الأجراء عموما غامضة معتمة! ورواد المقهي جالسين على التخوت الخشبية المتهلة، يتأملونهم بوجوم ودهشة وخشوع. معظم الصور متخلية مرسومة بالفرشاة والزيت وبألوان زاهية، بينما صور رجال الدين الحالين فوتografية مكبرة ومطبوعة بالأسود والأبيض، على ورق صقيل وبأحجام كبيرة وبشكل متقن. أبقى صاحب المقهي صورة فاطمة على مسافة من الصور الدينية، انقل بصري بين وجهها ووجوه رجال الدين، لم تكن المسافة بينها وبينهم مترا كما قدر صاحب المقهي، كانت دهرا طويلا، تاريا خا عسيرا، رأيت وجهها حزينا مذعورا، وقد أصبحت بعيدة عنني وعن بلادها أكثر مما كانت، وإن هؤلاء الرجال والشبان المتطلعين إليها من بين اللحى والعمائم قد فقدوها إلى الأبد، كما فقدوا أماكنهم الأولى أيضا، وقد أصبحوا الآن في مكان آخر، وزمن آخر! صدر المقهي بأنه مقدمة جيش كبير قادم باتجاهنا، تساءلت في نفسي، ترى إلى أين يمضي كل شيء هنا؟ أفت على صوت صاحب المقهي يصبح بي أنه ينتحرني: ألا تريد شيئاً؟ وهذه إشارة إلى أن جلوسي قد طال، وعلى أن أجدد شرابي وأدفع له ثانية! وقبل أن أقول شيئاً نهض فجأة رجل بعباءة سوداء وعمامة بيضاء، ووجه أسمر داكن ولحية وخطها الشيب، وهو يصرخ بوجه صاحب المقهي:

- كيف تضع صورة هذه الفاسقة الفاجرة بنت المعیدي إلى جانب صور أئمتنا، ومراجعنا العظام؟

توقف صاحب المقهي مشدوها متلعلما لا يعرف ماذا يقول وهو يتطلع

ممتعق الوجه إلى رجل الدين هادرا بصوت خطابي؛ ملقياً كلماته الحادة وإشاراته العصبية باتجاه الجدران المغطاة كلها تقريباً بالصور، تلعم صاحب المقهى مردداً:

- سيدنا.. سيدنا سامحني، سامحني والله والله،  
ثم يتحشرج صوته وينقطع، ويأخذ بالسعال. زاد صوت رجل الدين  
علواً، وتحول إلى موعظة دينية عنيفة (كانت لهجته إيرانية واضحة، جولاتي  
يا أجاثا في المنطقة جعلتني أعرف لهجات سكانها) انبرى صاحب المقهى  
يأمر عماله، سحبوا مقعداً طويلاً، صعدوا عليه، وأنزلوا صورتها، وألقواها  
جنب صفيحة كبيرة للزباله! استمر صاحب المقهى ينظر إلى الرجل الغاضب  
بتسلل معتذراً طالباً السماح والمغفرة:

- يلعن أبو بنت المعيدي، وأبو الجابها، هاي منو ورطني بيها؟  
سيطر الوجه والترقب على أكثرجالسين في المقهى، نهض آخرون  
ممن كانوا قبل قليل يبحلقون بصورتها بتلذذ واضح، وراحوا يقرعون صاحب  
المقهى:

- هذى الفاجرة، الكلبة بنت الكلب شلون تخليها ويه صور الأئمة والمراجع،  
هاي شياجاك، تخبلت؟  
آخر يصبح به:

- ما تستحي! ظالم! ما بقينا شفاعة عدهم!  
أغلب جلاس المقهى أصابتهم سكتة جماعية ودسوا رؤوسهم في لعب  
النرد والدومينو، سمعت هممات خافتة، ولم يجرأ أحد منهم على الكلام  
مع رجل الدين! طبعاً أنا يا أجاثا لا أستطيع أن أقول شيئاً، أية كلمة مني  
ستضع من سأدافع عنه بجانب الاستعمار البريطاني كله، ثم هل أجرأ أنا  
على الكلام بين أهل البلاد؟ . انتهى رجل الدين من هجمته، دفع المنضدة  
الصغيرة المرتفعة وأسقط استكان الشاي الفارغ على الأرض وسمع صوت  
تكسره، وخرج ميرزا صدره أمامه، دون أن يدفع ثمن شايته، ولا ثمن طعام

كان قد طلبه من مطعم مجاوراً عم صمت ثقيل، أحسست أن المقهى يلفظني، فنهضت مغادراً، قام أحدهم معي خارجاً وقال هاماً:

- راح اتصير حياتنا سودة مصخمة!

**يريدونهم أن يتلعوا السماء على معدة خاوية!**

في فندق بالبصرة، نزلت فندقاً قريباً من سوق الهند. وجدت صاحبه قد أنزل صورتها، أحزنني ذلك، ملكة تخلع عن عرشها، قلت للرجل وكانت بيننا معرفة وأحاديث شتى:

- ماذا فعلت بنت المعيدي فأنزلتها عن عرشها؟

قال بكل بساطة وهدوء وهو ينفث نفساً عميقاً من سيجارته:

- اكتشفوا أنها جاسوسة خائنة.

ندت عنني ضحكة مرّة:

- هذه الجميلة الوديعة، جاسوسة، كيف؟

أحد صوته:

- قحبة يهودية كانت تعمل مع الإنجليز في الهند، وهي ..

وراح يشرح لي بجمل متقطعة متناشرة كيف إن التجار اليهود يستوردون صناديق الشاي من الهند، يبيعون الشاي للأفراد بسعر الجملة؛ فلا يربحون شيئاً منه، لكنهم يتذرون عن الصندوق الفارغ صورتها، يبيعونها لأصحاب المقاهي والفنادق بثمن مرتفع، فالناس تدفع من أجلها أي ثمن، ثم يبيعون الصندوق خشباً، قلت هذا ذكاء اقتصادي اشتهر به اليهود. رد بنزق كأنه يتهرّب:

- انتظراً لم أكمل كلامي، اليهود يأخذون الفلوس التي يحصلون عليها بفضل هذه القحبة بنت المعيدي، يشترون بها أسلحة وعتاد ومؤونة، ويرسلونها لأصحابهم اليهود في فلسطين!

يصعب مناقشة مثل هؤلاء، فهم قد يضربون من يجادلهم إذا أعزتهم

الحجـة بأحاديـتهم، أو بخـاجـرـهم، لـذـلـك لم أـسـفـهـ كـلـامـهـ، سـكـتـ! خـرـجـتـ إـلـىـ شـاطـئـ شـطـ العـرـبـ لـأـتـفـسـ الـهـوـاءـ النـقـيـ، بـعـدـ أـنـ كـادـتـ رـئـيـ تـخـنـقـ بـأـحـادـيـثـ وـدـخـانـ هـذـاـ الرـجـلـ الـوطـنـيـ أـكـثـرـ مـنـ الـلـازـمـ. جـلـسـتـ فـيـ مـقـهـىـ أـرـقـبـ الـقـوـارـبـ الـكـبـيرـةـ وـزـوـارـقـ الصـيـادـيـنـ تـمـخـرـ عـابـ الـنـهـرـ الـعـرـيـضـ. رـاحـتـ أـفـكـرـ بـكـلـامـهـ، كـنـتـ قـدـ شـرـبـتـ الشـايـ وـالـبـسـكـوـيـتـ مـعـ الإـنـجـلـيـزـ فـيـ شـرـفـاتـ حـامـيـاتـهـمـ وـقـنـصـلـيـاتـهـمـ وـالـقـصـورـ التـيـ نـزـلـوـهـاـ فـيـ الـعـرـاقـ، بـيـنـمـاـ صـارـ قـدـحـ الشـايـ مـعـ رـغـيفـ الـخـبـزـ لـدـىـ الـفـقـراءـ كـلـ غـذـائـهـمـ، رـأـيـتـ بـمـقـهـىـ فـيـ الـبـصـرـةـ عـمـالـاـ بـأـسـمـالـ مـهـلـهـلـةـ يـأـكـلـوـنـ خـبـزاـ مـعـ الشـايـ، سـيـكـدـحـونـ طـيـلـةـ الـيـوـمـ بـهـذـهـ الـوـجـةـ، وـيـنـقـلـوـنـ تـلـلاـ مـنـ أـكـيـاسـ الرـزـ وـالـحـنـطـةـ وـصـنـادـيقـ الـفـاكـهـةـ الـمـجـفـفـةـ إـلـىـ الـبـاخـرـةـ التـيـ سـتـبـحـرـ بـهـاـ إـلـىـ إـنـجـلـيـزـ!ـ أـنـ تـكـوـنـ فـاطـمـةـ فـتـاةـ دـعـاـيـةـ تـرـوـجـ شـايـ شـرـكـةـ الـهـنـدـ الـشـرـقـيـةـ، لـاـ يـغـيـرـ مـنـ الـأـمـرـ شـيـئـاـ، لـقـدـ اـسـتـقـرـ فـيـ نـفـسـيـ أـنـ هـذـهـ الـفـتـاةـ الـجـمـيـلـةـ هـيـ حـلـمـ وـكـفـىـ!ـ اـخـتـفـتـ صـورـ فـاطـمـةـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ، وـمـاـ بـقـيـ مـنـهـ مـلـصـقاـ عـلـىـ الـجـدـرـانـ تـنـاوـشـهـاـ الـإـهـمـالـ وـالـعـنـاكـبـ وـدـخـانـ الـأـرـاجـيلـ، وـالـرـطـوبـةـ فـتـشـقـقـ وـجـهـهـاـ، وـتـمـزـقـ صـدـرـهـاـ النـاهـدـ. وـتـسـاقـطـ بـقـيـاـهـاـ فـتـاتـاـ مـعـ طـلـاءـ الـجـدـرـانـ. زـرـتـ صـدـيقـيـ صـاحـبـ فـنـدقـ الـأـمـلـ فـيـ النـاصـرـيـةـ، وـجـدـتـهـ مـاـ يـزالـ يـضـعـ صـورـتـهاـ فـيـ صـدـرـ صـالـةـ الـاسـتـقبـالـ فـيـ الـفـنـدقـ، ضـحـكـتـ بـأـسـىـ، قـلـتـ لـهـ:

- كـثـيـرـوـنـ تـخلـواـ عـنـهـاـ، لـمـاـ أـنـتـ مـاـ زـلتـ مـتـمـسـكـاـ بـهـاـ؟
- لـنـ أـنـصـاعـ لـفـتـوـيـ رـجـالـ الدـينـ وـأـضـعـ صـورـهـمـ. بدـلاـ عـنـ صـورـتـهاـ!
- بـقـيـتـ أـتـطـلـعـ إـلـيـهـ، أـدـرـكـ ماـ تـوـصـلـتـ إـلـيـهـ أـنـاـ أـيـضاـ، مـضـىـ يـقـولـ:
  - فـيـ الـبـدـاـيـةـ قـالـوـاـ لـاـ يـجـوزـ عـرـضـ صـورـتـهاـ إـلـىـ جـانـبـ صـورـ الـأـئـمـةـ وـرـجـالـ الـدـينـ، ثـمـ أـفـتوـاـ بـتـحـرـيمـ النـظـرـ إـلـىـ صـورـتـهاـ، جـلـبـوـنـ مـنـ إـيـرـانـ أـكـدـاسـاـ مـنـ صـورـ الـأـئـمـةـ وـرـجـالـ دـينـ إـيـرـانـيـنـ أـذـرـيـعـجـانـيـنـ وـبـاـكـسـتـانـيـنـ أـخـذـوـنـ يـوزـعـونـهـاـ عـلـىـ الـمـقـاهـيـ وـالـمـطـاعـمـ وـالـمـحلـاتـ، بـيـنـمـاـ التـصـوـيرـ فـيـ إـلـاسـلـامـ حـرـامـ وـغـيـرـ مـسـمـوـحـ بـهـ لـلـنـاسـ الـعـادـيـنـ، فـكـيـفـ بـالـرـجـالـ الـذـيـنـ يـقـدـسـونـهـمـ؟ـ لـكـنـ هـؤـلـاءـ فـيـ أـطـمـاعـهـمـ الـمـبـرـقـعـةـ بـالـمـذـهـبـ أـبـاحـوـ لـأـنـفـسـهـمـ كـلـ شـيـءـ!

صمت برهة، أشعل سيجارة راح يجذب دخانها بعمق، بقيت أتعلّم  
مندهشاً يتحدث بحزن كأنه ينادي نفسه: صور تصعد الجدران، رجال  
يتصعدون المشائق، بشر ينحدرون إلى الشقاء، سمعت أنهم سيصدرون فتاوى  
تحرم الغناء والموسيقى والسينما والمسرح لكنهم لن يفلحوا، كثير من الناس  
هنا متعلقون بالشعر والأداب والفنون وبالشراب والغناء وبالحياة، وأصواتهم  
جميلة جداً، الصراع هنا يشتد يا ثيسجر، ولا ندرى إلى أين سيفضي بنا.  
أتعرف ماذا يعني اختفاء صورة بنت المعيد؟ أنه يعني اختفاء الجمال  
والحب والوئام، وبذا تصير حياتنا جحيم في جحيم! اللهي الكثة الآن تزحف  
طاردة كل نسمة عذبة، ويتتنسيق ودعم من قوى خارجية!

يا عزيزتي أجاثا رغم ما شهدته من سطوة رجال الدين، وجدت لدى  
العراقيين ميلاً للعلم والحضارة. في القطار المتوجه إلى الناصرية، كان يجلس  
بعجاني شاب بدأ معه حديثاً، وحين عرف بانجذابي لأجواء الشرق وللحياة  
الفطرية في الأهوار، ندت عنه ضحكة هازئة قال:

- كيف تأتي من أوربا أرض العلم، والسعادة، لتدخل في غيبياتنا وخرافاتنا  
وتعاستنا؟

رحت أحدهه عن قرفي من مادية أوربا وقوتها وعجرفتها قال:

- مع كل ذلك، يكفي أن أساطيرهم وخرافاتهم هي "الكهرباء" "البنسلين"  
"التلفون" "الراديو" "السينما" "الطائرات" بينما أعظم منجزاتنا هي "الأربع  
زوجات"، وتحريم الخمر والموسيقى والشطرنج، ثم البكاء واللطم  
والخلاف على أئمة ماتوا قبل أكثر من ألف عام!

حمل كتبه ونزل من القطار قرب الناصرية ذلك المكان الذي يقولون أن  
إبراهيم الخليل خرج منه. كيف يا عزيزتي أجاثا يمكن إقناع هؤلاء الجوعى  
المعذبين بأن يتلعوا السماء على معدة خاوية؟ هؤلاء كما أتوقع سيسيرون  
في طريق العلم لا الخرافات، لكنهم بالطبع سيعانون ويتألمون كثيراً! والقادم  
أفظع! توقف ماكس عن القراءة، أحس بالتعب، لكنه وجده ينسى ولو

لساعة أو هنئهات موضوع اختفاء أجاثا انزل إلى باحة الفندق، سأله عامل الاستعلامات:

- هل سأل أحد عنِّي؟

- سيدى لو سأله أحد عنك لأتيناك على الفور!

ألقى نفسه في المقعد الجلدي وراح يدخن شارد الذهن لساعة تقريباً،  
لم يجد مناسباً من الصعود إلى حجرته، تناول أوراق ثيسجر، صار يحس إنه  
يحترق ثم بيترد مع ثيسجر بماء الأهوار!

أنت ستكون آخر من يسأل عن بنت المعيدي، صور أخرى ستصعد  
على الجدران كما الزواحف الوحشية البدائية؟

ظل سليم يعب العرق، وتغيم عيناه وراء أفق بعيد معتم، كان صامتاً وأنا أحده بـما رأيت وسمعت في مقاهي ومطاعم الجنوب، واحتفاء صورتها وتواريها تقريباً من مقاهي ومطاعم كثيرة، وظهور صور كثيرة لرجال دين يتقدمهم الطفل الباكي، قال:

- هذا يحدث أيضا في بغداد، سمعت أن رجال الدين الذين كانوا يكرهون صورة بنت المعيدي وكل صورة إلا صورهم، أخذوا الآن يقولون؛ علينا أن ننشر صورتها في كل مكان، هذا سيؤدي لكثره الفسق والفجور ويعجل بظهور المهدي المنتظر، آخرهن خالفوهם، قالوا النظهر كل مكان منها تمهيدا لظهوره، يبدو أن الغلبة لهؤلاء الآن، والأمريكان بدأوا منذ الآن يتواصلون وينسقون مع رجال الدين وأحزابهم وجماعاتهم سنة وشيعة. أنت تعرف أن المتدينين ضد الشيوعية، والأمريكان يرون فيهم جيشهم السري والعليـي لمناهضة الإتحاد السوفيتـي

- لكن كولن قال أنهم الآن يتواصلون وينسقون مع ضباط في الجيش؟  
أحسست بمرارة صاحبته:

- أعتقد أن الأميركيان يخلصون لأحد؟ هم يهبون منذ الآن الحسان وبديله

البغل أو الثور، يخيفون هذا بذلك، وذاك بهذا، حتى تتم لعبتهم! في النهاية سيحطمون الدولة المدنية في بلادنا! ستري يا ثيسجر في المقاهي بدلاً من صور رجال دين؛ صور ضباط بزياتهم العسكرية والنياشين على أكتافهم، العسكر خلال السنوات القليلة الماضية قاموا بانقلابين فاشلين الحقوا بهما أفدح الضرر ببلادنا، لكنهم لا يكترون، ولا يكفون عن محاولاتهم لأخذ السلطة، هم يكرهون الدستور والعقل، فارغون من الثقافة والوعي، مغرورون، كتلك الصعادات يطلقونها في احتفالاتهم، تعطى وهجاً مبهراً ثم تساقط رماداً! يا ثيسجر الصراع على النفط يشتد في بلادنا وسيظل رجال الدين والضباط يتشارشون؛ ديكفة مدربة، مرة هذا يتصر، ومرة ذاك، من سيف على السطح ويطلق صيحة الفجر الدامي دون شك، أحد دمى الأمريكية، يمتاز ببراعة الجمع بين هذا وذاك، لعبة، أو كصفقة تجارية!

سألت مندهشاً:

- والمعارضة المدنية، ألا تحرصن على الديمقراطية؟

ضحك، بينما وجهه منقبض متآلم:

- هي أكثر طيشاً من السلطة، والعسكر، يتصدرها سياسيون مترهلون متلهالكون على المناصب. وفي الشارع يصول ويتجول الشيوعيون بكل غبائهم وهوسيهم بستالين، وتهالكههم على تحقيق نفوذ لدكتاتوريته في العراق، فتصور أي مستقبل للديمقراطية عندنا!

سليم قدرة على التحليل السياسي لا أمتلكها طبعاً، هو من أقنعني باستدراكاته وإيضاحاته لما أواجهه هنا ومن معاناة في وجودي في الأهوار أنا نحن الكارهين للسياسة، العازفين عنها، سنصحو ذات يوم لنجد أننا دون أن ندري، كنا نمارس السياسة بشكلها السلبي أو الصامت، أي أننا مارسنا أسوأ أنواع السياسة. لا مهرب منها لمن يعيش في عالم اليوم. واصل سليم حديثه بينما أنا صامت، أفكر متزدداً هل أحدهه بواقعة غريبة حدثت لي، لا أدرى هل كنت خجلاً أم خائفاً، ليس منه بل من نفسي، وأخيراً قررت أن

أفضي له بما حدث:

- قبل أن تصحني صرت مقتنعاً، أن من الأفضل لي أن أعيش على أن فاطمة هي حلم جميل كبير وبعيد، وأن لا أمني نفسي بما هو أكثر من ذلك. لكن لا أدري يا سليم كيف حدثت لي تلك الواقعة الخطيرة والمرعبة. ربما لأن ثمة مشاعر يأس وإحباط كانت تكتنفي وترهقني كثيراً. كنت قد ركبت توأ القطار المتوجه من الناصرية إلى البصرة. كنت صرفت ياسين وعمارة في إجازة. قررت أن أتسكع في هذه المدينة الساحرة وحدي. لا أدري من أين جاءت الفتاة الجميلة واقتربت من نافذة القطار تحمل على رأسها طوابق الروبة. كانت دون العشرين بوجه جميل ساحر. فتاة ناضجة، أحست على بعد ما يضج في عروقها من شبق وعطش لرجل، سمعت هاتفاً من أعماقي "ها هي فاطمة نفسها جاءتك من أقصى أعمق الوجود يا ثيسجر، كيف يقول سليم إنها مجرد حلم؟ هي واقع، وهو ماثل الآن، الضابط الإنجليزي لم يفر بها إلى إنجلترا، حتى لو وضعها أسريرة في بيت تحيطه الأسلاك الشائكة، هي لأن استطاعت الإفلات من سجنه، عرفت إنك تبحث عنها فجاءتك! امسك بيدها، ستكون لك وإلى لأبد! نسيت مسألة الأعمار والزمن. قلت؛ سأفضح الضابط الذي خطفها، وأعمل على أن ينال القصاص الذي يستحقه. ما خطر لي لم يكن حلماً، كان واقعاً على أرض تدفع لي حرارتها تحت الشمس عبر النافذة. لا أدري هل أومنت لها أن تصعد إلى القطار، أم هي التي صعدت لوحدها وقد تلاقت نظراتنا، رأيت كل سحب اليأس السوداء تتلاشى من سمائي دفعة واحدة. مالت جلست بجانبي، وضعت أطباق الروبه في الممر بين المقاعد. مالت قليلاً إلى، لم تكن تقصد عنacci طبعاً في قطار بدأ يتقططر عليه الركاب، أرادت الاقتراب تريني كيف لبنتها رائب ودسم ومعطر، بالتأكيد أنا الذي ملت إليها أكثر، وقد ضجت كل عروقني نحوها، تأخرت يا فاطمة، وطال بحثي عنك، مالت علي أكثر من المعتاد، اندفعت نحوها أريد أن أضمها

إلى صدري! نسيت إنني في قطار، وبين الناس. لا أدرى هل هي نست العالم مثلثي في تلك اللحظة أم لم تكن مبالغة، فمالت إلى صدري! ندت عنا طبعاً أصوات الإثارة المفرغة، شوق ولهفة، ماذا دهاني؟ أحسبت نفسي في أوربا؟ أم حسبت أن حياة الفطرة والبدائية يمكن أن أعيشها في القطار كما في زاوية من الهور؟ لا يمكن يا سليم شرح ما حدث سوى إنه غيبة عن الوعي، وانفصام عن الواقع. لم يحدث لي من قبل! لم أعد إلى وعيي إلا بعد أن انقضت علينا بفتة عاصفة صراغ، وأيدي قوية انهالت على بالضرب، رجال هبوا على عصبة واحدة؛ وراحوا يتجادلونني، هذا يصفعني، وذلك يركلني؛ جاء شرطيان أنزلاني من القطار واقتادوني إلى مركز الشرطة قريباً من الناصرية. لا أدرى ماذا حدث للبنت، لم أرها، ربما لم تسلم من ضربهم أو محاسبتهم. حرروا لي محضر تحوش بفتاة معیدية، كيف؟ هل كان ذلك كابوساً أم حقيقة؟ بت ليلتي في مركز الشرطة، تأخذني كوابيس أن فاطمة قد ظهرت وأبعدوها عنى، طلبت الاتصال تلفونياً بكونن في سفارتنا أصررت على إفادتي: إنني، لم أتحرش بها، وإنني دعوتها لأشتري منها اللبن . بعد أيام من الأخذ والرد والمكالمات التلفونية مع السفارة البريطانية؛ أطلقوا سراحي، لكن ما حدث افقدني الثقة بنفسي وحطم آمالي ويامكانية عيشي بين الناس هنا! صرت أحس إنني أمر بلحظات ذهان وتهيؤات مرضية، وصرت أخشى أن يتكرر ما حدث، وإذا كنت في هذه المرة قد نجوت ولم تسجل الواقعة كاغتصاب أو شروع فيه، أو أن ينبرى لي رجل يقتلني على الفور. فإن أي حادث بسيط لي مع نفسي أو طيف فاطمة، لن أخرج منه سالماً! أنا لست خائفاً من أهل الهور، يا صديقي سليم، بل أنا خائف من نفسي، بدأت لا أسيطر عليها!

ظل سليم صامتاً، يتطلع في وجهي بين فينة وأخرى. فجأة اعتراه غضب

وحدة:

- اسمع يا ثيسيجر، أنت كما تقول درست سكان الأهوار وسميتهم عرب الأهوار، هنا كثيرون لا يقرؤونك على ذلك! هم يصرون على تسميتهم بالمعدان، لا أعرف أصل هذا الاسم، لكن أرى بوضوح أن سمعتهم سيئة، رجالهم كسالي عديمو الإحساس أو الغيرة، يتکثرون على جدران القصب يدخلنون، يتظارون زوجاتهم أو بناتهن أن يأتين لهم من المدينة بالنقود ولا يسألونهن عن شيء. بينما هن لا يعن اللبن بقدر ما يعن أجسادهن! كثيرون هنا يخشونهم، فهم يتصفون باللوقاحة والاستهتار، ثمة أناس يقولون لا ندرى ماذا سيفعلون بنا غدا، لو تکاثروا في بغداد، وصارت لهم سطوة، فحتى لو غدا أحدهم شرطيا فإنه سيعيث في الناس فساد وقسوة، أنا شخصيا لا أقر هؤلاء على نظرتهم المتعالية المطلقة، أراها جائرة متتجنية، لكنه واقع حال لا يمكن تجاهله، ليس كل المعدان كذلك، فيهم طيبون وفيهم متخلفون أجلاف، ومع ذلك؛ لا تورط نفسك بهكذا اندفاعات وتحرشات معهم؟ أخشي أن يقتلوك، بل يمزقونك إربا! عجبت لما سمعته منه عن عرب الأهوار، بالطبع هذا لا يعني أنه مؤمن بما ينقله من كلام الناس، لكنه كان هو نفسه كان قد حثني على إشباع حاجتي الجنسية مع نساء مستعدات لذلك من أهل الهور، أو في مكان آخر، أنا لم أتحرش بأمرأة بحثا عن الجنس؛ ما حدث مع هذه الفتاة كان شيئا غامضا وخارجها عن إرادتنا، لماذا يلومني على ما حدث؟ لم أشا أن اذكره بما تحدث به سابقا معي، يبدو إنه ينسى، أو يقع في تناقضات كأي إنسان، صار أحذنا يتطلع في وجه الآخر، خيم علينا صمت خلته سيطول، صرت قلقا حقا، بدا وجهه منطويما على حزن قديم، لا أدرى هل إن ما حدثه به، أم الكحول قد جعل وجهه يتفتح بحديث آخر، كان صوته حزينا هادئا:

- أنس ما حدث! لا تقلق، فتفقد ثقتك بنفسك، هذه تهبيات طبيعية، كنت أتوقع أن يحدث لك مثل هذا في الهور، ولكن وجود ياسين وعمارة معك كان يجعلك تفك وفق ما هو معتمد بين الناس، ولا تنقاد لمخيالك!

حين نعجز عن جعل أي شيء حلمًا كبيرا بعيد المنال، نبدأ نقع في اليأس،  
لتتعلم تدريجياً أن نكتفي بالحلم، وهذا لا يتأتى بسهولة، كثير ما تحدث  
نكسات! لا تقل يا ثيسجر أنت خائف من نفسك! أنت يا ثيسجر لم تفشل،  
ما زلت تعيش حلمًا جميلاً، وطيباً!  
- أشكرك، أنت تعيد لي شعوري بالأمان كلما تبده!  
أنا الذي أشكرك، عرفتني على بنت المعيدي وأنا العراقي! حلمك بها  
أنعشني أيضاً! لا شك أن بحثنا صار أكثر صعوبة، ولكن ينبغي أن نحذر  
التصديق أنها مجرد إعلان تجاري!  
شعرت بالراحة لكلامه، قلت:  
- أزمعت ما أن انتهي من علاج مرضي وعدتهم بدواء جلبته معي من لندن  
حتى أخرج من الأهوار وال العراق كله، أريد أن أبدأ رحلة في صحاري  
أفريقياً!

قال ضاحكاً:  
- ستختبر لنفسك هناك بنت معيدي أفريقية، هذه المرة ستكون ساخنة،  
أحذر فقد تهشم عظامك في أول عناق!  
سكت برهة، سكب بالقذح ما تبقى في القنية، وطلب قنية أخرى،  
أشعل سيجارته، تأملني طويلاً كأنه يرايني لأول مرة، بقي متقدماً، قال كأنه  
يفجر قنبلته الأخيرة:

- أتعرف يا ثيسجر، إنني أراك طفلاً، بجسد ضخم، طفلاً فقد دميته وما  
زال يبحث عنها مهما مرت عليه السنين، بنت المعيدي هي دميتك، لا  
تجزع، ابق على روح الطفل فيك! روح الحالم الجوال، قد لا تجد بنت  
المعيدي ولا شقيقتها الإفريقية، لكنك ستجد طفولتك، وتعيش أحلامك  
يا صديقي كم تستحق طفولتنا وأحلامنا أن نبحث عنها حتى لو أنفقنا  
عليها العمر كله ولم نجدها، هذا هو الرد الأعظم على الموت!  
تكون لدى هاجس إنه سيموت قريباً، هو لا يكف عن الشراب والتدخين،

والحزن العميق. يذوى، ولا يفقد صحوه، على العكس أجده مع الشراب؛  
يتائق، ممسكا بروحه، واصل حديثه:

- بنت المعيدي هي حلمنا بالجمال والحب، كثيرون يريدوننا أن نفقد هما دون أن نحس، ولكن لأن نتخلى عنها، يا ثيسجر حتى إذا غادرت بلادنا ونسيتها، ونسيتها، تمسك بهذا الحلم الجميل!
- رفع كأسه كأنه يرفع نجبا، شعرت به قريبا جدا مني؛ صديقا وأخا، قال:  
حتى إذا كانت إعلانا تجاريا فنحن سنظل نقول إنها حقيقة!
- يا صديقي سليم، أنا لاأشغل نفسي بما تفكّر به، أنا فقط أحبّتها دون تفكير، ربما أنا مجنون!
- حتى لو كنت مجنونا، يمكنك أن تدرك ما يكتنف مستقبلك من مخاطر، ربما ستكون آخر من يسأل عن بنت المعيدي! من يسأل عن شهرزاد في ألف ليلة وليلة؟ من يسأل عن ليلي المريضة في العراق؟ عن عشتار ربة الأنوثة في وادي الرافدين؟ كل هذه أصبحت من المضحكات، إلا في القلوب الحزينة كقلوبنا! قلبي يقول أن هذه الصورة وذكرى صاحبها ستختفي، ستتصعد على الجدران كما الزواحف الوحشية البدائية صور أخرى؟ كثيرون الآن يعدون صورهم وشعاراتهم وأنيابهم، الضباط منذ الآن أعدوا صورهم بأقصى بريق النرجسية، القوميون من العرب والكرد والتركمان والاشوريين هياوا صورهم، الشيوعيون لديهم صورهم وشعاراتهم، الإسلاميون شيعة وسنة رأيت صورهم وسترى أكثر، صور، صور وشعارات تملأ الجدران، لغة الصور يا ثيسجر أفزع اللغات وأكثرها تدميرا، لدينا اليوم صور رهيبة مرعبة تصرخ من الجدران، هيا أيها الناس اقفزوا من المركب، ليبتلعكم البحر، السفينة والرحلة لنا وحدنا! لا أحد منهم يريد غيره أن يشاركه السكنى في هذا الوطن، الآن صور، صور، صور، وغدا عواصف وزلازل وأنهار من الدماء، استكثروا عليك وعلىنا صورة فتاة جميلة وحيدة واحدة فقط لا غير! كل شيء جعلوه يختفي

وراء صورهم! أتعرف يا ثيسجر، كم أنا حزين؟ في اليوم الذي تختفي فيه صورة هذه البنت من مقاهينا وبيوتنا سيختفي معها الجمال والسلام. صار يبكي، هل أفرط بالشراب، أم أخذه حزن حقيقي؟ اعتذر له "آسف سببتك لك ازعاجا" هز رأسه، ربت على يدي، وعاد بسرعة لابتسامته!

## كنت في الصحراء أركض على الرمال وراء السراب، الآن أركض فوق الماء وراء السراب!

توقف ماكس عن القراءة، شعر بألم لمعاناة ثيسجر، ولما وصل إليه من تداع نفسي، وسلوك لا يليق به. هو رحالة جاد، وإنسان طيب ومسالم، لماذا يعرض نفسه لهكذا مواقف؟ بدأ يقلق عليه. صار يحب سليم البكري لطبيته، وحنوه على ثيسجر. تمنى لو كان قد تعرف عليه، كان سيذهب إليه ويجد لديه عزاء وتفهما، وربما شاركه البحث عن أجاثا، هكذا رجل طيب مؤنس يشعر صديقه معه بالأمان والطمأنينة، تعاطف معه في حبه لوطنه، وأحزانه من أجله، تاركا آراءه السياسية له وللحياة. عاد يقرأ منجدبا لأسلوب ثيسجر في الحديث عن معاناته في بحثه عن هذه البنت الجميلة الغامضة، متأملا شغف العراقيين بها، فهي لها سطوطها الواضحة عليهم سواء أحبوها، أو شكوا بوجودها! بدأ يفهم انبهار ثيسجر بوجهها، لكنه لا يقر اندفاعاته المجنونة نحوها، فقد تودي بحياته، لم يعد يستقل استطراداته وتشعباته الكثيرة، بها دخل غيبة عن مأساته باختفاء أجاثا، وجد الرسالة أشبه بجرعة مخدر له، بدا له إنه كان صادقا ودقيقا في سرد كل ما يعنى على باله، كأنه بهذه التفاصيل يحقق لقاء بهذه الفتاة الجميلة، ويقضى أطول فترة ممكنة معها قبل أن يصحو على خيبة مرة! لاح له ظل من الحقيقة، بل جانب محير منها، أجاثا ليست مع ثيسجر، ولا علاقة لثيسجر باختفائها! بذلك ازداد تشوشها وارتباكا، فمصير أجاثا أوغل أكثر في المجهول والغامض! لم يذهب إلى الشرفة ليترد منها بالنهار. نزل إلى الاستعلامات يريد أن يتناول التلفون، لماذا شبكة تلفونات

الفندق قد تعطلت هذه الأيام؟ ألها علاقه باختفاء أجياث؟ هل هناك مؤامرة كبيرة محلية أو دولية ت يريد أن تطبق علينا؟ تناول السماعة وطلب ريتشارد، قال له إنه الآن في بيته الملحق مع التلفون بالسفارة، رحب به لكنه صدمه بسؤاله:

- ها يا ماكس، هل عادت أجياث؟
- لا، أنا أنتظر جهودكم، ماذا فعلتم؟
- اطمئن، أبلغتنا الحكومة العراقية على أعلى مستوى أنهم يتبعون القضية بكل اهتمام، وقد استقدموا موظفين جدد للبحث والتحري. الدولة هنا كلها في استنفار، ثمة بوادر طيبة مطمئنة، لا مجال الآن للحديث بها!
- لكنك لم تصل بي، في الأقل لطمئنني، أنا قلق جدا يا ريتشارد، رأسي يكاد ينفجر، أنت تعرف أنا أعاني من ارتفاع في ضغط الدم وسكر ووساوس!
- معذرة يا ماكس، أنت في بالي دائما لكنني شغلت هذا اليوم كله بمتابعة قضية ولفريد ثيسجر!
- ماذا به؟
- هو للمرة الثانية يتحرش بفتاة من المعدان، فيها جمه أشخاص، يضربونه ثم يعتقل، أطلقنا سراحه في المرة الأولى بسهولة في الناصرية، هذه المرة اعتقل في البصرة، كاد يقتله شبان غاضبون، وأنقذ في اللحظة الأخيرة!
- هذا مؤسف، لكن أرجو أن لا تشغلكم قضية عن قضية أخرى، قضية حياة أجياث خطيرة جدا!
- نعم، بالتأكيد يا ماكس أمهلنا قليلا، وستكون النتيجة مفرحة حتما! عاد ماكس لحجرته، كم ظلمت ثيسجر، حسنته يتخذ من حبه للمعديدة قناعا، هو متذر بها حقا، حتى لو كان حبا مضحكا سخيفا لكنه يملأ جوانحه، ها هو يتعرض للموت من أجلها مرتين، المسكين فقد عقله! ظلمت أجياث أيضا، ماذا صنعت بي هذه المحنة؟ كيف لا يطير هذا القلق بعقله؟ صعد إلى حجرته، سأنتظر يوما يومين، أسبوعا، لا يهم فقط أن تكون هناك نتيجة

طيبة. تناول ما تبقى من أوراق ثيسجر: عدت إلى الأهوار محاولاً أن أنسى ما حدث لي في القطار وأعده كابوساً عابراً، لكن لا تلبث الحقيقة أن تواجهني في ظلام الليل، فأشعر إبني لم أسترح داخل حلمي الكبير بل ما زلت أبحث عنها حقيقة، وإنني بذلك أقوم بلعبة غريبة، كنت في الصحراء أركض على الرمال وراء السراب، الآن أركض فوق الماء وراء السراب، أو وراء بقعة أرض ثابتة يقف عليها حلمي بها. أشعر إنها بعد كل هذا العناء من الدوران والانتظار، صارت أبعد من ذي قبل، لم أكن أعرف في البدء أن بيني وبينها كل هذه المسافات الطويلة العميماء، صار لقاوتها مستحيلاً؛ إلا إذا وقعت معجزة، وأين أنا من المعجزات؟ أحياناً أجلس وحدي وأشعر بقلبي يبكي، أنا الذي لم أكن أعرف البكاء، أو حتى الحزن العميق، كنت دائماً أتحلى بالشجاعة والإقدام، الآن صرت متربداً خائفاً، أهكذا يفعل العشق بالإنسان؟

خالد يجاذف ويشير إلى خاطف أجايا: عرفته؛ أجايا انقادت له  
إرادتها وما على سوي أن أعرف مكانه!

من تلك الصفحات الهماسة بالذكريات والأمانة معاً، استوقفته حكايتها مع القيثارة، ما سر ولع أجايا بها؟ هي تعبدتها، مستسلمة لها، أيمكن لأنغام وهمية من قيثارة محطمة أن تجذب قلب إنسان بهذا الشكل العجيب؟ كأنها تخطفه ومن؟ قلب هذه الكاتبة المتمرسة بمقاومة جاذبية البشر والأشياء؟ كانت طيور السنونو تحلق فوق رأسه تحت سقف المقهى العالي حيث بنت أعشاشها في جذوعه الخشبية الناثنة. النوارس أمامه، في الفضاء المنير تلاعب الأسماك مع الأمواج في النهر بخبث، كأنها لا تريد افتراسها بل ترقص معها وحسب! بدأ هو أيضاً يسمع صوت القيثارة السومرية الذهبية! تكمل لحن الوجود حوله، أو تصنعه من جديد! ثمة موسيقى شجية تنقض حوله وكأنها تقوده إلى أجايا، أين تكون؟ أحقاً بدأ كما الكشف النوراني يعرف أين هي الآن؟ إذا لم يعرف هذه الساعة بالضبط، فإنه سيعرف بعد وقت قصير

جداً! عليه أن يقرأ أوراقها عدة مرات، هواجسها وتهويماتها ونزعاتها العميقة الغامضة. كان حسن المسن عامل المقهى يغدق عليه بالكثير من استكانات الشاي الذي يجيد تخديره ممزوجاً بزهور عطرة. عندما كان خالد طالباً، يناديه "وليدي" و "عزيزي"، الآن صار يناديه "أستاذ" "أستاذنا" ضحك خالد، هل صار أستاذًا يستطيع فك لغاز الجرائم والقضايا المعقدة الواقعة في مدينة كبيرة، ما تزال أرضها تنز دماً من صراعات توالت عليها مدى عصور طويلة، خلفاء وملوك وخدم وأتباع، أشراف وأوباش؟ كانوا كل يوم في طعن وقطع رؤوس يتداولونها بينهم كهدايا وكتقوس واجبة الأداء، سيف تطيع بأجمل ما يسهر الإنسان على تكوينه من نفسه وأبنائه وصحبه فتهوي إلى التراب والنسيان. هل ستتطوى قضية أجياثا كريستي معها أيضاً؟ من حق ماكس وأجياثا أن يشعرا بالخوف من الحياة في جوف هذه المدينة التي يختلط فيها الإنسان بالوحش، الجوع بالثراء، الطمأنينة بالرعب، وعلى أن أقف إلى جانبهما، بحكم واجبي أولأً، وكصديق قديم لهم أيضاً! عاد يقرأ ما كتبته أجياثا: أقدم آلة موسيقية في العالم، تلاحقني. عمرها أكثر من خمسة آلاف سنة، ولا تزال فتية يافعة، بجناحين سحررين تحوم حولي، حماممة رشيقه أبدية تصدح بنغماتها العذبة في أذني، تغنى نشيد الوجود كله من الميلاد المفرح، المحزن، إلى الموت الحزين، المفرح. ما تزال أنا مل العازفات الجميلات على أوتارها دافئة رغم الزمن الطويل وترابه البارد الثقيل. هي إنسانة مبدعة تنكرت بإهاب حمامه ودبعة، تحط على كتفي، تدخل صدري، وروحي! قبل ما يقرب من عشرين عاماً اكتشفها صديقنا الآثارى ليونارد وولي مع قيثارتين أقل حجماً منها، في المقبرة الملكية السومرية المقدسة في أور. على عمق أكثر من عشرة أمتار تحت الأرض. بعد جهد طويل مضن، أفلح أخيراً في الوصول إلى القبر الخاص بالملكة السومرية بو أبي، والقبر الخاص بزوجها الملك أبار كي، والذي هو بمنزلة إله. عرفت الملكة الملقبة بشبعاد بذوقها الرفيع في اختيار تاجها، وإكليلها، وأبهة عرشها، وحليتها وزينتها. وموسيقاها ومعنىها،

اليوم المرأة التي ترى إكليلها الذهبي المكون من أوراق وزنابق الذهب واللazورد، لا يسعها سوى أن تتلمس شعرها، متنمية أن تضع عليه مثل هذا الإكليل! كيف اجتمعت هذه القيثارات الثلاث والكؤوس وخوابي الخمور مع الهدايا الجنائزية في هذا المدفن الملكي الكبير؟ وكيف اجتمع في القبرين الكبيرين 74 هيكلأً عظيمًا أيضًا؟ إنهم حاشية الملكة وزوجها الملك، هم المقربون إليهما من الوزراء والأعوان والمستشارين والأصدقاء الذين اختاروا أن يموتو معهما. جاءوا بكمال ملابسهم الرسمية وزينتهم، تتقدّمهم الفتيات العذرّاوات يعزّنن على القيثارات إلى ردهة المدفن، وسط انحناءات الجنود، ودموع الفرح الشعبي، وصلوات الكهنة. ولكن لابد من حفلةأخيرة، داخل المدفن المقدس. يجلس مرافقو الملكين في رحلتهما الأخيرة حول جثامينها المعطرين المثقلين بالثياب الملكية. هم سيكونون لهما أنيسین مهذبین مرحين في طريق الأبدية الطويل. وسيخدمونهما في جنات العالم الآخر بكل تفان، مثلما خدموهما في الدنيا، وسيكونون معاونيهما الأشداء هناك، مثلما كانوا معاونيهما الأشداء هنا، الآن سيحولون سرداد الأموات إلى حانة رقص وغناء وفرح سماوي، هذا هو نشيج الوداع الرسمي الأخير! توقد الشموع والمبادر، وتستلم الهدايا للعالم بعيد، وتبدأ العذاري المنذورات في عزف الألحان الجنائزية والعاطفية التي كانت تحبها الملكة والملك في لحظات صفوهما وتأملهما، يغلق عليهم باب المدفن الكبير عبر تلویحات المودعين، ويأخذون جميعهم بشرب النبيذ الممزوج بالسم الخفيف اللذيد لينقلهم ببطء وهدوء إلى عالم الموت الاختياري الجميل. فيغادرون جميعاً جثامينهم، ويلتقون في العالم الآخر أرواحاً وأطيافاً فقط، هناك الخلود، والفرح الأبدى، هناك الكأس معتقد طافحة دائمًا، لا تنفد ولا تنكسر، هناك الجسد يتفجر بأشواقه وشهواته وعنفوانه دون نهاية. سيلتقون ملوكاً وأمراء، شعراء ومعنىـات وقيـارات صادـحة، ثـمة بـعـجـيـر عـلـى الضـفـافـ، وـالـأشـجـار تـشـرـ عـطـرـهاـ منـ السـفـوحـ، وـالـمـطـرـ يـهـمـيـ فـيـغـسـلـ الأـرـوـاحـ مـاـ أـنـقـلـ عـلـيـهاـ الأـسـىـ. وجـدـ المـتـقـبـونـ

هيأكل ثلاثة عازفات حتى اليوم كانت عظام أيديهن ملتصقة بأوتار القيثارات الثلاث، فهن يبغين يعزفون حتى اللحظة الأخيرة التي دب فيها السم ب أجسامهن الجميلة فأوقف قلوبهن، كم كان الموت العراقي القديم عجيبة حقا! أجوانهم مشيرة حزينة ومحيرة. القيثارة الذهبية الكبيرة تكاد تصل إلى هامتي، أنا الطويلة كما يقولون عنـي، مكونة من صندوق صوتي مصنوع من خشب الأرض ولها ساقان خشبيان ممتداـن إلى الأعلى مغلـفان بـشرائط ذهـبية ومطعمـان بـقطعـ مثلـثـة من أـصدـافـ وأـحـجـارـ مـخـلـفـةـ مـلـوـنـةـ، بـنـهـاـيـةـ قـمـيـهـماـ يـسـتـقـبـلـانـ حـاـمـلـ أـوـتـارـ وهو أنـبـوبـ خـشـبـيـ مـدـورـ نـصـفـهـ الأـمـامـيـ مـكـسـوـ بـالـفـضـةـ، تـحـتـويـ عـلـىـ أـحـدـ عـشـرـ وـتـرـاـ مـثـبـتـةـ إـلـىـ الأـعـلـىـ بـمـسـامـيرـ ذاتـ رـؤـوسـ ذـهـبـيـةـ، مـطـعـمـةـ بـالـذـهـبـ وـالـصـدـفـ، يـزـينـ مـقـدـمـتهاـ رـأـسـ عـجـلـ مـنـ الـذـهـبـ مـلـتـحـ. لـمـاـ الثـورـ بـالـذـاتـ؟ـ بـعـضـهـمـ قـالـ هو رـمـزـ لـلـثـورـ السـمـاـويـ المـقـدـسـ الـحـاـمـلـ أـلـحـانـ السـمـاءـ لـشـعـبـ ماـ بـيـنـ النـهـرـيـنـ. كـانـواـ يـزـينـوـنـ بـهـ، وـبـقـرـنـيهـ الحـادـيـنـ تـيـجـانـ الـمـلـوـكـ، آـخـرـ قـالـ: هـمـ يـرـيدـونـ بـهـ تـهـدـيـةـ الـثـيـرـانـ الـتـيـ تـقادـ قـرـابـيـنـ لـلـذـبـحـ حـيـثـ يـوـزـعـ لـحـمـهـاـ عـلـىـ الـفـقـراءـ. زـيـنـتـ وـاجـهـةـ الـقـيـثـارـةـ بـنـسـرـ لـهـ رـأـسـ أـسـدـ يـقـبـضـ بـمـخـالـبـهـ عـلـىـ عـنـزـتـيـنـ. شـجـرـةـ يـشـبـعـ عـنـ يـمـينـهـ وـيـسـارـهـ ثـورـانـ، يـقـهـرـانـ نـمـرـيـنـ، ثـمـةـ صـرـاعـ بـيـنـ أـسـدـ وـثـورـ، مـشـاهـدـ تـكـشـفـ سـرـ الـمـوـتـ الـقـاـهـرـ، وـتـنـشـدـ الـخـلـوـدـ، وـالـبـعـثـ بـعـدـ الـمـوـتـ، وـتـجـسـيدـاـ لـأـسـرـارـ تـمـوزـ وـأـنـانـ، وـهـمـ يـحـكـمـانـ مـنـ السـمـاءـ، وـبـيـزـاجـيـهـمـاـ الـمـتـقـلـيـنـ، أـهـلـ الـأـرـضـ الـمـساـكـيـنـ. ثـلـاثـ قـيـثـارـاتـ فـيـهـمـ تـفـاصـيلـ النـغـمـ الشـرـقـيـ، تـفـرقـنـ كـمـاـ تـفـرـقـ الشـقـيقـاتـ وـالـصـدـيقـاتـ الـحـبـيـبـاتـ أـثـرـ نـكـبةـ، فـيـ أـنـحـاءـ الـعـالـمـ. الـكـبـيـرـةـ مـعـروـضـةـ بـشـمـوخـ وـفـخـارـ، فـيـ مـتـحـفـ بـلـادـهـاـ فـيـ بـغـدـادـ، الـأـخـرـيـ فـيـ لـنـدـنـ، مـاـ أـحـلـ فـيـ لـنـدـنـ، حـتـىـ أـذـهـبـ لـأـقـضـيـ سـاعـاتـ مـعـهـاـ، الـثـالـثـةـ هـيـ الـآنـ فـيـ مـتـحـفـ جـامـعـةـ بـنـسـلـفـانـيـاـ فـيـ أـمـرـيـكاـ لـقاءـ الدـوـلـارـاتـ الـقـلـيـلـةـ الـتـيـ أـنـفـقـتـهـاـ عـلـىـ بـعـثـةـ التـنـقـيـبـ. لـوـ أـمـتـدـ بـيـ الـعـمـرـ لـطـرـتـ خـصـيـصـاـ إـلـيـهـاـ. لـأـبـلـغـهـاـ تـحـيـاتـ شـقـيقـيـهـاـ وـأـكـمـلـ مـعـهـاـ الرـوـاـيـةـ الـتـيـ فـيـ ذـهـنـيـ. سـتـكـونـ هـذـهـ الـقـيـثـارـاتـ بـطـلـاتـ فـيـهـاـ، لـأـبـولـيسـ، وـلـأـمـاحـاـمـيـنـ وـلـأـضـبـاطـ، وـلـأـحـذـيـةـ ثـقـيـلـةـ. سـأـجـعـلـ أـحـدـاـنـهـاـ

تدور في ذلك الزمن البعيد ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد! أخرج فيها من قطار الشرق السريع، وشوارع لندن وباريس المغرقة بالضجيج. وهذه الزمن الذي أنهكته الحروب الساحقة، لا أريد أن أستحضر أرواحهم إلى حاضرنا، أريد أن أكون أنا من استيقظت في الحاضر، (كان مستقبلهم البعيد) وذهبت لتعيش بينهم، امرأة غير مرئية، ترى ولا يراها أحد، سأكون في الرواية أنا الضحية الهامة، روح آتية من زماننا أو المستقبل إلى ذلك الماضي المدهش، يشعر الملك والرعية معاً، أن ثمة جريمة ارتكبت وأذى وقع على روح لا يعرفون من هي وأين تكون، بالطبع أنا القتيلة والجريحة المعذبة التي لم يسعفها العالم القائم فذهبت تستجير بهم، يريدون أن يمسكوا بي وأنا ما أزال خائفة متربدة. لا، لا، القضية هي أن أذى يقع علي لأنني أرفض الاستجابة للصوص الذين يريدون انتزاع القيثارة من قلب بلادها، رغم الإغراءات الكثيرة والضغوط الفظيعة، لأول مره هناك بحث عن الضحية لا عن الجلاد، عن المجنى عليه، لا عن العاجاني، هم بالطبع يريدون أن يرثوا ضمائرهم. يجند كل شخص في أور نفسه من الملك والكهنة وحتى الناس العاديين، للبحث عنني، وروحني تتنقل أمامهم وخلفهم كأنني أمازحهم أو أعزبهم، تحل في القيثارة، تقفز إلى قنديل الكاهن، إلى أكليل شبعد إلى صولجان الملك. في النهاية أظهر لهم، ويحدث ما يحدث، ستختلط الرواية الكثير من المشاهد الحادة المثيرة، رواية بوليسية يمتزج فيها خيال جامح مع واقع صلب لكونه قد انتهى وطواه النسيان. لكن الحبكة ستجري على نحو معاصر مثير ومفيد، هل أستطيع ذلك؟ أنها تستلبني، وتعيقني عن أية كتابة، حتى إذا لم تكن هذه رواية ناجحة؛ فإنني يجب أن أزيحها عن ذهني؛ لأنني أستطيع العودة إلى كتابتي العادية المألوفة! لا بد من أداء ديني وواجبي للقيثارة! من هنا، صار خالد يرى أجاثا تلوح له وتدعوه لأن يوافيها في مكمنها الغريب، يراها تسير نحوه كما كانت تسير حذرة بين سوادي النواعير والبساتين وعيون الغاز المشتعلة. اجتاحه فرح غامر، لقد اقترب كثيراً من المكان الذي فيه أجاثا كريستي، ولكن

هل هي حية أم ميتة؟ ما هذا السؤال الكثيف؟ كيف أسأله ذلك، وهاهي ترفع  
يدها عالياً تلوح لي؟ صرت أرى ملامع وجهها الأشقر وقد لوحته الشمس  
الصاعدة مغدقة عليه سمرة الشرق! لا أستطيع تصور هذه المرأة الجميلة  
القوام والعقل ميتا!

سأعود إلى لندن لأقضي شيخوختي ومعي تلك الذكريات الغاليات.  
سوف لن يكون موقد النار خاويًا، سألقي فيه من بردي الأهوار  
وقصبه فيتوهج البيت بنور ذاك الغروب الجميل، يا لحياتنا أقصر  
من شعلة بردي!

ربما في اللحظة نفسها، التي فكر خالد فيها أنه قد اقترب من أجاثا،  
كان ماكس يفكر، هل أن خالد يفكر مثلـي أنه قد يعثر على شيء يهدـيه إلى  
أجاثـا من كـلمـة أو حتى حـرف كـتب بـطـرـيقـة ما، بالـتأـكـيدـ، فهو خـرـيجـ كلـيـةـ  
الـحـقـوقـ، درـسـ التـحـقـيقـ الجـنـائـيـ، بـطـرـيقـةـ أـكـادـيمـيـةـ حـرـفـيـةـ وـهـوـ يـقـرـأـ أـورـاقـهاـ  
الـآنـ بـيـرـودـ وـهـدـوـءـ لـيـسـ عـلـىـ طـرـيقـتـيـ وـقـدـ قـرـأـتـهـاـ مـنـفـعـلاـ، وـالـآنـ عـلـيـ آـنـ لـاـ  
أـقـرـأـ أـورـاقـ ثـيـسـجـرـ مـنـفـعـلاـ أـوـ مـتـحـاـمـلاـ عـلـيـهـ مـفـتـرـضـاـ إـنـهـ وـرـاءـ اـخـتـفـاءـ أـجـاثـاـ،ـ  
قـدـ يـكـونـ هـوـ فـقـطـ الشـاهـدـ أـوـ المـراـقبـ.ـ مـضـىـ يـقـرـأـ سـطـورـهـ الـأخـيـرـةـ:ـ قـلـتـ  
زـيـارـاتـيـ لـلـمـدـنـ،ـ صـرـتـ أـخـافـ عـلـىـ نـفـسـيـ مـنـ اـعـتـدـاءـ غـوـغـائـيـ.ـ فـقـدـ كـثـرـتـ  
فـيـ هـذـهـ الـأـيـامـ الـمـظـاهـرـاتـ وـالـإـضـرـابـاتـ وـالـاضـطـرـابـاتـ،ـ فـيـ كـلـ مـكـانـ تـقـرـيـباـ  
كـنـتـ أـسـمـعـهـمـ يـهـتـفـونـ "ـيـسـقـطـ الـاسـتـعـمـارـ"ـ "ـتـسـقـطـ الـحـكـومـةـ الـعـمـيلـةـ"ـ "ـاـغـلـقـواـ  
سـفـارـتـهـمـ،ـ أـطـرـدـوـهـمـ"ـ وـهـمـ يـقـصـدـونـنـاـ نـحـنـ الإـنـجـليـزـ،ـ قـالـ لـيـ عـمـارـةـ،ـ إـنـهـمـ  
فـيـ الـأـهـوـارـ عـادـوـاـ يـقـولـونـ إـنـيـ جـاسـوسـ،ـ وـالـحـلـاقـونـ الـذـيـنـ أـوـقـفـتـ تـقـرـيـباـ  
عـلـمـهـمـ فـيـ خـتـانـ الـأـطـفـالـ؛ـ صـارـوـاـ يـحـرـضـونـ عـلـيـ طـرـدـيـ مـنـ الـأـهـوـارـ،ـ وـرـجـالـ  
الـدـينـ تـكـاثـرـوـاـ وـسـيـطـرـوـاـ عـلـىـ النـاسـ الـمـساـكـينـ،ـ وـقـدـ التـقـىـ مـعـهـمـ الشـيـوعـيـونـ،ـ  
مـوـاصـلـيـنـ اـدـعـاءـهـمـ أـنـيـ جـيـشـ لـأـتـجـسـسـ عـلـىـ نـشـاطـهـمـ الثـورـيـ،ـ وـيـحـثـونـ عـلـىـ  
طـرـدـيـ أـوـ قـتـلـيـ!ـ هـذـهـ الرـحـلـةـ سـتـكـونـ رـحـلـتـيـ الـأـخـيـرـةـ،ـ وـهـيـ لـلـوـدـاعـ.ـ قـالـ لـيـ

عماره أنهم قد هددوه وأمروه أن يتركني وإلا فسيقتلونه لعمله مع رجل كافر جاسوس فاستق. قلت له وياسين أنا لا أقبل أن تدفعنا ثمنا باهظا من أجلي، رجوتهم أن يبحثوا عن عمل آخر، وكنت أعرف إنهم لن يجدوا، فهنا البطالة شاملة مطبقة. لا أستطيع البقاء طويلا في الأهوار، كثيرون صاروا يرصدونني، سأودعهم قريبا (لا أستطيع ترك بضعة أطفال وعجائز مرضى بدأت معهم علاجا وأحضرت لهم أدوية ينبغي أن أعطيها لهم بيدي، سأرعاهم حتى لو قتلت خلال هذه الأسابيع القليلة) بدأت مراسلات لكي أنتقل إلى أفريقيا! كثيرون ممن سيسمعون بحكايتي سيقولون أني ذلك الإنجليزي الأبله الذي ركض سنوات طويلة فوق الماء وراء امرأة حسناء، ليكتشف في النهاية أنها مجرد صورة على صناديق الشاي الهندي، ربما خطتها ريشة رسام مخبوء سكير أو ماجورا لا يهمني ما سيقولون، فأنا أعرف رغم إبني جديد على العشق، كم على العاشق من ضرائب يجب أن يدفعها حتى عن غيره من العاشقين، فهو يدفع ثمن تجربته من روحه ودمه، ليقدم الخبرة والعبرة لغيره من العاشقين، ثم مادا في صورة على صناديق الشاي أتذكر كلمة جميلة قالها صديقي سليم البكري، "وهل أحلامنا أكثر من إعلانات لصناديق مغلقة تهادي على أمواج بحر بعيدا" لم أجد فاطمة، وربما لن أجدها. لكنني لن أخرج من رحلتي الطويلة فاشلا، لقد أحببت عرب الأهوار رغم متابعي معهم! كانت بينما عشرة طولية وذكريات عميقه. فهم أهل فتاة أحببها على أي حال، لأنهم إنني أنفقت سنوات من عمري بينهم، أحببهم شعبا حزينا متواريا عن الأنظار! سواء كان أصلهم سومريا، عربيا، نيبالية، هندية غجرية، لا يعني الأمر عندي شيئا فهم بشر مثلنا، تبعثروا فوق الماء كما أضواء النجوم الصغيرة إذ تذوب فيه معهم ليلا، وبين الأسماك اللامعة فيه عند الفجر. أحس حزنهم يذوب في الماء مع غبار سكر القصب، وحليب الجواميس تدر فيه عند الغطس بعد فرط اكتناز، ليتسموا..، أداروا ظهورهم للباسة وما عليها من ناس يتقاتلون على الثروة والسلطة وألاعيب المتدينين. لم يتنسبوا لقبيلة، ولم يكتنوا أن

شيوخ القبائل لم يسطروا عليهم أنسابهم، استعراضوا بشجرة الخلود المروية من مائتهم عن أشجار الذهب والألقاب والألحاب. ربما صورة بنت المعيدي مجرد إعلان شاي، ولا وجود لصاحبها أبداً. ربما هي وهم أو حلم كأي خفقة لذيدة منعشة تستلب قلوبنا لحظة ثم توارى. لكن ما عشتة بين عرب الأهوار جعل لها وجود في قلبي، كأنها ولدت في أحشائي، عشت بين أهلها البسطاء، اقسمت معهم الخبز والحكايات، ورجفة القمر تحت خطبة مجذاف أو ضربة رمح لشك سمكة! أعطيت لياسين وعمارة ما استطعت من مال قليل، قالا أنهما لن يتراكاني وحدني، سيظلان معي ولن يفارقانني إلا في محطة قطار الناصرية أو البصرة موعدين حين أترك المنطقة نهائياً، وسيظلان يرقبانني حتى لو سيقتنلا! بعد أن أنتهي من رحلتي إلى غابات وأدغال أفريقيا سأعود إلى لندن لأقضى شيخوختي ومعي تلك الذكريات الغاليات. سوف لن يكون موقد النار خاويًا، سألقى فيه من بردي الأهوار وقصبه فيتوهج البيت بنور ذاك الغروب الجميل، فتدفعًا عروقي ويعجري بها دم شبابي الأول، يا لحياتنا! أقصر من شعلة بردي! ستكون في حجرة نومي وصالحة بيتي وصدر مدخل البيت صور لفاطمة، رافقته في رحلة البحث عنها، تطل عليناها ترمقاني بحنو وأسى، معتذرة أنها لم تظهر لي، متفهمة عجزي عن الوصول إليها، طالبة مني أن أعذرها أنها لم تستطع أن تصل إلي، كم سيكون وجهها حانياً جميلاً وهو يحتضن شيخوختي وأحزاني ووحدتي بعيداً عن الناس في لندن التي لن تعرفني ولن تتذكرني طبعاً. سأتحدث معها كل يوم وسيكون العراق، وأصدقائي فيها معنا، أنظر من نافذتي: آه يا أهل لندن، لي هنا في بيتي أصدقاء طيبون جاءوا معي من أرض بعيدة في هذا العالم، إذا أحب أحد منهم أن يجلس معكم في مقهى أو حانة لا تنظروا في وجهه شزاراً، اسمعوا حكاياته وأغانيه الحزينة، ستشعرون بالفرح وتدركون كم يغدوا العمر غنياً ومديداً إذا أضفنا له شطراً من عمر الآخرين والإنسان أينما وجداً تكون الحياة مستقرة هائنة إذا شدت لجذور عميقة في التاريخ، ذلك درس استقيته من عيشي مع

الناس في العالم كل هذه السنين الطويلة! (كم سيكون عمرى آنذاك؟ سبعين؟ مئة؟ كا قالت العرافة!؟) تلك ثمرة تنتظرنى لسنين قادمة في بيته الأخير الذى سيكون في لندن، هذا هو زادى العظيم عند عودتى لوطنى المشبع بالضباب إذا امتد بي العمر يا عزيزتي أجاثا، ليتنا نلتقي معاً في لندن عند تقاعدنا، لتحدث عن حصاد رحلتنا الطويلة، ماذا حققنا في بلدان المشرق وفي العراق الذي جمعنا وفتح لنا أرضه وقلبه، هل للمغامرين من أمثالنا سن للتقاعد؟ ولكن لابد للعمر من نهاية!

لو كتبتى روایتى قد لا تجد رواجاً كرواياتك البوليسية، لكنها ستكون تذكار لحياتنا معاً نحن المثقفين الإنجليز في هذه الأرض الجميلة. ما جئناها نحمل أسلحة؛ بل الحب والمعرفة؛ فواجهتنا الأسلحة، أنا شخصياً لا أنهم أهل البلاد المعذبين، ولا أنسى أن جيشاً هائلاً من الإنجليز والهنود دخلوا قبلنا يحملون الكثير من الأسلحة، عمروا لهم الكثير، لكنهم تركوا في أعماقهم جراحًا كثيرة أيضاً، أنا من سوء حظي إنني سقطت في هذه الجراح! وضعت أمامك يا عزيزتي أجاثا خلاصة تجربتي ومشاهداتي، وما سمعت أو عرفت في الأهوار. بالطبع أنا لا أطمح الاقتراب من أسلوبك القصصي البارع، (أرجو أن تصاغيني عن دعاباتي السابقة لأسلوبك الإبداعي الذي لا يعلى عليه) اترك هذه المادة الخام لتصوغيها رواية أو مسرحية، وأنت حرّة في ما تحذفين أو تضيفين، المهم أن تحافظي على جوهر ما ذكرته من تفصيلات عن رحلاتي أو مغامرتي في هذه الأماكن النائية والمهجورة، وبين أمزجة الناس هناك وثقافاتهم. أردت من ذلك تقديم الجو الواضح لرحلتي وأترك لك وللآخرين تقييمها فيما إذا كانت بحثاً عن الحقيقة والجمال أم عن مكسب شخصي! فإذا وفقت في ذلك أو في بعضه، فذلك مبعث سعادتي، وإذا كنت قد فشلت، فليضعف هذا الحزن إلى أحزاني الأخرى، والمهم إنني لم أؤذ أحداً، ولم أتسبب في ضرر أو إزعاج لغيري، لك الفضل في دفعي لجمعها من هنا وهنا، ولنك الشكر لو فقط تجسّمت عناء قراءتها!

انتهى ماكس من أوراق ثيسجر رغم إنه لم يجد ما يهديه إلى أجاثا لكنه أحس بالراحة، وقف في الشرفة يتملئ النهر، وجد نفسه يائساً من مجيء خالد، وحتى لو جاء فإنه لن يخرج من الأوراق التي قراها بأكثر مما خرجت من أوراق ثيسجر، لاشيء يهدينا إلى أجاثا سوى الصمت ربما يتفرقع واسمع صوتها من تحته كعادتها لتقول:

ماكس أنا هنا، مالك شارداً متخيلاً ماذا جرى؟

ألا تعرفين ماذا جرى؟ تخفين أياماً ولا تعرفين ماذا جرى! أظنين نفسك في رحلة وراء الآلة الكاتبة لا على ظهر القدر؟

ولكنها قد مررت أيام طويلة ثقيلة دون أن تظهر أية إشارة ملموسة تجعلني أعرف ماذا حل بأجاثا، هل ستعود؟ أم ستكون قد اختفت إلى الأبد، هذه الليلة لن أستطيع النوم أيضاً!

خالد يرى أن أجاثا وقعت تحت تأثير إغواء ما، وماكس يرى أنها ضحية لصوص الآثار، وبينهما الريح تلعب بستائر بيت الآثار!

توقف ماكس عن القراءة، وضع الأوراق جانباً، خرج إلى الشرفة يتطلع إلى النهر، وجد أفق الفجر يسيل دماً من السماء، "لم أر الأفق يوماً هكذا، هل تغيرت عيني؟ أم هذا نذير تعيس مع اختفاء أجاثا، هل قتلت؟ ربما هناك لعنة للفراعنة، وأخرى لل العراقيين القدماء؟ لأننا مسنسنا أشياءهم المقدسة أو الغالية عندهم؟ والقيثارة المولعة بها أجاثا ماذا تحمل نغماتها لنا من إيماءات وإشارات؟ وكم من لعنة الأسلاف يجب أن تنزل علينا وغيرنا جراء ما فعلته حكوماتنا بهم؟ قال الراهب بهنام في الدير، بصوت حزين: "حكوماتكم بضاعت شعبنا، مزقتها، حكمته بقاعدة فرق تسد! جعلت بلادنا مجرد محطة نفط على الطريق، أين تفر من عقاب الله؟" اختفاء أجاثا المفاجئ والتطويل أليس لعنة؟ إذا كانوا غاضبين على دولتنا التي غزتهم، وفرقتهم كما يقول الراهب، ما ذنبنا نحن الذين أححبناهم وعملنا في الصحراء تحت الحر الشديد، والبرد

القارص لنجلو ذاكرتهم، وننتزع لهم تاريخهم من يد الفناء؟ يخيل إلى أن أطیاف وشخصيات الماضي يفرقون بين من يريد سرقتهم، ومن يريد أن يصل إليهم بنزاهة ليعرفهم للعالم، أو يطلق سراحهم من سجن الموت، لا، أجاثا بخير وستعودا نزل بثياب خفيفة 'صالحة المطعم، أكل شيئاً، لابد من غذاء

لمواجهة ساعات التوتر، رجع إلى حجرته، ظل مستلقيا دون حراك!

كان خالد في المقهى، نظراته مع النهر الذي بدأ يغدو عكراً وعالياً، إنه ذوبان ثلوج الشتاء في أعلى جبال المنابع. لكي أعرف أكثر، وأقترب من أجاثا بالقدر الكافي، وربما أصل إليها؛ أحتاج لمعلومات أخرى. مع ما حصلت عليه من هذه الأوراق المهمة، يجب أن أوجه لماكس بعض الأسئلة، وعلى ضوء، أجابتة سأرى طريقي جيداً. عاد يتأمل كل شيء بهدوء وارتياح، الأوراق والفضاء الرحيب، السنونو بين الشاطئ وسقف المقهى، برج القشلة على الضفة الأخرى، يرتاح لمرأى اللقلق يقف هناك آمناً، الشاي المطيب بالهال والزهور، ونكهة المدينة، ضجيجهما الأليف، لم يجد ضرورة لتدوين أسئلته فهي قليلة، واضحة، نهض مسرعاً! دخل الفندق والشمس تقارب الصبحي، إنه اليوم السابع لاختفائها، وإذا لم يمسك خطوة صحيحة على الطريق، فإن حل لغز اختفائها سيكون أكثر تعقيداً مما يظن. الحل والوصول إليها لا يتم بالتمنيات ولا بالثقة بالنفس وحسب. الشمس التي يراها ماكس الآن من شرفة حجرته دائمة مخيفة؛ غير الشمس التي لمس خالد سطوعها الصافي وهو يدخل الفندق. هي أشرقت على بغداد تريد أن تجد كل شيء في مكانه الصحيح، فلا تجاوز ولا اعتداء، كل شيء ينبغي أن يكون تحتها آمناً مطمئناً، هكذا تقول وجوه المارة في شارع الرشيد! استقبله ماكس بلهفة صامتة. صافحه محاولاً أن يبتسم، كان قد يئس كثيراً. ظهور خالد في هذه القضية هو يد الأمل تمتد إليه وهو في لجة عميقة. شعر كأن ماكس يقول له، "لوحت لي بنهائية سعيدة، ثم ذهبت وتأخرت، وأبطأت!" قال:

- معدرة لتأري، ها قد مضى أسبوع على اختفاء عزيزتنا أجاثا، إنه وقت

طويل وعصيب عليها وعليها، لكنني أعتقد أننا بدأنا نقترب من لقائهما! تفتحت أسارير ماكس قليلاً، رغم إن قلبه نكشه، هل اقترب من لقائهما حية أم ميتة؟ ومع ذلك سأله إن كان يرغب في قهوة أو شراب بارد، أراد خالد أن لا يطلب شيئاً، ولكي يطمئنه بجو عادي طلب قهوة، أخذ ماكس ينظر في وجهه قلقاً مستفهماً، ماذا استجد لديه؟ فجعله متفائلًا؟ لا بد إنه توصل لشيء جدي، لم يسمع به من المحققين الذين استجوبوه من قبل، يتذكر أحد هم كان جلفاً عابس الوجه ينظر إليه شزراً، كأنه يتهمه بقتلها والخلاص منها، ربما لأنها تكبره سناً! جلس قبالتها، على المقعد الجلدي الفخم في البهو، سأله خالد بهدوء:

- أريد أن أعرف، هل القيثارة الذهبية في المتحف الآن؟

قال ماكس وكأنه بدأ يتلمس شيئاً، الآن فقط:

- لا، هي في البيت الذي كنا فيه، جاءوا بها لترميمها وصيانتها!

- وأين يكون هذا البيت؟

- إنه في الكرخ قبالة فندقنا تقريباً؟

- من يسكن فيه الآن؟

- لا أحد، لقد انهينا عملنا فيه، من المحتمل أن ينزل فيه بعد أيام من الآن

فريق العمل الهولندي الذي سيقوم بترميم القيثارة، وغيرها من التحف!

- هل تستطيع أن تصفعه لي؟

- إنه قصر كبير، بحجرات عديدة، أغلبها مهجورة، استعملت مخازن لتحف

وألواح كثيرة، نسميه بيت الأشباح، ولكن فيه حجرات مؤثثة بشكل جيد،

سكنها طويلاً، لها شبابيك وشرفات تطل على النهر، كنا نجلس فيها

عصرًا أو مساء نشرب الشاي، ونسمر مستمتعين بنسمائم النهر!

- هل تستطيع زيارته الآن؟

- لا، لقد ذهبت إليه بحثاً عن أجهاثاً، وجدت أن حارسه قد قفله من الخارج

وذهب إلى أهله!

- هل نستطيع أن نعرف أين يكون الحراس الآن؟ هل لديك عنوانه؟ وأين أودع مفاتيح البيت؟
  - سافر إلى أهله في الشرقاط، أبقى مفاتيح البيت عنده. كما لدى مديرية الآثار مفاتيح أخرى، سأعطيك اسمه وعنوانه!
- أخذ يقلب مفكرته الصغيرة دون تركيز، وقد شحب وجهه، راح ذهنه باتجاه جديد، كأنه استيقظ من نوم طويل لتوه، هل الحراس أحمد، هو القاتل؟ أهذا معقول؟ راح يتصور ما جرى، استدرج أجاثا إلى بيت الأشباح، المليء بالنصب، ووجوه وأقنعة الموتى، حاول الوصول إلى غايتها الدينية معها ولم يفلح، فقام بقتلها. أو ربما ثمة أحد ما أغراه بالمال ودفعه إلى قتلها! نحن مستهدفومن جهات عديدة سياسية، أو متاجرة بالأثار، لماذا لم يخطر لي ذلك إلا الآن؟ نظرات أحمد إلى أجاثا لم تكن مطمئنة، فيها رغبة وشهاء، ولكن هذا أيضاً يصعب تصوره، كان يناديها أمي. هي بعمر أمه. أخذ ماكس يحدث خالد كأنه يفكك بصوت عال، وخالد يتأمله وقد تركه يتكلم بما يعن له فذلك يجعله يقترب من حقيقة ظنونه، والتي هي تدور حول شيء آخر غير ما يفكر به ماكس:
- اسمه: أحمد ناصر، كان يرافقنا منذ سنوات، جاءنا يافعا، دون الثامنة عشرة، دربناه، وقمنا بتربيته، ابنا لنا، أجاثا اقترحت أن يأتي معنا إلى بغداد، فهي أيضاً تعامله بود، هو نظيف، وذكي ومطبع وتعلم الحديث اليومي بالإنجليزية بسرعة، منهمكا بعمله معنا لا يتركنا إلا عند ساعات الراحة، ولم أجدر لديه اهتمامات مريبة، ولكن لماذا اختفى بنفس الوقت الذي اختفت فيها أجاثا؟ هل كان ذلك مجرد مصادفة؟ لا أدرى، صرت أترجح في اتهام أحد بعد اعتقال جبرائيل وزميله! وتهال الأفكار وتتداعى في رأسه كأحجار جدار ينهار، لكنه يستبعد أن يكون أحمد قاتلا "لماذا لم يفعلها في موقع التنقيب حين كانت تبقى في خيمتها ساعات طويلة، تكتب أو تقرأ، أليس هناك أسهل له أن يقوم ب فعله الفظيعة، فيكون بحماية قبيلته المعروفة بالقوة والشراسة؟"

فجأة يجد نفسه يسأل خالد:

- هل من الممكن أن أحمد قد استدرجها من الفندق، أعلمها مثلاً بوصول الخبراء الهولنديين وأنهم يريدون مقابلتها، وهي المولعة بالقيثارة، فتبعته إلى البيت؛ لتراهم وتحدى معهم عنها، وكيف القيثارة تلتحقها وتحوم حول رأسها كطير أسطوري، ثم تعود إلى الفندق قبل أن أستيقظ، لكنه هناك ارتكب فعلته الشنيعة، وترك جثتها داخل البيت وهرب إلى أهلها وقبيلته؟ ما هذا؟ لماذا تركت كل هذا يحدث؟ أية غفلة رهيبة أخذتني إلى الجحيم، لماذا استبعدت هذا الاحتمال كلياً من ذهني طيلة هذه الأيام التعيسة؟

ابتسم خالد قال بهدوء:

- في هكذا حالات لا نستبعد شيئاً، ولكن أرجو أن لا تأخذك الظنون القاسية التي ستتعبك، دعنا نفكر بهدوء. متى جاءوا بالقيثارة الذهبية إلى البيت؟ شعر ماكس بالحنق، أين يذهب خالد بالتحقيق؟ هذا الشاب ما زال أمامي صبياً يتقدّم في أيّس! يظهر قاتل أجاثا أمامنا بوضوح، وهو ما يزال يسأل عن وضع القيثارة؟ ومع ذلك أجابة:

- قبيل تركنا البيت بساعات!

- كيف نظرت أجاثا إليها، وتعاملت معها وقد حلت ضيفة في البيت؟ ضجر ماكس وامتنع من أسئلته، وجدها تشطّ بعيداً عن القاتل، لكنه لم يرد أن يفرط بأية معلومة مهما كانت صغيرة قد تكشف عن شيء لا يتوقعه، فهو قد منحه ثقته على أي حال:

- لم تفارقها لحظة واحدة، قالت يا لسوء حظنا، إنها حلت هنا في البيت بينما سنغادره، ليتني أستطيع أن أتعلم العزف عليها، ليتني أستطيع استعمالها آلة كاتبة، وأغرق بأنغامها السرية الخفية الملهمة!

قال خالد بثقة وعزم:

- أنا بحاجة لدخول البيت، نحاول فتحه ولو بكسر الأقفال، أو في الأقل

دعني أعاين وضعه، أبوابه وشبابيكه!

نهض قائلًا:

- تعال معي من فضلك!

- إلى أين؟

- إلى البيت، لا بد لي من دخوله!

ظل ماكس ينظر إليه مستغرباً مندهشاً ممتعضاً، بدلاً من ملاحقة الجاني أولاً؛ والذي يلوح الآن إنه أحمد، يريدنا الذهاب إلى بيت الأشباح المغلق، فهو يفكر أننا سنجدهما هناك مقتولين؟ أخذ يرتجف! كان خالد متأنياً بطبعه، لا يريد أن يبدي تفاؤله وما يراوده من أمل، خشية أن يكون ثمة شيء غاب عن باله هو رغم صغره، تكمن فيه الكارثة كلها! فثمة أشياء ما تزال غامضة، ولا يستبعد احتمال تعرض أجاثاً لأذى، أو أنها قتلت، لا يستطيع أن يؤمل ماكس جدياً بشيء حسن محدد، قد يتحقق عكسه فيصدق ماكس أكثر، كان يكتفي بقوله له "نأمل أن تكون بخير"، دون أن يفصح عما فكر به، وما الذي قاده إلى هذا الاستنتاج الذي يضمره! هو الآن يريد أن يذهب لرؤيه بيت الأشباح هذا ويرى محتوياته فأن يكون مغلقاً من الخارج ليس دليلاً براءة، فظلامه وعتمته الآن مكتظتان بمرودة وسحرة وغيلان وشياطين، والقيشارية ربما الآن تعزف لحنها الجنائزي كما كانت في المدفن السومري! هناك سيجدان معاً السرا نهض ماكس، مثل صبي أمسك بيده من يقوده كيف يشاء، كان شاحباً، شارد النظرات، قال خالد بهدوء:

- أفضل أن نذهب معاً، ولكن إذا كان ذلك يرهقك تستطيع أن تبقى هنا لترتاح، وأنا أذهب وحدي إلى البيت؛ فقط دلني عليه، لدى صلاحية بفتحه بإشراف دائرة الآثار!

- سأرافعك، فقط اسمح لي أن أغير ملابسي!

صعد ماكس الدرج يجر جسله الثقيل إلى حجرته وجلاً مرتبكأً، ما هذا الذي يحدث؟ أية ورطة وقعت بها؟ ما الذي أتى بنا إلى هذه البلاد؟ أية

ساعات رهيبات لا تريد أن تمضي، سيدهب مع خالد إلى بيت الأشباح، سيفتحونه على أي حال، ليجد أجياثا جثة ممدة بين الألواح الطينية المنقوشة، ربما أحدها يحمل مصيرها المقرر من أقدم الأزمنة. والقيثاراة على المنضدة تطل عليها لبؤة اكتفت ببعض دمها، وراحت تتأملها بهدوء ومتعة! ماذا فعلت بما هذه القيثاراة الماكرة؟ أغوت كاتبة عظيمة، متآمرة مع الخاطفين القتلة؟ الحكاية أصبحت واضحة؛ ثمة لصوص آثار تواطأ معهم الحراس أحمد؛ استقدموا أجياثا إلى البيت، سرقوا القيثاراة، وتحف أخرى ثمينة وقتلوها! ترى ماذا يستفيدون من قتلها؟ إنه شرط الحراس أحمد لكي يقول عند التحقيق أنها صفة تمت بين اللصوص وأجياثا بغيابه، ولا علاقة له بذلك! هكذا أدارها ماكس في عقله الذي ازداد اضطراباً وهذيانا حتى صار صوت تفكيره مسموعاً، هكذا كانت نهايتك أيتها الكاتبة الكبيرة؟ كيف خذلتكم برأتك؟ تلعين بمصائر أبطال روایاتك ولا تعرفين كيف تتعاملين مع مصيرك؟ أي مصير مرعب قدتها أنا إليه؟ تهربت من رؤية الجثة التي دعاني ريتشارد لمعايتها، ومررت بسلام، كيف أتخلص الآن من الآلام الفظيعة التي ستستحقني حتماً عند معايتها لجثتها في البيت الذي شهد الكثير من جلساتنا الجميلة؟ هل أدع خالد يذهب لوحده ويرى كل شيء، هل سيفهم وضعني؟ أم يعذني جباناً رعديداً يخاف مواجهة الأشياء؟ وجه خالد الباسم لا يوحي أنه يتوقع أن نجدها جثة، بل لا يوحي أنها هناك أصلاً، كيف تكون في البيت وهو مقفل من الخارج وبالحزام الحديدي المتين؟ قرر أخيراً أن يتنهى من هذا الأمر سريعاً ولا يدعه لوقت آخر، كل دقيقة تمر تخترق قلبه وتوجعه كثيراً، الدقائق الثقلة البطيئة تزيده وحشة ورغباً.

ماذا فعلت أيتها القيثاراة، قبل آلاف السنين قدت موكب العذرارات إلى الموت الإجباري، واليوم أجذببت أجياثاً كريستي إلى موكب آخر! نزل ماكس وفالد إلى ضفة النهر، الوقت يقارب الظهريرة، على الشاطئ

و خمة و رائحة سmek وأشنات متفسخة. كثير من البلامة تقدموا بقواربهم إليهم، لم يكن دعبول بينهم، يبدو إنه في الليل قد أُنقل في الشرب ولم ينهض لعمله. الشمس تتوسط السماء ناعمة ذهبية، والماء يرسل لمعاناً من توهج الشجر والنخيل والجسر البعيد. استقلاب القارب، كان النوتى صامتاً، واجماً، وماكس يرمي خالد بتوجس، بينما خالد يحاول طمأنته بابتسامة متربدة واهنة. رسا القارب كما أشر ماكس للنوتى، منح خالد للنوتى قطعة نقدية، وقفز من القارب يتبعه ماكس بخطوات سريعة، وبصره مركز على البيت الذي تعرف عليه وهو في عرض النهر. عند الباب قال ماكس:

- انظر إنه مقفل من الخارج.

تفحصه خالد، ابتعد عن الباب ووقف أمام البيت على مسافة وراح ينظر إليه من جوانبه وزوايا التقائه مع البيوت المجاورة، استرعى انتباذه أن النوافذ كلها مقفلة بإحكام وإن ستائرها مسدلة بشكل بدا له مبالغ به، كان ماكس واقفاً عند الباب محبطاً منكس الرأس. راح خالد يتتجول في الشارع المبلط الذي يفصل البيت عن النهر، ينظر إلى الشاطئ والنهر، ويعاود النظر إلى البيت كأنه يقيس المسافات الخاصة بمداخل و مخارج مسرح هذه الجريمة أو الحدث المفترض. كان ينظر جهة النهر حين سمع ماكس يتحدث بصوت مرتفع مندهش، تلتفت فوجده يتحدث مع شاب، اقترب منها، قال ماكس وقد بدا موزعاً بين شتى المشاعر:

- أقدم لك الحراس أحمد!

تطلع خالد إليه، كان بقامة متوسطة ممتلئة ووجه أسمراً مستدير؛ بعينين كبيرتين نابهتين، أضاف ماكس متراجحاً بين قلق و خوف و غضب و فرح غامض:

- لا بد إنك سمعت بما حصل لأجاثا، هل لديك خبر عنها؟

أقلقه صمته، تجاهله لسؤاله، أضاف بنبرة وجلة:

- حضورك الآن مصادفة طيبة يا أحمد، نحن نريد أن ندخل البيت، هل

## معك المفاتيح؟

لم يحر أحمد بشيء، كان يتسم بهدوء، ورغم إن ابتسامته مطمئنة، لكن ماكس راح يفكر، المجرم يحوم دائمًا حول مكان جريمته، هذا ما كانت تردداته أجاثا في روایتها، لم يشاً ماكس أن يقدم خالد لأحمد، ويفصح عن وظيفته ومهمته، لا بد من الحذر معه فقد يكون هو القاتل رغم أن وجهه وابتسامته الواهنة الحزينة منحته شيئاً من الطمأنينة!

ساد صمت ثقيل مضطرب، قال احمد فجأة بصوت مرتبك:  
- سأفتح لكم البيت!

وراح يدير مفاتيحه في عدة أقفال بعضها لم يكن ظاهراً! دفع الباب الكبير ليجد ماكس وأحمد أمامهما ما لم يكن يتصوراه، يحدث بهذه السرعة وهذا الشكل، أجاثا كريستي نفسها واقفة على مسافة قليلة عن الباب الخشبي الكبير، تبتسم مثل طفلة ارتكبت ذنبًا صغيراً، واختفت مشاكسة والدتها وراء دولاب الملابس، ظل ماكس في مكانه متجمداً، مبهوتاً غير مصدق، ينظر إليها مدققاً تحت شلال الشمس كأنه يتعرف عليها لأول مرة، وببطء انفتحت يداه واندفع نحوها يحتضنها متمتماً بكلمات غير مفهومة لخالد، أطال عنقه لها، راحت تصرره بخفة على كتفه:

- كفى! كفى أتريد أن تخنقني وتلحقني بالأموات حيث لا يطيب لك إلا لقاء الهياكل العظمية!

أنهى عنقه، وفجأة تذكر إنه غاضب عليها أيضاً، ولم يعرف تماماً سر، وجودها هنا:

- لماذا أنت هنا يا أجاثا؟ أتعرفين ماذا فعلت بي؟

قالها بين المزاح والتأنيب، وجدها لأول مرة منذ زواجهما متجلجة مرتبكة، لكنها نطقت:

- مع القيشارة! لقد أنهكتني وأنا أركض أمامها وهي تلاحقني! قررت أن أكتب روایتي على أنغامها وأنتهي منها، وأزيح كابوسها الرهيب!

ابتسم خالد، أحس بنشوة كما توقع تماماً، لن نجدها إلا جنب القيثارة التي كتبت عنها بخشوع وابتها! لمع ماكس في وجهها شحوباً، وفي صوتها رجفة، ما حدث لها ليس عملاً إرادياً، إنه نفس الشروド الذي أخذها، وغيّبها عن نفسها، في لندن قبل سنوات طويلة. ذهول عميق يصعب إدراك كنهه، أهو شرود مرضي؟ أم انصياع لحلم بعيد الغور في روحها وقلبيها، لم يكترث لقولها حين سمعها تقول مع ضحكة أقرب لصوت جنوني:

- ربطها برواية ثيسجر وينت المعيدي! هما والقيثارة يتبعون في حلم بعيد، الزمن الهاوب الزائل والمستقبل المراوغ كسمكة في خليج، القيثارة تعني الحياة بأنغام حزينة والعاشقان اللذان لا يلتقيان يكتشفان خدعة الدنيا للقلب البشري! استغرقت جنب القيثارة، بكتابه متواصلة هدتني تماماً، لم أكن أنام الليل، رحلة روحية ممتعة، رواية قصيرة، نوفيل، ليس فيها جريمة ولا قتلة!

قال ماكس مندهشاً:

- ولكن أوراق ثيسجر وجدتها في حقيقتك، مع خواترك عن القيثارة وبهناك الراهب، لم يخطر بيالي مطلقاً إنك جالسة في مكان آخر تكتفين روایتك عن كل ذلك!

- أنت تعرف يا ماكس أنا بعد أن أقرأ الوثائق والرسائل ألقىها جانيا وأدع الحدث والشخصيات وصراعاتها كلها لتنمو داخلي وحدها دون تدخل لا مني ولا من الأوراق، بذلك تأتي مختلفة تماماً مع أشكال أصولها، متفقة معها في روحها وجواهرها!

ظل ماكس يفكر، هي وقعت وكما حكم القدر تحت تأثير نوبة ذهول عميق مزلزل، لا يمكن من أجل كتابة رواية أن تنعزل في هذا البيت سبعة أيام، دون أن تعلمني، فتثير حولها مصائب مع السلطات والسفارة وتقلب الدنيا على رؤوس الناس! هذا أمر فظيع لا يتحمل، لا بد أن يكون وراءه دافع مرضي لا إرادي. هي الآن فقط صحت ووووت وأخذت تفلسفه!

ربما ستقول لي بعد قليل أنها فعلتها من أجل كسر رتابة الحياة الزوجية، لها كلمة اشتهرت بين أصدقائنا "الحياة الزوجية تحتاج لصدمة بين فترة وأخرى تشحذها بحرارة اللهفة والشوق" ييدو هي لا يهمها أن يكون ثمن هذه الصدمة متاعب كثيرة للدولة ومجتمع وأحزاب وأجهزة شرطة ومصائر أناس كثريين! وقف خالد يرقبهما وهما يتحدثان بكل شيء يستعجلان تفاهمهما، وأحمد يقف على مسافة كأنه يشعر بالذنب إنه شارك أجاثا في ما فعلت، وفي أذى ماكس. قالت له "لا تخبر أحدا عن وجودي هنا، حتى ماكس نفسه" هو يعرف أنها تريد الاختلاء بنفسها لتكتب مثلما كانت تفعل وهي في الخيمة، ورغم إنه رسمياً مرتبط بماكس لكنه لطالما تلقى الأوامر منها أمام ماكس، ولا يعترض! لم يكن يعلم أن ماكس يتذمّر إلى هذا الحد، وما سيترتب على اختفائها من مشكلات كبيرة! ومع ذلك غمرت ماكس طمأنيته المعهودة مع أجاثا، كل السعادة والأحلام التي كانت في خطير عادت لأعمقه، وضع يده على كتفها، وسارا باتجاه حجرة الاستقبال

ال TFT إلى خالد ثم إليها فائلاً:

- أتعرفين هذا الشاب الجميل؟

التفت إليه مدققة النظر في وجهه، مرت هنيهة حتى عرفته، صاحت: - كيف شغلني ماكس بعواطفه الأثرية عنك؟ أنت خالد، وكيف لا أعرفك مهما كبرت.

أقبلت إليه، ضمته إلى صدرها:

- كم مضى على آخر رسالة يبنتنا يا خالد؟

- أنا لم أنسكم، كنتما دائمًا في قلبي!

مضى ماكس يعرف بوظيفته و مهمته و سبب وجوده معه. وأجاثا تهز رأسها مستبشرة، قال أحمد ليخفف الذنب عنه: - معذرة، تأخر القطار قليلاً، جئت من المحطة مهرولاً لكي لا أبقيك محبوسة أكثر مما أردت.

- أنت لم تتأخر، جئت في موعدك، حتى لو لم تأت كنت، سأستعمل التلفون، أو أقف على السطح، وأصبح فيه كل الجيران لنجدي! جلس أحمد على الأريكة المجاور للأريكة التي تجلس عليها أجاثا وماكس، كان قد ألف أن يجلس معهما وضيوفهما، ما كانوا يعاملانه كخادم أو شغيل مساعد، استرخي خالد في أريكة مقابلة، كانت الأرائك من ألوان وطرز مختلفة كأنها جمعت من سوق الآثار القديم، لكنها متينة محافظة على بقائها فخامة! رأت أجاثا أن وجه ماكس ما يزال ممتقاً، وأصابعه ترتجف، ولا يستطيع السيطرة على نبرات صوته، فغمزته بطرف عينها، كأنها تعدد بليلة ساخنة لترضيه. ظل خالد يتلفت باحثاً عن القيثارة ولم يطل تجوال عينيه، رآها متنصبة مثل عروس أبدية على قاعدة أبنوسية خاصة صنعت حديثاً، نهض إليها أجلالاً واستطلاعاً، وقف بجنبها كانت ساحرة، أجاثا محققة أنها

وقدت تحت تأثير سحرها كالمنومة مغناطيسياً، انبعث صوته هادئاً:

- عادة يلقى البوليس القبض على المختطف، رجلاً أو امرأة، ويكون من الأشخاص عادة، هنا المختطفة قيثارة جميلة فاتنة طيبة، كيف نلقي القبض عليها؟

ضحكـتـ أجـاثـاـ قـالـتـ:

- نـعـمـ هـذـاـ غـرـيبـ فـعـلـاـ.

اكتفى ماكس بابتسامة قلقة، فهو غير مصدق ما هو فيه. ظل خالد يدور حول القيثارة متأملاً، قيثارة تختطف امرأة؟ ومن؟ كاتبة مشهورة! لو لم تكن كاتبة لما اختطفتها قيثارة! وهذا ما قادني إليها! مضت أجاثاً ذات الطفلة المشاكسة، عادت لتوها من تيه في الغابة بعد ملاحظتها غزالة شاردة، تتحدث بنوبة وبساطة ولا مبالاة عن مغامرتها بين الأدغال والوعول والطيور الملونة وقمر النهار متتجاهلة دموع وعذاب الأهل، منقلة نظرها بينهم، حيث عاد خالد للجلوس:

- هـكـذـاـ بـدـأـ الـأـمـرـ،ـ كـنـتـ عـلـىـ الشـرـفـ أـتـطـلـعـ فـيـ أـفـقـ بـغـدـادـ وـقـدـ تـمـوـجـتـ أـشـعـةـ

الشمس المشرقة لتوها في أفقه، قوافل جمال ذهبية تحلق في السماء، حكني أنفني قليلاً، عطست، قلت كما تقول العجائز في ريفنا القديم: "هذا بشير خير" قطرات دم انبشت، قلت هذا ليس شؤماً، وحتى أنفني يعمل معى في كتابة الروايات، "لقد أزف موعد الرواية"رأيت قطرات الدم تتناثر على الأرض. قلت من هنا سيدأ البحث عنى وخيط القصص المثير. لا بد أن أختفي، وأجعلكم تبحثون عنى، ستبدؤون من قطرات الدم حتماً. سأكون مع القيثارة الذهبية هناك، هرعت نازلة درج الفندق، والقيثارة تلاحقني كأنها قبعتي، غيمتني، نجمتي في السماء. لم يكن موظف استعلامات الفندق في مكانه، ولا أي شخص في البهو. الكل نائم. ذلك سهل خروجي دون أن يعلم أحد، حتى لو كان أحد موجوداً كنت ساغافله، وأخرج دون أن يراني، لم أعبر مع دعబول كعادتنا. أخذت سيارة تكسى مسرعة. كان أحمد لم يغادر البيت بعد. فوجئ بمجيئي، اتفقت معه أن يتركني وحدي ولا يخبر أحداً، حتى أنت يا ماكس. اشتري لي كل حاجياتي من الطعام لأسبوع وأكثر، حزمة شموع، وأشياء صغيرة أخرى. طلبت منه أن يأتيني هذا اليوم. قطعت حرارة التلفون. طلبت منه أن يقفل الباب من الخارج ليبدو البيت خالياً، ومهجوراً تماماً! كنت أكتب على ضوء الشموع مستعيدة جو المعابد. أسدلست الستائر بإحكام لكي لا يتتبه الجيران الذين يعرفون أن البيت قد خلا من ساكنيه الأجانب. هذه الأيام القليلة كانت كافية لوضع كل شيء على الورق بعد أن كانت فصول روایتی القصيرة تدور في ذهني تبحث عن روحها التي سأتلقاها من القيثارة، مصغية لموسيقى الزمن بعيد من أوتارها التي سترتجف لوحدها! معذرة يا ماكس لقد أقلقتك وأتعبتك كثير، ولكنك ستجد رواية تهرك وتستمع بها. أطلق ماكس ضحكة قصيرة قائلاً:

- نعم لقد هزتني قبل أن أقرأها، وأكثر من اللازم يا عزيزتي!  
ابتسمت هي أيضاً لسخريتها المرحة، قائلة:

– يصعب عليَّ الآن الحديث عن حبكتها بدقة، حاولت أن أجعلها بسيطة  
تمتزج فيها الموسيقى بالحب، السراب بالماء، الرمال بالنور، لكنني لم  
استطع تفادي الحزن، المنبعث من قيثارة تخرج من مدفن سومري لتعزف  
لعاشقين من عالمين مختلفين، لا يلتقيان!  
سألها خالد:

– ولكن لماذا قلت أن الرواية ستبدأ من قطرات الدم المتناثرة على الأرض؟  
– أفكر في رواية أخرى، أكتبها لاحقاً، أكون فيها ملاحقة من قبل عصابة  
دولية لسرقة الآثار، يتمازج فيها عالم التاريخ الراهن بكل ما هو مدهش،  
بعالم اليوم الحافل بالدسائس الدولية، والمكائد البولييسية المثيرة.  
تعمدت التمويه باختفائي، حتى إنني لم أحمل آلة الكاتبة، استعملت  
الآلية الموجودة هنا، كان يهمني أن أعرف كيف سيتابع البوليس اختفائي  
لإنقاذني، لهذا أريد منك يا خالد أن تزودني، فيما بعد، بموجز عن إجراءاتكم  
وأنتم تبحثون عنِّي!  
أخذ ماكس يصحح:

– طريقة جديدة يا أجاثا في الكتابة لم أألفها منك، أن تكتب الشرطة روایاتك!  
ما يزال ماكس غاضباً عليها. كل هذا العذاب سببه له فقط لتكلبت، بينما  
سابقاً كتبت الكثير من الروايات بصمت، هل غبار قبور الكهنة أُلحق بدماغها  
شيئاً من التعقيد الذي كانوا يتصرفون به وهم يمارسون طقوسهم للتأثير على  
الناس واستلاباب عقولهم؟

عاد يتأملها، رغم إنها تتحدث بكل وعي عن روایتها وتفاصيلها، لكنه  
لم يكن يستطيع أن يفهم كيف تحبس نفسها هنا هذه المدة دون أن تعلمه،  
غير مقدرة ما سيترتب على فعلتها من نتائج خطيرة، فهو ضرب من الجنون  
الإبداعي الجديد عليه أن يتهيأ له؟ نظر إلى خالد، كان يبتسم يرقبهما سعيداً،  
فتحليله لاختفائها كان صحيحاً وقد هما إلى المكان المطلوب، قالت ضاحكة:  
– كنت أتصور نفسي أكتب بالقيثارة الذهبية، متذكرة قول ماكس، تكتبات

اللَّكَ الْكَاتِبَة أَجْمَلُ مُوْسِيَقِي، بِثَلَاثَةِ أَصَابِعِ فَقْطَ كَتَبَ كُلَّ هَذِهِ الرَّوَايَاتِ،  
كَمْ سَتَكْتَبِينَ لَوْ اسْتَعْمَلْتَ أَصَابِعَكَ الْعَشْرَةَ؟ وَأَقُولُ وَبِمَاذَا سِيفَكُرُ لَوْ رَأَيْتَ  
أَكْتَبَ بِمُوْسِيَقِي قِيَثَارَةً عُمْرَهَا أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ آلَافِ عَامٍ!  
لَمْ تَفَارِقْ لَهْجَةَ مَاكِسْ نِيرَتَهُ السَّاحِرَةُ الْغَاضِبَةُ:  
– بِالْتَّأْكِيدِ، وَلَكِنْ لَا تَنْسِي أَنْ قَرَاءَكَ يَرِيدُونَ أَنْ يَتَابُعُوا حَكَائِيَاتٍ مُثِيرَةٍ لَا  
مَعْزُوفَاتٍ مُوْسِيَقِيَّةٍ!  
نَظَرَتْ إِلَيْهِ بِحَزْنٍ، وَكَأْنَمَا أَخْدَتْ عَيْنَاهَا تَرْقِيقَانَ بِالْدَمْوعِ، قَالَتْ بِلَهْجَةِ  
فَتَاهَةٍ صَغِيرَةٍ عَاشِقَةً:  
– هَلْ لَمْ عَدْ تَجْبِينِي يَا مَاكِسْ؟  
ظَلَّ صَامِتًا بِرَهْةٍ قَالَ:  
– كَيْفَ لَا أُحْبِكَ؟، لَمْ أَمْتَ بَعْدًا!

لَكِي أَبْدَعَ عَلَيِّ أَنْ أُعِيشَ جُو رَوَايَتِي تَمَامًا، حَتَّى لَوْ اقْتَضَى الْأَمْرُ انْ  
أَهْبَطَ إِلَى قَاعِ قَبْرِيِّ، وَبِيَحْثِ الْعَالَمِ كُلَّهُ عَنِي وَلَا يَجِدُنِي!

كَانَ خَالِدٌ يَصْغِيُ فَرَحًا، أَنَّهُ التَّقَى بِأَجَاثَا وَمَاكِسَ بَعْدِ فَرَاقٍ طَوِيلٍ مُعْتَقِداً  
أَنَّ عَلَاقَتِهِ بِهِمَا قَدْ انتَهَتَ إِلَى الْأَبْدِ، لَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ إِنَّهُ سَيَلْقَاهُمَا فِي هَكُذا  
مَوْقِفٍ، غَرِيبٌ مَدْهُشٌ، لَكِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ فَرَحٍ إِنْسَانِيٍّ، فَاخْتِفَاءُ أَجَاثَا كَانَ  
يَارَادُتُهَا، وَتَكَلَّلَ بِرَوَايَةٍ. كَانَ فَرَحًا كَطَفْلٍ وَلَيْسَ كَمُوْظِفٍ مِنْهُمْ فِي السَّلَكِ  
الْقَضَائِيِّ! وَجَدَهَا فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَوَقَّعَهَا فِيهِ. كَانَ يَعْرِفُ بِحَادِثَةِ شَرِودَهَا  
وَتِيهِهَا الْقَدِيمَةِ، لَكِنَّهُ اسْتَبَعَدَ أَنْ يَكُونَ اخْتِفَائِهَا نَتْيَاجَةً حَصْولِهِ ثَانِيَةً. فَهِيَ  
مَمْغَنَّثَةٌ مَسْحُورَةٌ بِالْقِيَثَارَةِ السُّومِرِيَّةِ، وَلَا بدَ لَهَا أَنْ تَتَهَيِّنَ مِنْ سُحْرِهَا الْأَسْرِ  
الَّذِي وَجَدَهُ مَكْبُلًا لَهَا. تَذَكَّرُ إِنْ عَلِيهِ الْآنُ أَنْ يَعْلَمُ مَدِيرَ التَّحْرِيَاتِ الْجَنَائِيَّةِ  
بِهِجَتِ الْعَطِيَّةِ بِظَهُورِ أَجَاثَا، لَكِنَّهُ يَوْقِفُ إِجْرَاءَهُ فِي الْاِعْتِقَالَاتِ وَالْتَّحْقِيقِ،  
وَمَا يَرَفِقُهَا عَادَةً مِنْ تَعْذِيبٍ وَضَغْوَطٍ عَلَى الْمَتَهَمِينَ وَذُوِّهِمْ. ضَحَّكَ فِي  
سَرِّهِ، إِنَّهُ سَيَسْتَقْبِلُ النَّبَأَ بِرُورٍ وَاسْتَعْلَاءٍ رَغْمَ فَرَحَهُ بِهِ، فَهُوَ كَانَ يَتَمَنِي لَوْ

وجدوها في وكر سري للشيوخين، ذلك سيقرباليوم الذي يلف به جبل المشنقة على عنق قائدتهم، صديقه القديم، نهض قائلاً:

- هل أستطيع أن استعمل التلفون لدقائق؟ أريد أن أزف للمسئولين بشرى سلامتك. الكل يتبع قضيتك من الوصي حتى أصغر شرطي!

ضحكت، وقد شعرت بمزيج من الذنب والعظمة:

- نعم لقد أعددت له حرارته في اللحظة التي انتهيت فيها من الكتابة. التفت إليها ماكس متوجهما، أحس أنه لم يصف كل حساباته معها، على فعلتها الطائشة:

- ماذا فعلت يا أجالا؟ لقد قلبت الدنيا في بغداد؟ اعتقلوا العشرات، وربما المئات، كثيرون دفعوا ثمن روایتك من دمهم ودموع أهلهم! أهكذا تكتب الروایات؟

كأنها أحست فجأة بالذنب كله:

- أنا آسفة، ليتنى أستطيع أن أعتذر لهم واحداً واحداً.

فكرا ماكس؛ أكان ت يريد تجديد حبهم؟ هي التي كتبت في مخطوطتها لها "حين يقع حبيبا في محنـة أو مرض، ونحس أننا نوشـك أن نفقدـه، يتـجدد حـبـنا لـهـ" لكنها أعطـتـنـي جـرـعـةـ ثـقـيلـةـ، هي أـيـضاـ الـآنـ مـرـهـقـةـ، كـأـنـهاـ عـانـتـ فـعـلـاـ من خـطـفـ وـاعـتـقـالـ وـسـجـنـ وـتـعـذـيبـ، حـقـيقـةـ لـاـ خـيـالـاـ. هل حـقـاـ أنـ القـيـاثـارـةـ قد اـخـتـطـفـتـهاـ؟ أمـ هيـ مـجـرـدـ قـنـاعـ وـقـدـ اـخـتـطـفـتـ منـ قـبـلـ نـفـسـهـاـ وـأـضـحـتـ رـهـيـنةـ نـفـسـهـاـ لـاـ غـيـرـ؟ أـنـ يـخـتـطـفـ الإـنـسـانـ مـنـ قـبـلـ أـشـبـاحـ الدـاخـلـيـةـ فـتـلـكـ مـصـيـبةـ رـهـيـنةـ إـنـهـ أـبـشـعـ اـخـتـطـافـ تـتـفـنـنـ مـرـدـةـ وـشـيـاطـيـنـ فـيـ دـاخـلـنـاـ فـيـ تـعـذـيـنـاـ خـلـالـهـ كـلـ لـحـظـةـ. وـفـقـ هـذـاـ القـانـونـ كـثـيـرـونـ مـنـ مـخـتـطـفـونـ مـنـ قـبـلـ أـنـفـسـهـمـ دونـ أـنـ يـعـلـمـواـ! أـنـاـ كـنـتـ مـخـتـطـفـاـ، لـيـسـ مـنـ قـبـلـ ثـيـسـجـرـ وـأـورـاقـهـ بلـ مـنـ قـبـلـ أـشـبـاحـ كـلـ القـبـورـ التيـ فـعـلـتـهاـ فـيـ هـذـهـ الـأـرـضـ! مـاـ تـزالـ أـجـاـلـاـ مـذـعـورـةـ مـعـذـبـةـ مـنـهـكـةـ، حـاـوـلـتـ تـأـدـيـةـ قـرـبـانـهـ وـفـدـيـتـهـ بـكـتـابـةـ طـوـيـلـةـ مـتـوـاـصـلـةـ، أـشـبـهـ بـطـقـسـ أوـ صـلـاـةـ لـتـنـالـ الـمـغـفـرـةـ وـتـطـهـرـ! وـجـهـهاـ شـاـحـبـ حـزـينـ، كـأـنـهاـ رـحـلـتـ إـلـىـ الـأـزـمـانـ كـلـهاـ،

تابع القيثارة القديمة محلقة كالطير في سماء من الموسيقى! وسماء القلب، هي مبدعة معدبة تبحث دوماً عن جو ملهم لعملها! وجد نفسه مستعداً أن يغفر لها شطحاتها، وزلاتها، خاصة هي بريئة راقية جميلة. أخذ ينظر إليها بحنان وهي تتحدث بهدوء:

- أردت يا عزيزي ماكس أن أنقب في أعماق روحي وأنا في أعلى درجات التوتر، والعزلة تجربة ثقيلة من أجل الكتابة، كما أنت بإخلاصك لعملك تنزل إلى أعماق القبور، وسراديب العالم السفلي، أنا نزلت إلى أعماق الألم الإنساني، مشيت في أعماق قبري وقد تصورت نفسي مستلبة من حلم قاهر، مصير فاجع يلاحق عاشقين يائسين، لكي أبدع علي أن أعيش جو روايتي تماماً، حتى لو اقتضى الأمر أن أهبط إلى قاع قبري، ويبحث العالم كله عنني ولا يجدني!

مكتبة الرمحى أحمد

صمتت برهة ثم قالت فجأة:

- معذرة يا ماكس، لقد مات ثيسجر في الرواية!  
تحير أيسحى أم يبكي على موت ثيسجر في روایتها، التي لابد فيها من موت، أو قتل، سأّلها:  
- كيف مات المسكين؟  
- سترى ذلك في الرواية!  
- ذلك أفضل! استراح من عذابه في هذا الحب المجنون! كم من المجانين بیننا نحن الإنجليز!

نظرت إليه، مرتابة لكنها ظلت صامتة، رغم شعوره بأعمق الحب نحوها الآن، لكنه شعر بقلق أن تكرر ما فعلته، قال في نفسه "متعب أن يكون الشريك مبدعاً، ومتعب أكثر أن يكون الشريك مبدعين!" قالت بصوت هامس:

- لم أغب عنك طويلاً، أسبوع واحد فقط!  
- أطول من دهر، أنسىت ما تردد فيه عن كاتب فرنسي: "ليست السنين هي الطويلة، إنما الدقائق"!

ارتعش صوتها وخالطه أسى:

- قدر الكاتب أن يتذمّر، ويذعّب أهله وأصدقاؤه معه. أضافت كأنها تعرّف بالخطأ كعادتها: "ربما المبدع يبالغ في قيمة إبداعه، وتقديرهم له، حتى ليستخف بعذابات الناس من أجله!"

كانوا يسمعون أصوات الصيادين والملاحين وهم يصدحون بأغانيهم وصيحاتهم العالية، ثمة مهرجان فرح غامض يجري وقد تعدد الوقت الظهيرة وقارب المساء. أنهى خالد مكالماته التلفونية وعاد ليقول:

- أخبرت مدير التحريرات وبعضاً من زملائي، كانت فرحتهم عظيمة، كادت أزمة كبيرة تحدث بين بريطانيا وال العراق. كادت بريطانيا تحتل العراق من جديد. الآن سيعلمون الوصي رئيس الوزراء والسفير البريطاني. الأهم إنهم سيطلقون سراح الموقوفين الذين اعتقلوا بتهمة الخطف أو القتل. مدير التحريرات ومعاونوه يريدون أن يلتقطوا بكلّ ما هنا أو في الفندق. متى تستطيعان ذلك؟

هزت أجاثا رأسها بوهن وضعف واضحين، لم تحر شيئاً؛ فهي بطبعها تكره لقاء المسؤولين والحكوميين وتفضل الاختلاط بالناس البسطاء، وارتياحها لخالد لا كمحقق رسمي، بل كصديق قديم. التفتت إلى ماكس قال: - يسرنا أن نلتقي بهم لشكرهم على جهودهم، لقد أتعباهم حقاً! أضاف ملتفتاً إلى أجاثا:

- كان موقف خالد طيباً جداً ولا ينسى، وكان دوره رائعًا! قال خالد بهدوء وهو لا يزال واقفاً متاهياً للخروج:

- لا فضل لي في ذلك، فأجاثا كانت ستخرج، سواء أتيت بك إلى هنا أو لم آت!

- ولكن وجودك يا خالد يبتنا طمنتنا وأسعدنا! نظرت أجاثا إلى ماكس:

- أرأيت اختفائتي لم يكن شيئاً دائماً، لقد أتى لنا بخالد!

- قال ماكس وكأنه يشعر بالتحصير:
- تصور يا خالد أنا الذي عشت مع أجاثا كل هذه السنين، وعرفت عاداتها في الكتابة والتفكير، وجو العمل، لم يخطر ببالي أنها جاءت إلى هنا، بينما أنت عرفت ذلك بسرعة!
  - قال خالد مبتسمًا، مطيباً من خاطره:
  - لا تستغرب ذلك، الحزن يشل الذهن، هذا دليل حبك العظيم لأجاثا!
  - ضحكت أجاثا وهي تقول:
  - حين مت في نظره، أو قاربت الموت صرت قطعة أثرية وتحت الأرض، بذلك صار يحبني أكثر!
  - ضحك ماكس:
  - لم أتصورك لحظة واحدة إلا حية معافاة!
  - قالت أجاثا لخالد:
  - أنا مسرورة بمواصلة صداقتنا، أتمنى أن نذهب معاً برحلة إلى أيس!
  - بكل سرور، سأحصل على إجازة أريد أن أستعيد أيام صباي ومرحي على شواطئ مدیتیي عندما كنت وماكس تأثيان ونقوم بجولاتنا بين بساتينها ونواعيرها! يسعدني بقائي معكم الآن، لكنني أريد أن أعود إلى مقر عملي، لأنتابع إطلاق سراح العشرات الذين اعتقلوا بتهمة خطف أو قتل أجاثا كريستي!
  - قال ماكس وهو ينهض ليودعه:
  - لم يحدث لرواية أن دفع الناس من أجلها هذا الثمن الباهظ!
  - توقف قليلاً، متوجهاً لخالد:
  - أريد أن أعتذر لجبرائيل وزميله، والمدير أتمنى لقاءهم قريباً!
  - بالتأكيد، سنطلق سراحهما مع مدير الفندق، بسرعة، وسأعتذر لهم بنفسى.
  - كانت أجاثا منهكة، تحاملت على نفسها واقفة، قالت فجأة منقلة بصرها بين خالد وماكس:

- أنا لم أضع عنوانا للرواية، لقد عرفتما موضوعها، ماذا تقرحان؟!  
أراد ماكس مداعبتها:
- ليكن العنوان "نزوءة كاتبة مجنونة"  
قالت كالمنتقمة:
- إنه عنوان سمج، تقريري مفضوح!  
تطلعت إلى خالد متطرفة فابتسم قائلاً:
- إذا سمحت لي كقارئ معجب برواياتك لا كمحقق عدلي أن أقترح عليك  
عنواناً "قيثارة أجاثا كريستي الذهبية"  
قالت متلهلة:
- ما تزال أيس، تمنحنا من أجوائها اللطيفة ولكن اسمع لي أن استبعد  
الذهب، فالموسيقى بالطبع أغلى وأعظم جدو!
- ضحك خالد قال:  
لتكن إذا "قيثارة أجاثا كريستي" فهي أصبحت قيثارتكم، لم يسبق لأحد  
أن كتب بنغماتها رواية! قبلته مودعة: ستواصل لنرتب سفرتنا إلى أيس!

## ووجدت بعض أوراقي وذكرياتي، هل سأجد بقايا الروح تحت الأنفاس؟

أثناء كتابتي هذه الرواية انتابني قلق وخوف أن يداهمني الموت قبل إكمالها، كانتأشهرا طويلاً من الأرق، وضغط الدم يهدّر في رأسي شلالات تنحدر من جبال شاهقة. كانت ليلى، أختي، تمدنّي بأكواب القهوة، تفتح باب الحجرة قليلاً وتسترق النظر لطمئن علىي، ولا تكف عن نصحي بالتوقف عن التدخين! انتهيت، واعتقدت أنني سأناول راحة واسترخاء، لكن وجدتني أكثر قلقاً، وأرقاً! ما جدوى رواية تتحدث عن أجاثا كريستي وولفريد ثيسجر وبنت المعيدى، والأحجار القديمة؛ في هذه الأيام الطافحة بالدماء والدخان والحروب بين الأشقاء والأصدقاء والأعداء؟ لقد مضى زمن أجاثا، وزمن

الجرائم الصغيرة، دخلنا الآن عصر الجرائم الكبرى، أشخاص يحولون أنفسهم إلى قنابل ليقتلوا بشرًا أبرياء لم يؤذوهما يوماً، انقلابات دموية، مؤامرات، حروب أهلية، مذابح طائفية وعنصرية يتحول فيها البلد الأعزل إلى خراب تصول وتتجول فيها الوحش والشياطين! ورواياتك كالقطة العمياء في منعطف من الشاطئ تبحث عن بقايا سمكة! زادتني حيرة، وربما شكا أو توجساً من أجاثا كريستي؛ أن جدتي حلّت في حجرتي فجأة ليلاً، كأنها نسيت حكاية لم تروها لي في طفولتي، وتذكرتها بعد موتها: دخل شاب على رجل في بيته وطعنه بخنجر في صدره، أمسك به من في البيت يريدون قتله: لكن الرجل قال وهو يلفظ أنفشه الأخيرة دعوه، أعنوا عنه، القاتل في مكان آخر! وكانت النهاية أن حامل الخنجر ذهب بنفسه وقتل من أرسله! وفق هذه الحكمة أو القانون فإن كل الذين أمسكت بهم أجاثا كريستي كقتلة هم لا يزيدون وزناً عن الرصاصة، أو ملعقة السم الذين استعملوها في جرائمهم، والقاتل الحقيقي هو في مكان آخر! يعني أيضاً أن الصبيان المعتوهين الذين حولوا أنفسهم إلى متفجرات وقتلوا آلاف الأبرياء ينبغي أن لا يجعلوننا ننسى أن القتلة وال مجرمين الحقيقيين هم في مكان آخر! وهؤلاء الصبيان الأغارار هم ضحايا أيضاً، نبلغ ذروة إنسانيتنا لو استطعنا إنقاذهم، فنكون قد أنقذنا معهم الناس جميعاً! وبدأت من جديد أقرأ أجاثا كريستي: هل هي حقاً اكتفت بـلقاء القبض على المجرمين الصغار ثم جلست في شرفة بيتها تشرب الشاي وتأكل البسكويت وتححدث مع ماكس عن أرقام مبيعاتها من الروايات؟ اكتشفت وـ"لتقدم بالعمر فوائد" أن أجاثا كريستي لم تذكر أسماء القتلة الذين هم في مكان آخر، لكنها أشارت إلى الطريق الذي يفضي إليهم، عصب الشر الذي لسبب ما يلتهم عصب الخير في أعماق إنسان، ويسلمه للجشع والكسل وكراه الآخرين! وتركت لبيهتنا تشخيص ملامحهم: فهم كبار جداً، مستعدون أن يحرقوا الدنيا كلها من أجل مواقعهم وملذاتهم وبقائهم خالدين! هم بأحجام هائلة، أحدهم يستطيع ابتلاع ألف خزينة بنك، وألف تمثال مقدس، وكل

كراسي السلطة دون أن يصاب بالتخمة! يحول السماء إلى قبة ويضعها على رأسه معتقدا أنها صنعت من أجله، وهي ملك العائلة، وعلى الآخرين أن يهيموا على وجوهم بحثا عن سماء أخرى! مؤكدة أن المجرمين الصغار يحملون نفس الصفات الوراثية للمجرمين الكبار، فالشر واحد، وال مجرمون مختلفون! بذلك لا يجوز أن تسجل الجرائم ضد مجاهول! الفاعل هو إما ذلك الكبير القابع في مكان آخر، وعليها الإشارة إليه بأصبع لا يرتجم، أو هو نحن، أنفسنا ما دمنا سكتنا مؤثرين السلامه! هي لم تغفل بقعة النور في أعماقنا، قالتها بكلمات كثيرة غير مباشرة: تلك الشمعة التي ينبغي أن تبقى مشتعلة داخل العاصفة. لم تبالغ في مطالبتنا بالشجاعة، ولا مطالبة نفسها بها: فالكاتب لا يستطيع أن يقترب بنا كثيرا من فم الأسد؛ لكنه يستطيع أن يجعلنا نشم رائحته! ورائحة الدم الكثير المسفوح حول عرينه، من مسافة بعيدة! أليس هذا أهم ما نحتاجه لمجابهة الشر والرعب ثم الخلاص من الشقاء؟ فلم التردد في القول أن أجاثا كريستي ما تزال تعيش معنا، وهي الجدة التي تأتي لتحكي لنا، لا لنتم بل لنكون يقطنين نعرف الأشرار كما نعرف الأخبار! وروايتي هي عن اخت أو جارة تخاف أن تخرج بأطفالها إلى الحديقة خشية أن يمزقهم انفجار أرسله الكبار. عندما قلت لليلي "الآن انتهيت من هذا العباء الثقيل" سألتني بقلق وخوف: هل ستعود إلى السويد؟ لا يا اختي، كيف أتركك وحيدة وسط هذا الدمار! أما كفاني إني تركتك وأمي قبل ثلاثين عاما للعذاب والقهر والعوز، ورحت أنا هناك بعيدا، أعيش عذابا آخر؟ لا، سأبقى هنا هنا في بغداد حتى لو لم أجده لي مكانا فيها، وبقيت منعزلا في حجرتي لا يسأل أحد عنني ولا أسأل عن أحد، أقرأ وأتأمل وأتذكر وأتنسم هواء المدينة الذي فقد عبيره القديم، وصار اليوم مشبعا بالبارود ورائحة اللحم البشري المحترق، هل انتهت مهمتي هنا؟ هل لم يعد لي مكان في بغداد التي أحببتها وتشردت من أجلها؟ لا أدرى هل انتهيت من رحلات البحث

الطويلة؟ ماكس والشرطة والسفارة البريطانية يبحثون عن أجاثا. أجاثا تبحث عن مكان يجمعها بالقيثارة لكتاب رواية تكافح بها الشر بالموسيقى. ولفريد يبحث عن بنت المعيدي. الأميركيان يبحثون عن ضباط في الجيش يرورون القيام بانقلاب في بغداد. سليم البكري يبحث عن أخبار لحزبه وجريدة، وأنا بحثت عن نفسي، وروحي وذكرياتي، فوجدت أوراقا قد حرقـت، وأخرى محفوظة بعناية في بيت صديقي. كم علي أن بحث لأجد بقايا روحـي ونفسي الصائعة على هذه الأرض، وقد انهالت فوقـها ركام حروب وأنقاض كثيرة؟ الآن هـدأت النفس، ولو الآـن فقط. لم أكن أعلم أن شخصين عزيـزين يبحثـان عنـي في هذه المدينة، وقد حسبـتها نسيـتي تماما!

## جلست في شـتاء السـويفـادـون ذـكـريـاتـي قـبـلـ أـنـ تـتـحـولـ في رـأـيـ إلى عـرـوقـ ثـلـجـ وـخـشـبـ!

غرقت بعدها لأشهر بأحداث هزـتـني، بل قـلـبتـ حـيـاتـيـ كلـهـاـ. يصعب الحديث عن سـعادـةـ خـاصـةـ فيـ وـطـنـ يـزـخـرـ بالـشـقـاءـ وـالـمـوـتـ. ولكنـ لـابـدـ أنـ نـعـيشـ حـيـاتـناـ الـهـانـةـ مـثـلـمـاـ عـلـيـنـاـ أـنـ تـنـجـرـعـ مـاـ يـخـالـطـهـاـ مـنـ أـلـمـ وـعـذـابـ. سـوـفـ أـتـرـكـ صـدـيقـيـ سـاهـرـ يـتـحدـثـ عـمـاـ جـرـىـ فـيـ تـلـكـ الأـشـهـرـ الـحـاسـمـةـ الـمـنـصـرـةـ مـنـ حـيـاتـيـ هـنـاـ، فـهـوـ أـدـقـ مـنـيـ وـأـعـقـمـ فـيـ التـعبـيرـ عـنـهـاـ! كـانـ سـاهـرـ قـدـ عـادـ إـلـىـ السـوـيـفـادـونـ مـلـمـحاـ إـنـهـ سـوـفـ لـنـ يـعـودـ إـلـىـ الـعـرـاقـ، إـنـهـ سـيـمـوـتـ وـيـدـفـنـ هـنـاكـ، إـنـهـ اـرـحـمـ بـنـاـ مـنـ وـطـنـاـ الـأـصـلـيـ، رـغـمـ إـنـهـ فـيـ لـحظـةـ أـخـرىـ يـقـولـ "لاـ مـهـرـبـ لـنـاـ مـنـ الـعـرـاقـ سـوـىـ إـلـىـ الـعـرـاقـ!". كـتـبـ لـيـ: جـلـسـتـ فـيـ شـتـاءـ السـوـيـفـادـونـ ذـكـريـاتـيـ قـبـلـ أـنـ تـتـحـولـ فـيـ رـأـيـ إلىـ عـرـوقـ ثـلـجـ وـخـشـبـ وـمـوـتـ! أـرـسـلـ لـكـ مـنـهـاـ الـجـانـبـ الـمـتـعـلـقـ بـلـقاءـاتـنـاـ فـيـ بـغـدـادـ وـمـاـ حـدـثـ لـنـاـ، قـدـ تـسـتـفـيدـ مـنـهـاـ أـنـتـ أـيـضاـ، وـلـكـيـ لـاـ نـسـىـ مـاـ حـدـثـ لـنـاـ فـيـ زـيـارـتـنـاـ لـبـلـدـنـاـ بـعـدـ غـيـةـ طـوـيـلـةـ. عـنـدـمـاـ عـدـتـ مـثـلـكـ مـنـ مـنـفـايـ فـيـ السـوـيـفـادـونـ إـلـىـ بـغـدـادـ، سـكـنـتـ مـشـتـمـلاـ صـغـيرـاـ أـجـرـهـ لـيـ "بـدـيعـ"، اـبـنـ شـقـيقـيـ، كـانـ مـلـاـصـقـاـ لـبـيـتـهـ فـيـ الـحـارـثـيـةـ، بـعـدـ أـكـثـرـ مـنـ شـهـرـ لـسـكـنـيـ

هناك، جاءتني زوجة بديع تقول:

- هناك جارة لنا؛ عندما عرفت مني إنك قادم من السويد؛ سألتني إن كانت تستطيع مقابلتك لبعض الاستفسارات!

عرفت أنها تسكن وحيدة مع خادمتها في البيت الفخم المقابل الشبيه بقصر، والمحاط بحدائق كثيفة واسعة، دعتها إلى البيت وجلسنا معاً. كانت قد تجاوزت الستين، لكنها ما زالت جميلة، بل فاتنة، أنيقة ومحترمة. سألتني إذا كنت أعرف كاتباً أو صحفياً، ويعيش في السويد منذ زمن طويل، وأعطيتني اسمك، قلت لها:

- نعم أعرفه، وقد عشنا معاً في مدينة واحدة في السويد لسنوات عديدة، لكننا افترقنا عندما انتقلت للعمل في مدينة أخرى!

- كيف هي صحته وأحواله؟

- عموماً جيدة، هو يعاني كأي منفي مثلنا أمراضًا مزمنة؛ ضغط وسكري وكآبة، أمراض تعایشنا معها، وصادقناها!

ظلت تتأملني وتدير نظراتها، شعرت أن شيئاً يشغلها، بعد دقائق سألتني بلهفة مكتومة:

- هل هو متزوج؟

- حتى افترacci عنه قبل خمس سنوات لم يكن متزوجاً، ولا أظنه قد تزوج، فهو متمسك بعزوبيته، عاش وحيداً متبلاً طيلة حياته في السويد!

كدت أضيف."أعتقد ثمة مأساة عاطفية في حياته"، فقد دار في خلدي سريعاً أن هذه المرأة هي سر عزوفك عن الزواج، لكنني أحرجت! انفرجت أساريرها الحزينة. شعرت بأن وجهها ازداد جمالاً، وبدت أكثر اندفاعاً في الحديث، كانت صريحة، طلقة بعد أن انفتح بيتنا الحديث، ولم تحف إنها كانت تربطها بك علاقة حب، مضيفة:

- لقد عاكست حبنا الظروف، سوء فهم كثير، أرجو أن تساعدني للقاءه! عرفت أن اسمها عواطف، فقدت زوجها الضابط بعد سنة ونصف من

زواجها، لم يقتل في أي من الحروب الكثيرة التي طاحت العراق، وإنما في حادث سيارة على الطريق السريع قرب بغداد، كان ذلك منذ ما يقرب من ربع قرن، كنت أنت في الخارج، ليس لديها أبناء، ولم تتزوج ثانية، وبعد سنوات من ترملها بدأت البحث عنك هنا وهناك:

- بحثت عنه كثيرا، لم أهتم لعائلته، الناس هنا كما ترى، تحذر، وتخاف الحديث عن المختفين أو الغائبين، وهو كما كنت أعرف كانت له أنشطة سياسية معارضة، ومع ذلك ذهب إلى صديق له يعمل حراسا في بيت الآثاريين، لم أجده. أخبروني إنه ترك العمل في البيت! كل ما عرفه عنه أنه غادر العراق، وبعد سقوط الحكم السابق، ومجيء أناس من الخارج، علمت من بعضهم إنه في السويد، لكن لا أحد منهم يعرف عنوانه بالضبط! فرحت كثيرا حين قلت لها:

- سمعت إنه عاد، لكنني لم ألتقط به هنا حتى الآن، ولا أدرى إن كان ما يزال في العراق، سأبذل ما أستطيع للبحث عنه!

كان أحد معارفنا قد قال لي إنك كنت معه في الطائرة القادمة إلى بغداد، وقد تحدثنا بشكل عابر ولم يعرف منك أين ستقيم، وكم ستبقى. أحزنني حكايتها، وأفرحتني أيضا. صرت أقول في نفسي ربما لا يوجد نبأ مفرح في الدنيا أعظم من أن تأتي إلى شخص وتقول له "هناك من يحبك، أو كان يحبك، ويبحث عنك" فكيف إذا كان امرأة على هذا القدر العظيم من الوفاء والجمال، رغم تقدمها في العمر. خمنت عمرها، لا استناداً للامتحنا التي ما تزال حيوية، جذابة، بل من علاقتها بك أنت وقد غادرت العراق قبل حوالي ثلاثة عاما، ورثيت لحالها أو حالك حين ستلقاءك فأنت حسب آخر لقاء بيننا بدت لي شيخا متهدما، أبيض شعرك، وتساقط معظمه، وامتلا وجهك بالتجاعيد، وبذلت نحيلها حزينا، لكنك كعهدك بك دائماً مشرق الوجه خفيف الظل أقرب لروح هائمة، بشباب جميلة أنيقة. قررت أن أتأكد أولاً إذا كنت قد عدت إلى السويد، لكن من اتصلت بهم في السويد قالوا إنهم

لا يعرفون شيئاً عنك، ولا يعرفون أين تذهب أو تجيء، وكما تعودت أنت منهم، انتقدوك على عزتك، واتهموك بالتعالي على الآخرين، فلم أفرهم على رأيهم، وكما تعرف؛ كنت دائماً متوجساً من أغلب علاقاتنا ك العراقيين في الخارج المخربة بصراعات تافهة، وسوء الفهم والتوايا. زادتها تفاصلاً في الآونة الأخيرة الشروخ الطائفية والقومية. فأنا رغم الجفوة التي حصلت بيننا وانتقلت إلى مدينة يتبروري، لم أنس يوماً أنني عاشرتك سنوات طويلة. كنت الأقرب إلي، كما أنا أعتقد إنني كنت الأقرب إليك، فقد التقينا على حب الثقافة والإبداع وهموم اليسار المنكسر، وأحلام الوطن الضائعة. كنت أتفق معك أن ما حصل من كوارث لشعبنا وما نعيشه اليوم من مأساة تقع جريراً لها على الحاكمين والمعارضين معاً! وكنت أحس بعمق أحزank، رغم إنك لم تحدثني عن حبك القديم الكبير، وهو أنا أعرفه الآن فقط من عواطف، لكنني كنت أقدر أن صمتك وشروعك وعزوفك عن الزواج، أو علاقة عاطفية عابرة مع نساء جميلات اعترضن طريقك، كان وراءه جرح حب نازف مع الزمن! واليوم وقد رأيت حبيتك عواطف هذه المرأة الجميلة الطيبة، أقول أن قلبك لم يكن مخطئاً حيث توقف عندها لا يريد تجاوزها، وإنك محق حين كنت تحجم عن النطق باسمها، وترتباً كلما تحدثنا عن حبيبات الماضي، ومواجه الحب! على كل حال، حكاية عواطف معك اليوم زادتني قناعة أن الحب الأول للإنسان هو الحب الأخير حقاً. اتصلت تلفونياً بالرجل المدعى أبو رافدين كنت أعرف كما أنت تعرف إنه متحجر المشاعر بليد لا يطاق، والأدهى أنه رفع اليوم راية الطائفية بعد أن كان يلوح برؤية الأممية، من أجل صفقاته المالية في بغداد، وإنه لا يرتاح لك كما أنت لا ترتاح له، لكنني مضطر للاستفسار منه عنك فهو كما أعلم يعيش معك في نفس المدينة أو دفالاً، بل وفي نفس العمارة، وهو متبع لأخبار العراقيين، قال:

- لقد تركت أو دفالاً وانتقلت إلى ترولهتان، هذه مدينة تجارية نشطة..! وراح يحدثني عن صفقاته التجارية مكتفياً بالقول عنك "لا أعرف عنه

شيئاً، تعرف إنه انعزالي" ثم عاد يتحدث عن تجارتة وأخيراً سألني كم سعر الرز البسمتي الآن في العراق؟  
صمت لحظة، كعادته حين يلوي الأمور:  
ـ أنا الذي أريد أن أسألك، هل صحيح ما سمعته، إنه قتل في العراق في انفجار شارع المتنبي؟!  
دهشت، وغاص قلبي:  
ـ لأول مرة أسمع بما تقول، أرجو منك أن تكلف نفسك السفر إلى أودفالا، لتسأل عنه، وتتحري إذا اقضى الأمر من استعلامات البلدية!  
وعدنى أن يقوم بذلك، لكنني وكما توقعت كلما اتصلت به أجده يتعلل بمشاغله التجارية:  
ـ إذا كان قد مات في العراق؛ من يتطلع لإخبار السويديين بموته؟ وإذا كان قد أعطى لأحد وكالة على حسابه المصرفي حيث يتجمع راتبه التقاعدي فقد يجد أن من مصلحته التكتم على خبر وفاته، فلا يبلغ السلطات عنها. أحاديث سخيفة يستطرد بها دائمًا، دون أن ينسى سؤاله: لو تمر على وزارة التجارة وتسألهما ماذا نستطيع أن نصدر لهم من السويد للحصة التموينية؟ هو لا يشبع من صفقاته، فتركته!

سمعت أنت في حينها طبعاً بالانفجار الإرهابي في شارع المتنبي ببغداد، وعرفت أن أكثر من مائة شخص، قتل أو جرح فيه. صاحب مقهى الشابندر الكائن في مدخل الشارع فقد أبناءه الأربعة، وحفيده الصبي الصغير. تهدمت أغلب بناءات الشارع واحتراقت مكتباته ومخازنه، ومطابعه التي خرجت منها أقدم وأهم الصحف. وقع الانفجار يوم 5 آذار 2007؛ تذكرت أنك عدت إلى العراق في شباط من نفس العام. هذا يجعل ما قاله محتملاً. تألمت كثيراً، وأخذ يساورني القلق! ظلت عواطف تردد علينا مستفسرة، ولم أقل لها بما سمعت. لم أفقد أملـي أنك حـي، وما تزال في العراق. وكما تعرف يصعب التجوال في بغداد، فالانفجارات والاغتيالات الطائفية، والانتقام الشخصـي،

ومن أجل المال تتوالى وتتزايد، ولكن لا بد لي من الذهاب إلى شارعي الرشيد، والمتيني، وسط بغداد. لا مكان أهم منهم لبدء رحلتي في البحث عنك. أكثر من سألتهم في مقاهي شارع الرشيد، والمتيني قالوا إنهم لم يروك منذ رحيلك، ولا يعرفون إن كنت قد عدت إلى بغداد، وصاروا هم يسألونني عنك، أين تعيش؟ ولماذا لم يقرءوا لك شيئاً منذ وقت طويل! وجدت شارع المتيني لا يزال مهدهما، تكسو جدرانه المحترقة وأعمدته المائلة المشروخة اثر الانفجار طبقات سود من الدخان والأوساخ. دهشت إذا وجدت أن الحاج محمد الخشالي الذي طال الانفجار مقهاه ونكب بفقد أبنائه وحفيديه ثم زوجته أثر صدمتها الأليمة، قد أعاد إصلاح مقهاه وفتحها لروادها من الكتاب والصحفيين والمثقفين، والمتقاعدين، ووضع لافتة لها (مقهى الشهداء). كان يتسم بحزن، وجهه الأسمر الأشيب ما يزال مفعماً بالقصوة والإصرار على مواصلة الحياة. بالطبع يصعب عليه أن يتذكرنا نحن رواد مقهاه الذين هاجروا دون عودة قبل سنين طويلة. كانت لي وأصحابي ذكريات غالبة في مقهاه، فقد شهد أحلامنا وأمالنا لحظات تحطمها وتلاشيها، أتذكرة؟ كنا قد التقينا لأول مرة في هذا المقهى؟ وبنينا أساس صداقتنا التي تواصلت لسنوات عديدة في السويد، ثم تسلل إليها ثلج وظلام المكان وتسنم أمزجتنا رغم اغما عننا. اليوم ألتقي في المقهى بأصدقاء قدامى تذكرتهم وهم قد نسوني. وبآخرين تذكرونني، وكنت قد نسيتهم، كلا الحالتين جرحت قلبي، بعضهم قال لي إنه كان يعتقد إبني قتلت خلال حملات الاعتقالات والإعدامات السريعة واللاحقات التي شنها النظام السابق على الشيوعيين واليساريين وأنصارهم قبل ثلاثين عاماً. في هذا المقهى أحسست إبني في محراب كبير تعلق فيه الصلوات على شكل ذكريات جارحة، وحسرات، ولحظات صمت ووجوم. أسئلة وتعليقات وعتاب وأحكام تتراوح بين الجائرة والجائرة. كان الحاج الخشالي قد وضع صور أبنائه الأربع وحفيداته، بجانبه حيث يجلس وراء طاولته الخاصة قريباً من باب المقهى. لم أره في صورهم وراء الزجاج، بل

رحت أراهم من وراء ضباب أيامنا ونحن في أيام شبابنا، نتناول من أيديهم؛  
وهم صبيان أقداح الشاي. لم نكن آنذاك تحت أفعى الكوابيس يمكن أن  
نتصور ما جرى لهم ولنا اليوم. بماذا كنا نفكرون خطط ونعمل ونحن في  
هوس عملنا الحزبي والسياسي في تلك الأيام؟ وماذا يغير من الأمر أن  
أجدك، وأجعلك تلتقي بحبيبك؟ عن أي حب تتحدث في هذا الجو الرهيب  
من الأحقاد والدماء المتفجرة؟ بعض رواد المقهى تعرفت عليهم، وتعرفوا  
عليّ بصعوبة وبعد توهם كما يقال. كان الجدل حد اللغط يتواصل بين من  
أعرفهم ومن لا أعرفهم، أحد الذين قال إنه يعرفني من أوائل السبعينات وكان  
يساريا آنذاك سمعته يتحدث، بصوت حاد:

- أي قلوب متوجهة يحملها هؤلاء الإرهابيون ليفجروا شارعا مزدحما  
بالناس المسالمين، ولا وجود فيه للأميريكان أو رجال الحكومة. حقنونهم  
بهرمون الشبق لحوريات جنة صنعواها على مقاساتهم، حولوا جنتهم إلى  
حي للدعارة. هؤلاء لا مكان لهم في جنة الله!

يسكت برها ينفث دخان سيجارته، ويُسحق عقبها بيد ترتجف غضبا:  
لا يمكن لذى ضمير أن يبرئهم، لكن بنفس الوقت لا يرى الذين حولوا  
هذا الشارع إلى وكالة للإيرانيين يطلقون منها كتابا تطبع في "قم" تستفز  
أتباع المذهب الآخر، تحرف دينهم، وتشتم أصحاب الرسول، وألافا من  
الصور لخامنائي وخامنائي توزع مجانا هنا وهناك. كيف يتحمل من قتل  
ابنه في الحرب التي بدأها صدام، وأطالها الخميني لثمانية سنوات أن يرى  
صور قتلة ابنه تطالعه حينما أدار وجهه؟ كيف لا يتحول إلى حاضن أو  
مساعد للإرهابيين؟

ثمة رجل كان يجلس على يمينه، يفصله عنه رجلان جلسَا صامتين  
يصفيان بهوم، رد عليه بحدة ونرق:  
- أنت تبرر للقتلة!

رد وهو يكاد يختنق من جفاف ريقه وسحب الدخان:

- أنا لا أبرر للإرهابيين خستهم ونذالتهم، لكنني بنفس الوقت لا أغفل عن خسارة ونذالة من يستفزهم ويهاجمهم لقتل الأبرياء ولمصلحة دولة أخرى؟ صاح آخر من بعيد:

- أنت تستتر على السعودية وتركيا وقطر، هم الذين يدفعون الإرهابيين إلينا! وجدت إن الحديث المتواتر قد جر الجلسة لعراد وشيك؛ ملت على رجل آخر كان قد قال لي أنه كان صديقي في السبعينات ولم أتذكره، وقال إنه رأك في هذا المقهى قبل أشهر:

- متى رأيته؟ قبل التفجير أم بعده؟  
وإذا به ينفجر أيضاً في وجهي منفعلًا:

- والله انت بطران. شمدريني، ليش أنا أدرى بنفسي هسه إذا كنت آني ميت بالتفجير، بس دامشي من الضيم، لو بعدني حي؟ صدك لو كالوا أوربا خربت عقولكم، عمي احنا دايختين، خلينا بحالنا!

بقيت أنظر إليه مندهشاً، ماذا أقول له؟ سمعت كثيراً كيف إن الظروف العصبية أنهكت عقول الكثيرين هنا، وأفقدت البعض توازنهم، لم يسعني سوى أن ألقى عليه نظرة، أسى ورثاء، فهو لم يستطيع أن يتماسك مثل آخرين وجدتهم على طبيتهم وبساطتهم القديمة. أشاح عنني واشتbeck بالنقاش الحامي الدائر حول الإرهابيين ومن يدفعهم ويمولهم. ثمة شاب كان يرقينا وكان يجلس قدامي على تخت تراص في الجالسون، وجهه كلامه لي قائلاً:

- بعد أن تباعد دخان وغبار التفجير، وما إطفاء الحرائق، ظهرت عشرات الجثث محروقة مشوهه ولا يمكن التعرف على أصحابها، كثير منها بقيت في الثلاجات أيامًا دون أن يراجع عليها أحد، قد يكون صاحبك بينهم؟ الجثث التي لم يأت ذووها، دفنت من قبل أمانة العاصمة!

ما هذا؟ لا يسعني سوى التسليم أنك قتلت في هذا التفجير، أو في أفضل الأحوال صرت بين المفقودين مجهولي المصير. بدا أن الجدل حول الإرهابيين ومن يصنع ظروف وأسباب الإرهاب قد تحول إلى عراك، وشتائم،

وتعالت أصوات كثيرة من شتى التخوت، هذا يقول "إيران هي التي تنظمهم وتمويلهم لمزيد من الانتقام ولحرق الطائفة الأخرى، ومد نفوذها على المنطقة"، وذاك يصبح بوجهه: "بل هي السعودية وتركيا قطر ومن يرتبطون بهم، المال والفكر منهمما، لماذا تذكر؟". فنهضت بصعوبة، كان أعضائي بمعشرة، وقفـت أدفع حسابي، وأتأمل وجه هذا الشيخ الذي فقد أولاده وحفـيدـه ولم يـخلـ عن هـمـتهـ فيـ العملـ، وفيـ المـكانـ الـذـيـ اـسـتـشـهـدـواـ فـيـهـ. خـرـجـتـ وأـصـوـاتـ الـمـتـجـادـلـينـ تـلـلـعـ فـيـ رـأـسـيـ، وـأـنـاـ أـهـمـسـ فـيـ نـفـسـيـ، يـاـ لـنـاـ مـنـ مـغـفـلـيـنـ أوـ مـغـالـطـيـنـ، بـعـدـ كـلـ هـذـهـ السـنـوـاتـ، وـكـلـ هـذـهـ السـيـوـلـ الـجـارـفـةـ مـنـ الدـمـاءـ حـتـىـ الـآنـ، لـمـ نـعـرـفـ مـنـ هـمـ أـعـدـاؤـنـاـ! كـمـ نـحـاجـ مـنـ وـقـتـ لـنـعـدـ أـنـفـسـنـاـ، وـنـتـصـدـىـ لـهـمـ؟ وـمـاـذـاـ تـبـقـىـ مـنـ أـعـمـارـنـاـ؟ قـطـعـتـ شـارـعـ المـتـبـنيـ حـتـىـ نـهـاـيـةـ الـمـفـضـيـةـ لـشـارـعـ الرـشـيدـ، تـأـخـذـنـيـ تـأـمـلـاتـ هـيـ الـأـخـرـىـ كـانـتـ مـشـتـتـةـ غـامـضـةـ، قـرـيبـاـ مـنـ كـوـمـةـ أـحـجـارـ تـوـقـفـ لـيـ تـكـسـيـ مـضـىـ بـيـ إـلـىـ الـحـارـثـيـةـ. لـمـ أـسـتـطـعـ أـنـ تـصـورـ أـنـكـ جـئـتـ مـنـ السـوـيـدـ فـقـطـ لـكـيـ تـمـوـتـ هـنـاـ، وـبـهـذـاـ الشـكـلـ الـمـرـبـعـ. عـدـتـ أـبـعـثـ الـأـمـلـ فـيـ نـفـسـيـ، أـنـ خـبـرـ مـوـتـكـ غـيرـ صـحـيـحـ، قـدـ لـاـ يـكـوـنـ مـخـتـلـقاـ، فـأـنـتـ كـمـ أـعـرـفـ لـكـ أـعـدـاءـ يـكـاـيـدـونـكـ، بلـ رـبـماـ هوـ اـشـتـبـاهـ أوـ خـلـطـ فـيـ الـأـسـمـاءـ أوـ نـقـلـ غـيرـ دـقـيقـ. كـلـمـاـ رـأـيـتـ نـظـرـاتـ عـوـاطـفـ الصـامـتـةـ وـالـمـتـسـائـلـةـ؛ أـشـعـرـ بـأـلـمـ عـمـيقـ، وـبـالـذـنـبـ أـيـضاـ. بـدـأـتـ أـفـكـرـ: هـلـ إـنـ الـعـرـاقـيـنـ مـمـنـ مـارـسـوـاـ السـيـاسـةـ طـوـيـلـاـ وـأـنـهـواـ لـهـذـهـ الـخـيـبـةـ، يـعـتـرـيـهـمـ نـفـسـ الشـعـورـ، أـنـهـمـ جـمـيعـاـ سـاـهـمـواـ فـيـ هـذـاـ الـدـمـارـ وـالـخـرـابـ الشـامـلـ؟ أـمـ تـرـاهـمـ مـازـالـواـ يـتـحـدـثـونـ عـنـ غـيرـهـمـ فـقـطـ، لـاـ أـدـريـ! بـقـيـتـ لـفـتـرـةـ اـصـبـرـ عـوـاطـفـ بـقـولـيـ ثـمـةـ صـدـيقـ كـانـ قـدـ التـقـىـ بـكـ قـبـلـ فـتـرـةـ قـصـيـرـةـ وـوـعـدـنـيـ بـعـوـانـكـ. بـمـضـيـ الـأـيـامـ كـفـتـ عـوـاطـفـ عـنـ السـؤـالـ، وـحـتـىـ عـنـ التـطـلـعـ فـيـ وـجـهـيـ. رـبـماـ كـيـ لـاـ تـحـرجـنـيـ، وـالتـزـمـنـاـ الصـمتـ. أـحـيـاناـ يـعـتـرـنـيـ يـأـسـ فـأـقـولـ أـنـكـ فـعـلاـ قـدـ رـحـلـتـ عـنـ دـنـيـانـاـ، فـالـمـوـتـيـ وـحـدـهـمـ يـسـتـطـيـعـونـ أـنـ يـفـرـضـوـاـ صـمـتـهـمـ عـلـىـ الـأـحـيـاءـ! لـكـنـ عـوـاطـفـ لـمـ تـتـوـقـفـ عـنـ زـيـارـةـ عـائـلـةـ بـدـيـعـ، وـزـيـارتـهـمـ لـهـاـ، وـصـرـتـ أـنـاـ قـدـرـ الـإـمـكـانـ أـتـحـاشـىـ جـلـسـاتـهـمـ، رـغـمـ إـنـ الـمـرأـةـ

كانت قد كفت عن أي حديث يتعلق بك، لكن مجرد وجودها صار يثير في نفسي ذكرى تحزنني كثيرا.

## وقد يجمع الله الشتتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلقيا

كل ما جئت لتحقيقه في العراق لم استطع أن أنجز منه شيئاً، طلبي في الحصول على تقاعد بعد عمل لسنوات طويلة في مؤسسة الكهرباء عرقلوه طويلاً، فاضطررت لتركه. قضايا عائلية تتعلق بميراث وحقوق أخرى لم تحل ولم يتحقق منها سوى المزيد من التفور والشقاوة العائلي، خيبة أمل في كل شيء. حسنا فعلت، إنني لم أتزوج ولم أورط أبناء معندي في هذا الوجود الملغوم بالظلم والخطأ والتفاهة. صار السمّ والفراغ ينخر أيامي في بلدي الذي تحملت الغربة حالما بعملنا جميعاً على بنائه وجعله سعيداً متطرداً. لكن قوى هائلة منعتنا وصدتنا بعيداً! بدأت أتهيأ للعودة إلى السويد، كنت قد حدثت بديع عن رغبتي في الحصول على بعض "الكماء"، أحمله معندي لأعد منه طبخة نادرة ستسر بعض أصدقائي العراقيين والسويديين ممن كنت حدثتهم عنه. وكيف إنه يتكون في صحارينا بكثرة، وبياع بأسعار معقولة بينما هو في أوربا يعادل وزنه ذهباً. أخذني بديع بسيارته إلى الشارع العريض الذي يدخل بغداد ممتداً من بادية الشام، قال هناك سنجد الكثير من يبيعون الكماء في بسطات على الطريق، وجدنا الكثير من الباعة يعرضونه في أكواخ مصنفة مرة حسب جنسه الأبيض ذكور، والأسود إناث، هكذا قالوا، ثم حسب حجمه. وقفنا عند بسطة، كان الكماء عليها جيداً، طازجاً ومكتنزاً، لكن البائع الشاب البدين يلف حزاماً عريضاً على دشداشته، كان نرقاً، لهجته منفرة، كنت على وشك تجاوزه عندما سمعت صوتاً من خلفي ينادي:

- ضع لي كيلو من هذا

اجذبني الصوت، فلم يكن غريباً عليّ، وتلفت، وإذا بي أمامك، أنت كاملاً صحيحاً معافى، كم كانت فرحتي عظيمة، ورحت تنظر إلي حزيناً متعباً،

احتضنتك، لم تقابلني بنفس الحرارة، لا يعود ذلك لجفوتنا الأخيرة، بل هذا هو مزاجك الحزين الهدائى، والإحباط هنا كثير، وقد زادك عزوفا عن الناس والأشياء. ثم أنت لم تكن تصورتني كما تصورتك ميتا وقد عاد إلى الحياة، كيف لا تستقبلك بلهفة وفرح؟ ورحت أردد دونوعي: أين أنت؟ الدنيا كلها تنتظرك! رحت تتلفت غير مدرك طبعا ما أقصد! قلت لي "أنا هنا يا صديقي منذ أشهر" ورحنا نتحدث ضاحكين مدخرا مفاجأة لك، شعرت بسعادة لم أجدها طيلة مكوثي في بغداد. ربما هي لحظة الفرح الوحيدة التي عشتها في خضم الآلام، أن أستعيدك، صديقا طيبا، من يد الموت، فكنت أنت على طريقتك الصامتة ودوذا فرحا باللقاء، احتملنا نزق البائع بمرح، قلت لك ضاحكا:

- لو كنت أعلم إننا سنلتقي عند الكما؟ لقطعت الصحراء كلها أجمع الكما؟  
ضحكتنا بفرح، عرفتكم على بديع. لم تكن معك سيارة، كما كنت في حياتك في السويد، أصر على أن يوصلك إلى بيتك بسيارته قائلا: "سعدت بمعرفتك وعمي بحث عنك طويلا، كنا قلقين عليك". بقيت أتحين اللحظة المناسبة لأزف له الخبر السعيد، ونحن نتجه إلى السيارة في منعطف هادئ من الشارع، سألك:

- هل أنت مثلي تزمع العودة إلى السويد، لذلك جئت تشتري الكما؟  
جاعني صوتك هامسا حزينا:

- قررت أن أبقى، لا أريد أن أترك أختي العجوز لوحدها.  
ملت علي وهمست كطفل:

- عدت للكتابة، أنجذت رواية، وأتمنى أن تقرأها وأعرف رأيك بها!  
وأنا لدى لك مفاجأة سارة أخرى وعظيمة!

- توقفت عن السير، بقيت تحدق في وجهي،  
ماذا؟

- امرأة اسمها عواطف تبحث عنك!

أشرق وجهك؛ كما لوال سلط عليه ضوء، بقيت تنظر في وجهي غير مصدق:

- هل حقا هي عواطف؟ عواطف نفسها؟  
وصرت أداعبك:

- لا أدرى! عليك أن تراها بنفسك، وعليك أن تسرع؟ قل لي كم عواطف كانت لديك؟

الخبر أشعلك، صنعتك من جديد، أقبلت علي تحضتنني وتقبلني، أنت الذي أعرفك في السويد ساكناً متحفظاً بارداً، صرت هذه اللحظة في غروب الشمس متحرقاً، رحت تسألني:

في السيارة اشتراك معك بدبيع في حديث عن عواطف، وكنت تطرح السؤال تلو الآخر، قبل أن نكمل الإجابة، اغتنمت لحظة صمت منك قلت:

- أستغل الوقت، لا تضيعه كما ضيعناه سابقاً، ستعرف كل شيء، أريد أن أسألك أين كنت حين وقع تفجير شارع المتنبي؟  
- لماذا تسأل عن ذلك؟

- لو تدري كم عشت من كوابيس حين أعلموني أنك مت في هذا الانفجار!  
ندت منك آهة قصيرة:

- قد لا تصدق لو قلت لك كان بيني وبينه مسار دقيقة واحدة، كنت عند باب الجامعة المستنصرية القديمة؛ حين دوى الانفجار، فاحسست بالأرض تهتز تحتي، وكدت اسقط!

- يبدو أن من قال أنك مت في الانفجار لم يتحدث عن وهم أو اختلاق، ربما رأك متوجهها إلى هناك فظننك وصلت مع الانفجار!

ران علينا صمت، وظللت السيارة تتلوى بين الطرق المحفورة إثر تساقط قنابل أو انفجار ألغام، مليئة بالماء والأوحال، أوصلناك إلى بيتك، أصررت أن ندخل معك البيت، لكن بدبيع اعتذر منك:  
- لا يخفى عليك الأوضاع لا تحتمل أن تتأخر!

تبادلنا أرقام التلفونات وأكدنا إن لقاءنا سيكون قريبة وسيتواصل، قلت  
صاحبها:

- لن أدعك تعود إلى السويد!
- الآن بدأت زيارتي لبغداد!

عندما تحركت السيارة، رأيت بكى، وأنت عند الباب تلوح لنا، ومع ذلك؛ صرت بمزاج طيب لم أعهد لك من قبل! بينما كانت السيارة منطلقة، وهواء الربيع في الشارع الفسيح يتغلغل في صدري، فتح بديع كاسيت السيارة، كان مغرماً بمقامات يوسف عمر، انبعث صوت يوسف الشجاعي الذي يفت الصخر: وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس والليل خالياً قصيدة قيس ابن الملوح مجنون ليلى، أحسست عيني تغزو قان بالدموع. لحظ بديع ذلك، مد يده إلى المسجلة ليوقفها، قلت له دعه دعه أرجوك، وتواصل الغناء:

قضها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلاني  
هذا شهور الصيف عنا قد انقضت فما للنوى ترمي بليلى المراميا!  
وقد يجمع الله الشتتين بعدهما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا  
ورحت في صمت، تركت قلبي يبكي مع اللحن القديم حتى نهايته،  
وسمعت بديع يقول: وصلنا، نزلت من السيارة وأنا أفكر، الآن لدى خبر  
سار جداً لعواطف! تولت سامية زوجة بديع إيصاله إليها، مع رقم تلفونك.  
التيقىما لوحدكما، لا أستطيع تصور لقاء حبيبين بعد فراق دام حوالي ثلاثة  
عاماً ولا أريد أن أجاذف في توقع تفاصيله، حتى لو كنت أنا من يلتقي حبيبه  
بعد هذا الزمن الطويل، لما استطعت الحديث عنه، ولو بكلمة واحدة! دعا كما  
بديع إلى بيته على الغداء حيث اجتمعنا معاً، كانت جلسة سعيدة هائمة، ظلال  
الحزن الطويل لم تنسحب عن وجهيكما رغم فرحة كما العميق، سلمتني قرص  
رواياتك التي حدثني عنها. تركتكما لحالكما، أيقنت أن دوري قد انتهى ولا  
ينبغي أن أتطفل عليكم، رغم إني غيرت موعد عودتي! بعد أيام قليلة خابرتني

وطلبت لقائي، خشيت أن يكون قد وقع شيء بينك وعواطف! لكتني فكرت ربما إنك قلق تريد أن تعرف رأي بروايتك، كنت قد قرأتها، استمتعت بها حقا، وسجلت ملاحظاتي عنها، أعرف أنك لا تتحسس من النقد، بل تحبذه وتعده حاجة وضرورة، وشاركتني الرأي أن أحد مصاعب مشكلات الإبداع في بلادنا هو عدم وجود نقاد جادين، مثابرين يرافقونه! التقينا كما تذكر في مقهى بالمنصور، على أقداح الشاي المر؛ فكلانا نعاني من السكر: سرت إذ وجدتك فرحا طليقا، على وجهك رواء الشباب كأنك عدت ثلاثين عاما نحو الصبا والتصابي! تغيرت ملابسك، وغدت زاهية مبهргة بعد أن كانت غامقة رصينة، وجهك حليم يلمع، وكأنما اختفت تجاعيده، وليس كما كان نابتنا أياض دائما! ذلك أفرحني وأضحكني. أعلمتنى إنكما ستتزوجان، وتریديني أن احضر شاهدا على عقد الزواج، وحدثنى عن مكان موعد حفل الزواج البسيط وتحاشينا أن نسميه عرسا أو فرحا والأحزان حولنا في كل مكان! شكرتني وقلت لي "لك الفضل في سعادتنا" قلت لك: "الفضل أولا وأخير للقلب الإنساني إذا امتلا بالوفاء والصدق. أنت وعواطف خلقتما لتعيشا معا، هذا كل شيء" حدثتني أنك قلت لعواطف لا شرط لديك سوى أن تعيشا من راتبك التقاعدي السويدي، وأن تبقى ترعى شقيقتك كذى قبل، فوافقت. لكنها اشترطت أن لا تترك بيتها الكبير، فيه حديقة زرعتها بما تحب من زهور وشجر، وكلب وقطة ودواجن فاحترمت رغبتها! قلت لك لقد أجلت موعد سفري لأسمع هذا النبأ المفرح. قلت لي ربناه ليكون قبل سفرك! أعلمتك إبني قرأت الرواية واستمتعت بها، أنت برأيي لم تخطئ حين شغلت نفسك بذكريات الأربعينيات بغداد، هربت من بغداد اليوم، إلى بغداد التي كانت! لا هرب لنا من العراق، إلا إلى العراق، لم تعد تريد الهرب إلى بلد آخر، تحدثت أنت بصوت ما زال حزينا رغم الحدث السعيد الجديد:

- بعد أن ذقت المنفى، لا أريد أن أموت فيه، كثيرون يعتقدون أن السويد جنة، الناس يأخذون فيه النقود من جدار على الطريق، هي على كل حال

منفى، والمنفى أقسى من الموت. كنت أنت تعمل في شركة تقطع الأخشاب من الغابات لمعمل ينبع التوابل، كنت تقول لي لا أدرى أية شجرة أقطعها سيصنع منها تابوتاً أنسنت؟ كم تابوتاً صنعت لنفسك من هذه الأخشاب طيلة هذه السنين؟ قلت لك، هنا كدت تموت في انفجار المتنبي، وإذا نجوت مرة قد لا تنجو في الأخرى، وكثيرون هنا خاصة بين المثقفين يكرهوننا، يسموننا أهل الخارج. كان هنا ثمة خنوع وتدليس كثير، نحن تفهمنا ظروفهم، ولم ننشأ محاسبتهم، وهم لم يفهموا ظروفنا، ومصرون على محاسبتنا، هم يريدون تغطية ذنبهم بذنبينا، ربما ذنبينا جميراً أو هاماً، ربما ذنبهم أكثر، ربما ذنبينا أكثر، لندع الحساب، وننظر للمستقبل!

- أنا أزمت العزلة، ليكرهني كل هؤلاء، أنا لن أكره أحداً هنا حياتي كلها ستكون لحبيتي ولشقيقتي، فكرنا أنا وعواطف أن نتبني طفلاً أو طفلين من يتامي الحروب والإرهاب!

صمت برهة اتخذ وجهك، هيئة جادة بل صارمة:  
- قرأت عواطف روائيي، وأحبتها، وتمنت أن أواصل كتابة الرواية لكنني أبلغتها إنني سأتوقف عن الكتابة. هذا آخر عمل لي!  
سألتك مندهشاً لماذا؟ ورحت تتحدث بصوت فيه رعشة غريبة لم آلفها فيك من قبل:

- أتعرف ما الذي جعلني أفقد عواطف في مطلع شبابي؟ إنها هموم المعرفة والبحث والتأمل والكتابة، أريد أن أنصرف الآن لعواطف وحدها بعد الآن، لا قراءة ولا كتابة ولا نشر، لا شيء سوى التأمل والموسيقى والتطلع إلى وجه حبيبي، وتقبيل يديها ووجهها وقدميها أيضاً!  
أخذت أطلع إليك، بصراحة داخلكني شعور أن ثمة لوثة قد دخلتك، لكنك مضيت تقول:

- لقد فقدت هذه المرأة الرائعة بسبب ثرثري بالأفكار والسياسة والأثار

وغيرها من الخزعبلات، والآن لا أريد أن أفقدها مرة أخرى! هنا بعد عودتي لوطني فارقته ثمانية وعشرين عاماً، حجرت نفسي أشهراً، أكتب رواية عن أجاثا كريستي وماكس مالوان وثيسجر، وبنت المعيدي، بينما عواطف تبحث عنِّي، ولا أعلم، وقد غمرني اليأس من لقائهما تماماً! صفت لحظة، جف ريقك فحملت قنينة الماء ورحت تشرب من فمه، رغم وجود قدح أمامك:

- كنت أعاني واجمع تجاري وخبراتي منذ شبابي، فضيغت حبيبتي وحياتي كلها، ما هذا؟ أليس الكتابة ضرب من الجنون، نعاني ونشقى ونفني أعمارنا ونفسد حياة عوائلنا وأحبتنا، ثم يأتي من يحرض علينا لقتلنا، أو لسجتنا أو إزاحتنا للمنافي، وفي أفضل الأحوال يضحك علينا ويصفه ما نكتب، ويتخذه دليلاً على جنوننا أو فشلنا؟

- ولكن هناك من يقدر الإبداع والمبدعين، ويصفي لكلمتهما، لا تيأس! ثم ستكون الحياة قاسية عليك دون كتابة؛ فأنا مذ عرفتك؛ لا شيء في حياتك سوى الكتب والقلم والأوراق!

- الآن قررت أن أكف عن كل هذا، قلت لعواطف؛ لقد كنت على حق قبل أكثر من ثلاثين عاماً حين هربت مني وأنا أدور بين التمايل ومحظيات القبور، الآن قررت أن لا أغفل عنك لحظة واحدة، أريد أن أغضبك عن كل ما فاتنا في زمن خرب نفسه، وخربنا! قالت لي، أنا لن أغضب منك بعد الآن لو قضيت الوقت كله تقف أمام التمايل ورروف الكتب! عودتها لي شيء عظيم لا تعادله كل شهرة أو مجد، ولا حتى الخلود نفسه! لم يتبق في العمر سوى القليل، أريد أن أكرسه لمشاعري! بقيت متغيراً انظر في وجهك، سألتني فجأة كأنك لم تتحدث قبل هنية عن هجر الكتابة كأنك لتوك انتهيت من كتابة الرواية، وفي شك من جدواها:

- ألا ترى أن هذه الرواية بعيدة عن همومنا الراهنة؟ لا، لا، قلت لك على الفور، على العكس إنها في صميم الهم التاريخي الذي نعيشـه، فمن

يحرك الأحداث في عالمنا اليوم هم العدوانيون لا المسلحون، الهدامون لا البناءون، القتلة لا الضحايا، وقد لجأت إلى أحياناً كأفضل قاضية في عصرنا، حيث غاب القضاة، أرجو أن لا تتردد في نشرها! وحذا لو جعلت عنوانها "ظلال قبرة أحياناً كريستي"! قلت متنفضاً: لا، لا، أنغام القيثارة هي لحن ماضينا الحزين، هي النشيد الجنائزي الذي نشيع عليه أحلامنا القديمة إلى مثواها الأخير! ورحت أضحك قائلًا:

- صرت أكثر تشوئماً، بينما بعد لقائك بعواطف ينبغي أن تكون متفائلاً، أجبتني بهدوء، أنا فرح لما هو شخصي، حزين لما هو عام، لا ينبغي تجاهل الحقيقة مهما كانت قاسية! ناولتك ورقة بملحوظاتي، قائلًا، أنا كما تعرف عامل كهرباء اشتغلت في الصحافة مساء، وكنت أحرر صفحة الوفيات، وأحياناً أكتب قصائد قلماً انشرها، من الغريب إنني في السويد عملت في إنتاج خشب التوابيت، ثمة حزن عميق يشدني للكتابة! قلت لي إنك تقدر ذاتك وخبرتي، وإنك، تعترز بملحوظاتي وستأخذ بما ستقتنع به منها! لاحظت إنك أقللت من التدخين، طيلة جلستنا لم تدخن سوى سيجارتين. كنت أرقبك. قلت لك وجود عواطف إلى جانبك سيكون محفزاً لاستعيد قدراتك التي جمدتها ثلوج السويد، وتقديم ما كانا ننتظره منك، رواية ومقالات، فأنت لديك الكثير مما يجب عليك قوله، لكنك لذت بالصمت، ونظراتك تعبر نافذة المقهى الكبير باتجاه فضاء حديقة عامة كبيرة في جوارنا، حدثتك أن روايتك ازدحمت بقصص الحب الكثيرة، حب أحياناً، وماكس، حب ثيسجر لبنت المعيدي، حب الكثيرين لها مع وحشية الضابط الإنجليزي، حب ذلك الطباخ للراحلة في حلب وانتخاره، ربما في كل هذه كنت تحاول لم حطام كأس الماضي الذي كان مترعاً بالحب وهوت به يد غليظة! قلت: وأنا أكتب الرواية كنت أشعر إني لاعب الموت وأشغله عنِّي، فقد كان يخيفني كثيراً، كيف أموت دون أن أراها؟ بعد أن عادت لي عواطف، أشك إني أستطيع أن أكتب شيئاً

جديدا، فالموت لم يعد يخيفني، لماذا أشغله عنِي؟ لأنك قاربي يمضى في هذا النهر المكون من الحب والموت معا مع الكثير من الورد والشوك ينمو على جانبيه! قلت لك ونحن نهم بالنهوض لمغادرة المقهى:

- كنت في الرواية تلعب مع الحب، لا مع الموت، كان الموت غافلا عنك يلعب مع نفسه، كل أبداع هو مراوغة للموت، لذلك فإن عواطف بذكائهما وفطتها لن تدعك تتوقف عن الكتابة لأنها تريده أن تعيش طويلا، وهي أيضا ترفض أن تكون أيقونة للعبادة، لا تنس هي لديها كتب وصديقات وأهل وكلب وقطة ودواجن وأزهار وشجر في الحديقة، وربما طفل أو طفلان!

رحت تبتسم فرحا كطفل وأنت تردد، كيف عرفت؟ هي فعلا كذلك.  
أتذكر ذلك؟

## الكاتب:

مواليد هيـت: محافظة الأنبار 1946

خريـج كلية الحقوق العام 1967

بدأ النـشر في الصـحف العام 1965 وكتب الكـثير من المـقالات والـتحقـيقـات الصـحفـية.

نشر مـجمـوعـته القـصـصـية الأولى (عشـرون قـصـيـرة جـداً) عام 1977  
أـصـدرـت وزـارـة الإـعـلـام العـراـقـية مـجمـوعـته القـصـصـية (زـهـور فـي يـدـ المـومـيـاء)  
بعد مـغـادـرـته البـلـاد وـقد حـذـفـت مـنـها عـدـدـاً مـنـ القـصـصـ والـفـقـراتـ.

أـصـدرـ في المـنـفي الكـتب التـالـية:

صفـارات الإنـذـار مـجمـوعـة قـصـصـ

بعـد مجـيء الطـير مـجمـوعـة قـصـصـ

المـرأـة مـجمـوعـة قـصـصـ

طـفـل السـيـ إنـ إنـ رـوـاـيـة (صـدـرـتـ في بـيـرـوـتـ عن دـارـ الـكـنـوزـ الـأـدـبـيـةـ بـتـقـديـمـ  
عبد الرحمن منيف).

الـتـيـهـ في أـيـسـ مـجمـوعـة قـصـصـ

لـارـا زـهـرـةـ الـبـرـاريـ مـجمـوعـة قـصـصـ

الـانـحـدـارـ روـاـيـةـ

لـيـلـةـ الـهـدـهـدـ روـاـيـةـ

قصـةـ حـبـ لـزـهـرـةـ الـأـورـكـيـدـيـاـ مـجمـوعـة قـصـصـ

أـنـتـ تـشـبـهـ السـيـدـ الـمـسـيـحـ

ترجمت له العديد من القصص إلى لغات مختلفة كالإنجليزية والألمانية والسويدية والروسية والنرويجية والدنماركية وغيرها وبعض قصصه نشرت ضمن كتاب مدرسي مقرر على طلاب المدارس الثانوية في السويد عن أدب الشرق الأوسط.

صدرت له مجموعة قصص مترجمة إلى السويدية بعنوان (أنت تشبه السيد المسيح)

كتاب (محاولة في تحليل المسألة الطائفية في العراق) مجموعة مقالات لديه العديد من الروايات والمجموعات القصصية وكتب المقالات الثقافية والسياسية والتحقيقات الصحفية المعدة للنشر.

عضو اتحاد الأدباء العراقيين منذ عام 1970

عضو اتحاد الكتاب السويديين.

عضو نادي القلم العالمي.

مارس العمل السياسي والثقافي المباشر لعقود طويلة. واضطرب تحت الملاحقة لمغادرة العراق عام 1979 تنقل في المنافي بين الجزائر وвенغاريا واستقر منذ عام 1989 في السويد

نشر مقالاته في العديد من صحف العراقية والعربية التي تصدر في لندن وغيرها من البلدان.

## **العنوان الإلكتروني**

**ibrahimhit@hotmail.com**

**Ibrahimhit2000@yahoo.com**

## هذه الرواية

هي رواية عن الحب والحنين، كل شخصها يبحثون عن الحب، يحدوهم  
وفاء وأمل!

ماكس مالوان عالم الآثار يبحث عن حبيبه أجاانا كريستي كاتبة الروايات  
البوليسية التي احتفت فجأة من فندق في بغداد في الأربعينات من القرن  
العشرين! ولفريد ثيسجر الرحالة الإنجليزي الشهير يبحث عن الفتاة الجميلة  
الفاتنة المسماة بنت المعيدي وموناليزا العراق وقد أحبتها حين رأى صورتها  
في مقهى بيغداد، تأخذه الحيرة والمتاهات بين الحكايات التي تدور حولها  
ويبين الكثرين الذين يريدون أن ينسبوها لهم فهي معدية عربية ، تركمانية،  
كردية ، آشورية! لكنه يقضي زمناً في الأهوار باحثاً عنها بين من سماهم عرب  
الأهوار. والكاتب الذي يعود من المنفى بعد فراق لوطنه استمر قرابة ثلاثة  
عاماً مستذكراً الحب القديم، وحبيبه الحسناء التي هجرته، معتقداً أن كل شيء  
قد انقضى، لكن ما ينهض من رماد الحب والحنين والهجران لا يمكن التكهن  
به! نسيج من علاقات الحب والاشتياق والحزن العميق يتضافر على خلفية من  
التجليلات المثيرة في الربع الخالي ، والخليج العربي، ورمال أسطورة جنة عاد،  
وشواطئ الأهوار وشوارع بغداد ومقاهيها ومكائد السياسة ومشاريعها السرية  
ومواقع الآثار القديمة السومرية والآشورية والأهرامات ولعنة الفراعنة حتى  
أنقام قيثارات الفنون العذرلوات في المقبرة الملكية السومرية! محاولة لنقصي  
روح الشرق وآفاقه المفعمة بالشجن والجمال والحب العميق الذي لا ينتهي؛  
حتى يبدأ من جديد!

ISBN 978-614-01-1943-7



9 786140 119437

هذه رواية  
جميع حقوقها محفوظة على الإنترنت  
في مدينة ليل ويلز، بريطانيا  
[www.nwf.com](http://www.nwf.com)

دار العـرب للنشر والتوزـع  
AL-ARAB PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc.  
[www.asp.com.lb](http://www.asp.com.lb) - [www.aspbooks.com](http://www.aspbooks.com)

